السادات

وهم التحدى

تأليف : جوزيف فينكليستون
ترجمة : عادل عبد الصبور

الناشر
الدار العالمية للكتب والنشر

بعد أن نجح السادات فى أن يكون رئيسا لمصر فى سنة ١٩٧٠ . . كتبت إليه رسالة شخصية .. وتساءلت عدة مرات : ما الذى دفعنى لأن أفعل ذلك ؟ وواقع الأمر ، أننى قد عقدت العزم على أن أنال حظوة لديه واستميله على أمل أن أفوز بلقاء قيم معه ، وكما آملت وتوقعت وجدته شخصية ذات ملامح فريدة تؤهله لأن يتحاور مع إسرائيل .

وانطلاقاً من عملى كمحرر أجنبى من جريدة الخبر اليهودية اللندنية المحترمة ، والتى تقدم خدمات إخبارية قوية ، لاسيما فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط وإسرائيل ، فقد طلبت حقا هذا اللقاء . .

وقد أشرت إلى أنه رغم تأييدنا للمسائل اليهودية المشروعة ، إلا أننا نحاول قدر المستطاع أن نكون منصفين بين كل الأطراف المعنية فى أى مسألة . . وأضفت أنه فى عام سابق دهشت من أن " حمامى ! " الممثل الجديد لمنظمة التحرير الفلسطينية قد عرض نشر مقابلة معه فى الخبر اليهودية ، وفى نفس الوقت ظلت منظمة التحرير الفلسطينية تحت قيادة ياسر عرفات تؤكد على تدمير إسرائيل . . .

وقد تم لحمامى ما أراد رغم تأكيد الصحيفة الرائدة ليهود الدنيا سبورا على أن منح فرصة النشر لمنظمة التحرير الفلسطينية يبدو عملا شأنا ومشبوها لمعظم اليهود . وقد جذب حمامى انتباهى لنفس السبب الذى جعل الرئيس السادات لديه القدرة على التحدث عن السلام بدون اتهام الإسرائيليين بأنهم المجرمون الذين بدأو الحرب أو المغتصبون للآراضى العربية .

وكان حمامى قد قابل عددا من الإسرائيليين المعنيين ، وقدم تفسيرات لغضب الجماعات الإرهابية العربية ، كتلك التى تنتمى لأبى نضال ، والذى لم تمنعه ملامح السلام عن أن يصف الإسرائيليين بالقتلة . .

وبما أننى أخليت له أعمدة فى جريدة يهودية لها سمعتها وشهرتها للتعبير عن وجهات نظره ، فقد كان حمامى شغوفا بمقابلتى ، إلا أنه كان يشعر بأنه واقع فى شبه فخ ، حيث كانت مقابلته للإسرائيليين تتم سرا . . وحينما حان موعد المقابلة . . .

⋆ الســادات (وهم التحدى) .

⋆ تأليف : جوزيف فينكليستون .

⋆ ترجمة : عادل عبد الصبور .

⋆ الطبعة الأولى (١٩٩٩) .

⋆رقم الإيداع (١٦٤٤٦/٩٩) .

⋆ النـاشر : الدار العالمية للكتب والنشر .

مقدمة الناشر

رحم الله الرئيس أنور السادات ، لقد كان بحق أحد الرموز السياسية البارزة فى القرن العشرين ، ومهما تبارت الأقلام وتسابقت فى وصف عبقرية هذا الرجل وإخلاصه لوطنه فلن توفيه حتى النذر اليسير من حقه ، وإذا كان هناك من يدين بعض سياسات وأقوال السادات ، فإن ذلك لا يضارع بأى حال من الأحوال ما قدمه الرجل لوطنه من إنجازات .. وكفى الرجل فخراً أنه غسل عار الأمة الجريحة عبر خوضه معركة العبور العظيم ، وكفاه فخراً أيضاً أنه الذى وضع حجر أساس العملية السلمية فى منطقة الشرق الأوسط .

واليوم ، وفى هذه الحقبة التاريخية بملابساتها العصيبة التى تعيشها أمتنا العربية ، نحن بمسيس الحاجة لاستقراء مدلولات ما يكتبه الآخر عن رمز تاريخى مثل السادات ، ليس لإدراك الكيفية التى يفكر بها هذا الآخر تجاهنا فحسب ، وإنما لبناء استراتيجيات مدروسة ومحسوبة للتعامل معه مستقبلاً .

ومن ثم تضحى قراءة الكتاب الذى بين أيدينا ، والذى كتبه صحفى يهودى مخضرم هو "جوزيف فينكليستون" ، والذى كان يعمل محرراً فى جريدة الخبر اليهودية بلندن ومراسلاً لجريدة معاريف الإسرائيلية ؛ أمراً تحتمه ضرورات ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، لا سيما وإنه يكشف النقاب عن الفصول المجهولة فى حياة شخصية عظيمة كشخصية الرئيس السادات دون خجل أو مواربة ، ورغم أن هذا الكتاب يحوى بين طياته عدد من الأخطاء فى حق السادات أو غيره إلا إنه لا يخلو من الموضوعية والحياد .

فإذا كنت عزيزى القارئ تعرف القليل أو الكثير أو حتى لا تعرف شيئاً عن حياة السادات ، فثق تماماً أنك ستجنى الكثير من الفوائد من قراءة هذا الكتاب .

الناشر ،،

شكر وتقدير

إننى مدين بالفضل لمسئولين كثيرين من إسرائيل ومصر ودول عربية أخرى ، وكذلك لمسئولين من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية على ما قدموه لى من مساعدات فى الكتابة عن واحد من أعقد الشخصيات وأكثرهم تمتعاً بالكاريزما فى التاريخ الحديث ..

كما أتوجه بخالص الشكر إلى " فرانك كاس " الذى وافقنى على فكرة هذا الكتاب دون تعنت . . وكذا أوجه شكرى الى " نورما مارسون " على تحريرها الرائع للكتاب ، والذى إن دل على شئ فإنما يدل على ذكائها وفهمها العميق لموضوعه .

وواقع الحال ، أننى رصدت معظم الأحداث المبوبة فى هذا الكتاب عن قرب عبر زياراتى المتعددة للمنطقة ، وراعيت وجهات النظر المتباينة قدر الإمكان ، ورغم ذلك فإن أى تقصير يؤول إلى . .

ولايفوتنى فى هذا السياق أن أتوجه بالشكر إلى الدكتور " أسامة الباز " المستشار السياسى للرئيس " مبارك " ، وكذلك السيدة " جيهان السادات " . .

كما أسدى شكرى للسادة " ديفيد كمحى " و" مارتن فولار " من قسم البحوث بالمكتب البريطانى للشئون الخارجية والكومنولث والسيد " الكسندر جوليتسين " المستشار الأول للسفارة الروسية بلندن . .

وفوق ذلك ، فإننى مدين بالفضل لكل الذين كتبوا عن " أنور السادات " ، وعلى رأسهم البروفيسور " رفائيل إسرائيلى " فى بحثه الرائع "رجل التحدى .. السيرة الذاتية السياسية لأنور السادات " . . وأيضاً الأستاذ " هيكل " والذى رغم الجدل المثار حول كتبه ، إلا إننى أوافقه فى بعض الآراء .. لاسيما فيما يتعلق بالفترتين الساداتية والناصرية .

وأخيراً ، فإننى استعنت بالعديد من المؤلفات التى أفادتنى كثـيرا ، ومنـهـا علـى سبيل المثال لا الحصر – كتاب جيمى كارتر " مذكرات . . تجديد الثقة " وكتاب موشى ديان " قصة حياتى " . .

وغيرهما الكثير .

المقدمة

عندما التقيت بـ " جيهان السادات " لأول مرة ذُهلت من عزة نفسها وجمالها وتحركاتها الهادئة عبر أرجاء الحجرة . . لقد كانت ترتدى فستانا على الموضة ، من ذلك النوع من الفساتين التى اعتاد بعض المصريين السخرية منها ، على أساس أنها واردات أوروبية غالية الثمن ، وليس هناك أدنى شك فى أن نظرتهم هذه تنم عن أنهم فشلوا فى فهم أن المظهر الأنيق للسيدة " جيهان السادات " هو أساسا ليتواءم وكونها زوجة رئيس مصر . . وفى الحقيقة كانت أقل غرورا من زوجها ، الذى كانت تعاتبه دوماً على ملابسه المفصلة .

والحادث تاريخيا ، أن مصر بعد أن ظلت قرونا طويلة فى ذل ومهانة تحت قسوة القوى العظمى ، خضعت لحكم السادات ، ومع حكم السادات شهدت مصر العديد من المشاكل الضخمة والمعقدة ، والتى جاء فى مقدمتها ، نقص الموارد ، ومحدودية الأراضى الزراعية ، والتكدس السكانى الذى يزداد بمعدل يفوق المليون نسمة سنويا . .

وللخروج من دائرة هذه المشاكل ، أدرك السادات أنه لابد من إبرام – عقد سلام مع الدولة اليهودية ، إذ رأى السادات – وعلى خلاف غيره – صلة وطيدة بين حل المشاكل الداخلية والسلام مع إسرائيل .

وكانت جيهان السادات تفهم – أفضل من أى شخص آخر – الصعوبات التى تواجه زوجها ، ولذا كان عليها أن تكون قوية . . ومازالت كذلك حتى يومنا هذا . . إنها الآن تحاضر بجامعة ميرى لاند بالولايات المتحدة ، وقد انتابتها السعادة حينما قلت لها إننى أكتب سيرة السادات الذاتية ، ولكنها كانت تتساءل عن سر الصداقة التى جمعت بين قائد أكبر دولة عربية وصحفى يعمل بجريدتين يهوديتين بلندن هما : معاريف والخبر اليهودى .

وفى الحقيقة ، إننى كتبت إلى السادات قبل رحلته التاريخية للقدس سنة ١٩٧٧ بعامين ، لإجراء لقاء معه . . حيث إنه فى الوقت الذى قال فيه الآخرون أن السادات هو رجل الحرب كنت أراه رجل السلام ، بل اعتقدت أن هذا هو الرجل الذى

سوف يتحقق السلام على يديه بين العرب واليهود . . وقد أظهر الرجل اهتماما برسالتى معبرا عن تمنيه بأن يتحدث إلى ليشرح لى تصوراته وأفكاره عن العلاقة الجديدة بين العرب واليهود من ناحية ، وبين الإسرائيليين والمصريين من ناحية أخرى ، حتى لقد شعرت بإنه يأخذنى معبراً – من خلال صحافتى – بين الطرفين المتحاربين ، كما ترسخ لدى اعتقاد آخر ، مؤداه أنه يريد أن يقوم بعمل ترضية عن كلماته اللاذعة السابقة بحق اليهود . . ويعتبر هذا الكتاب نتاجاً مباشرا لتلك العلاقة .

إن جيهان السادات كان عليها أن تفهم أساس علاقتى بزوجها ، ولمَ لا وهى نفسها نتاج لثقافتين ، حيث ولدت والدتها بشيفلد بانجلترا ، كما كانت هى تتحدث الإنجليزية بدون تأثر بلهجتها ، فى الوقت الذى كانت فيه لغتها العربية نقية .

إننى أردت أن أسأل جيهان تحديدا عن الأيام الأخيرة لأنور السادات ، وسر قبضه على عدد كبير من المثقفين والمتخصصين وأساتذة الجامعة ، وكيف أن الانتقادات التى وجهت إليه كانت ترجح فقدانه أى أمل لإنجاز أهدافه فى مصر ، وفشله فى مفاوضاته مع الإسرائيليين ، خاصة فيما يتعلق بالحكم الذاتى للفلسطينيين . .

بيد أن جيهان السادات رفضت هذه الرؤية اللاذعة ، والقائلة بأن السادات كان مثبط الهمة . وعولت على أن هذه الاعتقالات كانت ضرورية فى هذا التوقيت بالذات ، ولو لم يتم ذلك لتدهور الموقف بصورة أشد ، ولزادت المشاكل التى كانت تواجهها مصر .

كما ترفض جيهان – رغم ثبوت أن دم السادات قد سفك بواسطة الاسلاميين المتشددين – الاعتقاد الكبير بأن السادات قد اغتيل لأنه رفض إقامة جمهورية إسلامية ، وتقرر أنها متأكدة بنسبة مائة فى المائة من أن زوجها قد قتل لأنه صنع السلام مع إسرائيل . . فسألتها : من إذن المسئول الحقيقى عن موته ؟ من الذى خطط له ؟ من الذى نفذه ؟ هل هو مجرد عمل لجماعة إسلامية صغيرة متشددة ؟ ثم من الذى خطط لاختراق الجيش ؟ هل هو أحد المتطرفين المعروفين من الخارج ؟ ألم

يكن القائد الليبى " معمر القذافى " يكره السادات ؟ ثم ذكرت لها أن الموساد قد حذر السادات من أن القذافى متورط فى مؤامرة لاغتياله ، وقد أخذ السادات هذه التحذيرات باهتمام ، وأخذ التدابير الوقائية تجاه ذلك ، خاصة أن القذافى كان ينظر إلى رغبة السادات فى صنع السلام مع إسرائيل على أنها خيانة . . وأضفت : أليس ذلك منطقيا لأن يتجه المتطرفون الإسلاميون صوب القائد الليبى ليعينهم على خطة الاغتيال ؟ أليس ذلك ممكناً ؟ وأليس ممكناً أيضا أن يكون القذافى ذاته ، ومن خلال عملائه فى مصر ، هو الذى اقترح أن يكون هذا هو الوقت للتخلص من أنور السادات ؟

غاصت جيهان السادات فى التفكير حينما طرحت عليها هذه الأسئلة ، ولكنها لم تبد مندهشة وقالت . . " لا أستطيع أن أجزم بإمكانية أن يكون القذافى وراء مؤامرة اغتيال زوجى " .

قالت ذلك ببطء ، ثم توقفت عن الحديث ، ثم أضافت : " لكن ليس لدى دليل محدد " .

فقلت لها : إن المؤرخين والمحللين السياسيين يكررون السؤال التالى : لماذا وجد المتآمرون سهولة فى اغتيال السادات ؟

فتنهدت جيهان قائلة : إنه الأمن الضعيف الذى أحاط بالعرض العسكرى أثناء الاحتفال بذكرى السادس من أكتوبر سنة ١٩٨٢ . . والذى سمح للسادات بأن يتخذ موضعاً جعله عرضة للقتل ، حتى أنه كان يوجد طرح من قبل بعض المؤرخين مؤداه أن موقعه اختير عن عمد لكى يموت " .

ولاشك أن هذا التصور يمكن دحضه لأول وهلة لأن السادات اعتاد على أن يحيى هذه الذكرى . . ليس مع جيهان وحدها ، وإنما أيضا مع حفيده وهو مرتدٍ زيه التقليدى ، وليس مقتنعاً أن يتمنى السادات الموت فى حضور هؤلاء . . والحقيقة أن السادات قد أزعج وزراءه وموظفيه الرسميين ورؤساء الأمن ، بل وجيهان ذاتها ، بإحجامه عن اتخاذ الاحتياطات المضادة لاغتياله . . لكنه لم يعنفهم وقال لجيهان إنه على يقين من أن المتطرفين مصممون على اغتياله .

وأضافت جيهان : " إننى توسلت إليه أن يكون أكثر اعتناء بأمنه . . كما كانت هناك تقارير مهمة عن مؤامرة اغتيال أنور السادات ، حتى أن وزير الداخلية أرسل شريطا به شخص يتحدث عن اغتيال الرئيس ، لكن زوجى رفض أن يتخذ احتياطات إضافية ، ولم يتراجع عن ركوب السيارة المكشوفة لمقابلة الجماهير ، وأصر على أنه لن يسمح لقلة من المتطرفين بأن يحجبوه عن المواطنين المصريين " . .

ثم تحدثت جيهان عن أن الفلسطينيين والمنتقدين السابقين للسادات قد أدركوا الآن أنه كان على حق وأنهم كانوا على خطأ ، نعم لقد أدركوا أنه حان الوقت لإلقاء السلاح وإعلاء السلام ، وأنه بدون أنور السادات ومبادرته الشجاعة لم يكن ثمة اتفاق بين إسرائيل وياسرعرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، ذلك الاتفاق الذى قالت جيهان فى شأنه : " بدون سياسة أنور السادات لم يكن ممكناً أن يتم شىء فى الشرق الأوسط إن عرفات أعلنه ذات مرة أنه يحيى اليد التى قتلت السادات ، كما يتهمه الفلسطينيون بأنه خانهم . . لقد نسيت – والكلام مازال لجيهان – كل هذه الأشياء وألتمس للفلسطينيين العذر ، وأشعر بالسعادة لأن الاتفاق الاسرائيلى – الفلسطينى قد سار على النهج الذى ارتسمه زوجى ، إن ذلك أثبت أن زوجى كان على حق " .

لقد كنت (المؤلف) جالساً على بعد خطوات من توقيع اتفاق أوسلو بالبيت الأبيض بواشنطن سنة ١٩٩٣ ، ورأيت ياسر عرفات يصافح إسحاق رابين ، وتمنيت لو أسأله : لماذا انتظرتم كل هذه السنين ، ولماذا لم تنتهزوا هذه الفرصة من قبل ، ثم لماذا اتهمتم الرئيس السادات بخيانتكم ؟ . .

وفى الحقيقة ، أن الرئيس السادات حينما أدهش العالم بسفره للقدس سنة ١٩٧٧ ، قد خلق للفلسطينيين فرصة – فى جو مفعم – ليلحقوا بركب مجهودات السلام ، لكنهم ظلوا بعيدا ، واليوم هم يتلقفون الفرصة للسير على نفس النهج الذى ارتسمه الرئيس السادات .

جوزيف فينكليستون

تمهيد

مقابلة مع الرئيس

وكنت قد اصطحبت معى مصورا يحمل آلة تصوير ضخمة تجعله يبدو أمام أى شخص عصبى وكأنه سفاح يحمل قذيفة . . دخلنا حجرة حمامى بمقر الجامعه العربية بلندن ، وحينما رآنا الرجل ، نهض ببطء وكان وجهه ينطق بالرعب .

وبدأ يهذى قائلا . " أنت لست صحفيا ، بل أنت جندى إسرائيلى ، جئت لتسحقنى" . وقد استغرقت العملية بضع دقائق لأهدئ من روعه ، وأقنعه بأننى صحفى ، ذات معرفة محدودة للغاية بالأسلحة النارية ، وفى ذات الوقت كان يطوف خارج حجرته المتسخة والمكتظة إلى حد ما رجال مسلحون ، حتى لقد انتابنى الخوف لدقائق ، وظننت أنا والمصور أنه سوف يصرخ طالبا النجدة ، وسوف نباغت بالرصاص .

وبعد أن صدقنى ، بدا حمامى ليس فقط رجلا عاطفيا ، وإنما أيضا رجل حكيم ، وأنه يشكو بحرقة من أنه رغم مولده فى حيفا ، إلا إنه لا يسمح له من قبل الحكومة الإسرائيلية بزيارة المدينة . . فى الوقت الذى يمكن فيه لليهود –سواء من التشيك أو بروكلين– ليس بزيارة المدينة فحسب ، وإنما أيضا بأن يصبحوا مواطنين فى الحال طبقا لقانون العودة الإسرائيلية . .

نظرت إليه متسائلا : لكن هل العرب لم يغزوا إسرائيل حال تأسيس الدولة سنة ١٩٤٨ ، واستمروا فى إزعاجها رافضين قبولها كدولة ، وإنه قبل ذلك لم يكن هناك أى عرب لاجئين أو أية إهانة وشكوى ؟ . .

وبينما كان حمامى يعبر عن وجهات النظر العربية التقليدية التى جعلته يهتز مع العاطفة النقية والمفهومة ، استخدم كلمات وتعبيرات لم أسمعها من أية شخصية عربية ، خاصة من أولئك الممثلين لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وترسخ هذا الانطباع لدى حينما بدأ الرجل ينعى الماضى المؤلم السقيم ، ويتحدث عن المستقبل المثمر ، وعيش الفسطينيين جنبا الى جنب مع الإسرائيليين ، وقبول العرب بدولة صغيرة فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

كانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها ماعرف مؤخرا عن حل الدولتين . إنه قبل سنوات عديدة من بحث ياسر عرفات عن الاقتراب الأمريكى ، كان من المؤلم جدا القول بأنه اعترف بوجود دولة إسرائيل ..

نعود إلى موضوع حمامى . . حينما ظهرت تفاصيل المقابلة على أكثر من نصف صفحة فى جريدة الخبر اليهودية ، كانت هناك ردود فعل غاضبة فى إسرائيل ، وفى مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت ، وفى السفارة الإسرائيلية بلندن .

وفى هذا السياق قال القادة الإقليميون لمنظمة التحرير الفلسطينية لرجال الصحافة إن المقابلة مختلقة ، وأنه لا يمكن أن يقول أحد ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية أشياء تنسب إليه مثل هذه ، وأن الأمر لايعدو أن يكون مؤامرة صهيونية لهز ثقة الفسطينيين بأنفسهم فى صراعهم مع الصهاينة ، فى الوقت الذى تصرفت فيه السفارة الاسرائيلية بلندن بصورة أكثر دبلوماسية . . أما أنا فقد أخذت حذرى تجاه ما تسببت فيه من أسى ، ووعدت رئيس التحرير بأن أناقش معه مستقبلا مثل هذه المقابلات الحساسة ، خاصة بعدما استدعى الى السفارة ، وعنف على بشاعة الجريمة التى ارتكبها بنشر مقابلة لأحد أعداء اليهود.

والآن ماذا فعل حمامى وماذا حدث له ؟ . .

إن ما فعله حمامى ، كان صدمة هائلة بالنسبه لى ، وساعدنى فى تشكيل اتجاهاتى إزاء الناس فى المعسكرات المتباينة . .

لقد كان بوسع حمامى - مثل أى سياسى ماهر - لكى يتجنب سخط قادته فى بيروت ، ويتخلص من هذه المعضلة ، رغم علمه أن النص المنشور يمثل بدقة وجهات نظره ، كان بوسعه أن يقول إن كلماته قد تغير مضمونها ، بل كان يستطيع الادعاء بأننى نسجت هذه المقابلة من أساسها .

لكن ما فعله حمامى كان اكثر أهمية وتشويقا ودلالة ، حيث قال : " إنه أجرى مقابلة مع صحفى من جريدة الخبر اليهودية وأن ما نشر كان بالضبط يمثل وجهات نظره " .

هذا الإقرار من جانب حمامى كلفه حياته ، إذ بعد شهور قليلة من ذلك تحدث معه صوت عربى تليفونيا ، وطلب منه إجراء مقابلة معه ، وحينما سار الرجل -صاحب الصوت العربى - إلى حجرة حمامى أرداه قتيلا ، وتبين فيما بعد أن الرجل المسلح كان عميلا لأبى نضال .

لقد ذهب حمامى بعيدا حينما قال إنه يريد صنع السلام مع إسرائيل ، وهى شجاعة تحسب له ، إذ تحدث عن السلام سنة ١٩٧٣ ، وليس سنة ١٩٩٣ ، بالمقارنة بأبى نضال الذى دبر قتل حمامى حينذاك ، وعرفات الذى تحدث عن السلام سنة ١٩٩٣ .

وعلى كل حال ، فإن دعوتى لمقابلة السادات كانت غير متوقعة بالمرة ، حيث كنت أقضى إجازة فى أحد المصايف برومانيا بالقرب من بوخارست ، ودهشت حال إبلاغى بأن السفارة المصرية بلندن قد اتصلت تليفونيا بالخبر اليهودية وتركت رسالة مفاجئة ، مفادها أن الرئيس أنور السادات سوف يزور فيينا لمقابلة " شان سيلور كريسكى " ، ورغم أن جدوله كان محكما ، إلا أن الرئيس أنور السادات قد أبدى ترحيبه بمقابلتى ، وعلى أن أحضر على وجه السرعة لفيينا .

لم أتردد لحظة ، وشعرت بأن أى دعوة من قائد عربى لصحفى يهودى يجب أن تلبى على الفور - فى هذه الفترة كانت إسرائيل لاتزال دولة فى حالة حرب رغم اتفاقات وقف إطلاق النار - فما بالك أن تأتى هذه الدعوة من قائد أكثر الدول العربية هيبة ، وأكثرها تأثيرا فى الصراع العربى - الاسرائيلى .

ولأهمية الرسالة كسر أحد الأصدقاء المقربين " سيدنى لايت مان " وصيه السبت - ووصيته تقضى من بين ماتقضى به بعدم استخدام التليفون - واستخدم التليفون عدة مرات ، وقضى ساعات عديدة فى محاولة الوصول إلى ، حتى لقد بدا مثارا مثلى من جراء مابذله من جهد وعناء .

وفى غمرة إثارتى اندفعت لأخبر الحاخام الاكبر " شلوموجورين " ناسيا أننى أيضا كسرت بذلك قانون السبت بالرد على المكالمة التليفونية ، لقد سببت حقا بعض الحساسية . . بيد أن الحاخامات كانوا على استعداد لمنحى البركات للسفر الى فيينا .

ومن الممكن تخيل ماكنت فيه من فزع ودهشة حينما دق جرس التليفون مؤخرا ، بعد نصف ساعة ، وأخبرني " جيوفري بول " بألا أعد نفسي للسفر لفيينا وألا أقابل الرئيس السادات .

لماذا . . ؟ . . تساءلت في ذهول ، وأشرت إلى أن إجراء مقابلة مع الرئيس السادات سوف يمنح جريدتنا سعة الانتشار عالميا ، وأن المفاوضات السرية سوف تتم بين مصر والإسرائيليين ، وسوف تضم الكاريزما ممثلة في أنور السادات ، والدبلوماسي الإسرائيلي موشيه ديان ، والملك الحسن ملك المغرب ، وسوف تقتضي السرية أن يسافر موشيه ديان الى المغرب لمقابلة بعثة مصرية ، ولن يتأتى لنا معرفة تفاصيل هذا المحادثات ، وأضفت لجيوفري بول : إن هذه تعتبر فرصة لاكتشاف ما يخططه قائد العالم العربي ، وأن صحفا أخرى سوف تتخبط مع البعثة .

إلا أن جيوفري بول لم يتأثر ، وجادل قائلا ، بأن الخبر اليهودية لو نشرت مقابلة مع السادات فسوف تقول الصحف الأخرى إننا جرينا وراء العرب . .

حاولت إقناعه بأنني سأقوم بعمل حوار عظيم لو ذهبت للسادات ، وأننا لن ننشر أي كلمة من الحوار في الخبر اليهودية إلا بعد الاستفسار عنها في المقابلة . . ولكن دون جدوى .

جمدت قلبي – رغم علمي بأن مهمتي لايمكن الدفاع عنها – وفكرت للحظة في عرض المقابلة على صحيفة معاريف اليومية الاسرائيلية الصادرة في تل أبيب ، والتي كنت مراسلها في لندن لعدة سنوات ، حيث كان أعضاء هيئه التحرير والموظفون من الأصدقاء الشخصيين لي ، بما فيهم شخصيات صحفية بارزة مثل : آرييه ديزنكتشك ، وسلوم روز نيفيلد ، وصمويل سكنيزر ، وموشيه زاك . . ولاشك أنهم كانوا سيقبلون مقابلة السادات بحماس .

لكنني انتابني شعور بأنني أنتمي للخبر اليهودية ولن أحقر من شأنها بهذا السلوك الوقح ، وأن العالم الصحفي سوف ينظر إلى تصرف جيوفري بول على أنه تصرف غير مسئول ، رغم أنه كان يجب على أن أعرض هذا الأمر على مجلس إدارة

الخبر اليهودية . . صحيح أن جيوفرى بول صحفى ممتاز وذو خبرة كبيرة ، لكنه حتى إذا أقر بأنه ارتكب خطأ ، فإن المقابلة التى وُعِدت بالحصول عليها من الرئيس السادات قد ضاعت ، لدرجه أن ذلك سبب حساسية .

المهم ، إننى بتردد وشعور بالخزى أبلغت السفارة المصرية فى لندن بأننى لن أكون قادرا على السفر الى فيينا فى هذا التوقيت الذى حدده الرئيس ، واعتقدت أننى لن تتاح لى على الإطلاق فرصة لقائه ، وبالتأكيد لن أتلقى دعوة شخصية لذلك ، كذلك اعتقدت أن المصريين رأوا أن اعتذارى مبتور .

وبعد مضى سنة ، وتحديدا فى مايو سنة ١٩٧٧ ، كنت جالسا بمكتبى فى الخبر اليهودية بشارع فير نيفال بلندن ، حينما حولت إلى مكالمة تليفونية من السفارة المصرية ، مفادها أن الرئيس السادات يريد رؤيتى على عجل بالقاهرة ، وحينما سئلت : متى تستطيع السفر ؟ . . رددت بأننى سأترك كل ما لدى من عمل فى الحال ، وخلال يوم سوف أكون فى مصر ، وأخبرت بأننى سأمنح التأشيرة بسرعة .

فى تلك الفترة كان الموقف قد تحول بقيام الرئيس السادات برحلة دراماتيكية للقدس ، وإلقائه خطابا أمام الكنيست الاسرائيلى ، وقد عرض السلام على إسرائيل معولا على أن تنسحب إسرائيل من الأراضى العربية التى احتلتها فى حرب الأيام الستة ، كما أصر السادات على أنه لم يأت لعقد معاهدة صلح منفردة مع إسرائيل ، وأضاف : إن عرب فلسطين يجب أن يحصلوا على أراضيهم وحقوقهم . لقد كان حقا حديثا صلبا خلق استجابة قوية لدى رئيس الوزراء الاسرائيلى مناحم بيجين .. وعلى هذا الأساس ، فإن المكالمة التى جاءتنى كانت فى وقت هزلى ، وتحديدا قبل توقيع اتفاقات كامب ديفيد بمساعدة الرئيس جيمى كارتر ، لكن الشئ الجيد هو أن الطريق للسلام أصبح ممهدا ، وكل ما كان مطلوبا هو قفزة خيالية فى ضوء إعلان الرئيس المصرى أن لديه الرغبة فى تحقيق السلام الشامل مع إسرائيل ، فهل كنت أصلح أنا لهذا الغرض بعد المقابلة غير العادية التى وعدنى بها الرئيس السادات .

لقد شعرت بأن رغبة السادات فى مقابلتى تحتاج فى تنفيذها إلى ممثل بارع . والآن ليست هناك معارضة من قبل الخبر اليهودية لسفرى الى مصر ، ولكن هذه المرة أيضا تعنت جيوفرى بول ، حينما حدد لى ثلاثة أيام فقط أقضيها بالقاهرة ، وإذا لم تتح لى رؤية السادات خلالها يجب على العودة إلى لندن .

عند وصولى إلى القاهرة لم أشعر بأى إحساس باللهفة من قبل موظفى الرئيس الرسميين ، بل كان واضحا أنهم لم يتلقوا أية تعليمات عن المقابلة ، وكان على أن آتى فى اليوم التالى ، وحينما عدت فى اليوم التالى علمت أن الرئيس ليس موجودا بالقاهرة وإنما موجود بمقر مصيفه بالإسكندرية . . وكان الموظفون الرسميون بالرئاسة مستغربين من أننى سوف أقضى ثلاثة أيام فقط فى مصر ، إذ توقعوا أن زيارتى سوف تمتد لمدة أسبوعين ، لأن الرئيس رجل مشغول جدا ، ويجب أن يرتب موعد المقابلة قبلها بفترة . . قلت : هل بإمكانى أن أجئ فى اليوم التالى فلربما كانت هناك بعض المعلومات ؟ . . ثم عدت إلى الفندق وأنا أشعر بالإحباط والغضب من المصريين لعدم إعطائهم أدنى اهتمام بالمقابلة ، وظهورهم بمظهر الذين يغطون فى سبات ، فرغم أن رئيسهم دعانى لمصر ، فلا شئ أعد لذلك .

شعرت أيضا بالغيظ والنفور لأن زيارتى لمصر محددة بثلاثة أيام ، وتولدت لدى قناعة بأننى لن أقابل الرئيس أبدا إذا مكثت انتظر مكالمة تليفونية بالفندق ، وهكذا قررت فى مساء اليوم التالى أن أذهب إلى قصر عابدين – مقر إقامة الرئيس– وأتحدث مباشرة مع مساعديه وسكرتاريته ، وكنت مدفوعا بإحساس انتهاك الحرمة لأننى رغم تلقى دعوة شخصية من الرئيس لمقابلته ، فلا أحد من موظفيه يبذل أدنى مجهود لترتيب اللقاء ، كما كان يغضبنى أن أسير وراء حراس بوابة القصر بمعارضتهم لى ونظراتهم العربية المفزعة التى لم أفهمها بالطبع .

ولكننى عقدت العزم . . فقد دعيت بواسطة الرئيس السادات لرؤيته ، ولا أحد سوف يوقفنى ، وأعلنت ذلك مرارا للحراس ، وتعمدت أن يكون صوتى حادا وواضحا لإقناعهم بألا يبذلوا أية محاولة لإيقافى . . فهل استجابوا لذلك ؟ .

إننى لم استطع حتى أن أظهر لهم أوراق هويتى .. إذ فى غمرة الغضب والإحباط الذى انتابنى نسيت جواز سفرى بالفندق ، وقلت فى نفسى إنه سيتم القبض على بالتأكيد ، ولكن الذى حدث أننى سألت بصوت حاد : أين السكرتير العام للرئيس ؟

فحملق الحراس فىّ دون أن يفهموا ماأعنيه . . حينذاك كان أحد الموظفين يمر . . فشاور بإصبعه الى الباب ، فدخلت حتى دون أن أطرق الباب ، وهناك لقيت رجلا فى منتصف العمر . . سألنى فى دهشة : من أنت ؟ . . وكيف دخلت هنا ؟ . . شرعت فى الحال أصف مشكلتى وصفا حماسيا ، منتهيا بالقول : إننى شخصيا سوف أشكو إلى الرئيس ما لقيته من سوء معاملة ، لقد أهين الرئيس حينما عوملت هذه المعاملة ، ثم طلبت منه أن يتصل بالرئيس فورا ، فرد على : إنه ليس هنا الآن ، وإنما بالإسكندرية فى مصيفه . . فرددت عليه ، بأنه لا يوجد أى مانع للاتصال به . .

نظر إلى بحدة ، إلا إنه لاحظ تصميمى فقال . . انتظر بالحجرة التالية حتى اتصل بالرئيس ، ولأن الباب كان مواربا فقد سمعته يتحدث الى شخص آخر بأسلوب مختلف ، ففهمت أنه يتحدث مع الرئيس السادات .

بعد أن انتهت المكالمة بعشر دقائق دعانى الى حجرته وقال . . الرئيس سوف يراك غدا فى الصباح بالإسكندرية ، وسوف تأتى سيارة لتأخذك إلى هناك . . كن على استعداد الساعة السادسة صباحا .

نمت هذه الليلة بصعوبة بالغة ، وانتظرت فى الميعاد المحدد بردهة الفندق ، حتى سمعت صوتا ينادى على اسمى ، ورأيت سيارة كبيرة سوداء يرفرف على جانبيها العلم الوطنى المصرى .

سألنى السائق ذو الزى الأنيق : هل أنت جوزيف فينكليستون ؟ فأجبت : نعم . . ففتح لى باب السيارة وقال : لقد جئت لآخذك الى الرئيس . . قال ذلك بلغة إنجليزية جيدة ، حينئذ خطرت ببالى فكرة طمأنتنى الى حد ما ، وهى أن الرجل لم يسألنى عن الأوراق الخاصة بهويتى قبل أن يأخذنى للرئيس . . ألم يكن من الممكن أن أكون محتالا مرسلا بواسطة المتآمرين الذين سمعوا أننى سأقابل الرئيس . . إنه الخلل الأمنى الذى كان الطريق المؤدى لاغتيال الرئيس .

وخلال رحلتى الطويلة إلى الإسكندرية كنت مندهشا لرؤية الناس فى الطريق ينظرون بشغف للسيارة ، بل ظهر البعض كما لو كان يحييها . .

بعد ساعة سفر لم استطع أن أخفى دهشتى وسألت السائق عن السبب ؛ فضحك قائلا : إنهم يعتقدون أنك الرئيس أو أحد الكبار ، إنك فى إحدى سيارات الرئيس ، لم يكن بوسعى أن اتحمل انعكاسات الموقف . . معقول صحفى يهودى فى سيارة الرئيس المصرى ويتلقى التحيات من المواطنين المصريين ! .

وعندما اقتربنا من مدينة الاسكندرية بطقسها الفرنسى النقى كان لابد أن تقف السيارة فى نقطة تفتيش يقوم عليها حراس مسلحون ، فتح أحدهم باب السيارة وسألنى من أكون ؟ . . وماذا أحمل ؟ . .

سألنى بصورة مهذبة . . قلت له إننى مدعو لرؤية الرئيس ومعى كاميرا ، فلمح اسمى وألقى نظرة عابرة على الحقيبة والكاميرا ، والغريب أنه ظن أن لقبى هو اسمى الأول ، حيث سمعته يتحدث مع نقطة التفتيش التالية عن يوسف . .

فسر لى السائق ذلك بأنه يقول لهم . . إن يوسف قادم . . لم استطع الابتسام ساعتئذ ، وتذكرت قصة التوراة حينما رحب الفرعون بيوسف .

وصلنا إلى مصيف الرئيس ، وقابلنى موظف أخذنى إلى إحدى الحجرات ، وطلب منى الانتظار . . ما كدت أجلس حتى دخل شخص بهى الطلعة مرتديا زيا أزرق وسلم على بحرارة ورحب بى . . فى هذه اللحظة ظهر العديد من المصورين الذين أضاءت كاميراتهم جنبات الحجرة ، ثم اختفوا فجأة ، والرئيس لايزال يبدى رغبة طيبة وود ، ورغم أنها كانت أول مقابلة لى معه ، إلا إنه سار بى إلى حجرة واسعة ، حيث كان يوجد موظفا صغيرا منتظرا ، فأذن له الرئيس بالانصراف قائلا له بالانجليزية . . إن وجودك غير ضرورى ، فأبدى الموظف دهشته كما لو كان طبيعيا أن يكون أحد موظفى الرئاسة حاضرا عندما يقابل الرئيس صحفيا أجنبيا ، بينما نظر الموظف إلى الرئيس متسائلا أعطاه الرئيس ذات التعليمات ، فغادر الحجرة .

وكان يبدو بوضوح أن الرئيس ارتأى فى مقابلتنا أكثر من مجرد مناسبة صحفية ، ودعانى الرئيس للجلوس على أريكة بجانب منضدة منخفضة وجلس بالقرب منى ، فى تلك اللحظة أحسست أننى خدعت فى الزى الذى كان يرتديه ، إذ كان هذا الزى يشبه (بيجاما حرير) ، لكننى أدركت أنه نوع من البدل الرقيقة الناصعة والجيدة ، فاستحضرت ذلك الزى الفاتن الذى كان يحب ونستون تشرشل ارتداءه .

لقد كنت مذعورا من الكيفية التى تبدو بها بشرته سوداء ، لكننى تذكرت فى الحال أنه ولد لأم سودانية ، حيث أغلبية السكان هناك من السود .

دعانى الرئيس لأن آخذ معه الشاى ، الذى كان فى أوعية موضوعة على أطباق فضية صغيرة ، وكان الشاى بالنعناع الذى أحبه تماما . .

شرع الرئيس فى تقليب الشاى ، بينما أخرجت جهاز التسجيل من الحقيبة التى كنت أحملها ، وهنا شعرت بمرارة التجربة فلقد اشتريت هذا الجهاز قبل رحلتى - التى كانت على عجل - إلى مصر ، ولم أكن استخدم جهاز التسجيل من قبل فى مقابلاتى ، معتمدا على اختصاراتى الكتابية . . والتى لم تكن تفى بالغرض تماما لإحساسى باستحالة تفسير الايحاءات والإيماءات التى ترد خارج السطور .. لذا شعرت بأنه فى مقابلة مهمة مع قائد العرب يستلزم الأمر أن يكون معى جهاز تسجيل ، لاسيما إذا كان التقرير الذى سأكتبه عنه يمثل تحديا بالنسبة لى .

وحينما أدركت أن جهاز التسجيل لا يعمل اشتدت حيرتى ، وقد لاحظ الرئيس ذلك ، فقال مبتسما : دعنى أرى إذا ما كنت أستطيع أن أجعله يعمل ، فحاول معه ثم قال : الحمد لله ، اعتقد أنه سوف يعمل الآن .

شكرته جزيلا ، لكن داخليا كنت أؤنب نفسى . . لقد ظفرت بمقابلة ثمينة مع رئيس مصر ، وضيعت دقائق غالية أصلح هو فيها جهازى . .

لقد كان عقابا شديدا للصحفى الذى بدأ المقابلة مع الرئيس بجهازه المعطل ، والذى عمل الآن بكفاءة . .

وفى الوقت الذى بدأت فيه التسجيل أدهشتنى ابتسامته الحارة وتواضعه ، إنه كان يعلم إعجابى بشجاعته ونفاذ بصيرته ، لكن استقباله فاق كل ما كنت أتخيله . . حيث كان الرئيس السادات شغوفا بأن تكون مقابلتى له غير رسمية على الإطلاق . . وليس أدل على ذلك من أن أحد موظفى الرئاسة كان قد أخبرنى أن الرئيس مشغول للغاية بشئون الدولة ومقابلات تليفزيونية وزيارات لساسة ، وبإمكانه أن يمنحنى فقط نصف ساعة لإجراء المقابلة ، وعندما مضى نصف الساعة دخل موظف الحجرة لتوصيلى وأنا خارج ، بيد أن الرئيس أشار إليه بأن المقابلة لم تنته بعد ، وأنه فى حاجة لمزيد من الوقت ، وعندما انقضت ساعة دخل نفس الموظف ، لكن الرئيس أخبره ثانية بأن المقابلة لم تنته بعد . . فخرج الموظف ، والذى كانت تبدو عليه مظاهر الحيرة والقلق مشيرا برأسه فى عدم اقتناع . . ثم عاد للمرة الثالثة بعد مضى ربع ساعة ، فأمره الرئيس أن يغادر الحجرة بدونى . .

ولتفسير ذلك قال لى الرئيس مبتسما . . إن فريقا من التليفزيون الأوروبى فى انتظار رؤيته ، ولكنهم لن يفهموا سبب التأخير ، وبعد مضى ساعتين قرر الرئيس إنهاء مقابلتنا .

إن الموظفين دخلوا الحجرة أكثر من مرتين ، وقد رأيتهم يعطون إشارات للرئيس توحى بأن الزوار ينتظرونه على عجل ، حتى لقد أخبرنى أحدهم فيما بعد . . بأنه لم يكن يعرف أن الرئيس سوف يطيل مدة المقابلة هكذا ، وأن هذا سوف يربك أجندة مواعيد هذا اليوم .

وبخصوص المقابلة فقد كان واضحا من صوت الرئيس وكلماته أنه أراد أن يستخدمنى كرسالة يقول من خلالها للعالم ولليهود وللعوام فى إسرائيل بصفة خاصة ، إنه مخلص فى رغبته لصنع السلام وترك الحرب الى الأبد . .

وقد نجح الرئيس خلال هذا اللقاء الطويل فى إقناعى بأنه ليس سياسيا مراوغا يريد أن يخدع صحفيا أجنبيا بسيطا مثلى . . إنما رجل عملى ذو أهداف نبيلة . .

إن الرئيس السادات قرر اليوم أن يضع حدا لإراقة الدماء بين العرب واسرائيل .

إنها الحيثيات التى أخذته للقدس لينادى بمنطقة تحيا فى سلام . لكنه سلام بكرامة وشرف .. سلام يرى كل جزء على أرض مصر محررة من الاحتلال الاسرائيلى . . وأنه لا شئ يؤرقه أكثر من قلة الشجاعة وجفاء الأصدقاء . .

إننى مازلت أشعر بغضبه وتدوى فى آذانى السخرية الحادة فى صوته بأنه أدب الأمريكيين والبريطانيين ولم يطاوعهم فى رفض لجوء شاه ايران المخلوع عن العرش ، والذى اضطر للفرار الى الخارج . . وأضاف أنه فقط منذ بضع شهور شكره الأمريكيون على أنه حصن للسلام والاستقرار فى المنطقة ، وأنهم وصفوه بصديقهم الحميم الذى تحدث إليهم بخصوص هجرهم لرجل مريض عبر رفضهم الترحيب به رسميا فى الولايات المتحدة ومنحه لجوءا كاملا . .

لقد كان السادات يرى فى ذلك وحشية وقسوة ، طبقا لوجهة نظره ، لأن الأمريكيين خافوا إغضاب الحاكم الإيرانى الجديد آية الله الخمينى . . وكانت هذه هى المرة الوحيدة خلال مقابلتنا التى بدا الرئيس فيها غير متحكم فى عواطفه بصورة كاملة ، منعشا ذاكرتى بسخريته الشديدة التى ملأ بها عمق صوته تجاه القادة الأمريكيين والبريطانيين ، وخاصة الأمريكيين الذين نصحوا الشاه بعدم التنازل عن العرش . .

هذا الانفعال فى صوت الرئيس السادات كان هو منبع كل الجمل المفاجئة طوال اللقاء . . ففى لوعة وأسى وصف الرئيس السادات الموقف فى إيران قائلا . . " الثورة الإسلامية فى إيران لم تستخدم الدماء كوسيلة للوصول الى السلطة ، لكنها ضد الإسلام ، إنهم قطعوا علاقاتهم معى ، وسوف أسأل برلمانى الجديد إذا ماكان ملائما أن أمنح الشاه لجوءا فى بلدى ، رسميا سوف أمنحه اللجوء ، لأنها أخلاق مصر . . . إننى أنعى أولئك الذين يشجبون منح الرجل اللجوء .

ولاشك أن هذا الاعلان من قبل الرئيس السادات قبل إخبار برلمانه يعتبر حدثا فريدا فى الشرق الأوسط أو فى أى مكان فى العالم .

وفى الحقيقة لقد هزتنى هذه الإيماءات بعمق ، وكرد فعل لتصريحاته العاطفية أصبحت على قناعة بأن أنور السادات ارتأى فى مقابلتنا وسيلة لإنجاز توافق بين مصر وإسرائيل . . وفى ثنايا حديثه استدعى التشرد المؤثر لآلاف اليهود من مصر كنتيجة لقرارات ناصر ضد رجال الأعمال الأجانب ، والتى أصابت المجتمع اليهودى على وجه الخصوص بصدمة قوية .

وها هو اليوم ، يتحدث فى عصره الذهبى عن التعاون بين اليهود والعرب ويأمل فى ازدهاره مرة أخرى ، كما استبعد بغضب قيام سياسة الصداقة مع إسرائيل على أوهام شخصية أو أن المصريين سوف يتأثرون بأحلام الملكيات الكبيرة ، والتى إذا خاب أملهم فيها فسوف تقود إلى طى وانكسار تصميماته ، وهو نفس ما أدلى به لاحقا لجريفيللى جانيير رئيس لجنة المفوضيات اليهودية ببريطانيا من أن السلام مع إسرائيل هو أمل كل المصريين ، وأنهم سوف يصرون عليه .

وبناء على ذلك يثبت أن حماس السادات للسلام مع إسرائيل قد اشتمل على العديد من الأبعاد والتصورات التى تظهر من خلال إجابته على الأسئلة التى وجهتها إليه ، والتى كانت على النحو التالى :

س : الناس فى إسرائيل سعداء جدا باتفاق السلام ، لكنهم مازالوا قلقين مما إذا كانوا يفعلون شيئا صحيحا ، تحديدا هم يجب أن يتخلوا عن جزء كبير من الأراضى . أليس على مصر أن تطمئنهم وتفتح الحدود للسياح والدارسين ؟

ج : يجب ألا يقلقوا ، نحن وافقنا على أن نستخدم حسن الجوار ، ثم كيف يعتقدون ذلك ، ونحن سوف نسعى بكل وسيلة لتطبيع العلاقات بعد المرحلة الأولى للانسحاب الاسرائيلى من سيناء ، وحينما تنتهى المرحلة الأولى سوف أسعى لإنجاز الثانية . ولقد

أتممت الوعد الذى قطعته على نفسى أثناء زيارتى للقدس سنة ١٩٧٧ ، والذى تضمن نقطتين : الأولى أنه لا حرب بعد أكتوبر . . والثانية أن إسرائيل يجب أن تنعم بالأمن ، وسوف أبذل قصارى جهدى أكثر مما يتخيل أى شخص آخر لتحقيق ذلك .

س: ألن تكون هناك سياحة سريعة بين مصر وإسرائيل ؟

ج : إذا تم المرحلة الأولى من الانسحاب الاسرائيلى من سيناء خلال ٣ أو ٦ شهور . . من الممكن أن يحدث ذلك . . أنت الآن تطلب شيئا لايمكن تخيله ، حيث المرحله الأولى للانسحاب سوف تتم خلال ٩ شهور ، ورغم أن جزءا من أراضينا سيظل تحت الاحتلال لمدة سنتين أو ثلاثا فسوف نطبع العلاقات .. والآن أنت تحدثنى عن تطبيع العلاقات قبل أن تنقضى الشهور التسعة .

س: هل فوجئت بمعارضة المملكة العربية السعودية لمبادرتك للسلام مع إسرائيل ؟

ج : دعنا نكون عادلين ، إن أيه فكرة جديدة تحتاج إلى بعض الوقت لكى يتم استيعابها ، ومعروف أن العالم العربى ظل على مدار واحد و ثلاثين عاما يحشد الحشود ضد إسرائيل ، ونفس الشئ حدث فى إسرائيل تجاه العرب ، إذن ليس من السهل لرفاقى العرب أن يستوعبوا هذه الفكرة أو أن يلقوا هذه الروح وراءهم .

س: وماذا ستفعل مع الملك حسين ؟

ج: فى الحقيقة حسين مختلف ، ولقد خبر وعرف جميع العرب أن جده الملك عبد الله – وهو – على اتصال مع إسرائيل منذ سنة ١٩٤٨ ، فى الوقت الذى كان فيه الاتصال جريمة . . حقيقة أنا لم أكن مندهشا من المكانة التى يشغلها الملك حسين ، ولأجل السبب البسيط فى كونه لم يتمم حلمه بالمملكة العربية المتحدة على الضفة الغربية ، فلم يكن بوسعى أو بوسع بيجين أو أى شخص آخر أن يقرر مصير الفلسطينيين من خلف ظهورهم .

س: ماذا عن باقى العالم العربى ، إنه يبدو باستثناء دولة أو دولتين مثل السودان ضد مبادرة السلام ؟

ج : إنه بعد أن قطعت المملكة العربية السعودية العلاقات معنا ، وصلتنى رسائل من العديد من رفاقى فى الوطن العربى ، الغالبية منهم اتخذت هذا الموقف ضد مبادرة السلام للسير فى فلك المملكة العربية السعودية . .

هذه هى طريقتنا فى العالم العربى ، رغم أن ذلك قد يكون ضد المصلحة الكبرى للعالم العربى .

س: هل تعتقد أن العالم العربى سوف يقبل فى النهاية مبادرتك للسلام ؟

ج: إنه تحد ، وأنا قبلت التحدى ، مصر إما على صواب وإما على خطأ . . هذا ما سوف يثبته المستقبل القريب . . لقد اعتدت على هذا . . بعد الاتفاقية الأولى والثانية فى سيناء . . بعد مبادرتى للسلام ، وبعد كامب ديفيد حدث نفس الشىء ، ولكنه لم يوقف الساعة ، ولم يعيد عقاربها للوراء .

س: السعوديون أناس غير معقولين . . فلماذا يعارضون بحدة مبادرة السلام ؟

ج: إنهم يعارضون لأن الفلسطينيين والعراقيين والسودانيين قد هددوا باغتيال كل أفراد العائلة المالكة ، أيضا يريد السعوديون أن يثبتوا للأمريكيين أنهم قادة العالم العربى والإسلامى .

س: ألست قلقا من تجميد عضوية مصر فى اجتماع وزراء خارجية الدول الإسلامية بالمغرب ؟

ج: على الإطلاق ، أنا أعتبر أن هذه المسألة هامشية ، وأنا لا أضيع وقتى فى مثل هذه المسائل الهامشية ، وحينما أنجح فى المشكلة الرئيسية ، فإن المشاكل الهامشية سوف تحل بصورة اتوماتيكية .

س: ألا تخشى أن تقوم المملكة العربية السعودية والدول العربية الغنية بالتهديد بقطع مساعداتها لمصر أو حتى مقاطعتها تجاريا ؟

ج : لن يفزعونى ، فقبل بداية حرب أكتوبر كان اقتصادنا تحت الصفر ، والآن فإن اقتصادنا ليس تحت الصفر ، وسوف نعيش ، الأموال لايمكنها أن تبنى القيادة ، وحسين سوف يظل دائما فى كنف المملكة العربية السعودية ، الرجل يستقبل الأموال من المملكة العربية السعودية ، سواء بصورة شخصية أو للدولة .

س: وزير الدفاع الإسرائيلى عيزرا وايزمان عارض رئيس وزرائه فيما يتعلق بقبول خطة الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، مارأيك فى ذلك ؟ .

ج: إننى أحب عيزرا ، وسوف نفتقده إن لم يحضر المفاوضات فى العريش وبلر سبع ، إننا سوف نخوض محادثات صعبة ومعقدة ، وسوف نعمل بجد واجتهاد، وأنا متفائل حتى فى أحلك الساعات . . دعنا لانتحدث عن عيزرا ، لا أريد أن أخلق له شقاقات مع زملائه . . العبارات يمكن أن تؤدى إلى خسارة كبيرة ، ودائما أقول لبيجن : دعنا نقلع فى هذه اللحظة الثمينة عن الألفاظ ، لأنهم فى العالم العربى يأخذون الألفاظ على أنها حقائق .

س: ما البيانات الموجودة بذهنك ؟ .

ج: إنها بيانات عن الأراضى العربية المحتلة ، ووجهة نظرنا معروفة ، إنها أوضاع غير قانونية ويجب أن تتغير بواسطة إسرائيل ، نفس الشئ بالنسبة للولايات المتحدة . . لكن كل يوم يعلن الاسرائيليون عن تسوية جديدة . . شارون بدأ يعارض بقوة ، ثم وزير الزراعة الاسرائيلى . . فهل على أن ألقى ببيان . . إن هذه مسألة جانبية يجب أن نتلاشاها الآن .

س: وماذا عن الفلسطينيين والمحادثات السرية التى يتعامل معها أحد وزرائك ؟ . .

ج: فى هذه المرحلة من المفاوضات ، لا أرى أى حاجة لمندوبين عن الفلسطينيين من أجل الحكم الذاتى الكامل ، إننا لسنا فى طريقنا لتقرير مصير الفلسطينيين ، ولا أحد لديه الحق فى أن يقرر مصيرهم ، فهم يجب أن يقرروا لأنفسهم .

وخلال المرحلة التفاوضية ، التى سوف تحدث خلال سنة ، سوف نقرر الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

إننا نريد أن ننهى معاناة أولئك الذين احتلت أراضيهم فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، ونضعهم على بداية الطريق الصحيح ليقرروا مصيرهم بأنفسهم . . لكننا وجدنا أنه من الأفضل أن نجعل الفلسطينيين معنا لمدة عامين قبل نهاية الخمس سنوات (الفترة الانتقالية) . . وبهذا نمنحهم الفيتو . . فصرخوا وقالوا : إن السادات تولى مسئولية تقرير مصير الفلسطينيين ، لكننى لن أتحدث عن الفلسطينيين ، وأنصح أى شخص ألا يتحدث عنهم .

س: ما تصورك للدور الأمريكى فى منطقة الشرق الأوسط ؟

ج: النصر الحقيقى لمصر وإسرائيل هو أن الولايات المتحدة ارتبطت بهما كشريك كامل . . إنه النصر من أجل السلام ، ولذا أرى أن الدور الأمريكى سوف يكون مهما جدا فى المستقبل .

ولا أحد سوف يصدقنى إذا قلت إن ٩٩٪ من أوراق اللعبة بأيدى الأمريكيين ، وهذا لا يعنى أن كلا من مصر وإسرائيل تخلتا تماما عن مسئولياتهما ، لكننا فى حاجة الى أحد يمنحنا الثقة للتغلب على شقاق دام ثلاثين سنة مليئة بإراقة الدماء والكراهية والعنف وأربع حروب .

س: بوصفك رجلا عسكريا وسياسيا ، هل يمكن ان تتنبأ بإمكانية أن يخوض العالم العربى حربا مع إسرائيل بدون مصر ؟

ج: لن تكون هناك حربا أخرى بعد حرب أكتوبر ، لسبب بسيط جدا وهو أن مصر هى مفتاح الحرب و السلام فى المنطقة ، وبدون مصر ليست هناك حرب ، ولكن على إسرائيل أن تتعلم حقائق المنطقة لأننا سوف نعيش سويا .

س: الا ترى أن فرنسا اكثر برودا تجاهك ، ثم اليس هناك خطر من بروز قوة بريطانيا فى أوروبا ، بالإضافة الى التكهنات التى تقول بأن الفرنسيين ينبغى أن يقوموا بتحويل السوق المعروفة إلى القوى المناوئة لكم ولإسرائيل ؟

ج: . . كلا . . إنهم إذا ذهبوا ضد مبادرتى فسوف يكونون ضد شعبى . . الذى منه ٤٠ مليونا فى صالح مبادرتى ، بينما عارضها ٥ آلاف فقط . .

كذلك كان للسيدة تاتشر اتجاه بناء بإزاء الصراع العربى – الإسرائيلى ، وهى مستقلة جدا . . أيضا شانسيلور سكميدت الألمانى . . لا أعتقد أن أحدا يستطيع جر هذا الرجل ، فهو أحد رجال السياسة وأحد الذين أعجب بهم كرجل وصديق .. وكذا الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان يعتبر صديقا ، لكن دعنا نأمل أن يتغلب على مشاكله الاقتصادية ، والتى ستؤثر حتما على مكانته ، ومعروف أن فرنسا منذ ديجول لعبت دورا رياديا ، وأظن الجميع لن يقفوا ضد السلام أو ضد طموحاتنا .

س: هل ترى حلا لمشكلة القدس ؟ . .

ج: نعم ، نعم ، نعم . . دعنا بداية نعرف حقيقة أن سؤالك عن القدس حساس جدا لأجلك من ناحية ، ولأجل ٨٠٠ مليون عربى ومسلم من ناحية أخرى . . والاقتراب من المشكلة ليس صعبا ، ونستطيع أن نحلها على أساس أن المدينة لم يتم تقسيمها ، وإنما تمثل مزارا مقدسا مفتوحا لذوى الديانات السماوية الثلاث .

لكن ٨٠٠ مليون عربى ومسلم لن يقبلوا بأى حال من الأحوال بالسيادة الاسرائيلية على الجزء العربى من القدس . . هذه حقائق ، وإذا استطعنا أن نبنى معا انطلاقا من روح مبادرتى ، فلن تكون هناك مشكلة للوصول إلى حل .

س: معروف أن الروس غاضبون منك ، فهل تعتقد أنهم سيكونون ضدك ؟ . .

ج : نعم ، فهم وراء كل ما يجرى فى العالم العربى ، حيث عبر راديو موسكو ليس فقط عن سعادتهم حينما قطع العرب علاقاتهم معى ، وإنما أيضا يحرضونهم علانية . .

أنا لست ضد الروس لو أقلعوا عن سياسة التدخل ، إنهم وراء الفلسطينيين والسوريين والعراقيين ، ولسوء الحظ السعوديين .. كما أنهم يثيرون العرب المعتدلين ، وهذا لايقلقنى ، لكن الذى يقلقنى هو التحرك السوفيتى فى أفريقيا والخليج ، فهم يد بيد مع القذافى على الحدود الغربية ، ويد بيد مع أثيوبيا ضد الصومال والسودان ، ويد بيد مع اليمن الجنوبى ضد اليمن الشمالى ، وبصورة أتوماتيكية ضد المملكة العربية السعودية .

س: ماذا تعتقد بخصوص الخطة السوفيتية فى افريقيا ؟ . .

ج : لقد اقتلعت وجودهم من هذه المنطقة حينما أخرجت ١٧ ألف مستشار روسى من هذه الدولة فى أسبوع ، ورغم حقيقة التواجد السوفيتى فى سوريا والعراق ، إلا أنهم اجتثت جذورهم من هذه المنطقة . . وهم يخططون ضد ثلاث دول : مصر والسودان والمملكة العربية السعودية ، ولاسيما مصر ، فهم يريدون التخلص منى بوصفى الذى بدأت كل ذلك وأخرجتهم من المنطقة .

س: متى ستحين اللحظة التى ستقرر فيها فعليا الذهاب إلى القدس ؟

ج : لن تصدقنى .. لم أقل ذلك لأى شخص .. كنت فى طريقى من رومانيا إلـى إيران بعد أن لقيت صديقى شاوشيسكو ، وهو صديق لكلينـا -أنـا وبيجين- وسـألته سؤالين عن بيجن : أولهما : هل الرجل قوى بما فيه الكفاية ؟ وثانيهما : هـل الرجـل مخلص للسلام ؟

فأكد شاوشيسكو أن الرجل مخلص ، وأنـه قـوى بمـا فيـه الكفايـة ، ومنـذ هـذه اللحظة وأنا أفكر ، وحينما كنت طائرا إلى تركيا جاءت إلىّ الفكرة الأولى ..

س: علـى افـتراض أن إسـحاق رابـين هـو رئيـس الـوزراء وليـس منـاحم بيجن ، هل كنت ؟ ستظل راغبا فى السفر إلى القدس ؟

ج: كنت سأتردد ، لأننى عرفت رابين من خلال تعاملى معه فى اتفاقية فصل القوات الثانية ، ولهذا السبب سألت شاوشيسكو هل بيجن رجل قوى بما فيه الكفاية ؟ .

أما رابين فلم يكن قويا ، وكان هذا هو السبب الذى يدفعنى إلـى التردد ، أمـا والأمر جد مختلف فى ظل وجود بيجن فلن أتردد على الإطلاق .

س: لو أن جولدا مائير هى رئيسة الوزراء ، هل كنت ستذهب ؟ ..

ج: نعم كنـت سـأذهب ، إثنـان مـن إسـرائيل بإمكانهمـا فعلهـا : بيجـن والسـيدة العجوز .

هذه الإجابات نشرت بحذافيرها مستهلة بإعطـاء فكـرة عن طريقـة تحـدث الرئيس بالإنجليزية وفرط مشاعره وإفشائه سر منح اللجوء السياسى لشاه إيران المخلوع ، وهـو الخبر الذى أذهل الغرب والعالم العربى على حد سواء .. وكان من الطبيعى أيضا أنْ تحتـد أصوات وزرائه على هذا التصرف ، المستهجن حتى قبل أن يقول لهم أو للبرلمان .

غير أن الرئيس السادات كان مـن ذلـك النـوع مـن الرجـال الذيـن يسـتثارون ويسخطون بسهولة ، وهو ما حدث بالتأكيد حينما طرح موضوع الشاه خلال المقابلة .

ولقد كان السادات حذرا من أن يضايق الإسرائيليين خلال تلك الفترة ، فعندما سألته عما إذا توقف بيجن عن الانسحاب المبكر من الأراضى المصرية ؟ ضحك بصوت عال وقال مازحا : أرجوك لا تسألنى هذا السؤال .. وكذلك فعندما سألته عن أن العلاقات العربية اليهودية تختلف عن العلاقات المصرية ـ الاسرائيلية وحدثته عن العصر الذهبى لليهود تحت الحكم الاسلامى .. كان رده حارا .. إذ أجاب بنعم ، وكان منهم الأطباء والفلاسفة والكتاب وغيرهم ، فعلاقة اليهود بالمسلمين كانت كذلك دائما ، ونتمنى أن يشهد المستقبل هذه العودة ، ولكن ذلك سوف يتوقف بالدرجة الأولى على المناخ الذى تخلقه إسرائيل والشعب اليهودى .. إننا عشنا سويا على مدار التاريخ ، ودعنى أقولها لك : فى هذا الجزء من العالم لا توجد تفرقة عنصرية .. ففى عائلتى مثلا بإمكانك أن ترى الأشقر والأسمر ، ونحن لدينا مجتمع يهودى صغير جدا هنا .. وفى الصيف الماضى أمرت المسئولين بالتأكيد على أن من يريد العودة إلى مصر من اليهود المصريين ، فسوف يتم الترحيب به ..

ومما يذكر من الناحية التاريخية ، أن اليهود كانوا قد استقروا بمصر منذ فترة زمنية ، وخاصة بالقاهرة والإسكندرية ، وأقاموا مشروعات ناجحة ولعبوا دورا بارزا فى الحياة الاقتصادية والثقافية ، حتى لقد بلغ عددهم سنة ١٩٤٧ حوالى ٩ آلاف نسمة .

وقد خلقت إقامة دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ توترات حادة بين اليهود والمصريين الذين هاجوا حينما أهين الجيش المصرى فقير التسليح والقيادة بواسطة القوات الإسرائيلية ، حينما التحق بالقوات العربية لتدمير الدولة اليهودية الجديدة .

وخلال حكم عبد الناصر دمر المجتمع اليهودى بجعله من المحال على كل أجنبى المولد أو يهودى الإبقاء على أعماله ، وحينذاك أصبح اليهود عرضة للسجن والتفرقة العنصرية ، خاصة بعد ذل حرب الأيام الستة فى سنة ١٩٦٧ ، حينما دمرت إسرائيل الجيش المصرى وقواته الجوية .

وحينما تقررت عودة ناصر بعد مظاهرة شعبية تنادى ببقائه ، غادر اليهود مصر بأعداد هائلة .

وفى غضون زيارة السادات التاريخية للقدس فى سنة ١٩٧٧ كان يوجد بمصر حوالى مائة يهودى فقط ، معظمهم من العواجيز الذين كانوا يعيشون بالقاهرة ، لذلك فإن الإقصاء قد جعل المجتمع اليهودى بالقاهرة كأن لم يكن .

وفى المناسبات الدينية يتم بالكاد توفير عدد كاف من الذكور لإقامة الصلوات بالمعبد الكبير بشارع عدلى بالقاهرة ، وإذا لم يكتمل العدد يتم الاستعانة بأفراد من السفارة الإسرائيلية لإقامة هذه الصلوات .

الفصل الأول

القروى

ظل السادات طوال حياته يشير بصورة متكررة إلى أحواله كصبى قروى ، كرجل لصيق بالأرض ، كرجل أسير حبه لمسقط رأسه ، قرية ميت أبو الكوم التى تقع بدلتا النيل الخصيب .. غير أن خصومه ومنتقديه كانوا يهزأون بدعواه ، ويشيرون بسخرية إلى أزيائه الفاخرة ، وربطات عنقه وقمصانه الغالية ، وكذلك الفساتين والمجوهرات الثمينة التى كانت تقتنيها زوجته الجميلة جيهان ... وغير ذلك من الأشياء الأخرى العديدة .

إنهم لم يفهموا على الإطلاق شخصيته أو القيم التى يعززها ، وعلى المرء فقط أن يقرأ السيرة الذاتية لحياته كما سردها هو بنفسه فى " البحث عن الذات " ليصبح على قناعة بأن فخره بكونه رجل الأرض ، المتشبع بمعتقدات وأفكار القرية ، تمثل مكونا أساسيا من مكونات شخصيته ... إنه ينتمى إلى تلك الفئة من القرويين التى تتسم بالمتانة والأمانة والإحساس المرهف المبالغ فيه .

بالإضافة إلى ذلك فقد تشرب بعقيدة أن القروى يمتلك قيما تغيب عن قاطنى المدن ، إذ فى تقديره تمثل المهارات الهادئة -كالدهاء- التى يمتلكها القروى وهى عوامل رئيسية للتغلب على أعدائه ، سواء داخل وطنه أو خارجه .

ويمكن القول ، إن السادات استخدم الخدع التى تعلمها فى القرية عن عمد للعب على خصومه وأصدقائه معا ، موحيا إليهم بأنه ليس منافسا خطيرا ، حتى أن إمكانية اختياره من قبل سلفه عبد الناصر كنائب له لم تكن شيئا ذى أهمية .

من ناحية لاعتقاد عبد الناصر أن السادات لن يكون مصدر تهديد له ، ومن ناحية أخرى لاقتناع المسئولين الحكوميين فى مصر بهذا الاختيار بهدوء ، لأنهم اعتقدوا أن السادات ما هو إلا رجل ضعيف ومتردد .. أو بالأحرى يمثل دمية ، كما أنه غير ذكى ، لدرجة أنه لن يكون منافسا يعتد به فى أى نزاع محتمل على الرئاسة.

وعلى هذا الأساس أراد السادات أن يبرهن على خطأهم فى التقليل من شأنه .

وفى أحاديث عن حياته أشار السادات إلى أن ذكريات القرية لم تضع غشاوة على عقله ، فقط كانت جدته -وإلى حد ما والدته ، واللتان فتنتاه وسيطرتا عليه- هما السبب الرئيسى فى تكوين شخصيته .

إن السادات كان يفخر بأن يكون بصحبة جدته الموقرة ، تلك الجدة التى كان الرجال يقفون لتحيتها حينما تكون مارة ، والتى رغم أميتها ، إلا إنها كانت تملك حكمة غير عادية .. حتى أن الأسر التى كانت لديها مشاكل كانت تذهب إليها لتأخذ بنصيحتها ... وفوق ذلك كانت مقبولة كمانحة للشفاء ، وكانت وصفاتها الدوائية يعتد بها كخصوصيات سحرية .

وحينما كان العسل الأسود يصل إلى القرية كان ينادى عليه بواسطة منادى القرية ، فتندفع الجدة إلى الخارج ساحبة السادات إلى حيث ترسو سفينة العسل بالقرب من كفر الزرقان ..

لقد كان السادات يبدو مسرورا حينما يصف كيف كان صبيا صغيرا أسود ، عارى القدمين ، يرتدى جلبابا عربيا طويلا على قميص "بفتة" ، وكيف اعتاد أن يركض طويلا مع جدته .

إن عينيه لم يغب عنها إناء العسل ، ذلك العسل الممتزج باللبن الرائب لذيذ المذاق ، كما أن السنوات التى قضاها بالقرية -والتى كان يبتسم كلما تحدث عنها- اتسمت بالقناعة والسعادة ، وهى سنوات اختلفت بشدة عن سنواته الأخيرة ، التى منى فيها بالمرارة وخيبة الأمل .. فقد بدت هذه السنوات بالنسبة له كمسكن مفقود، به كل شئ جميل وتام .. قضى فيه أروع سنوات عمره مع جدته الحبيبة والبطلة الموقرة ، إنه لم ينس أبدا كلماتها إليه بأنه لا شئ أكثر دلالة من كونه ابن هذه الأرض ، مثل هذه الكلمات من قبل هذه الجدة البارزة مقنعة إلى حد كبير ، لكن هل الأرض هنا تعنى الخلود ، وهل على متنها تظهر أساطير الخلق ؟ ..

اعتقد السادات ذلك بالتأكيد .. حيث لبسها كغطاء للحكمة والتخيل ، إنهـا كـانت كل شئ مبدع فـى مخيلتـه ، كما كـانت كذلـك المكـان الـذى تقطنـه الصحبـة الصغيرة العظيمة وروح جدته الفاضلة .

أما والده فقد لعب دورا أقل .. إذ أن جد أنـور الـذى حـاز تميزا قليلا كـأديب فـى القرية ، وقرأ الكتب الدنيوية والدينية معا قد اتخذ قرارا مصيريا بـألا يلتحق ابنـه بجامعة الأزهر ، ويصبح شيخا فى المسـجد ، بل عليـه أن يتلقـى التعليم الدنيوى ، وسـاعده فـى الحصـول علـى شـهادة الابتدائية العامـة ، ولأن كـل مـواد هـذه الشـهادة كـانت تـدرس بالإنجليزية فقد مكنته من الحصول علـى وظيفـة بجيش الاحتـلال البريطـانى والخدمـة فـى السودان ، مما أبعد الأب فترات طويلـة عن القريـة ، وترتـب علـى ذلك أن أصبـح أنـور الصغير أسير حبائل جدته ، التى رأت أنه يجـب أن يسـلك تدريجيا نفس خطـوات والـده ، فأرسلته إلى كتاب القرية لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن عن ظهر قلب (بنفس النغمـة من المبالغة كان يقول إنه حفظ كل القرآن عن ظهر قلب) .

ثم ذهب بعد ذلك إلى مدرسة مسيحية قبطية بالقرب من طـوخ ، لكـن يبـدو أن المدرسة القرآنية كان لها التأثير الأعمق .. ويذكر السادات ـ على وجه الخصـوص ـ الشيخ عبد الحميد الذى حبب إليه التعليم وغرس فيه روح الثقـة الحقيقيـة .. ويتذكـر جلوسه بين الأطفال الآخرين ماسكا اللـوح وغابـة الكتابـة ، وكذلـك جلبابـه العربـى ذا الجيب العميق الذى كان يملأه فى الصباح بالخبز الجاف والجبـن ، الـذى كـان يخطفـه فى فمه أثناء الدروس أو أثناء فترات الراحة ..

إن السادات أحب أن يؤكد على أنه كان صبيا حقيقيا فى القرية ، يعتبر العمل جـزءا من متعته ، شأنه شأن حفلات الزفاف الزاهية والطعام حلو المذاق .. فقد شارك فـى جنـى القطن ، حيث يملأ حجره قطنا ثم يعرج إلى بائعة البلح ليقايضها قطنا ببلح .. وكـان يهتز حينمـا يـأخذ الماشـية لتشـرب من القنـاة أو يسـوق الثـور أثنـاء درس الحنطـة أو يلتحـق بالصبية الآخرين فى جنى القطن .

ويذكر السادات أن جدته ووالدته كانتا تحكيان ، له قصصا غير عادية قبل النوم ، إذ إنها لم تكن قصصا تقليدية عن مآثر الحروب القديمة والمغامرات ، بل كانت عن الأبطال المعاصرين ونضالهم من أجل الاستقلال الوطنى ، حتى لقد كانت هناك قصة غير مألوفة عن دس السم لمصطفى كامل بواسطة البريطانيين الذين أرادوا وضع نهاية للصراع ضد احتلالهم لمصر ، أنور الصغير لم يكن يعرف من هو مصطفى كامل ، لكنه تعلم من خلال التكرار أن البريطانيين أشرار ويسمون الناس .

كذلك يذكر السادات قصة أقل غرابة ، إنها القصة الشعبية لأدهم الشرقاوى ، وهى تتحدث عن بطولاته وقدراته فى محاربة البريطانيين والمتسلطين الطغاة من المصريين فى ذلك الحين .

لكن القصة الشعبية التى أثرت فيه بعمق كانت قصة (زهران) الذى لقب ببطل دنشواى (قرية على بعد ٣ أميال من ميت أبو الكوم) .. وتتمثل أحداثها ـ التى يرى السادات أنها تمثل جزءا من الحقيقة ـ فى أن الجنود البريطانيين كانوا يصطادون الحمام فى دنشواى ، وأشعلت رصاصة طائشة الحريق فى أحد أجران القمح ، فاجتمع الفلاحون ليطفئوا الحريق ، لكن أحد الجنود البريطانيين أطلق عليهم النار وهرب ، وفى معركة تالية قتل الجندى ، وحينئذ تم القبض على العديد من الناس وشكل مجلس عسكرى بالساحة ، وعلى وجه السرعة نصبت المشانق ، بعض الفلاحين جلد ، وبعضهم شنق ، وكان زهران هو بطل المعركة ضد البريطانيين ، كما كان أول من شنق ، وتذهب القصة الشعبية إلى أن زهران من فرط شجاعته مشى إلى المشنقة برأس مرفوعة بعد أن قرر قتل أحد المعتدين فى طريقه ..

وهكذا اعتاد السادات أن يستمع إلى هذه الملحمة ليلة بعد ليلة ، وهو نصف مستيقظ ونصف نائم ، إنه عاش بطولته فى أحلام المنام وأحلام اليقظة ، وتمنى لو كان زهران .

وهكذا نلاحظ رغبة السادات فى أن يصبغ طفولته بالصبغة الدراماتيكية .

بالإضافة إلى ما سبق ، فقد أعطته القرية احتراما غير عادى لاكتشافه للمهتاما غاندى ، إذ طبقا لما جاء بالنيويورك تايمز فى ١٨ من يناير سنة ١٩٧١ ، روت أخته شلبية " أنه اكتشف أعمال المهتاما غاندى حينما كان صبيا يبلغ من العمر عشر سنوات ويقيم فى قرية ميت أبو الكوم بدلتا النيل ، إذ استطاع أن يكتب الشعر ويتلو الخطب عن الاستبداد البريطانى الذى استشرى فى أماكن عدة ، وحينما كان فى المرحلة الابتدائية بدأ أنور يرتدى ملاءة بيضاء مثل ملاءة غاندى ، ويمشى فى القرية ساحبا ماعزا مربوطا بالدوبارة ، ثم يمضى ويجلس تحت شجرة متظاهرا بعدم رغبته فى الأكل "

وفى تعليقنا على ذلك فإنه رغم ما بالقصة من مبالغة وخلل ، فإن أنور السادات كان حقا طفلا غير عادى بتخيله البعيد الذى ميزه عن أصدقائه ، سواء كانوا من داخل القرية ذاتها أو من خارجها ..

ويزعم السادات أنه فى الوقت الذى ترك فيه المدرسة كانت تحتدم لديه كراهية عميقة تجاه كل الأعداء وإعجاب بكل المناضلين من أجل تحرير أراضيهم .. وأنه تأثر بشدة بالقائد الكاريزمى الهندى .. ويضيف أنه على إثر مرور غاندى بمصر سنة ١٩٣٢ فى طريقه لبريطانيا وملء الصحف المصرية بأوصاف شخصيته وقع فى حب صورته القومية ، وبدأ يقلده خالعا ثيابه ومغطيا نفسه بإزار ، وأنه نسج لنفسه مغزلا وانسحب منعزلا على سطح المنزل ، ومكث كذلك عدة أيام حتى أقنعه والده بالنزول بعد أن قال له إن عمله هذا لن يساعد مصر ، بل إنه بالتأكيد سوف يعرضه للإصابة بالالتهاب الرئوى ، حيث كان برد الشتاء قارسا .

ومن الواضح أن أنور السادات لا يذكر ملامح فى حياته المبكرة لم تؤثر فيه بصورة بارزة .. إن حياته هذه كانت فى ميت أبو الكوم ، وهو نفس المكان الذى ولدت به إقبال عفيفى ، والتى تزوجها لمدة عشر سنوات ثم تركها .

وفى الواقع ، فإن المستوى الاجتماعى لأسرة إقبال كان أعلى بكثير من المستوى الاجتماعى لأسرة أنور ، فهى تنتمى إلى أصول تركية ، فضلا عن صلة القرابة التى كانت بينها وبين الخديوى عباس ، وكانت أسرتها تمتلك بعض الأراضى بالقرية والتى من خلالها أصبح والدها رقم واحد هناك ، وقد ذكرت إقبال فيما بعد أنها وأنور حينما كانا طفلين كانا يلعبان معا فى مربع القرية ، وأن والديها احتاطا لذلك الاختلاط بينها وبين هذا الأسود ، ليس لأن أنور كان ينتمى للفقراء ، ولا أرض لأسرته فحسب ، وإنما أيضا لأن أمه سودانية سوداء .

وحينما طلب أنور من إقبال الزواج عارضت أسرتها ذلك بسبب الفجوة الاجتماعية الكبيرة بينهما ، ولكونها كانت فتاة تعرف الواجب فقد أجلت ذلك إلى أن يتم دراسته بالأكاديمية العسكرية .. وهكذا لم توافق أسرة إقبال عليه كزوج لابنتهم سوى عام ١٩٣٨ .

واقترن ذيوع صيت أنور فى القرية بشجاعته البادية التى ميزته كثيرا عن أقرانه ، سواء كان متآمرا أو قائدا .. فذات مرة كان على أنور أن يجتاز اختبار سباحة ، ولأنه كان متهورا فقد وافق على عرض اثنين من أصدقائه بأن يعلماه ، وفى غمرة من حماسه قفز فى الماء فى رافد النيل ، وكاد أن يغرق لولا إسراع أحد أصدقائه بإنقاذه .. وقد ترك هذا الحادث تأثيرا عميقا لدى السادات ، وطبقا لرواية أخته راوية كان السادات يجلس كثيرا ويفكر بإمعان فى هذا الحادث .

على أية حال ، فإن تأثير القرية كان شديدا عليه طيلة حياته ، وهو الأمر الذى جعل منتقديه يهزأون من ارتباطه العاطفى بها ويضحكون على ما كان يردده من أنه ابن الأرض القروى والفلاح .

صحيح أن السادات كان مخطئا ومبالغا فى الكثير مما ذكره عن حياته ـ خاصة خلال فترة رئاسته ـ لكن ميله للقرية وقيمها كان شديدا وخالصا ، لدرجة أنه بدأ يبنى

منزلا بميت أبو الكوم ، آملا أن يعيش هناك بعد التقاعد من منصب الرئاسة ، لكن اغتياله حال دون إتمام بناء هذا المنزل ، وكذلك قدم امتيازات سيرته الذاتيه ـ التى سردها بنفسه ـ وحصوله على جائزة نوبل للسلام لقريته .

لقد أراد لقريته أن تزدهر وتتميز ، وبجزيل من الاحترام استطاع تحقيق هدفه ، حيث بدت ميت أبو الكوم مختلفة ، وحل محل البيوت البنية ـ الرمادية المبنية من الطوب اللبن ، حلت محلها الأضواء الزاهية للقرية الجديدة ، فقد أراد أن يرى كل القرية مجددة ، رغم بقاء بعض البيوت التقليدية للفلاحين .

ولكونه كان فخورا جدا بقريته ، وينتمى لأناس بسطاء ، فقد كان متوقعا منه أن يشير إلى عطف وحنان والدته " ست البرين " ، ولكن ولكى يبدو واضحا أنه استبعد بخجل ذكرها فى سيرته الذاتية .

وكانت والدته قد عاشت مع والده محمد الساداتى (حذفت الياء فيما بعد من الاسم) بالسودان حينما حصل على وظيفة هناك مع الفريق الطبى البريطانى ، لكن أطفالها الأربعة لم يولدوا بالسودان ، إذ كان زوجها يرسلها إلى ميت أبو الكوم حينما يتقدم بها الحمل ، وتقوم الجدة بالعناية بها ، وحينما يتم فطام أطفالها تعود إلى السودان تاركة إياهم فى رعاية الجدة .

ويذكر أن "ست البرين" كانت امرأة ذات بشرة سوداء ورثها عنها السادات ..

ولعل إحجام السادات عن ذكر والدته قد نبع من الطريقة التى كان والده يعاملها بها ، والذى تزوج عليها من آخريات ، ومن ثم بدت كما لو كانت قد فقدت أسبقيتها بين بقية الزوجات ، مما مثل جرحا غائرا لدى السادات .

وانتهت جنة القرية بالنسبة للسادات مع رجوع والده من السودان ، حيث فقد وظيفته هناك على إثر اغتيال سير لى ستاك ، وما ترتب على ذلك من سحب القوات المصرية من المنطقة .

بعد ذلك انتقلت الأسرة إلى منزل صغير بكوبرى القبة بالقاهرة ، وكان عمره حينذاك يبلغ حوالى ستة أعوام ، وهو يذكر فقدانه لمتع القرية واستهزاء بعض الناس بلهجته القروية ، ويؤكد أن الحياة فى منزل مزدحم مع والده وزوجاته الثلاث وأطفالهن وجدته لم تكن مريحة ، خاصة وأن دخل الأب كان صغيرا للغاية (ستة عشر جنيها شهريا) .

هذا ما يؤكده السادات بالقول بأنه عاش تحت خط الفقر .

ليس مفاجأة إذن أن السادات حينما أرسل إلى المدرسة فشل فى البداية فى الحصول على شهادة التعليم العامة وأن صدمة الفشل كان لها أثر عميق عليه حتى لقد شعر " إن ربنا غير راضى عنه " .. وإنه أصبح مهملا ، ولكنه بنوع من التصميم حاول أن يطوى هذه الصفحة من حياته ، مستقلا قطار التعليم ثانية ، ونجح .

وبإحساسه الشديد بالعدالة والعدل لاحظ أنور السادات المزايا التى ينعم بها أبناء الموظفين الكبار المدللين ، مثل ابن وزير الحربية وابن سكرتير وزير التعليم والذين كانوا يصلون إلى المدرسة بالسيارات ، بينما كان طلبة آخرون يرتدون ملابس فائقة الجودة .

ويجزم السادات بأنه لم يكن مستاء من هذه الفوارق ، ولكن الحقيقة هى أن هذه الفوارق أثرت على تشكيل رؤيته للعدالة الاجتماعية .

لقد كان من قبيل المصادفة المحضة ألا يغرقه فقره فى مستنقع الأمية كما حدث للكثير من الأطفال المصريين الأبرياء .. فوالده لم يكن ليقدر على أن يدفع مصروفات المدرسه له ولأخيه الأكبر طلعت ، التى كانت ٣٢ جنيها (أى ضعف راتب الأب الشهرى) ، لكن طلعت جرى بالنقود قاصدا المدرسة ، وحينما عاد أعلن أنه ليس مهتما بأكثر من التعليم .. وكان على الأب أن يختار تعليم أحد ولديه ، وكان لابد أن يقع الاختيار على الابن الأكبر .

وكشاب مراهق أعلن السادات حبه للمسرح ، وجرى وراء إعلان فى الجرائد عن دور مسرحى ، لكن دون نجاح ، ولرغبته الجامحة ورغم فقره أخذ دروسا فى التمثيل (أحد مدرسيه كان سيدة يهودية بالقاهرة) ، ولكن مسرح القاهرة لم يرحب به ويقال إن بشرته السوداء لم تعينه على تحقيق رغبته ، لكن إيماءاته المسرحية والدراماتيكية أصبحت جزءا من حياته .. فقد أحب أن يصدم ويفاجىء خصومه ويجذب انتباه جمهور العالم ، وإذا كان التمثيل جزءا من الخداع والزيف ، فإن أنور السادات لم يكن ممثلا ، بل كان دراميا مميزا .

وبفشله فى أن يصبح موظفا متمرسا فقد فكر أن يلتحق بالجيش ، وبصعوبة بالغة استطاع الحصول على مكان بالأكاديمية العسكرية فى سنة ١٩٣٧ ، وتدرج كملازم أول ، وكان يتباهى بزى الضابط الجسور ويلوح به بافتخار ، وحينذاك فقط شعر أن مكانته متميزة وأنه لا يوجد أى مانع للحيلولة دون زواجه من إقبال عفيفى ، وتدريجيا تولى قائد وحدة فى ضاحية راقية بالقاهرة ، هى ضاحية المعادى ، وكانت متعته أكثر مما حلم به وتخيل .

لقد كان السادات شابا جادا يتملكه الإحساس بمكانة مصر الهزيلة بوصفها إقطاعية لبريطانيا ، وظهر هذا ماثلا بوضوح فى اتصاله بشباب آخرين كانوا شغوفين بالتصدى للاحتلال البريطانى .

هذه هى الأحداث التى دفعته إلى السياسة ، والمكيدة ، والسلطة ، والشهرة ، والموت .

الفصل الثانى

البحث عن الذات

لقد كان من الأشياء ذات الدلالة أن يسمى السادات مذكراته " البحث عن الذات" .. كما أنه كان دائما –وحتى آخر يوم فى عمره– يحاول أن يفهم ما هو بالضبط دوره فى إحداث التغييرات اللازمة بمصر ، ولماذا ابتعدت الدولة كثيرا عن مثالياته ، وعن قيم العدالة والعدل ، تلك القيم التى تعلمها من جديه ..

لقد كان قبل التحاقه بالجيش يشعر بالنفور والاشمئزاز من حالة الدولة ، وكان يدرك انتشار الفساد وما تتسم به الإدارة من سوء ، إذ طالت المحسوبية كل شئ ، حتى أصبح دخول الجيش يمثل صراعا بين المحرومين من المزايا مثله ، بينما لم يكن يسمح بالالتحاق بالأكاديمية الحربية سوى أبناء الطبقات العليا والوسطى ، لأن استمارة الالتحاق كانت تتطلب تفاصيل عما يمتلكه الأب والمناصب العليا التى يشغلها الأقارب .

ولقد كان أبوه الموظف بالجيش أفقر فى المال من المكانة ومن خلال اتصالاته داخل الجيش (بابراهيم خيرى باشا) حصل لابنه على مكان فى تلك الدفعة الأولى من غير الأرستقراطيين التى التحقت بالكلية الحربية عام ١٩٣٧ .

ورغم إعجاب السادات بغاندى ، فإن الأخير لم يكن مثله الأعلى ، بل كان مثله الأعلى هو المحارب السياسى التركى مصطفى كمال أتاتورك ، حيث شعر السادات بأن القوة وحدها هى التى يمكن من خلالها إخراج البريطانيين من مصر وتغيير النظام الفاسد والتعامل مع الساسة الفسدة القهرة عديمى الإحساس ، أسوة بما فعله أتاتورك قائد الدولة التركية الجديدة والذى استطاع اقتلاع الحكام الجبناء السابقين .

إن السادات شغل باله بالاحتلال البريطانى لمصر ، والذى اعتقد أنه تم غدرا سنة ١٨٨٢ ، كما شعر بالنفور من أن مصر محكومة بواسطة عائلة ملكية ليست مصرية ، كذلك كان يشعر بالخزى وانتهاك الحرمة من أن الساسة المصريين يساعدون فى ترسيخ شرعية الاحتلال البريطانى ..

أيضا كان أنور السادات مشغولا بالسؤال الذى راود الكثيرين من المصريين الوطنيين .. وهو أن شعب مصر ذو تاريخ فريد ، وميراث عظيم مستمد من الحضارة الفرعونية القديمة ، وليست العربية أو الإسلامية ، وأن هذه الإنجازات القديمة والحديثة قد امتزجت معا ، وهو ثراء تاريخى أعطى المصريين ميزة عن العرب البدويين فى الصحراء .. فهل من الممكن أن تضارع الثروة التى تحققت لهؤلاء العرب مصادفة من جراء البترول الميراث المصرى القديم من حيث الأهمية ؟ هذا السؤال وغيره من الأسئلة التى لم يتم الرد عليها بصورة مطلقة كان ضروريا أن يصبح فى المقدمة حينما وضع أنور السادات فى اعتباره كسر حلبة الكراهية حول إسرائيل ، ولكنه واجه صراخا من قبل القادة العرب ، والذين كان يتجاهلهم .

ولشعوره بنفاذ الصبر - الذى كان يميز كل حياته - تمنى أنور السادات أن يبنى تنظيمات ثورية بالجيش تقوم بطرد الاحتلال البريطانى من مصر ، وتبدأ الثورة الداخلية .. فقام بعقد الاجتماعات مع أتباعه من الضباط فى الحجرة الخاصة به فى وحدته الكائنة بمنقاباد (بلدة صغيرة بصعيد مصر) .. شربوا الشاى وتحاوروا كثيرا .. حتى أنه ادعى أنه حفّظ الضباط - الذين لم يكن لديهم نقص فى التعليم السياسى - ولقنهم أن ثمة شئ خطأ فى مصر .

وليس مستغربا أن تتطرق هذه المحاورات الطويلة للمزاح والقصص لدرجة أنها مهدت للبرلمان الوطنى .. ورغم أنه كان مفعما بالآمال إلا أنه كان ينصح رفاقه باتخاذ جانبا أخف حدة فى محاوراتهم ومناقشاتهم ، من خلال أسلوبه الضاحك الوديع ، الذى لازمه طيلة حياته .

وحينما كان السادات " ملازم ثان " أظهر من الخصائص ما يميزه عن أصدقائه ورفاقه ، حيث شعر بالجوع للمعرفة والثقافة ، فحاول أن يلتحق بالمؤسسة البريطانية ويحصل على درجة BA من جامعة لندن ، ولكنه فشل ، على أساس أنها كانت محاولة مستحيلة .

واكتشف فى نفسه الحاجة لقراءة الكتب ، وكتب للناشرين وموزعى الكتب عن الكتب التى يرغب فى قراءتها .. واشترى كتبا كثيرة مستعملة .. وعندما كان يخرج وأتباعه فى رحلة كانت تغمره السعادة ، وكان يجلس فى مقهى ويزداد قراءة فى الوقت الذى كانوا يذهبون فيه لرؤية الأفلام والبحث عن وسائل ترفيهية أخرى .

ومن الأمور ذات المغزى فى حياته أنه رأى تهكم الثرى الذى مكنه من دخول الجيش - إبراهيم خيرى باشا – والذى كان يمثل الطبقة المميزة .. إذ حينما حاول السادات إظهار الامتنان لخيرى على ما أسداه إليه من جميل ، ضحك خيرى والاستهزاء فى عينيه مقررا أن قرار إلحاق السادات بالجيش كان قرارا بريطانيا بالأساس ، حيث إن بريطانيا هى التى قررت زيادة حجم الجيش المصرى وزيادة عدد ضباطه مع شمولهم البعض من أبناء الطبقة الدنيا .

وقد علق السادات على ذلك قائلا بأن " البريطانيين هم الذين ساعدونى على الالتحاق بالأكاديمية الحربية رغم أن السبب الذى أردت من أجله الالتحاق بالمكان هو طردهم خارج مصر " .

وتعتبر "منقاباد" هى المكان الأول الذى التقى فيه السادات بخالد محيى الدين ، الذى اقترن به بصداقة دائمة ، ورغم أن خالد قد شكل الجناح اليسارى ، وكان دائما فى صدام مع السادات ، إلا أن صداقتهما لم تنته بالمرة .. وطوال فترة رئاسة السادات قاد خالد الجناح اليسارى المعارض ووصل الأمر إلى أن يطرد حزبه من المشاركة السياسية .

كذلك كانت حجرة التحاور والمناقشة بمنقاباد هى المكان الذى شهد رؤية السادات لعبد الناصر لأول مرة ، والذى لم يؤثر بشدة على حياته فحسب ، وإنما أيضا على تاريخ مصر كله .. و فى شأن عبد الناصر يقول السادات .. " كان انطباعى عنه أنه شاب ذو عقل خطير ، لم تدخل اهتمامات أتباعه فى الهزل ، ولم

يكن يسمح لأى منهم بأن يمزح معه ، إنــه كـان يشـعر أن الكرامـة فـى المقـام الأول ، لذلك كان معظم رفاقى يحتفظون بمسافة من البعد عنه ، ويتجنبون التحدث معه مخافة أن يسئ فهمهم .. " .

هذه هى ملامح عبد النـاصر المروعـة ، والتـى قـادت إلـى إخـلاص السـادات ، والذى يبدو بوضوح أنه حاول التعرف على ناصر والتقرب منه ، لكنه منى بالفشل ، حيث أقام ناصر حاجزا لمنع أى صداقة مع السـادات فـى هـذه الفـترة ، ورغـم وجـود احترام متبادل إلا أن السادات وجد أن أفضل وصف لعلاقتهما المبكرة فـى تلـك الفـترة هو الشك المتبادل .

ورغم أن نـاصر قد اعتـبر بمثابـة حجـر الزاويـة فـى تشـكيل جماعـة الضبــاط الأحرار ، والتى كان منوطا بها خلع الملك فاروق الجبان والإعداد لثـورة يوليـو سـنة ١٩٥٢ ، فإن السادات لم يقبل هذا التأويل للأحداث .

صحيح أن السادات لم ينكـر قيـادة نـاصر للضبـاط الأحـرار ، إلا أنــه اعتـبر أن الضباط الأحرار وحدهم هم الناجحون من ثوار الجيـش وكذلـك رغـم إعجـاب السـادات الشديد بناصر بسبب قيادته الكارزمية وميله للتفرد حتى أصبح رمزا للوحدة العربية ، إلا أنه يزعم أن نـاصر لم يكن ليقدر على أن يقود بنجاح مجموعة ثوريـة مـن الضبـاط الأحرار لو أنه -أى السادات- لم يعد الأرضية لذلك .

ومن المفارقة ، أن السادات كان يسمح لناصر بحيازة مجد الثـورة حينمـا كـان الأخير حيـا ، ولكـن بعد وفـاة نـاصر شـعر السـادات بحريـة تحريـك الأسـاطير ، هـذه الأساطير لم تؤثر فقط على شخصية نـاصر ، وإنمـا شـوهت أيضـا قبولـه الاجتمـاعى ، وإنجازاته الاقتصادية .. باختصـار حـاول السـادات تعريـة دولـة نـاصر عـبر اصطيـاد الأمـور التـى فشـل فيهـا الأخـير .. باعتبـار أن الـذى أسـس الضبـاط الصغـار ليـس أيديولوجية اجتماعية مألوفة ، ولكنه كان رغبة محمومة لطرد البريطانيين .

ففى تقدير أنور السادات -الذى كان دوما يبدى اعتزازه بالأمجاد القديمة للنظم الفرعونية- كان خضوع مصر المهين لقوة أوربية متعجرفة وحالة النفور السائدة من الملك فاروق من الأمور التى لعبت دورا بارزا فى تشكيل فكر الضباط الأحرار ..

ولأن الملك كان قد فسد طبيعيا وماديا برضوخه لتوقيع البلاء عليه فى سنة ١٩٤٢ حينما حاصرت الدبابات البريطانية قصره مرغمة إياه على قبول الخيار البريطانى فيما يتعلق برئيس الوزراء ، كان على السادات أن يغير رؤاه وأن يحصى ستة مبادئ كان لها تأثيرها على صغار الضباط ، وهى :

* طرد الامبريالية .
* القضاء على الإقطاع .
* تحقيق العدالة الاجتماعية .
* تشكيل جيش مصرى قوى .
* خلق حياة ديمقراطية .
* تحرير الحكومة من سيطرة وسطوة الرأسماليين .

هذا الهجوم على الرأسماليين تم تشجيعه بواسطة عبد الناصر ، الذى كان عليه أن يؤسس صياغته الخاصة للاشتراكية .. والتى اشتملت على مصادرة الملكيات الأجنبية لا سيما اليهودية .

ويذكر السادات ساخرا أن المبادئ الستة أهديت للشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمون ، وهى جماعة تدافع عن وجهة نظر إسلامية للمجتمع ، والأمور السياسية تختلف مع وصفه بالحكم السياسى العلمانى ، كما تعارض بصورة مطلقة أهم النماذج الأوربية ... وقرب نهاية الحرب العالمية الثانية أصبح هؤلاء الإخوان أكثر تسلحا واستعدادا للاغتيال وتحقيق هدفهم (أحد أجنحتها المتطرفة هو الذى اغتال السادات سنة ١٩٨١م) .

وحينما قابل السادات الشيخ حسن البنا واستمع إلى خطبه اعتقد أنه محتاط وحذر للغاية وأنه لصراحته وجسارته أعطى انطباعا لدى اتباعه الصغار بأنه وحش .. قال لـه : " اسمع يا شيخ حسن ، يبدو أنك قلق للغاية ، حذر للغاية ، وأقولها لك بجسارة وصراحة ، إننى فى سبيلى لتأسيس تنظيم عسكرى للقضاء على النظام القائم " .

وقد ظل الشيخ المندهش صامتا معتقدا أن السادات سوف يقدم خدمات جليلة وسوف يكون عضوا مثيرا مشاكسا .

وبعد العديد من الأسئلة التى اطمأن لها الشيخ قال له السادات : " إننى أريد أن أنجز ثورة مسلمة ، وإن عددا كبيرا من الضباط من مختلف الأسلحة يعملون معى بالفعل " .

وفى هذا السياق لم يكن ملاحظا أن السادات قد أصر على أنه بالفعل قائد لتنظيم وأن أعضاءه يعملون تحت لوائه .

وعلق الشيخ ـ الذى ظل حذرا ورفض تنسيق أنشطتهم ـ " بأن التعاون سوف يكون مرضيا وكافيا " ، وكذلك نجح الشيخ فى تجنيد عبد الرعوف التابع للسادات فى جماعة الضباط الأحرار لكى يعمل لصالح الإخوان المسلمين .

وقد شجع نجاح ألمانيا النازية فى الحرب مع بريطانيا وفرنسا ، وبعد ذلك الاتحاد السوفيتى ، شجع هذا النجاح العديد من الشباب المصرى على الاعتقاد بأن لديهم الفرصة للتخلص من القوات البريطانية .

ولذا ناضل الساداتيون ، وجماعات ثورية أخرى من أجل إزاحة البريطانيين ، لكن دون جدوى ، وكان هؤلاء المناضلون مدعمين باللواء عزيز المصرى الذى عرف بكراهيته للبريطانيين ، لدرجة أن سير ملز لامبسون (السفير البريطانى حينذاك) قد طلب من رئيس الوزراء على ماهر أن ينحيه عن منصبه ، لكن رئيس الوزراء أحس أنه لن يستطيع ذلك ، وإن كان قد أعطاه وعدا بتجريده من سلطته بإرساله إلى منطقة نائية .

ومن هنا قام السادات وعدد من أعضاء الجماعة بمقابلة عزيز المصرى عارضين عليه مساندتهم وتأييدهم ، وقد نفر الرجل فى البداية من صراحة السادات المعهودة ولكنه تأثر بوضوح بما ساقه إليه (السادات) ابن الثانية والعشرين عاما .. وخلال المقابلة أخبرهم المصرى بأنه قابل مخادعين قادته تصريحاتهم الصاروخية إلى فقدان مركزه وخيبته ، بيد أنه أعلن استعداده لقبول عرض السادات وجماعته شريطة أن يكونوا جادين وعمليين .. ولا شك أن مقابلات السادات - التى توالت - مع المصرى كان لها أثر عميق على حياته .

ولأن وضع البريطانيين فى الحرب ضد ألمانيا النازية أصبح فى خطر أكثر ، فقد أظهر المصريون معارضتهم للحرب بصراحة ، تلك الحرب التى سيقوا إليها ، وفى ذلك الحين أعد الشيخ المراغى شيخ الأزهر خطبة جاء فيها .. " ليس لدينا شئ نفعله مع الحرب " .. كذلك قدم على ماهر رئيس الوزراء اقتراحا للبرلمان بهدف إنقاذ مصر من كارثة الحرب ، وقد تمت الموافقة على هذا الاقتراح بالإجماع ، وتبعا لذلك انسحب المصريون من مرسى مطروح ، والتى كانت بمثابة منطقة حيوية مهمة للدفاع عن الدولة من هجوم ألمانى محتمل ، مما أثار غضب السلطات البريطانية ، و التى طالبت بتسليم الجنود المصريين أنفسهم على الفور إلى جيوشهم .

ويزعم السادات أنه قاد معارضة هذا الهوان ، حتى سمح البريطانيون له ولرفاقه بالانسحاب مع قواتهم .

وفى صيف ١٩٤١ قام أنور السادات بمحاولته الأولى للثورة فى مصر ، وبدت السذاجة المحضة لخطة الثورة المشار إليها فى أنها كانت معلنة ، حيث كانت تقضى بأن كل القوات المنسحبة من مرسى مطروح سوف تتقابل بفندق مينا هاوس بالقرب من الأهرامات .. وبالفعل وصلت مجموعة السادات الخاصة إلى الفندق وانتظرت الآخرين للحاق بهم ، حيث كان مقررا أن يمشى الجميع إلى القاهرة لإخراج البريطانيين ومسانديهم من المصريين ، إذ أن السادات اعتقد أن البريطانيين يعيشون

حالة من الضعف واهتزاز الروح المعنوية ، وهو ماظهر بوضوح فى النجاح الألمانى الذى لم يبدوا تجاهه أدنى مقاومة .

ومما يثير الدهشة ، أن مجموعة السادات انتظرت دون جدوى ، إذ لم تلتحق بها أى من المجموعات الأخرى ، وحينذاك رأى السادات أن عملية التجميع فاشلة ، وحتى لو تمت المحاولة وفشلت فسوف تكون السلطات يقظة ، وسوف يقوم خصوم الجيش بمراقبته عن كسب .. وفيما بعد قرر ـ السادات أن ذلك لو حدث لما كان من الممكن حدوث ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

منى السادات بفشل آخر عندما عرض على عزيز المصرى عرضا يتلخص فى أن الضباط الأحرار سوف يساعدونه للفرار إلى العراق ، وكان الألمان قد قدموا عرضا مشابها للمصرى ، خاصة أنهم كانوا يقدمون المساعدات لرشيد على الكيلانى القائم بالثورة ضد قوات الاحتلال البريطانى هناك .

ورغم أن السادات تلقى تحذيرات بأن يكون بعيدا عن المصرى ـ المفصول من الجيش وذى الاتصالات التى كانت تعرفها السلطات البريطانية بالضباط الأحرار ـ رغم ذلك قرر السادات أن يساعده بصفة شخصية ، وعرض عليه نقله إلى بيروت ـ والتى كانت خاضعة لحكم فيشى الفرنسي حينذاك ـ ومن هناك سوف يكون قادرا على تدبير طريقه لبغداد .

أما الألمان فقد قالوا للمصرى إنهم سوف يمدونه بطائرة ، بيد أن الطيارين اللذين كان مقررا لهما الطيران بالمصرى اضطرا إلى الاشتباك مع طائرة عسكرية ، ولكن بعد صعودهما اكتشفا أنهما ليس لديهما بنزين ، وبدلا من أن يشغلا مضخة البنزين أغلقاها ، ومن ثم أجبرا على الهبوط الاضطرارى ، وانتهى بهم الحال إلى الارتطام بقمة شجرة ، ومن المثير للسخرية والضحك أن المصرى وطياريه قد تم انقاذهم بمساعدة ضابط بوليس ودود ، وفروا هاربين إلى القاهرة .

وفى الحال عرف البوليس ووكالات المخابرات هوية المتآمرين ، ولأن اتصال السادات بالمصرى تم اكتشافه فقد كان مرتابا وخائفا من أن يتورط فى المؤامرة ، وبالفعل تم القبض عليه واستجوابه ولكن لعدم وجود أى دليل ضده فقد أنكر أى معرفة له بخطة الهروب ، ولذلك تم إطلاق سراحه وسمح له بالرجوع إلى وحدته ، لكن مكانته ساءت ... وقد كان لذلك مردوداته فيما بعد .. إذ عندما أصبح السادات رئيسا لمصر بالفعل لم يدع سرا فى مساعدته لقوة الألمان تحت قيادة روميل لقهر البريطانيين فى الصحراء .. كما أيد السادات ثورة رشيد على الكيلانى بالعراق ، على أساس أن أى شئ يمكن أن يضعف مكانة .. بريطانيا فى الشرق الأوسط ، كان يعتبر من أولى مواضع اهتمامه .. لأن ذلك من شأنه خلق فرصة أفضل للضباط الأحرار فى ضرب العدو .

إن السادات لم يخف إعجابه بهتلر ، حيث ذكر أنه كان يزور قريته حينما كان يبلغ من العمر اثنى عشر عاما ، وسمع أن هتلر عبر المانش إلى برلين ليمحو آثار هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ، وأعاد بناء دولته ، فجمع أصدقاءه وقال لهم : " اتبعوا نموذج هتلر بالعبور من ميت أبو الكوم للقاهرة " فضحكوا وانصرفوا .

كذلك كان السادات مفتونا بروميل واستراتيجيته وبراعته فى معارك الصحراء ، ومن مظاهر إعجابه إنشاء قلعة (متحف) بالعلمين تشريفا للقائد الألمانى ، وهذا المتحف تمت توسعته ليصبح متحفا حربيا عاما .

وواقع الحال ، إن إعجاب السادات بهتلر يصعب فهمه ، ورغم أن السادات لم يعلن عنه سوى سنة ١٩٥٣ حينما قال " أعجبت بهتلر من أعماق قلبى " ، إلا أن الذى لا شك فيه أن توجه السادات نحو النازى الألمانى قد نبع من كراهيته للاحتلال البريطانى .. وهو ما يبدو جليا فى أنه بمجرد أن ترك البريطانيون مصر بدأ رأيه تجاه هتلر يتغير (وحينما حاز السلطة فى مصر سنة ١٩٧٠ تغيرت كل مرجعياته) ،

إذ قام بانتقاد هتلر وتحدث عن تفضيله لتشرشل ، حينما أدان إسرائيل من جراء إحتلالها للأراضى العربية .

لقد تلاشى إعجابه بالنازى الألمانى بعد أن قورنت إسرائيل بعدد سكانها الصغير للغاية بالكتل الجماهيرية الغفيرة فى العالم العربى .. إذ طبقا لتقديره نجحت النوعيات الجرمانية فى أن تصبح دولة قوية وعدوا شرسا .

وقد ارتبطت كراهية السادات لليهود بالإشارات القرآنية المهينة لليهود ، كما تأثر اتجاهه بالمكانة الضئيلة التى يشكلها اليهود فى النظرية السياسية الإسلامية ، ووصل الأمر إلى أنه حينما أصبح رئيسا استخدم تعبيرات - ضد اليهود - استخدمها الدعائيون النازيون اللاساميون ضدهم بصورة مألوفة من قبل ، حيث تحدث السادات عن أن اليهود قد اشتركوا فى مؤامرة دولية سيطروا من خلالها على اقتصاديات العالم ، واتهم الصهيونية بالتنسيق مع الامبريالية العالمية ، وبالإضافة إلى ذلك فقد اتهم بعض الرؤساء الأمريكيين -وخاصة جونسون- بالرضوخ للضغوط الصهيونية واليهودية ... ووصلت مشاعره المعادية لليهود ذروتها حينما هاجم التعويضات - غير العادلة - التى تلقاها اليهود الذين عانوا فى ظل النازية .

إن الخيبة التى منى بها السادات فى مطلع حياته كان منبعها أن الهجوم الألمانى فى مايو سنة ١٩٤٢ قد اقترن بشائعات مفادها أن روميل بعد أن يغزو مصر سوف يعطيها للإيطاليين ، مما أثار حفيظة صغار الضباط ، الذين أرادوا استمالة روميل إليهم ، وذلك بإرسال رسالة إليه مؤداها أنهم سوف يشكلون جيشا لمساعدته فى حرب بريطانيا لو أنه أعطاهم من الضمانات ما يفيد أنه سيمنح مصر الاستقلال ، ولكن للأسف لم تصل الرسالة إلى روميل ، حيث كان حاملها يستقل طائرة بريطانية ، ورغم إعطائه الإشارة المتفق عليها فقد أطلق الألمان النار على الطائرة مما أسفر عن مقتله .

دراما أخرى فى حياة السادات انتهت بالفشل ، حيث يذكر أن اثنين من الضباط الألمان أرادا الاتصال به واستجاب هو لذلك بحماس ، وكان الاثنان من ذلك النوع من المندوبين غير المناسبين بالمرة ، أحدهما كان لأم ألمانية وأب مصرى ، ويتحدث العربية بطلاقة ، أما الآخر فكان سيريالى الحديث ، ولا يتحدث أى كلمة باللغة العربية ، وكان الاثنان يقضيان أمسياتهما فى نادى الكيت كات ، ينفقان مبالغ طائلة من الاسترلينى ... وكان من الطبيعى أن يجذب ذلك الانتباه ، سواء انتباه الموظفين أو البوليس ، الذى بدأ يراقبهما ، وحينما تم القبض عليهما ذكرا اسم السادات وقررا أنه زارهما فى عوامتهما ، ووجد عندهما جهازى إرسال أحدهما به محول ، فأخذه معه إلى المنزل وحذرهما من القبض عليهما ، وعندما ذهب إلى المنزل قام بإخفاء هذا الجهاز ، وعندما جاء البوليس فتش عن الجهاز ولم يجده ، بينما استخدام هو -أى السادات- مهارته التى مكنته من الإفلات من السجن ، إذ رغم توافر القرينة وشهادات الاثنين الألمان التى أشارت إلى تورطه ، تمكن من خداع قضاته وتجنب السجن ورجع إلى رفاقه الضباط فى الجيش .

وكان أحد اللواءات المصريين قد قال لوالد السادات إنه سوف يعدم إذا لم يعترف ، لكن أنور أقنع والده بأنها خدعة .

وواقع الحال ، فإن أيام حرية السادات كانت معدودة ، إذ بعد الزيارة التى قام بها ونستون تشرشل وتعيين مونتجمرى قائدا للجيش الإنجليزى ، ضيق الإنجليز قبضتهم على مصر وتم طرد السادات من الجيش واعتقاله وإيداعه سجن الأجانب .

الفصل الثالث

سنوات في السجن

حاول أنور السادات أن يبحث عن معانى حياته بصورة أعمق فى السنتين اللتين قضاهما بمختلف السجون حتى هروبه من المستشفى العسكرى فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، ففى هاتين السنتين اتجهت أفكاره نحو المستقبل وإلى نوع من الحياة سوف يتبناه حينما يسترد حريته .

ورغم أن سجنه لم يكن دائما انفراديا ، بل كان لا يخلو من صحبة ، فقد شعر السادات بالشجن والحنين تجاه قريته كى يواسى نفسه .. لقد رقد فى زنزانته وسبح بخياله إلى قريته ميت أبو الكوم ، جنة الدنيا - كما كان يراها - والبقعة التى كانت تمثل القروى الذى يقبع بداخله ، والتى منحته القوة والصلابة لكى يعايش أنظمة السجن دون أن يتضرر جسديا أو معنويا .

تعلم السادات كيف يكون أكثر مكرا وأكثر تحفظا .. حاول أن يخدع حراس السجن ومأموريه وخاصة هؤلاء الآخرين ، الذين كانوا يعتقدون أنهم الأذكى ، والأكثر ثقافة والأفضل تعليما .. كان يبدو كما لو كان ممثلا يحصل على متعته من الخداع ويستطيع أن يلعب بسهولة دور الغباء ... وهكذا فإن سنتى السجن وهروبه والفقر المدقع الذى عاش فيه بعد الهروب والمشقة التى تكبدها ، كانت كلها أمور برهنت بصورة حيوية على أنه كان لزاما عليه أن يتعايش مع سجنه الكبير فيما بعد .

ورغم عزلته عن رفاقه بالجيش كان يشعر بأنه جزء من جماعة .. وأنه جزء من الثورة القادمة فى تاريخ مصر .. حتى لقد هاجت عواطفه حينما علم أن رفاقه قرروا منح عائلته عشرة جنيهات شهريا (وهو مبلغ معتبر فى ذلك الوقت) .. إنهم رفاقه الذين كان عليهم أن يتذكروه وأن يبذلوا فى سبيله تضحيات وهو على بعد مئات الأميال .

ولا شك أن هذه الأمور كانت ترفع روحه المعنوية .. فقد كان لديه إحساس عميق بإسداء المعروف والجميل ، فى الوقت الذى كان يشعر فيه بالكراهية العميقة للأنانية المستفحلة .

إن خصوم أنور السادات الذين دفعوا ثمنا غاليا لفشلهم فى فهمه والوعى بمكره القروى وشكهم فى مقدرته على التعايش ، كان عليهم أن يأخذوا العبرة من سلوكه فى سنوات سجنه واعتقاله .

ليس بمستغرب إذن أنه حتى فى أيام يأسه خلال هروبه كان مسرورا بإهانة السلطات بهروبه وإعلانه بصراحة عن هذا الهروب ، وأنه خطط لهروبه باصطناع الإضراب عن الطعام ، والذى قاده إلى المستشفى .

إلا أن حياته كهارب لمدة سنة سببت له العديد من المشاكل ، كان أبرزها حاجته إلى مد زوجته وأطفاله بضرورياتهم ، وهو فى ذلك الحين لم يكن ليقدر على طلب المساعدة من والده .. لسبب بسيط ، وهو أنه حتى لو كانت لدى والده الرغبة فى إعطائه فإنه كان يملك بالكاد الضروريات اللازمة للعناية بوالدة أنور وأبنائها وبقية زوجاته وأبنائهن ..

وخلال اختبائه الاضطرارى غير السادات ملامحه وأطلق على نفسه الحاج محمد ، وعمل تباعا على عربة تابعة لصديقه الحميم حسن عزت . . حيث كان يأخذ الخضروات والفاكهة هو والسائق إلى معسكرات الجيش البريطانى لحساب شخص ثرى يدعى جيواى بيه (كان مليونيرا) ، وكان مجرد تاجر فى نوعيات رديئة من البرتقال ، ثم انقطع التعامل بين الرجل وضابط التعيين البريطانى ، حيث بدأ البريطانيون يحصلون على إمداداتهم من يهود فلسطين بدلا من هذا التاجر . . فاستفز هذا الأمر السادات الذى علق بأنه ربما أثبت اليهود أنهم نصابون ومرتشون ، ورغم أنه لم يكن لديه دليل على أى حادث إلا أن عمله مع هذا الرجل الثرى قد انتهى .

وحينما أعلن الرئيس ناصر قوانينه الاشتراكية سنة ١٩٦١ ومصادرة الكثير من أرصدة من أطلق عليهم أثرياء الحرب ، والذين زعم أنهم بنوا ثرواتهم بالرشوة والفساد ، قام جيواى بيه بوضع ثروته المشبوهة تحت البلاط ومضى بدونها . . وطبقا لما أعلنه

السادات فإن معظم الأغنياء قد فعلوا مثله ، وبدلا من توبيخ هذا السلوك امتدحه السادات قائلا : " على مدار تاريخهم الطويل وجد المصريون دائما طرقا لخداع الحكام المتعسفين ، الذين كانت أوامرهم عكس مصالح هؤلاء المصريين .

وهكذا اضطر السادات للقيام بممارسة العديد من المهن ، ومن بينها تلك الأعمال العضلية الثقيلة ، والتى كان يحصل فيها على أجور زهيدة ولذلك كان فقره مدقعا ، حتى أنه يقال إن إحدى بناته ماتت من سوء التغذية ، ويذكر السادات أن عربته نقلت الرخام لبناء استراحة للملك فاروق ، كما كتب بتحسر عن ذلك اليوم الذى رهن فيه الجاكيت المحبب إلى نفسه ، لكنه سار بعيدا عن محل الرهان مخافة أن يرى صاحبه ما كان يرتديه من خرق بالية تحت الجاكيت ويتهمه بأنه سارقه . . ومما له دلالة فى هذا الخصوص أن السادات وصف الجاكيت المشار إليه فى عبارات مؤثرة ، وكيف كان يفخر به ويحبه ، وكذلك اعترف بتوجسه من الملابس الأنيقة .

ومع نهاية الحرب وانتهاء العمل بقانون الأحوال العسكرية فى سنة ١٩٤٥ توقف السادات عن الاختفاء عن السلطات واستعاد طريقة حياته الطبيعية ، حيث عاد إلى منزله وأسرته بعد أن قضى ثلاث سنوات يعانى فيها من عدم المأوى ومن الحرمان . لكنه لم يشعر قط بشعور الرجل الذى يتمتع بحريته بعد خروجه من السجن ، إذ فى تقديره كان بلده مازال فى سجن مظلم ، خاصة أن السجانين البريطانيين لم يبدوا أى بادرة فى الرحيل .

ولذلك ، لم يتورع السادات عن إطلاق الرصاص على الجنود البريطانيين أو على أولئك الساسة المصريين الذين -فى رأيه- خانوا الشعب المصرى . . وكان من أكثر الناس عداوة لديه تلك المجموعة التى كانت تقاد بواسطة مصطفى النحاس ، رئيس حزب الوفد ، الذى وافق على أن يتوج رئيساً لوزراء الملك فاروق تحت ضغط الدبابات البريطانية سنة ١٩٤٢ . . إذ كتب السادات يقول :

" إن الوفد خلال فترة زمنية معينة كان يبدو وكأنه حزب الحرية المصرى العظيم ، وكان النحاس يبدو وكأنه بطل قومى " ، ويذكر السادات " أنه حينما كان صبيا بالمدرسة اعتاد أن يذهب فى اليوم مرتين ليرى النحاس ، مرة حينما كان يدخل مكتبه ، ومرة حينما كان يخرج منه . . وأنه بخضوعه لضغط وتملق البريطانيين فقد احترام الوطنيين ، وأصبح ينظر إليه على أنه خائن " . .

وأضاف السادات " إننا لذلك قررنا التخلص منه " .

ولكن الصدفة وحدها أنقذت النحاس ، فالسادات درب مجموعته الصغيرة على استخدام القنابل اليدوية ، وتلقى شاب صغير يدعى حسين توفيق - كان قد قتل العديد من الجنود البريطانيين من قبل -تكليفا بإلقاء قنبلة يدوية على سيارة النحاس ، وحينما أطلقت القنبلة أخطأت النحاس وأصابت شظاياها أتوبيسا كان يقل خادمة بريطانية .

وفيما بعد ، عقد المتآمرون تحت قيادة السادات العزم على قتل أمين عثمان باشا ، والذى لم تكن جريمته أنه وزير للمالية فى مجلس وزراء النحاس ، وإنما لأنه كان صديقا لبريطانيا . وفى هذه المرة نجح القاتل .

ففى السادس من يناير سنة ١٩٤٦ تسلل حسين توفيق - نفس الشخص الذى حاول اغتيال النحاس - إلى مبنى الحزب ، وفى البداية صرخ : باشا . . باشا ، فالتفت إليه عثمان باشا فأرداه قتيلا ، وليس من الظهر كما كان يفعل المتآمرون .

وكان السادات قد أعطى توفيق قنبلتين يدويتين للطوارئ ، فقام باستخدام واحدة فى ركن الشارع للتمويه والتعتيم ، ولكن لسوء حظه ، شاهده أحد ضباط القوات الجوية وهو يطلقها ، واستطاع هذا الضابط تحديد ملامح توفيق بدقة ، ومن ثم تم القبض عليه واستجوابه بصورة سرية ، ولم تمض فترة طويلة ، إلا وكان توفيق قد اعترف بصورة كاملة . وطبقا لما رواه السادات فإن توفيق لم يعترف لأنه خضع للتعذيب أو لأنه وجد استحالة فى خداع البوليس ، ولكن لأن محامى الادعاء

أوعز إلى الصحافة بأنهم ينبغى أن يلمحوا بأنها جريمة نفسانية ، مما أثار حفيظة توفيق ، الذى اعترف للدفاع عن سمعته وكرامته ، ثم خلال أيام قلائل كان هناك طرق على باب السادات ، وها هو يقتاد إلى سجن الأجانب دون اتهام رسمى .

وفى الحقيقة فإن عبد الناصر لو كان قد وافق على كل أفكار السادات فيما يتعلق بطرد البريطانيين ، فإن حركة الضباط كان سيتم اكتشاف خطورتها وإفنائها مبكرا . . ومن أبرز الأمثلة الدالة على ذلك أن إحدى خطط السادات فى هذا الخصوص اتجهت للزحف على سفارة بريطانيا بالقاهرة وما بها من محتلين ، لكن ناصر عارض الخطة مستشهدا فى ذلك بأنه بعد مقتل سير لى ستاك بالسودان سنة ١٩٤٢ قامت بريطانيا بعدة حالات ثأر مؤثرة . .

وبناء على ذلك ، فإنه ليس من قبيل المفاجأة أن يكتسب السادات شهرة بين أتباع ناصر الأكثر تحفظا بكونه متهورا أو حتى متوحشا ، كما أن اتصالات السادات بالإخوان المسلمين أثناء الفترة التى قضاها كهارب أو حتى حينما استعاد حريته ، رغم أنها لم تكن وطيدة أو مستمرة ، إلا إنها كانت كافية لإشباع وإنعاش رغبته فى الاندفاع وأعمال العنف لإزالة النظام الحكومى القائم وطرد البريطانيين ، وشجعه فى ذلك الاتجاه السائد بين الطلبة والمثقفين من حيث كراهيتهم للنظام الحاكم والبريطانيين ، وقد علق السادات على ذلك بقوله : " الآن . . يشعر السياسى والمثقف الواعى فى الشارع مثلى بأن الأمور يجب أن تتغير ، ما الذى يبدو مستحيلا الآن ؟ . . ومن خلال تطلعنا يبدو أننا فى نصف الطريق لكسب المعركة . . " .

غير أن السادات لم يكن صريحا أو مخلصا فى اتجاهه إلى العنف لإزالة أولئك الذين اعتبرهم محتلين ومغتصبين ، ولكنه حينما رأى أن الضباط تحت قيادة ناصر تزداد قوتهم ، طالب بأن يمثل الجزء المسلح المنظم من أجل نظام ناصر الثورى ، ولذا فإنه فى وصفه للاغتيالات السياسية يقول : " كانت مناقضة لمبادئ الثوريين . . إذ أن تمجيد العنف يعتبر مميتا ، خاصة بالنسبة لذوى الدم الحامى بالشرق ، لأنه يعتبر إطلاقا لمعظم الغرائز الحيوانية " .

إن الفترة التى قضاها السادات بالسجن وما تلاها من عيشه فى فقر مدقع ، وإن كانت قد أكسبته صلابة وخبرة ، إلا أنها حتماً تركت جرحاً غائراً فى شخصيته . حيث لاقى فيها الذل والمهانة وعاش فى أجواء تنقصها الرعاية الصحية ، ومن هنا شعر بأنه لا يمكن أن يعوقه أو يمنعه بشر عن تحقيق هدفه المحدد .

إن السجن علمه الصبر وأكسبه درجة أكبر من القدرة على الخداع ، فقد لاحظ أن الآخرين مستسلمون لرعب المكان ، وبلا أمل ، وفى حالة نفسية سيئة يرثى لها ، أما استجابته الخاصة فتمثلت فى زيادة حدة نفوره وكراهيته للنظام الفاسد الذى يوقع مثل هذه المعاناة على مواطنيه ، وفى التصميم الذى لم يتركه على أن يقوم بإنجاز ثورة .

إن الزنزانة رقم ٥٤ بالسجن لم يكن بها سرير ولا منضدة صغيرة ولا كرسى ولا مصباح ، بل كانت خاوية تماما إلا من حصيرة لا تكفى لأن ينام عليها رجل وبطانية قذرة ، والحوائط كانت تنضح (تنشع) فى فصل الشتاء ، بينما تظهر الحشرات فى فصل الصيف ليتعذب منها السادات . ومن أجل إحباط الروح المعنوية للمساجين كانت السلطات تجبرهم على استخدام حمامات غير صحية بصورة جماعية ، جزم السادات بأنها كانت تسبب الأمراض . .

وفى الحقيقة وصمت السجون المصرية حينذاك بكلمة "الجرب" . [وفى حالة السجن المركزى كانت الأمور أكثر سوءا ، حيث وقع عدد كبير من المساجين فريسة للأمراض ، وكانت فرص استردادهم لصحتهم تكاد تكون معدومة ، وعلى حد تعبير السادات كان السجن هو الجحيم الذى حطم قوة إرادة الضحايا . . إذ عاش السادات لمدة ١٨ شهرا فى هذه الحفرة الجهنمية غير قادر على القراءة أو الكتابة أو حتى سماع الراديو ، ولكنه لم يكن تمثل المساجين المتهمين فى حوادث قتل ، وإنما عاش بروح معنوية غير منكسرة ، وهنا استمد بقاءة من الخشونة والصلابة التى اكتسبها فى قريته المحبوبة من ناحية ، ومن استحضاره قسوة النظام من ناحية أخرى ، لدرجة أن السلطات كانت تشكو إحباطه محاولتهم الرامية إلى الحصول على اعتراف

ضد قتلة أمين عثمان بذكائه ، ذلك أنه - أى السادات - نصح المستجوبين بكيفية عدم إيقاع أنفسهم ، ولم يجد تحرجا أو تأنيبا للضمير فى أن يكذب كذبا شائنا أو يدلى باعترافات مزورة تحت وطأة التعذيب الذى كان يتلقاه من الضباط ، باعتبارهم يخدمون نظاما شيطانيا .

وقد رأى السادات أن التقدم المرغوب فيه تمثل فى إعادة ظهور الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ، والذى اتصل بطلعت أخو السادات وأخبره بأن الإخوان قرروا إرسال عشرة جنيهات شهريا لأسرة السادات ، خاصة أن رفاق الجيش كانوا قد توقفوا عن إرسال هذا المبلغ لتلك الأسرة بعد هروبه من سجنه الأول ، وقد كتب السادات عن ذلك مؤخرا " الله يسامحهم " .

هذه النقود كانت تثبت بما لايدع مجالا لأدنى شك الأهمية الكبرى للسادات وأسرته ، خاصة أن أخيه طلعت كان فقيرا لدرجة أنه لم يكن قادرا على شراء قدر من الفاكهة لأخيه السجين ، والتى اعتاد هذا الأخير على أن يتلقاها صباحا معتقدا أنها تقيه العدوى ، وهو الاعتقاد الذى لازمه طوال حياته ، مما كان يدهش زوجته وموظفيه . تمكن السادات أيضا من استئجار - سرير ومنضدة وكرسى وكان هذا أمرا غريبا وشاذا ، علق عليه السادات فيما بعد قائلا : " إن الموجودين بسجن الأجانب والخارجين على القانون يتمتعون بظروف أفضل من المسجونين المصريين العاديين فى السجون العامة ، ففى الوقت الذى يحتاج فيه الأخيرون أثاثا لزنازينهم التى يرثى لها ، يحصل الأولون على أسرة مريحة وكهرباء وطعام جيد " .

لذلك كان السادات مكتئبا ومشمئزا من حالة السجون العامة مثل سجن القاهرة المركزى ، وحينما تولى الرئاسة وأتيحت له الفرصة فى سنة ١٩٧٥ قام باستخدام "قدوم" فى ضرب أول ضربة رمزية لتدميره ، إذ تخيل أنه يحطم حائط سجنه السابق بضربه هذه الضربة ، وعندئذ ظهرت صراصير لا تحصى ، واستمر فى الضرب بحرقة وغيظ معتقدا أنه حطم سجنه الجهنمى الأول وسط دهشة الضباط المحيطين

الذين سألوه أن يكف ، لكنه استمر فى ضرب القوالب المبتلة والمتعفنة ، وقد كتب عن ذلك مدفوعا بمشاعره المستشيطة : " إن أى سجن من هذا القبيل يجب أن يدمر ويستبدل بآخر يكون مناسبا لآدمية الإنسان "

ولكونه أصبح الرئيس فقد شرع فى بناء سجون تتميز بظروفها الصحية الملائمة وبالأدوات المريحة ، والتى يمكن من خلالها حفظ كرامة الانسان على الأقل . ورغم أن رواد هذه السجون كان هو ذاته الذى قام بسجنهم إلا إنهم كانوا ممتنين لتقديره إياهم .

وعندما نعاود الكلام عن فترة السجن ، نجد أنه عندما تم نقل المتآمرين الآخرين إلى السجن المركزى ، أصبح السادات ناصحا ماهر لهم فى تلقينهم الكيفية التى من خلالها يمكنهم المناورة مع محامى الادعاء ، وكان محامو الدفاع مسرورين لذلك ، خاصة أنهم نصحوا موكليهم بسحب الاعترافات التى أدلوا بها ووبخوهم على إذعانهم بسرعة للسلطات صارخين فيهم " لو أنكم فقط استمعتم لأنور السادات ، إنه رجل وأنتم صبية . " (فى هذا الوقت كان السادات يبلغ من العمر سبعة وعشرين سنة ، بينما كان أكبر المتهمين يبلغ اثنتين وعشرين سنة ، فى حين لم يتعد عمر أصغرهم أربع عشرة سنة) .

إن محن السادات لم تقتصر على وجوده فى الزنزانة ٥٤ بسجن القاهرة المركزى ، لكنه رغم معاناته الشديدة أسس فلسفة جديدة للحياة والثقة الدينية ، إذ دفعه جلوسه ليل نهار منعزلا فى هذه الزنزانة القذرة إلى التفكير فى حياته الشخصية ومعتقداته السياسية والدينية ، وكيف أنه تزوج صغيرا – كما يحدث بالقرية ، لكنه لم يفعل أي شى لرفع معاناة زوجته . . فهى لم تكن مهتمة بالسياسة ، ولا بالثورات ، بل حياتها كلها انصبت على أطفالها وكيفية إطعامهم ، وقد كانت تفخر بأن زوجها ضابط بالجيش المصرى ، ولكنها كانت محتارة ومستاءة من جراء أنشطته الخطيرة وسجنه الطويل .

وبناء على ذلك تولدت لدى السادات قناعة بأن يطلقها ، لكنه ظل يعذبها حتى حصل على الإفراج ، وقد أدرك أنها زوجة مخلصة ، وليس ذنبها أن اهتماماتها لا تتماشى واهتمامات زوجها غير العادية . . وهكذا درب نفسه ، وعندما كان تلميذا بالحربية قابل فتاة تربت تربية حسنة ، كانت تتعلم الفرنسية ، واعتقد أنها سوف تكون زوجة مناسبة له عن زوجته ، لكنه شعر بالخجل لأنه ليس من ذوى الأصول الملكية .

هذه الأفكار كانت تنتاب السادات وتعاوده وتقض مضجعه ، وأخيرا قرر أن يرسل رسالة إلى زوجته ، ليس لزيارته فى السجن ، وإنما بما عقد العزم عليه .. ومما يثير استغراب أى فرد يؤمن بالأفكار والقيم العربية هو مدى قسوة السادات فى خطوة كهذه . إن السادات فى وصفه لمحنته لم يذكر اسم زوجته إقبال عفيفى - كما أنه فى مطلبه الغريب قرر أن عائلته وعائلتها أقارب ، وهذا لم يكن حقيقيا ، ولكن من الممكن أن يكون السادات غير واع تماما حينما ربط نفسه بعائلة زوجته ، لأنها كانت أعلى من حيث المستوى الاجتماعى .

وفوق كل ماسبق ، كانت الزنزانة ٥٤ هى المكان الذى ظل فيه السادات ساعات مفكرا فى علاقته بعبد الناصر . . وحينما كتب السادات عن ذلك فى سيرته الذاتية كان بالفعل رئيسا بينما كان عبد الناصر ميتا ، ومن ثم استطاع أن يذيع علاقتهما الغريبة كاملة . . وفى هذا السياق أشار إلى أنه استرجع بالسجن حالتهما المزاجية وصداماتهما . . وكيف أشيع بعد الثورة أن اختياره كخليفة لناصر قد جاء نتيجة لعدم أهميته وتفاهته بالقياس لرفاقه ، وأنه على خلاف رفاقه لم يقف ضد ناصر ، وأن الطرح الذى ساد آنذاك هو أن رفاقه لن يعارضوا اختياره نائبا للرئيس أو تعيينه خليفة له ، لأنه كان يعد بلا قيمة من الناحية السياسية .

وينبرى السادات لدحض ذلك مكرسا فكرة أن ناصر استطاع انتزاع قيادة الضباط الأحرار فقط حينما كان هو بالسجن .

إن السادات رغم تقريره بأنه كان مخلصا للقائد فإنه قام بانتقاد سياسات وأسلوب ناصر . . ورغم تقريره بأنه كان سعيدا حينما أصبح صديقه رئيسا لمصر وقائدا للعالم العربى ، إلا أنه علق مضيفا "لكنه أحاط نفسه بهالة من المجد" ، وهكذا فإن التعليق الذى كان غير مقصود أفشى مشاعر السادات الحقيقية .

ورغم إدعائه بأن حبه لناصر كان حبا حقيقيا ، جعله يلازم ناصر فى النصر والهزيمة ومنعه من أن يتعارك مع القائد ، إلا أنه قرر أن الشفقة أيضا لعبت دورا فى هذا الاتجاه ، ففى رأى السادات كان ناصر رجلا غير سعيد ، وغير قادر على أن يتمتع بثمار السلطة حينما آلت إليه . . لقد مات دون أن يتعلم ، أنه كان مغيبا بصورة سيئة عن المشاكل الوطنية والملكيات المشبوهة لرفاقه . . كذلك فإن القلاقل الدائمة نخرت فى قلب ناصر ، الذى انهار بالفعل ، وأن هذه المشاكل غير المحلولة كانت تركة خطيرة لخلفه .

ولم تقف انتقادات السادات لناصر عند هذا الحد ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك ، حيث اتهم السادات "ناصر" بنقص الرؤية الواضحة لمستقبل دولته ، والتكلفة الباهظة لرؤيته الثورية تحت دعوى أنه سوف يخلق حياة جديدة للمصريين . .

ويضيف السادات ، أن ناصر فشل فى أن يوائم بين تطلعات مواطنيه وتطلعاته هو ، والتى كانت أبعد ما تكون عن طموحات مواطنيه ، حيث ضيق عليهم وضيع فرصهم فى تحقيق الاكتفاء الذاتى .

لقد اعترف السادات بأن سنواته كعضو من أعضاء مجلس الثورة حطمت سلام العقل الذى اكتسبه فى سجن القاهرة المركزى ، رغم أنه كان مضطربا فى أوقات عديدة ، أبرزها حينما سمع بالهزيمة المهينة لمصر فى سنة ١٩٤٨ .

ومهما كان الأمر فإن السادات كان سعيدا حينما سقطت إدانة المدعى عليهم فى قضية عثمان بنصر كبير للدفاع ، واقتصرت الإدانة فقط على المدعى عليه الرئيسى .

وحينما سمع السادات الحكم شعر بأن عليه القيام بمهمة عاجلة بمجرد إطلاق صراحه ، ولذلك ما إن حدث ذلك حتى توجه إلى حلوان ، بدلا من أن يتوجه لرؤية زوجته وأولاده بمنزل القاهرة ، حيث استأجر حجرة هناك بمقابل زهيد حتى يتسنى له التخطيط لمستقبله .

ولم تمض فترة طويلة حتى قذف به فى حمى الأنشطة الثورية التى قادت إلى الانقلاب على نظام فاروق الفاسد .

وليس من قبيل المبالغة على الإطلاق القول بأن المعاناة التى لاقاها السادات فى السجن كانت لها فائدتها فى تقوية شخصية السادات أكثر من أن تكسرها كما حدث للآخرين ، وفى تلك الفترة استطاع السادات بناء عدد من الصداقات فى السجن لقناعته بأن الإخلاص من جانب الأصدقاء يعتبر عاملا جوهريا فى حياة المرء . وعلى النقيض من ذلك فإن الخيانة من الأصدقاء تجعل الوجود البشرى ينحط إلى أدنى مستوى .

كذلك بنى السادات فى سجنه علاقة روحية مع ربه ، لأنه رأى أن الاتجاه إلى الإله المعبود أحب إليه من الثأر ، وأنه لن يخذله ويتركه .

وزعم السادات أنه بسبب علاقته الجديدة بالله كانت الأشهر الثمانية الأخيرة بالسجن هى الأسعد فى حياته .

إن السادات أراد أن يخلق أناسا مبتسمين يتمتعون بحياتهم ، وتخيل عالما فاضلا (مثاليا) جديدا .

أما فيما يتعلق بتعليقنا على فشله فى النهاية ، فإن ذلك لم يحدث لأنه كان متعبا من محاولته إنجاز أهدافه ، وإنما يرجع ذلك بالأساس إلى إهماله الكم الهائل والضخم من المشاكل الذى واجه دولة متخلفة اقتصاديا وعلميا كمصر ، وإلى أنه لم يقدر بصورة كلية الحقد والتعصب العميق الذى أغلق عقول الملايين من مواطنيه ، والذى دفع بعضهم لاغتياله فى اللحظات التى كان يتمتع فيها بنصره العظيم .

ومن الأمور التى تجدر الإشارة إليها أن أنور السادات اكتشف فى السجن أنه محتاج لحب طرف آخر حبا جسديا ، حب امرأة . . فقد تزوج صغيرا ، لأنه كان متوقعا له ذلك ، لكن بالرغم من أن زوجته أنجبت له أربعة أطفال ، مات أحدهم فى فترة رضاعته نتيجة لسوء التغذية النابع من الفقر ، إلا أنه لم يكن يشعر بحب جسدى عميق تجاهها .

وقد قرر مؤخرا . . أن حب المرأة كان أعظم نعمة ممكنة فى حياته مكنته من إنجاز العديد من رغباته ، وبدون هذا الحب يبدو الرجل عجوزاً دون الشعور بأنه قد عاش على الاطلاق . .

ومن المؤكد أنه قصد بهذه التطبيقات تفسير وتبرير هجره لزوجته وزواجه من جيهان الجميلة والمتحدثة البارعة . ويحتمل كذلك حقيقة أنه بدون الاستقرار الذى منحته إياه ، وبدون الانجاز الذى أمده به الزواج فإنه كان سيصاب بنقص الثقة فى التصدى لناصر وتحدى خصومه فى الصراع الدراماتيكى على السلطة والبقاء .

الفصل الرابع

مقابلة مع جيهان

تبنى السادات اتجاها دفاعيا واضحا حيال دوره المبكر فى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ والتى أزاحت نظام فاروق ؛ بما كان يتسم به من فساد ورشوة . . ذلك لأنه كان يخشى أن يبدو أقل بطولة من رفاقه فيما يتعلق بتلك الليلة الحرجة للثورة ، ويبدو أن انعتاقه من السجن لم يسبب له السعادة أو السرور إذ قضى حوالى ٣١ شهرا فى حيرة ، شاعرا بأنه ولد فى عالم جديد .. كما أن سلام العقل الذى اكتسبه فى السجن قد عزله ظاهريا كما لو كان قد جلس يقرأ فى الحدائق اليابانية بحلوان ؛ تلك المدينة الصغيرة التى تشتهر بمياهها المعدنية ؛ والتى كان يستخدمها فى علاج عسر الهضم وهذا ما ظهر بجلاء فى إعراضه عن مصاحبة البشر ، وعدم الرغبة فى التحدث ، وعدم القدرة على بذل أى مجهود .

وقد انعكس ذلك على حياته فى المستقبل ، إذ كان كلما واجهته مشكلة عويصة أو تكدست عليه المشاكل كان يخلد إلى العزلة .. وكان يجد صعوبة فى قيادة سيارته فى زحمة المرور حينما كان يسير بالقاهرة ، رغم أنه كان يعتز بالقيادة .

ومن ثم تبنى اتجاها جديدا فى حياته .. ولكن ما الدور الذى كان منوطا به أن يلعبه ؟ وإلى أى الأهداف يجب أن يمتد بصره ؟ .. وكيف يمكنه الحصول على الإشباع والشعور بالرضا بوصفه وطنيا مصريا .

وقد تأثرت حياته بمقابلتين غيرتا مجرى هذه الحياة ، إذ لم ينسه صديقه القديم حسن عزت ، الذى ظهر فى حجرته (السادات) بصورة غير متوقعة قائما يصلى ، وكان السادات قد بدأ يتعثر ماديا ، فأقنعه حسن بأن يذهب معه إلى بيته بالسويس ، وحينما لاحظ حسن ملابس السادات القديمة قام بشراء بدلة وقميص جديد له .

بيد أن مجهودات حسن التى بذلها من أجل صديقه ، لم تكن إيثارا كاملا أو خالصا لهذا الصديق ، إذ كان حسن لديه مشاكل مع شركائه فى أعماله ، واعتقد أن السادات ـ الذى اعتبر بطلا فى حالة عثمان ـ سوف يثقل وزنه فى خلافه مع شركائه

حيث لاحظ السادات أنه بعد أن ساعد حسن فى إقامة عدد من التعاملات مع السعوديين ، أعطاه الأخير أقل من نصف الأرباح التى كانت مقررة له ، ومع ذلك كان هذا المبلغ ضروريا للسادات ،الذى عاد إلى حلوان للاستمرار فى العلاج ، واحتفظ بالنقود فى خزينة الفندق .. وهكذا أصبح قادرا على أن يدفع من أجل المعيشة الجيدة التى كان قد اعتاد عليها .

ولكن الشئ الذى كان أكثر أهمية للسادات من النقود هو مقابلته مع جيهان رؤوف ، التى كانت تبلغ من العمر ستة عشر عاما أثناء زيارتها لابنة عمها وزوجة حسن .. والد جيهان كان مسلما ، أما والدتها فقد كانت إنجليزية ، تعتز بأصولها وتصر على التحدث بالإنجليزية ، كما أنها نقلت العديد من القيم الإنجليزية الى البيت الذى كانت تقيم فيه.

وكان السادات مفتونا بجيهان التى كانت ظريفة وجميلة ومتحدثة بارعة بصورة لم يرها السادات فى أى سيدة أو فتاة . . باختصار وجد فيها السادات أنها المرأة التى تتوافق وأفكاره ، والاحتمال الأرجح أنه شك فيما إذا كانت ستقبل الزواج منه أو حتى أن يكونا أصدقاء.

والانطباع الذى أورده السادات فى سيرته الذاتية يوحى بأن زواجهما قد تم مباشرة .. ورغم أننا لم نعرف انطباع جيهان الخاص وتفسيراتها لحياتها مع أنور السادات ، إلا أنه من الواضح أن والديها لم يكونا مسرورين لأن يطلب السادات يد ابنتهما الجميلة الصغيرة .. إذ أن السادات قضى سنوات بالسجن ، كما أنه معزول من الخدمة ، وليست لديه وظيفة أو حتى مهنة ، ولم تكن النقود التى حصل عليها من الصفقة التجارية بالمبلغ المغرى ، الذى يمكن من خلاله اجتذابهم ، والأهم من ذلك أن أنور السادات كان رجلا متزوجا ولديه أطفال .

على أية حال ، فقد استطاع أن يحصل على موافقتهما كزوج لابنتهما بصعوبة بالغة ، بعد أن قدم نفسه على أنه يوم ما سوف يوفر الحياة المريحة لجيهان الجميلة ، كما وعد والديها بأنه سوف يبحث عن وظيفة محترمة ، هذا من ناحية ،

ومن ناحية أخرى كان والد جيهان – وهى – يأملان أنه سوف يعود إلى وظيفته المحترمة بالجيش ، وهو الأمر الذى كان هو نفسه يأمله وفوق كل ذلك كان هناك حماس جيهان الرومانتيكى للاقتران بالسادات ، إذ كانت ترى صورته بالجرائد يوميا أثناء التحقيق فى قضية مقتل عثمان ، وكان بالنسبة لها ـ كما كان بالنسبة للعديد من الشباب ـ بطلا أعد لكى يبذل حياته فداء للشعب المصرى ، لكنها قبل زواجه منها أصرت على أن يطلق زوجته الأولى ، وهو الشئ الذى كان قد خطط له من قبل ، ومن ثم لم تكن هناك مشكلة .. ومع ذلك لم يهجر زوجته الأولى ولا بناته الثلاث ، إذ كان يرسل إليهم النفقات بصورة منتظمة ، وتدريجيا أخذ اثنتين من بناته إلى حيث تقيم زوجته الجديدة .

وفيما يتعلق بعودته إلى الجيش ، فقد كان هذا هو الحدث الذى لو لم ينجح لما تأتى أن يكون له دور فى الثورة ولا أن يصل إلى الرئاسة.. أما عن الكيفية التى أعيد من خلالها إلى منصبه فيوجد لها تفسيران على الأقل أولهما يمثل تفسيره الخاص ، والذى يبدو مقنعا ، حيث كتب السادات أنه كان على اتصال بالدكتور يوسف رشاد ، الذى كان صديقا له أثناء الخدمة ، واستعطفه أن يساعده فى العودة إلى الجيش ، لاسيما أنه قد برئ من جريمة قتل عثمان .. فاتصل رشاد بحيدر باشا فى رئاسة القوات المسلحة ، والذى وافق على أن يرى السادات ، وفى الوقت الذى اقترب فيه السادات من حيدر باشا بدأ الأخير يوبخه قائلا : (إنت عامل مشاكل وسجلك أسود).. وحينما حاول السادات أن يتكلم أسكته حيدر باشا قائلا (أنت لست بحاجة لأن تتكلم ، اسكت ، لا تقل ولا كلمة) .. والتفت حيدر باشا إلى سكرتيره الخاص ، وأعطاه أمرا عاما (هذا الولد يعاد إلى منصبه فى الحال ، من اليوم) .. وعلى هذا الأساس ، أعاد الأمر العسكرى السادات إلى منصبه فى ١٥ من يناير سنة ١٩٥٠ برتبة (يوزباشى) تلك الرتبة التى كان عليها حينما عزل من الجيش ..

وقد علق السادات على ذلك بأن رفاقه كانوا قد رقوا مرتين إلى رتبة رائد أولا ثم إلى رتبة مقدم ثانيا .

وهى نقطة كانت تنغص السادات رغم سعادته بتلك اللحظة التى عاد فيها إلى الجيش ، وذلك لأن الرتبة كانت ستلعب دورا ما فى صراعاته التالية مع رفاقه بمجلس قيادة الثورة .

أما التفسير الثانى لكيفية عودة السادات إلى الجيش فقد قدمه الصحفى والكاتب محمد حسنين هيكل ، وهو يعتبر تفسيرا عدائيا ، إذ أضاف هيكل أحداثا دراماتيكية متنوعة على القصة التى ساقها السادات ، إذ كتب يقول (إن الدكتور يوسف رشاد قد طلب من السادات أن يقدم نداء مباشرا الى الملك فاروق ، حينما يذهب إلى صلاة الجمعة بمسجد الحسين بالقاهرة ، وكان على السادات أن يقبل يد الملك طالبا العفو عن أى شئ ارتكبه خطأ ، فأومأ فاروق برأسه مشيرا إلى معرفته ، وقد أدى هذا إلى إعادة السادات إلى منصبه). هذا الحادث - المزعوم - استخدم ضد السادات لاحقا فى صراعه مع مجلس قيادة الثورة .

وزعم هيكل أيضا أن السادات كان على صلة بالقصر أثناء فترة وجوده بالسجن ، وأنه حصل على جميع المزايا التى ترتبت على هذه العلاقة ، ويستدل هيكل على ذلك بأن الملك فاروق وموظفى القصر استخدموا شخصيات مهمة ومجرمين لاغتيال الشخصيات التى كانوا يخشونها أو يكرهونها .

غير أن السادات لم يخف سرا برغبته فى اغتيال الرجال الذين اعتبرهم خائنين لشعب مصر ، ولو أن السادات كان يعتقد أن الاتصالات مع الملك سوف تساعده أو تساعد المسألة الوطنية ، فليس هناك سبب مقنع لعدم رغبة السادات -فى صغره- فى المشاركة فى النظر إلى الملك فاروق كوطنى يتصدى للسيطرة البريطانية .

ومن هنا ينبغى على المرء أن يأخذ دعاوى هيكل بحذر ، فهى تضع السادات فى صورة "هامشية وإلى حد ما مبهرجة عبر ما تحتويه من اتهامات حادة عن الصراعات التى دبت فى مجلس قيادة الثورة ، وعبر ما كرسته عن أن السادات كان له مواطن ضعف ، وأنه كان أبعد من أن يتغلب على نفسه .

والرد على ذلك ، أنه لو كان السادات قد استخدم البهرجة فإن ذلك كان بغرض يخدع لا أن يُخدع .

كذلك قدم هيكل اتهاما هشا ضد السادات بأنه كان حساسا إزاء لون بشرته أسود الموروث من والدته (ست البرين) .. ابنة عبد زنجي سابق .. فهل كان هيكل حقا فى ذلك ؟

إن السادات قال عن ذلك : (كنت شابا صغيرا ، ذا شكل رقيق ، قوى البنية ، ذا لامح جيدة ، صحيح أننى لم أكن أبيض ، لكننى لم أكن أسود تماما ، فقد كان سوادى أقرب للحمرة) .

وننتقل الآن إلى نقطة أخرى ، وهى ميل السادات للتمثيل والذى ظل ملازما له حتى لأيام الأخيرة من حياته .. حيث قال السادات فى مقالة له نشرت بجريدة الجمهورية التى صبح محررا بها بعد الثورة : (طوال حياتى وأنا منجذب نحو التمثيل ، وفى عام ١٩٣٠ قبل أن أذهب للكلية الحربية ، كنت دائما أسعى لمقابلة أى شخص يمكن أن يمنحنى دورا فى مسرحية ، ورأيت إعلانا لأمينة محمد تطلب فيه وجوها جديدة لفيلم ستقوم بانتاجه مع الصينيين تحت اسم "تيتا وونج" ، ولذلك ذهبت للشركة فى شارع ابراهيم باشا ووقفت فى الصف مع بعض المرشحين الآخرين ، وجاءت أمينة ورأتنا ، كنا حوالى ٢٠ شابا ، لكن لسوء الحظ اختارت اثنين لم أكن واحداً منهما ، وقالت للباقين منا : أرسلوا صورتين ، إحداهما كاملة الوجه ، والأخرى منظر جانبى ، ولكننى فيما بعد وجدت أن هذه أسهل طريقة للتخلص منا) .

وقد فند هيكل المقالة مقررا أنها احتوت على اعتراف من السادات بأنه فى وقت من الأوقات سمى نفسه الحاج محمد رغم أنه لم يحج إلى مكة كجزء من التمثيل . وكنتيجة مباشرة لحب السادات للتمثيل وقدرته على التمثيل كان السادات ولعا بالملابس الأنيقة ، حتى حينما أصبح رئيسا ، وقد كتبت جيهان عن ذلك بتأثر ولكن بصورة مضحكة (عن أزياء زوجها التى كان يأمر بها بعناية فائقة)..

وقد كان ولع السادات بالملابس الأنيقة مجالا لأن يسجل البعض ملاحظة جديدة على الجيش والثياب الرئاسية .. وأعنى تحديدا هيكل الذى كانت لديه كل المبررات لكراهية السادات وعداوته (أنكر هيكل هذه العداوة) ، خاصة أن السادات كان قد وضعه بالسجن .. ففى كتابه "خريف الغضب" وفى ضوء اغتيال السادات سنة ١٩٨١ ، ظهرت مشاعره الحقيقية حينما اتخذ صورة للسادات معلقا عليها بعبارة (الزى العسكرى بالتسريح) .

وحتى تكتمل الصورة يجب أن نعرف ما الذى تم فى علاقة السادات بالجيش والضباط الأحرار ؟

طبقا لرواية السادات الدفع ناصر لتهنئة السادات وتشجيعه على اجتياز اختبارات تدريبية لكى يحصل على ترقية سريعة ، والتى اجتازها السادات بالفعل حتى وصل إلى رتبة مقدم .

والأكثر من ذلك أهمية أن "ناصر" أبلغه بالنمو السريع لحركة الضباط الأحرار ، رغم أن "ناصر" نصحه بألا يلعب دورا تآمريا مكشوفا مع جماعة الضباط الأحرار ، بسبب ملف سجنه ومراقبته بواسطة البوليس السياسى .

لكن فجأة ، قام ناصر بإعطاء السادات خريطة توضح توزيع الضباط الأحرار فى مختلف وحدات الجيش ، ويبدو هذا المسلك من قبل ناصر متناقضا ، لكن ربما اعتقد ناصر أن السلطات قد رفعت أيديها عن السادات بعد أن عاد إلى منصبه فى الجيش .

إلا أن أعداء السادات ادعوا فيما بعد أن دور السادات كان محدودا لرؤيته غير مناسب للالتحاق بقيادة المجموعة ، حيث طرح هيكل أنه كانت هناك معارضة قوية لناصر بين قيادة الضباط الأحرار حول موضوع السادات .. لكن ناصر شجعهم بأن السادات أقل وزنا فى صنع المشاكل ، وهكذا فإن ناصر قد قبل السادات على احتمال أنه لن يكون ذا قيمة .

وطبقا لرؤية خصوم السادات ، فقد قرر ناصر أن يتعامل مع السادات بحذر . ومن جانبه ادعى السادات أنه هو الذى ألحق "ناصر" بمجموعة الضباط الأحرار ، وأضاف أن تاليه فى القيادة كان عبد المنعم عبد الرؤوف ، والذى كان على صلة بالإخوان المسلمين والشيخ حسن البنا ، إذ بعد أن عاد ناصر من الحرب فى السودان فى أواخر سنة ١٩٤٢ ، اتصل به عبد المنعم عبد الرؤوف وعرض عليه ضرورة أن يلتحق بالضباط الأحرار .. ووافق ناصر على العرض ، وبعد ذلك لم يجد صعوبة أو مشكلة فى أن يحل محل عبد المنعم فى القمة ..

ولكن التذبذب فى وصف السادات لإحساس ناصر بالزعامة والقيادة يعتبر أمرا ملحوظا ، كذلك ذكر السادات أنه لولا سياسته فى إلحاق البارزين فقط من الضباط بالمجموعة الثورية ، لما تأتى لناصر الالتحاق بالضباط الأحرار .

ولاشك أن هذا يتناقض مع ما ذكره السادات حينما كان ناصر حيا ، حيث قال : (كان حوله مجموعة من الشباب، اعتاد ناصر أن يتحدث إليهم ويعلمهم .. كنا كلنا معجبين به .. كنا نراقب صمته ونتساءل : فيما يفكر ؟.. وبعد ذلك يتحدث جمال إلينا ، شارحا لنا أن البريطانيين هم مصدر كل مشاكلنا.. جمال جعلنا كلنا كبارا بما هو سابق لأوانه .. جعلنا نشعر بأننا يمكن أن نتحمل كل أعباء مستقبل بلدنا على أكتافنا) .

شئ آخر أشار إليه السادات يؤيد هذا التناقض ، وذلك عندما أشار إلى إعلان ناصر بأن السادات ركن مهم فى الثورة القادمة . بمعنى أن القرار كان قرار ناصر وليس السادات ..

أما عن مظاهر الولاء والانتماء بينهما فقد علق السادات قائلا : (بالرغم من أننى ابتدعت تنظيم الضباط الأحرار بالأساس ، فقد ظللت بعيدا عنه لمدة ٨ سنوات .. منذ سنة ١٩٤٢ [حينما رفت من الجيش] حتى سنة ١٩٥٠ [حينما رددت الى منصبى] .. ومع ذلك فلم يكن ناصر من ذلك النوع من الرجال الذى ينبغى أن يُشجع بمثل هذا الولاء من الآخرين ، اللهم إلا فى حالة الصداقة الطويلة والشديدة كما فى

حالة عبد الحكيم عامر ... ورغم أننى وناصر تعرفنا على بعض منذ كان عمرنا تسعة عشر عاما ، إلا أننى لا أستطيع الادعاء بأن علاقتنا كانت تتعدى الثقة والاحترام المتبادل ، إننا يمكن أن نسميها بالكاد صداقة) .

وواقع الحال ، فإنه لم يكن من السهل بالنسبة لناصر أن يتخذ أى شخص صديقا له بسبب ميله الشديد للحذر والشك ..

ومن ثم -طبقا لرؤية السادات- كان ناصر مدركا أنه يجب أن يشكل له صحبة مخلصة وموثوقا بها ، وقد أجمع ناصر على أن السادات رجل ذو مبادئ عالية وقيم رفيعة ، وأنه برهن على أنه رفيق مخلص .

أما عن سر إدلاء ناصر بهذا الرأى عن السادات فليس معروفا ، ولكن التفسير ينصب على أن السادات كان متحدثا جماهيريا وصحفيا .

وفيما يتعلق بالثورة ، فقد بدأ ناصر إلقاء دروس فى الثورة بفكرة فاشيستية تتمثل فى أنه تم التخطيط لأن يستولى الضباط الأحرار على السلطة سنة ١٩٥٥ ليمنحوا أنفسهم فترة كافية للإعداد ، ولكن انفجار يناير سنة ١٩٥٢ ، وما قام به الغوغاء من سلب ونهب بالقاهرة ، وإشعال النيران فى مبان عديدة ، قد دفعهم لتغيير خطتهم .

ونظرا لأن الجيش قد استدعى للحفاظ على النظام فى المدينة ، فقد قرر الضباط الأحرار أن يبدأوا ثورتهم فى نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، خاصة أن الملك فاروق كان على وشك أن يعين وزيرا جديدا للحربية هو اللواء حسين سرى عامر ، والذى كان يعرف شخصيا العديد من أفراد الضباط الأحرار ، وبالتالى كان سيقبض عليهم بصورة سريعة . وقد زعم السادات فيما بعد أن ناصر أقام معه مناقشات طويلة عن الثورة القادمة ، وأنه ـ أى السادات ـ اقترح اغتيال اللواء حسين سرى كاستهلال للثورة ، لكن "ناصر" رفض اتخاذ مثل هذه الخطوة الخطيرة .

كما ادعى السادات أيضا أنه نصح "ناصر" بطرد بعض رفاقه المنازعين ، لكن لسبب غير معروف رفض ناصر ذلك .. إذ قال عبد الناصر : يجب أن تتم الثورة فيما بين ٢٢ من يوليو و ٥ من أغسطس .

وفى ٢٢ من يوليو ترك السادات وحدته فى طريقه إلى القاهرة متوقعا أن "ناصر" سوف يقابله على محطة السكة الحديد ، كما كان معتادا ، ولكن "ناصر" لم يأت .. فاعتقد السادات أن الوقت مازال مبكرا على حدوث الثورة ، فذهب للمنزل وأخذ جيهان للسينما ، وكان هناك برنامج إعلانى طويل عن الأفلام التى ستعرض مستقبلا ، أحدها كان دراما شارك فى تمثيلها رونالد ريجان ، الذى أصبح رئيسا للولايات المتحدة فيما بعد .. ومن المواقف الطريفة أن السادات حينما تحدث مع رونالد ريجان فيما بعد عن فيلمه فى هذه الليلة الدامية (٢٢ من يوليو سنة ١٩٥٢) تعجب ريجان قائلا : "إذن أنا كان لى دور فى الثورة المصرية " .

وحينما عاد السادات إلى منزله قرب أو بعد منتصف الليل ، وجد رسالة مكتوبة من ناصر يطلب منه فيها أن يذهب إلى منزل عبد الحكيم عامر فى الحال ، لأنه قد حان وقت الثورة .. لكنه عندما وصل إلى المنزل رفض الحراس دخوله .

اضطرب السادات فى تفكيره مدركا أنه رجل نكتة ، فبسبب زيارته للسينما لن يكون قادرا على المشاركة فى الثورة ، وعندئذ لاحظ أحد الحراس أنه رائد فأخبره بأن ناصر قال يجب أن يذهب كل الضباط لبيوتهم .. فقاوم السادات معطيا عامر إشارة جيش مباشرة .. ورغم أن عامر - الذى كان موجودا بالداخل - لم يره ، إلا إنه أدرك أن هذا هو صوت السادات ، فقال له إن مراكز قيادة جيش فاروق قد عصف بها .. وفى الحال قاد السادات سيارته إلى حيث مركز القيادة ، حيث شاهد ناصر ، الذى أعطاه تعليمات بأن يتصل تليفونيا بقادة الوحدات ليخبرهم بأن كل شئ على ما يرام ، وقد كان السادات صالحا لهذه المهمة بسبب خبرته الذاتية .

ورغم أن دوره كان حيويا ، إلا أنه أقدم أيضـا علـى دور آخـر خـالد مـن خـلال الوسيلة الدعائية .. حيث أمره ناصر – الذى كان يحترس من مقدرته الكلامية– بأن يذهب إلى الإذاعة ليعلن عن الثورة (هذا هو نفس الكـلام الـذى قالـه هيكـل عـن هـذا الحادث) .

وقد طال انتظار ناصر ورفاقه للإعلان المتوقـع ، وعندمـا سـألوا السـادات عـن سبب التأخير أجابهم بأن الشيخ كان يقرأ القرآن ، ولم يرد أن يقاطعه .

وبدون شك ، كان السادات مفيدا لناصر فى هذا التوقيت الحـرج ، وقـد ظهـرت أهمية مهارته الصحفية (يلاحظ أن السادات قبل عودته إلى الجيش كـان قـادرا علـى أن يحصل على وظيفة محرر لبعض الوقت بسهولة) وكذلـك مواهبـه البلاغيـة حينمـا أرسله ناصر إلى رئيس الوزراء السابق المتمرس على مـاهر بغـرض تشـكيل حكومـة مؤقته قائلا له " أنت موجود دائما بالسياسات ، اذهب وأوجد على ماهر " .. ولم يكـن السادات يعرف حتى أين يعيش على ماهر ، إلا أن أحد الصحفيين أخبره بذلك ، وذهبا معا إلى على ماهر الذى قبل المهمة بعد كثير من التردد .

وبعد ذلك عين السادات فى وفد المفاوضات مع الملك فاروق ، الذى كان لايزال بالإسكندرية يقضى إجازة الصيف ، وكان أحد مستشارى الملك الموثوق بهم قد همس للسادات بأن الملك قـرر أن يتنـازل عـن العرش ويغـادر البـلاد ، وفـى البدايـة أعطـى السادات الملك انطباعا بأن إقامته لن يتم تحديدها ، بينمـا كـان نـاصر قـد أعد قواتـه للتقدم إلى الإسكندرية ، وبمجرد أن حددت إقامة الملك تم توجيه الإنذار الأخير إليـه ، وكان السادات شخصيا هو الذى كتب الإنذار الأخير وقدمه لعلى ماهر .

وقد حدث تراشق قصير بالرصـاص بيـن حـرس الملـك وقـوات نـاصر .. ولكـن الملك كان خائفا من أن يقتل ، فنادى حراسه وناشد البريطانيين والأمريكيين أن يـأتوا لمساعدته .

وفى نفس السياق تساءل موظف أمريكى : لماذا تحاصر قوات ناصر قصر رأس التين الملكى ؟ ولماذا تبادل إطلاق النار ؟ فأمره السادات أن يجعل نفسه فى شغله .

كذلك كان للسادات أسلوبه المميز فى التعامل مع وكيل الشئون البريطانية والقوات الملحقة ، والتى كانت ترتدى زيا امبرياليا كاملا مخيفا .. إذ كان البريطانيون يحبون معرفة ما هو اتجاه (نية) الثورة إزاء أسرة محمد على ، والملك فاروق تحديدا ، وهل هناك نية للبقاء على حقوقها التاريخية .

كما طلب البريطانيون أيضا ضريبة لحماية حياة الأجانب .. وحسب رواية السادات ، فإنه ـ أى السادات ـ التفت اليهم قائلا : " بالنسبة للجزء الأول ، ليس هناك بالتأكيد شئ نفعله لكم ، إذ أن أسرة محمد على ليست أسرة ملكية بريطانية ، أما بخصوص حماية الأجانب فتذكروا أنه بلدنا ولا أحد يستطيع أن يدعى المسئولية سوانا ، وسوانا فقط .. هل هذا واضح .. بالإضافة إلى ذلك نريد أن نعرف ما إذا كانت مذكرتكم رسمية من عدمه ؟ " .

وطبقا لذات الرواية أجمع الموظفون البريطانيون على أن اقتراحهم ليس رسميا ، لكنهم يتصرفون كأصدقاء شخصيين ، فرد عليهم بأن التدخل يجب أن ينسى تماما كما لو لم يحدث بالمرة ، واحتج القائم بالأعمال على هذا .

أما الملك فاروق ، الذى كان خائفا من أن يقتل ، فقد استسلم بسرعة .. وأعلن عن أنه سوف يستقل يختا الساعة السادسة مساء يوم ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢ تحت مراقبة أعضاء من مجلس قيادة ثورة ناصر .

وهكذا ، أخذ الملك فاروق اليخت وبعض موظفيه المخلصين لخارج مصر إلى الأبد حيث منفاه الأخير .

وقد كتب السادات عن أنه راقب المنظر من على متن سفينة قريبة ، وأنها كانت أبهج لحظة فى حياته .

ومما يثير دهشة أى فرد أن السادات بمكره قد أخفى فهمه لمغزى كونه صاحب السجن فى الاعلان عن الثورة ورحيل الملك فاروق ، وهو الأمر الذى تسبب فى غيرة رفاقه ، ولم يكن من الطبيعى ألا يسألوا أنفسهم .. ماذا فعل السادات ليستحق مثل هذا السبق ؟ ومن ثم كان عليهم أن يتآمروا ضده ..

وفى سنة ١٩٥٣ قرر ناصر أن أعضـاء مجلس قيادة الثورة ، الاسم الجديد الذى أطلق على الكيان الحاكم بواسطة القائد ـ سوف يحصلون على مناصب وزارية .

غير أن السادات كان الوحيد الذى لم يتول وظيفة رسمية وارتضى أن يصبح محررا للمجلس فى جريدة الجمهورية الجديدة .. ولكن الشئ الذى لم يعرفه رفاقه هو أن السادات ـ الصحفى الجماهيرى الوليد ـ كان مسرورا بمهامه الجديدة ..

ولم تكن هذه هى المرة الأولى ولا الأخيرة التى لـم يفهمـه فيهـا خصومـه حتـى وجدوا أنفسهم فيما بعد مخدوعين بواسطته.

الفصل الخامس

الصراع بين ناصر والسادات

جاء انتصار الثورة بالإحباط والحزن بالنسبة للسادات ، تماما كما حدث بالنسبة لناصر ، فأعضاء الجماعة الثورية -بما فيهم ناصر- لم يعدوا أنفسهم لتولى السلطة .. فقد كانوا صغارا وليست لديهم خبرة بالمرة ، باستثناء اللواء محمد نجيب الذى تم الإجماع منذ البداية على أنه شخص قيادى محترم .

والحقيقة التى لم تؤخذ بالحسبان لمدة طويلة بالغرب ، هى أن الضباط الأحرار لم يشغلوا حتى وظائف إشرافية فى الجيش المصرى ، واعتقدوا أن كل ما هو مطلوب منهم هو حيازة السلطة وإزالة الملك الضعيف الفاسد ثم إعطاء الأوامر .

وقد أشار السادات بوضوح إلى أنه لا أحد منهم شعر بلسعة الجوع أو الحرمان كما هو معتاد بالنسبة للثوريين ، ولا أحد منهم عانى فى زنازين السجن مثله ، كذلك فلا أحد منهم جرد من رتبته كما حدث معه .

وهكذا فإن الثورة بالنسبة للسادات كانت خاتمة لحلم راوده خلال السنوات التى قضاها بزنازين السجن .. أما بالنسبة لهم فقد كان انتزاعهم السلطة هو بداية للصراع على المناصب .

إلا أنه لا يمكن بأى حال من الأحوال قبول تفسيرات السادات المؤلمة لمعركة الثوريين الداخلية ، والتى بلغت ذروتها فى كارثة حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ بصورة مطلقة .

ومع ذلك فإن الرواية التى ساقها السادات -رغم ما بها من مغالطات- تعتبر مقنعة عن تلك التى ساقها هيكل فى هذا الخصوص .

والواقع أن عبد الناصر لم يكن ماردا أو ذا قوى خرافية كما بدا فى العالم العربى والغربى على حد سواء ، لدرجة أن السادات وصفه بأنه كان شخصا مترددا باستثناء بعض مواقفه الدراماتيكية التى صدمت الشرق الأوسط ، وأنه كقائد ورئيس

بدا كما لو كان يسعى فى طلب الموت المبكر . وفى محيط أقرانه تبدت خطوته الثابتة خلال المجادلة التى دارت بين المجموعة الحاكمة حول النظام الواجب اتباعه ، وفيما إذا كانت الديمقراطية أنجح أم الديكتاتورية .

عند ذلك رأى السادات أنه ليست هناك سوى إجابة واحدة ترتكز على الديكتاتورية . وبرر ذلك بأن الناس الديمقراطيين سوف ينأون بأنفسهم حتى يتحولوا إلى فاسدين ، لكنهم لن يفعلوا شيئا من أجل شعب مصر الطيب ، بل سوف يتخذون من القرارات السريعة ما سوف يتحمل تكلفته الشعب .

إلا أن ناصر جادل بشدة تجاه خطورة عزل الديمقراطيين ، ومن ثم كسب المجادلة ... وبالطبع لم يجد رفاقه بدا من أن يستعطفوه لكى يعود إلى شروطه ونقاطه الخاصة .

وبناء على ذلك فاز ناصر ، لكن السادات كان متضررا من سلوك ناصر ، وكادت المسألة تصل إلى أن يتهمه بالديكتاتورية والتحيز لمعتقداته الخاصة بالديمقراطية ... وهكذا جمع ناصر كل السلطات ، وأصبح بمقدوره صنع كل القرارات بمفرده ، سواء فى الحرب أو السلم .

ومع ذلك اعتقد السادات أن ناصر أشرك صديقه المقرب عبد الحكيم عامر ليمهدا - سويا - الأرضية لنكسة يونية سنة ١٩٦٧ .

وفيما يتعلق بالتشكيل الوزارى ادعى السادات -وعلى عكس ما ذهب هيكل- أنه عارض المكتب الرسمى قائلا : " لا أعتقد أننى أريد حقيبة وزارية ، إننى أعنى بكيفية تحقيق آمال مصر بسرعة قدر الإمكان ، نحن نريد أن ندخل فى الحقبة الجديدة من تاريخ مصر " .

وقد أشار السادات إلى أنه كان من غير الممكن فهم لماذا تحول صلاح سالم والآخرون -وحتى ناصر- ضده مستهزئين بتصريحه غير الهجومى . بوضوح يبدو أنه كانت هناك عوامل أخرى .

إن "ناصر" بالفعل كان غاضبا من السادات ، بسبب سلوكه الذى بدا من خلاله وكأنه شغوف بالقيادة عبر ما دعا إليه من مبادئ عليا .... وشك السادات فى أن "ناصر" والآخرون -لاسيما صلاح سالم- قد غاروا من الشهرة التى نالها السادات أثناء المحاكمة الخاصة بعثمان ، كما شعر السادات لاحقا بأن ناصر كان متشككا فى الحفنة المحيطة به ، وأنه لم يكن واحدا من أولئك الذين وثق بهم ناصر .

وخارج دائرة الغيرة ، كتب السادات أنه ـ نظرا لانعدام هذه الثقة ـ فإنه كتب خطابا لمجلس الثورة يعرض فيه استقالته ، وطلب جوازات سفر له ولجيهان تمكنهما من الاستقرار فى لبنان ، ليس فقط لجمالها ، ولكن أيضا لكونها آمنة . إلا أنه لحسن حظ السادات لم تقبل الاستقالة .

ويبدو واضحا من كلمات السادات الخاصة أن "ناصر" بمفرده ، وربما بمساعدة بعض الرفاق القلائل " لاسيما عامر " كانوا يصنعون القرارات الحيوية .

إذ قبل مارس ١٩٥٣ تمت ترقية عامر إلى رتبة مشير وتولى قيادة الجيش ، بينما خرج ناصر وأفراد عديدون من مناصبهم فى الجيش . حدث هذا فى مكتب الرئيس رسميا ، ورغم أن هذه القرارات كانت مبنية على أرض مهتزة ، إلا أن أحدها كان متعلقا بعامر ليبرهن على مقدمات النكسة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليبرهن على أن ناصر قد بدأ يستخدم السلطة تحت تصرفه . وقد أثبتت رؤية السادات المستقلة مصداقيتها .

ورغم زعم هيكل بأن السادات حاول أن يكون صديقا لعامر الذى أصبح الأقوى ، فإن السادات كتب كثيرا بعد وفاة عامر عن رؤيته له كفاسد وسياسى غير مؤثر أساء إلى صديقه المقرب ناصر .

ونظرا لصورة عامر الشخصية هذه لدى السادات فإن السادات لم يرغب فى أن يكون صديقا لمثل هذا الرجل .. بينما منتقدو السادات ـ مثل هيكل ـ ليس لديهم شك فى أن هذا التحليل لا يعدو سوى أن يكون نوعا من السذاجة .

والآن . . ماذا حدث على الساحة السياسية ؟

خلال عدة شهور من إعلانه عن ثقته بالديمقراطية – بتنسيق كامل مع رفاقه – قرر ناصر حل كل الأحزاب السياسية ، متهما إياها بالتواطؤ مع الجيش لانتزاع السلطة .

وفى الحقيقة كان رد فعل الأحزاب السياسية حكيما ، لكن بالنسبة للإخوان المسلمين كان ردهم عنيفا ، إذ رفضوا أى حظر عليهم ، وقاموا بمحاولة خطيرة لاغتيال ناصر بالإسكندرية .

وبدلا من الأحزاب السياسية حاول ناصر ملء الفراغ السياسى بخلق مؤسسات اصطناعية ذات أسماء رنانة ، لكنها جميعا فشلت فى كسب التأييد .

كذلك حاول ناصر أن يقلد نموذج " الدولة الاشتراكية " لتيتو فى يوغسلافيا ، وأسماه الاتحاد الاشتراكى ، لكنه لم يكن نموذجا جيدا ، على الرغم من تنقيح ناصر له ليتواءم واحتياجات المصريين .

وقد قرر السادات أن ثمة تصرفا وحيدا بليغا وقويما أرساه ناصر هو قانون الإصلاح الزراعى ، والذى حدد ملكية الأراضى الزراعية ، التى يمكن أن يمتلكها أى فرد .

فإذا ما انتقلنا إلى المسائل الدولية ، فإن ناصر قد تلقى فى هذا الصدد تأييدا حماسيا من السادات . وكان ناصر قد قام بإجبار اللواء محمد نجيب على الاستقالة ، وتطلع إلى رئاسة الوزراء ، تماما مثلما تطلع إلى رئاسة مجلس قيادة الثورة ،

مكتسبا بذلك سلطات ديكتاتورية حيوية ، وعلى صعيد آخر كانت المفاوضات بشأن انسحاب القوات البريطانية من منطقة القنال قد اتخذت منحنى أكثر تقدما ونجاحا حينما فاز ناصر بتنسيق مجلسه .

والذى حدث أن السادات حمل بصورة شخصية على خصوم مسودة الاتفاقية ، والتى استغرقت مناقشات أبعد قائلا : " إننى أوافق على المسودة ، نحن لا نريد أن نذهب بعيدا عن المناقشات . . ماذا هنا ينبغى أن يناقش ، بريطانيا تريد بقاء ١٢٠٠ خبير عسكرى ، والذين سوف يتطلبون حراستهم بواسطتنا ، والمصريون يعتبرون هؤلاء الخبراء لإرهابنا ، فقط السياسى الغبى هو الذى يمكنه معارضة مثل هذا الحل لمشكلة يبلغ عمرها ٧٥ سنة " .

ولو أراد شخص ما أن يجد إجابة للسؤال " لماذا حرك السادات مثل هذا الغضب بين رفاقه " فإن ذلك سيقوده حتما إلى أن يضع يديه على العديد من المفاتيح.

وبخصوص التعامل مع السياسة الأمريكية يبدو واضحا أن عروضه على ناصر فى هذا السياق كانت أشبه بالمكائد . . إنها ولا شك كانت عدائية ، وذلك لسبب بسيط مغزاه ، أنه بعد أن قضى سنة خارج دائرة السلطة أصبح وزيرا ، وبالتأكيد حصل على دور أكبر فى السياسات المؤقتة والدائمة ، حيث انتهز الفرصة حينما كان محررا بجريدة الجمهورية ليقاوم عرض الولايات المتحدة الخاص بميثاق التبادل الأمنى .

إن السادات زعم أن الأمريكيين قد قدموا هذا العرض لإمداد المصريين بالسلاح بدون ثمن فى حالة واحدة ، هى أن يقوم عدد من الخبراء الأمريكيين بمراقبة هذه الأسلحة ليضمنوا عدم استخدامها ضدهم .

وحينذاك رجع العرض إلى الأمريكيين بالإجابة التالية " نحن نريد أن نشترى الأسلحة بأموالنا الخاصة ولا نريدها بدون ثمن ، وأيضا نحن لا نريد ميثاق التبادل الأمنى لأنه يؤثر على استقلالنا " .

ومن ثم تحفظ الأمريكيون ، إلا أنهم قدموا عروضا ومواثيق أكثر مدفوعين فى ذلك بالرغبة فى احتواء الاتحاد السوفيتى ، ومع ذلك رفضتها جماعة ناصر كلها مجادلين ـ كما قال السادات ـ بأن المصريين بعد أن حصلوا على حريتهم لا يريدون تكبيلها .

وهكذا وبدلا من الارتماء فى أحضان الأمريكيين ، تحول المصريون إلى الاتحاد السوفيتى ، لكنهم كانوا خائفين .

وقد زعم السادات أن القادة السوفييت لم يكونوا راغبين فى تطويق الدول غير الشيوعية ، ولكن مقابلة بين ناصر و" شوان لاى " فى باندونج بمؤتمر دول عدم الانحياز قادت إلى الوساطة الصينية بين ناصر وموسكو ، تلك الوساطة التى كانت لها نتائج مصيرية .

وبدوره لعب السادات دورا رياديا فى منع الدول العربية الأخرى من الانضواء تحت مظلة حلف بغداد مثل العراق وتركيا وباكستان ، ذلك الحلف الذى كانت تشجعه بريطانيا ..حيث سافر ليرى الملك الشاب حسين فى عمان وأقنعه بأن يظل بعيدا ، رغم أن عمه كان على عرش العراق .. حتى لبنان تم إقناعها بأن تتصدى للعرض البريطانى . وقد أغضبت السياسة المصرية ضد الحلف ، الذى رآه السادات لا يخرج عن كونه مجهودا بريطانيا للعودة إلى المنطقة بعد مغادرة منطقة قناة السويس ، أغضبت الحكومة البريطانية ، وزاد هذا الغضب البريطانى حينما قام الملك حسين بطرد كلوب باشا قائد الفيلق العربى على إثر حملة طويلة شنها راديو القاهرة أثارت الشكوك حول إخلاص كلوب باشا ، كما ارتكزت هذه الحملة على أنه يأخذ أوامره من لندن . ورغم أن عملية الطرد هذه لا ترجع بصورة كلية إلى التأثير المصرى وفشل الفيلق العربى فى رد الهجمات الانتقامية الإسرائيلية ، إلا أنه من المحتمل أن يكون ذلك هو أكثر الأسباب ترجيحا ..

هذا الغضب المشار إليه شعر به -وبصورة أكثر حدة- أنطونى أيدن فى لندن ، أحد الذين صعدوا الموقف ، والذى قاد إلى حرب السويس .

على كل حال ، لم يكن هناك أحد أنسب لهذه السياسة أو الدعاية من أنور السادات ، الذى كان مقتنعا جدا ..

وبالعودة إلى حياة السادات نجد أنها قد انتقلت نقلة كبيرة حينما جعله ناصر سكرتيرا عاما لمنظمة المؤتمر الإسلامى .. تلك المنظمة التى كانت قليلة الحيلة ، لكنها أمدته بفرص سفر للخارج علمته الكثير ، فعلى سبيل المثال كان السادات مندهشا فى إحدى رحلاته إلى الهند من اثنين شيوعيين شهيرين يعانقان نهرو ، إذ اعتقد أن ذلك يعد مثالا على الديمقراطية الحقيقية ، حيث يعامل الخصوم بعضهم بعضا على أنهم أخوة .. ولذلك اتجه السادات إلى المبالغة فى أهمية الإثارات وقارن هذا المسلك بالتغيرات الفظة فى مجلس قيادة الثورة .

وكان من الواضح أن السادات قد سره حل المجلس فى يونية سنة ١٩٥٦ ولكن كما هو متبع بوجه عام انتخب ناصر رئيسا للجمهورية فى وقت كانت الدولة فيه تعج بالفساد والاعتقالات التعسفية .. مما دفع السادات إلى أن يلقى باللوم على ناصر تحديدا فى فشله فى تنظيم وزرائه ، بينما ظهر ناصر كشخصية غير مستقلة ، تحركه الشكوك والهواجس بدون سياسة متماسكة لحل مشاكل المصريين الهائلة ، وهو ما جعل كلا من بريطانيا والولايات المتحدة تسيئان فهم ناصر .

وكان من الضرورى فى ظل السلطة الهشة التى أدارها ناصر والنقص فى فهمه لاحتياجات المصريين أن يختلق أزمة قذفت به إلى الجماهيرية وجعلته البطل السياسى الأول فى العالم العربى ، وتتمثل هذه الأزمة فى أن جون فوستر دالاس قد قام بسحب عرض تمويل بناء السد العالى ، مما أغضب "ناصر" الذى ألقى خطابا ملتهبا فى الإسكندرية أعلن فيه عن تأميم شركة قناة السويس والسيطرة عليها .

وعلى هذا الأساس رأى أنطونى إيدن أن "ناصر" يعد تجسيدا للعرب والمسلمين ، ومن ثم بدأ التخطيط لإذلاله . أما فرنسا التى وبخت ناصر بإثارته للمشاكل فى الجزائر ، فقد كانت شريكا رئيسيا .

وبدورها قامت إسرائيل - التى أصبحت مناط تركيز ناصر ، خاصة بعد حيازته للأسلحة السوفيتية - بالانضمام إلى الهجوم ، إلا أن الإسرائيليين - دون غيرهم - هم الذين أدينوا من جراء المعركة . إن طريقة ناصر فى الحكم وصنع القرارات عكسها سلوكه فى إخفاء خبر تأميم قناة السويس عن السادات ، الذى قيل له أن يستمع إلى الخطاب بالراديو . صحيح أن ناصر كان عليه أن يناقش القرار مع عدد من مستشاريه الموثوق بهم - من المحتمل أن "عامر" كان منهم - إلا أن السادات لم يكن داخل دائرة هؤلاء المستشارين .

وبدوره لم يظهر السادات أى غيظ عميق تجاه حرمانه من المشاركة فى صنع القرار ، لكنه عاتب "ناصر" الذى عاد إلى القاهرة كبطل بعد أن أثار حماس الجماهير بإعلانه ، قائلا له بلطف : "إنك لم تقل لى عن القرار واتخذته بالفعل ، وإنك لو كنت أخذت استشارتى لكنت قلت لك : كن أكثر حذرا ، فهذه الخطوة تعنى الحرب ، وأنت لست مستعدا لها ، كما أننا لم نتدرب على الأسلحة التى وصلتنا من الاتحاد السوفيتى ، بل تدريبنا كان مع بريطانيا ، ونحن لسنا لدينا وقت لتغيير توجهنا العسكرى من غرب أوروبا إلى شرق أوروبا ، لو أنك سألتنى لكنت قلت لك كن حذرا ، لكنك الآن أخذت القرار بالفعل ، وبالطبع كلنا سوف نؤيدك ، وأنا أول من يفعل ذلك " .

هذا العتاب الرقيق قوبل من جهة ناصر بالحزن ، وإلى حد ما بالمرارة ، فطبقا لرواية السادات ، فإن ناصر الذى استشاط غضبا لحجج شريكه الأصغر ، لم يستطع أن يبدى سروره بهذا النموذج التأديبى (التهذيبى) ، إذ أن "ناصر" كان يعرف الكثير عن وصول الأسلحة السوفيتية ، وكيف سيتم توظيفها فى الجيش المصرى .

وهكذا يبدو من تعليقات السادات أن الجيش المصرى المدرب فقط هو الذى كان بإمكانه مقاومة غزو بريطانيا ، أو حتى قوات مشتركة من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل (التى تبدو أكثر حنقا) ، بينما كان ناصر بمثابة المغامر الذى تصرف غالبا بحدة .

وناصر ـ بلا شك ـ هو الذى كان وراء ردة المصريين ، إذ ادعى السادات فى هذا السياق أن ناصر تنبأ بعواقب انسحاب قواته من سيناء ، والتى كان إحداها فوز القوات الإسرائيلية بالمعركة ، فناصر كان أمامه خيار ضعيف ، نظرا لأن موشى ديان كان قد أعد لحملة ذكية كان نجاحها مؤكدا ، لو لم يكن هناك غزو بريطانى ـ فرنسى كامل .

لكن مع قيام الطائرات البريطانية بضرب طائرات ناصر ونسف طرقه الرئيسية كانت محاولة التمسك بسيناء ستعد جنونا مطبقا .

إلا أن السادات أعطى انطباعا خاطئا بأن ناصر قام بسحب قواته بسرعة ، بينما هاجمه الإسرائيليون ، ولو كان ذلك حقا لكان من الصعوبة فهم لماذا لم يقم الرئيس المصرى بإنقاذ كل القوات ، وليس ثلثيها تقريبا كما قرر السادات .

إن السادات لم يكن دقيقا فى شرح توجه الإسرائيليين أو فى تقديمه للحرب المصرية ـ الإسرائيلية .

لقد انتهج ديفيد بن جوريون ـ رئيس الوزراء الإسرائيلى وأحد المؤسسين للدولة فى سنة ١٩٤٨ –سياسة الخط الصعب بإزاء تسلل العرب إلى الدولة اليهودية الجديدة ، تلك التسللات التى كانت تُشجع طبقا لرغبات متباينة ، إذ كان العرب الذين فقدوا منازلهم وأراضيهم ينظرون بأسى ومرارة تعتصر قلوبهم إلى القادمين الجدد من اليهود الذين سوف يزرعون البذور فى أراضيهم الزراعية ويتمتعون بالحصاد .

وعلى خلاف بن جوريون كان موشى ديان – أحد المؤسسين لقوات الدفاع الإسرائيلية تحت إشراف بن جوريون –يفهم هذه المشاعر نظرا لأنه ولد فى المكان الذى أصبح فيما بعد دولة إسرائيل ، كما كان له العديد من الأصدقاء العرب . .

ويتضح ذلك جيدا مما قاله فى تأبين شاب يهودى مؤسس قتل على أيدى العرب . . حيث قال : " بالأمس ، أسفل ، قتل روى ، أعماه صباح الربيع ولم ير أولئك الذين أودوا بحياته مختبئين وراء الأخدود اليوم . . دعنا لا نلقى اللوم على القتلة . . ماذا نقول إزاء كراهيتهم الفظيعة لنا ؟ وكيف أنهم جلسوا فى معسكرات اللاجئين فى غزة ، وراقبوا بأعينهم كيف حولنا أراضيهم وقراهم التى قطنوها وأجدادهم من قبل إلى بيوت لنا ، إنه ليس بين عرب غزة ، ولكن بيننا وفى وسطنا نحن يجب أن نبحث عن دم روى ، كيف نغمض أعيننا ونرفض أن ننظر إلى مصيرنا ، وقدر جيلنا بكل قسوته ووحشيته .

هناك .. وراء الأخدود .. وعلى حدود بحر الكراهية والانتقام ، الانتقام الذى زحف اليوم حينما خيم الهدوء على يقظتنا واستمعنا إلى مبعوثى النفاق المؤلم الذين ينادوننا بالرقود خلف قواتنا .

إن الشاب روى ذهب بعيدا عن تل أبيب ليبنى منزله على بوابات غزة لكى يكون حصنا لشعبه .. إن النور الذى فى قلبه أخفى مشهده ، حتى أنه فشل فى أن يرى بريق الخضرة ..

هذه الكلمات غير مألوفة ، لكنها لا تعبر عن اعتدال مزاج ديان وآلاف من اليهود . وقد كانت فقط بعد فقدان حياة ألف فى إسرائيل وفى الدول العربية بما فيها مصر .

إن السادات لم يدرس بعمق كافة الأحداث فى إسرائيل أو سلسلة الاغتيالات النابعة من الغارات الهجومية التى يشنها العرب فى إسرائيل ، وردود الفعل الثأرية الإسرائيلية ، والتى زادت العنف ووسعت أرضية العداءات .

وإذا كان من الطبيعى أن تستدر الهجمات التى شنها العرب الذين فقدوا منازلهم وماشيتهم استعطاف الأيديولوجيين الإسرائيليين إلى حد ما ، حتى لقد ذهب أحدهم إلى أبعد من مواساتهم ، إلا أنه حينما أصبحت هذه الهجمات جزءا من سياسة

الدولة المصرية بغرض زعزعة وإضعاف الدولة اليهودية إلى الدرجة التى يكون فيها الجيش هو الضحية ، كان لابد أن يكون رد الفعل الإسرائيلى الحاد أمرا حتميا . . حتى أن موشى شاريت وزير الخارجية الإسرائيلية الأنيق ، والذى انزعج من أثر الرأى العام الغربى ، اعترف بأن بعض هذه الهجمات كان ضروريا .

والحادث أن ٢٠٠ يهودى قد قتلوا خلال فترة التسلل ومن جراء الهجمات التى شنها الفدائيون المصريون المدربون .

ونتيجة لذلك أصبح الساسة الإسرائيليون مكشوفين أمام الشعب ، كذلك حذر وزراء إسرائيليون من أن الدولة باتت فى خطر .... وتجدر الإشارة إلى أن شاريت وعددا من زملائه فى وزارة الخارجية هم الذين تلقوا انتقادات غالبية الهجمات التى تمت بواسطة قوات إسرائيلية خاصة مدربة .

لم يرجع السادات إلى هذه الأحداث ، ولا كان يفهم ما عرف بمسألة لافون ، والتى كانت تعتبر بمثابة مسألة محورية فى التاريخ اليهودى .

إن السادات ظل وقتا طويلا من الزمن غير متعمق فى بعض الأحداث التاريخية ، بل وكان مهيئا لقبول تلك التقديرات التى أعدت بواسطة آلته الإعلامية .

لكن أتيحت له الفرصة لاحقا ، لا ليبحث بعمق فى شخصيته فحسب ، وإنما أيضا ليبحث دون خوف وبرفق فى عالم يتضمن مشاكل اليهود الإسرائيليين .

إن هناك دليلا سيق بواسطة مؤرخ إسرائيلى (بنى موريس) ، فحواه أن بن جوريون وموشيه ديان حاولا أن يستفزوا ناصر إلى الحرب لأنهم كانوا خائفين من أنه بواسطة المساعدات العسكرية السوفيتية سوف تصبح مصر قوية للغاية ، لكن ناصر - أثناء تجنبه لفخ ديان - فشل فى فهم أنه بتشجيعه للقتلة الفدائيين سوف يكون مخربا ، وأنه بذلك خلق الجو الساخط فى إسرائيل ، والذى دفع إلى قرب الحرب .

نقطة أخرى غاية فى الأهمية والحيوية لا يجب إغفالها ، وهى أن السادات كان متلقيا لتأثير مصادرة الممتلكات الأجنبية فى مصر أكثر من كونه فاعلا فيها .

وكانت الفترة الطويلة التى قضتها مصر تحت السيطرة الأجنبية قد شجعت العديد من اليهود المصريين على اكتساب الجنسية البريطانية أو الفرنسية ، إلا أنهم مع ذلك قد ظلوا فعالين فى الحياة الوطنية المصرية ... حيث كانوا يمتلكون عددا كبيرا من المحال التجارية ، كما كان لديهم من الخبرات الصناعية والتجارية ما يلزم لتنمية الصناعة والتجارة المصرية ، بالإضافة إلى ذلك كان منهم الكتاب والأطباء والمحامون ... باختصار كانوا جزءا حيويا من حياة القاهرة اليومية خاصة ، والدولة عامة .

إن ناصر بسلوكه فى نهب ثروة المجتمع اليهودى بإجبار شباب مبتكر ، ولديه طاقات ، ورجال فى منتصف العمر على ترك الدولة وتحطيم مجتمعاتهم التى استمرت لآلاف السنين ، قد تسبب فى خسارة لا تعوض بالنسبة للاقتصاد المصرى .

وقد تسارعت عملية الطرد هذه بصورة دراماتيكية بعد نكسة ١٩٦٧ لدرجة أن المجتمع الذى كان يبلغ عدده سنة ١٩٤٧ أكثر من ٩ آلاف ، ويجد له أصولا توارتية آل إلى عدد محدود للغاية من الرجال والنساء العواجيز القادرين بالكاد على إقامة الشعائر الدينية .

فإذا عدنا إلى موضوع السادات نجد أنه فى دولة يستوطن فيها الفساد ليس بغريب أن تكون هناك اتهامات موجهة للسادات من قبل خصومه ، وهى لا تعدو أن تكون مجرد شهيق أو أخذ نفس .

فى هذا الإطار كتب محمد حسنين هيكل : إن السادات وجيهان كانا يعيشان فى منزل متواضع بشارع الهرم بالقاهرة ، وإنهما شعرا بأن هذا المنزل لا يليق بنائب رئيس مصر ، ولذا أخذا فى البحث عن منزل أفخم ، ووقع اختيارهما على أحد

المنازل ، وكان يمتلكه لواء متقاعد ، وحينما عرضا عليه استئجاره رفض الرجل ، فما كان من السادات إلا أن استخدم سلطاته الرسمية فى مصادرته .

وحينما سمع ناصر بهذا الحادث تضايق جدا ، ووبخ السادات بقوة ، لدرجة أن السادات قعد فى قريته ميت أبو الكوم لبعض الوقت ، مدعيا أن غضب ناصر قد كسر قلبه . ومع ذلك - طبقا لهيكل - كوفئ السادات فى النهاية بصورة مادية ، إذ بدلا من عقابه أمر ناصر بأن يؤول منزل مقام على النيل كان مملوكا لمليونير يهودى ثم تحول إلى استراحة رسمية لنائب الرئيس .

وهناك رواية أخرى تقول إن ناصر حول منزل اللواء المشار إليه سابقا إلى مقر إقامة لنائب الرئيس .

إن السادات نفسه ذكر أن ناصر كان متضايقا من الأجر العالى الذى كان يحصل عليه السادات كمقابل لعمله براديو مصر .

وأيما كان الأمر ، فإنه رغم ما أثاره هيكل من قضايا مدمرة متنوعة فيما أطلق عليه "نهب منظم " فى مصر نتيجة لسياسات السادات ، إلا أنه لم يتهم السادات شخصيا بالفساد .

إن السادات حتى حال امتداحه لناصر على سلوكه الشجاع خلال أزمة السويس أوجد السبب لانتقاده على أيلولة الانسحاب إلى السوفييت أكثر من التدخل الأمريكى ، وكان السادات بالطبع على حق فى تقديره لخضوع أنطونى إيدن للتهديد السوفيتى باستخدام الأسلحة الذرية .. إذن هذا لم يكن السبب الذى من أجله دعا إيدن ومجلس وزرائه إلى وقف العملية ، وإنما كان رفض إسقاط الجنيه الإسترلينى هو الذى أجبره على الانسحاب المهين من مصر .

الفصل السادس

الطريق إلى النكسة

فى وصفه للفشل وسوء التقدير الذى قاد إلى حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧، وما تلى ذلك من سنوات العذاب ، والتى بلغت ذروتها فى الموت المفاجئ لجمال عبد الناصر ، ألقى السادات اللوم على عدد من رفاقه وليس عليه هو ذاته .

ورغم شغف السادات وحبه للسلطة ، إلا أنه لم يكن يعرف لماذا اختاره ناصر نائبا للرئيس .. وربما أعطى ناصر نوعا من التفسير لمحمد حسنين هيكل كما سنرى.

إلا أنه من الواضح أن ناصر اختار السادات الأقل عدائية والأقل حذرا فى مجلسه . . وحتى يظل هو محتفظا بالسلطة لنفسه .

إن ناصر –شأنه شأن السادات– كان يشير إلى أنه فريسة لكل أنواع الشكوك ، إنه كان يشك فى أن ثمة مؤامرات تحاك ضده ويشترك فيها بعض رفاقه . . كما كان قلقا من أهداف الإسرائيليين وخططهم الرامية لزيادة قدراتهم وتطوير قواتهم المسلحة ، وكذلك كان مثارا مما كان يطلق عليه الرسائل الأخلاقية للأمريكيين ، وأخيرا كان مشمئزا مما كان يعتبره إمدادات غير كافية أو مرضية من جانب الاتحاد السوفيتى . . ولعل النقطة الأخيرة هى التى جعلت القادة السوفييت – خرشوف ومن بعده بريجينيف – يشعرون بالحيرة تجاه شكواه غير المنقطعة .

والجدير بالذكر أن غضب الولايات المتحدة قد ازداد من جراء اعتبار الاتحاد السوفيتى أنها – أى الولايات المتحدة – تشكل خطرا مخيفا ، وقيامه بتمويل السد العالى .

أيضا قام الاتحاد السوفيتى بإعادة تسليح القوات المصرية ، وصاحب ذلك إيفاد المستشارين السوفييت لتدريب الجنود المصريين ... كل ذلك تم رغم أن مصر لم تكن قادرة على دفع ثمن المعدات ، ورغم أن معظم حصيلة قطن مصر كانت تستخدم تقريبا فى تسديد حصة مصر المستحقة من الديون .

ولسبب ما ، لم يكن القادة السوفييت راغبين فى إعادة جدولة ديون مصر .. ولربما كان ذلك لابتزاز مصر ماليا ، وإجبارها على اتباع سياسات معينة مقبولة لدى

الكرملين .. خاصة وأن القادة السوفييت كانوا منخرطين فى الحرب الباردة مع الأمريكيين ، وأن لمكانة مصر الاستراتيجية أهميتها القصوى فى أى صراع محتمل بالشرق الأوسط .

وحتى حرب اكتوبر اتخذ السوفييت سلوكا لحماية المصريين ، إذ أعدوا لاتخاذ تدابير معتبرة لحمايتهم ، بما فى ذلك التلويح العسكرى ، شاملا السلاح النووى ، والصدام مع الولايات المتحدة .

ومع ذلك ، لا توجد دولة هيجت مثل هذا الغضب الحاد فى قلب ناصر مثل الاتحاد السوفيتى ، ولا حتى الولايات المتحدة ذاتها ، والتى كان عليه أن يلومها على نكسته العسكرية .

وحينما باغت الموت ناصر بالسكتة القلبية قال شوان لاى -وزير الخارجية الصينى- للبعثة المصرية : "هل تعرفون من قتل ناصر عن عمر يبلغ الاثنين والخمسين عاما ؟ إنهم الروس" .

وقد علق السادات على ذلك بأنه يعتبر أن هذه المسألة حقيقية .. وفسر ذلك بأن ناصر كان يجب أن يحظى بحرية فى تصرفه .. بينما فى الوقت الذى قطع فيه ناصر علاقاته الدبلوماسية مع الأمريكيين والقوى الغربية والدول العربية وإيران لم يجد له صديقا سوى الاتحاد السوفيتى .

وأضاف السادات : إن ناصر لم يكن يعامل بالاحترام الكافى ولا الكرامة من الاتحاد السوفيتى ... وكان هذا هو السبب الذى تدهورت من جرائه صحته ، إلى أن انتهى به الحال إلى إصابته بمرض قلبى مميت .

ويزعم السادات أن ناصر قبل وفاته بشهرين قضى ٢١ يوما بالاتحاد السوفيتى ، وحال عودته إلى القاهرة سأله السادات فيما إذا كانت زيارته ناجحة ؟ ... فرد عليه ناصر بأنه لا أمل ، وأنه مستاء من عدم استجابة الكرملين لإمداده بأسلحة أكثر وأفضل ، مما

جعله يقول لبريجنيف إنه سوف يقبل خطة روجرز الأمريكية لتسوية النزاع بين العرب وإسرائيل فى الحال ، مما أثار بريجنيف الذى سأله بغضب : هل يعنى هذا أنك قبلت بالحل الأمريكى ؟ ... فأجابه ناصر : بعد الذى فعلته سوف أقبل حتى لو كان من الشيطان نفسه .

ويبدو أن الذى أغضب ناصر لم يكن الفشل السوفيتى فى إمداده بالأسلحة التى طلبها على وجه السرعة ، ولكنها المعلومات السوفيتية التى قادت إلى الكارثة ، والتى تلقاها ناصر من الكرملين قبل حرب الأيام الستة ، والتى أشارت إلى وجود قوات إسرائيلية على الحدود السورية ، وأدت إلى هزيمته الكبرى .

ومع ذلك يعتبر هذا التفسير منقوصا ... إذ أن هناك عوامل واضحة مفقودة .. حيث كتب هيكل عن هذه المناسبة : "عندما هنأ السادات ناصر على أنه بدا أكثر شبابا وحيوية لدى عودته من رحلته إلى موسكو .. كان سبب زيادة حدة ناصر غير المعلنة هو الوعى بأنه رغم الآمال العريضة للثورة ، ورغم المدح الذى ظل يتلقاه من الجماهير العربية فإنه لم يحقق شيئا لشعب مصر .. الإصلاحات الاقتصادية التى وعد بها ، الخلل الاجتماعى الذى أراد إصلاحه بإشاعة المساواة بين شعبه ، الاستقلال المنقوص باقتطاع أجزاء من أراضيه " ... كل هذه أمور لم تشهد تغييرات ملحوظة ، لدرجة أن قسوة الفقر المدقع بدت أكثر ظهورا ، خاصة بين الفلاحين الذين وعدهم ناصر بأن يساعدهم بالذات .

كذلك كانت إسرائيل بمثابة شوكة تفت فى عضده من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت تمثل ذكرى مؤلمة لإذلاله ويأسه .

وواقع الحال ، فإنه رغم تحذير القادة السوفييت لناصر من خطورة مسلكه وخطورة الإقدام على ذلك ، فقد قام ناصر بإطلاق نيران المدفعية على المواقع الإسرائيلية عبر قناة السويس ، بادئا بما يطلق عليه حرب مناوشات ، مدفوعا فى

ذلك بتفكيره بأن مصر لديها مدفعية أكثر وشعب أكبر ، ومن ثم يمكن ضرب المواقع الإسرائيلية علىٰ طول الحدود ، وإجبار الإسرائيليين على الانسحاب ، ولكن صمدت إسرائيل رغم وجع وألم ضربات المدفعية المصرية ، وكانت النتيجة مخالفة لتوقعات ناصر.

إن أى مراقب منصف يجب أن يعلن أن النتيجة الرئيسية للحرب كانت هى اضطرار مصر إلى زيادة الاعتماد على الأسلحة السوفيتية ، وأن الذى لم يشجع ناصر على الاستمرار فى الضرب هو أن الحكومة الإسرائيلية قررت ضرب أهداف داخل مصر ، وهى السياسة التى دافع عنها إسحاق رابين (السفير الإسرائيلى بواشنطن حينذاك) ونادى بأنها تلقى قبولا لدى البيت الأبيض ... ولكنها عورضت من بعض الخبراء والوزراء الذين تمثلت وجهة نظرهم فى أن الغارات الجوية على مصر ستقود حتما إلى زيادة الحضور السوفيتى هناك .

وهذا بالضبط ما حدث ، حيث أغارت إسرائيل على المصانع ، وكان من قبيل الصدفة المأساوية أن تسقط النيران على المدارس والمناطق المأهولة بالسكان ، مما حفز ناصر على البحث عن قواذف مضادة للطائرات للدفاع عن دولته ، ومع هذه القواذف جاء المستشارون والطيارون السوفييت ... وهكذا أضحى ناصر أكثر تورطا فى الفخ .

ولكن القادة السوفييت رفضوا إمداد ناصر بالكميات الكبيرة التى طلبها من الأسلحة ، والتى اعتقد أنه يحتاجها لهزيمة إسرائيل بما ترتب على ذلك من زيادة خيبة ناصر ، وفى نفس الوقت زيادة كراهيته للسوفييت .

وعلى صعيد آخر ، لم تكن اشتراكية ناصر بالنموذج الذى يمكنه جلب الرخاء لأى دولة أو حتى لأقل قدر من المصريين ، وقد أعلن السادات مؤخرا أن ناصر استعار قطعة من صديقه القائد اليوغسلافى تيتو .. وأن النموذج اليوغسلافى لم يحقق الثراء ، ولكنه أتاح فرصة خطيرة لبعض الرجال للانتقام من خصومهم .

والتناقض الحقيقى هنا يبدو فى أنه رغم فشل عبد الناصر إلا أنه أصبح أكثر الناس توقيرا فى العالم العربى ، حيث هتفت الجماهير العربية لدعواه بالعودة إلى

الوحدة العربية الكبرى بعد التخلص من قوى الاستبداد .. كذلك كان النصر الذى حققه على البريطانيين والفرنسيين ، وسببه الأمريكيين الذين ارتسموا له تمثالا خاصا ، دافعا لأن يقارن الناس بينه وبين المحارب التاريخى صلاح الدين ، وأنه لا يقل عنه .

إن المفهوم الذى أخذ عن ناصر أنه العملاق الذى تخطت مجهوداته العالم العربى ، وصورته هذه هى التى كانت وراء المعارك التى دارت فى سوريا ، والتى شجعت حزب البعث الحاكم هناك على أن ينادى بولع بأن يقود ناصر الوحدة المصرية ـ السورية الجديدة .

ومن جانبه ، كانت لدى ناصر شكوك قوية تجاه هذه الوحدة لعلمه الجيد بالتشققات والانقسامات الحادة التى يعج بها المجتمع السورى ... ولكنه بعد أن توسل إليه الضباط السوريون لمدة ثلاثة أيام وافق على مضض .

إلا أنه ما لبث وندم على قراره ، إذ لم تمض ثلاثة أشهر على الوحدة المصرية ـ السورية ، والتى أطلق عليها الجمهورية العربية المتحدة ، إلا وبدأت تواجه شروخا . حيث قابل الضباط السوريون "عامر" ممثله هناك بالغيرة والضيق ، وكما كان متوقعا لم يستطع ناصر الحيلولة دون فك الوحدة المؤسسة المريضة . إنها أظهرت تناقضات حادة ، وأهين عامر وأرسل إلى القاهرة وكان غاضبا لدرجة أنه قال لناصر إنه يريد أن يتنحى عن قيادة القوات .. وطبقا لرواية السادات ـ الذى لم يكن معجبا بعامر ـ رحب ناصر بالاستقالة لكنها سحبت سريعا .

ليس إذن من قبيل المبالغة على الإطلاق أن صورة عبد الناصر كرجل قوى قد لوثت بهذه المعاملة لعامر .

وفيما يتعلق بعامر قرر السادات أن ناصر قام بالعديد من المحاولات للتخلص منه ، وأنه لم يكن مصرا على استمراره ، ولكنه سمح أخيرا لهذا الرجل غير الكفء بأن يبقى فى وظيفته الحيوية .

وبلغ الأمر غايته فى أن ألقى السادات باللوم على عامر فيما يتعلق بالتورط المصرى فى الحرب الأهلية اليمنية ، والذى أبعد الآلاف من أفضل القوات المصرية خلال حرب الأيام الستة .

أيضا ، رأى السادات أن التدخل المصرى كان بمثابة وسيلة لإثارة المملكة السعودية ، والتى قادت الغارات السياسية فى العالم العربى ضد مصر . ولكن - السادات - نوه بأن التدخل المصرى كان بمثابة وسيلة لتدريب القوات على الحرب الحديثة .

إن عامر تسرع فى إرسال ٧٠,٠٠٠ من القوات لمواجهة مقاومة عنيفة من محاربى الإمام ، والذين كانوا أكثر اعتيادا على الحرب فى إقليمهم .. ومع ذلك رأى السادات فائدة من الحضور المصرى هناك .. فالتدخل ساعد على إزاحة الإمام وتقليص الاستبداد السعودى .

فى السياق ذاته اتجه السادات لأن يعزو معظم الأمراض التى أرقت المصريين وأسقطتهم ، ليس لناصر وإنما لعامر ، حيث -طبقا لرؤية السادات- عامر وليس ناصر هو المدان فى القصة المأساوية لجر مصر غير المستعدة إلى فخ حرب ١٩٦٧ مع إسرائيل ، تلك الحرب التى لم يترتب عليها تدمير الجيش المصرى فحسب ، وإنما أيضا البلوى غير المحسوبة التى عصفت بعهد الناصر .

ومن الأشياء المثيرة للغرابة أن السادات - وهو الشخص الذى أدان بقوة دور الاتحاد السوفيتى فى تدمير مصر - كان معتدلا فى وصفه للدور المركزى الذى لعبه الكرملين فى رسم سياسة ناصر فى حرب مدمرة .

وفى الحقيقة لا أحد يستطيع أن يفسر بنجاح لماذا مرر الكرملين معلومات خاطئة لناصر وغيره مفادها أن الجيش الإسرائيلى يتجمع بأعداد ضخمة على الحدود السورية ؟

إن الكرملين عندما فعل ذلك كان يقصد التأكد من الحقيقة ، التى كان يعرفها بدليل أنه عندما توسل ليفى أشكول رئيس الوزراء إلى السفير السوفيتى بأن

يصطحبه إلى الحدود السورية ويرى بنفسه كذب الزعم السوفيتى ، رفض السفير السوفيتى فى الحال .

يجدر بالذكر أيضا أن السادات عندما زار موسكو فى مايو سنة ١٩٦٧ قابل - فى مطار موسكو - كلا من وزير الخارجية المفوض (سيمينوف) والمتحدث باسم البرلمان السوفيتى ، واللذين قالا لـه بـالتحديد : "إن عشرة فرق إسرائيلية تمركزت على الحدود السورية " ... وعند وصوله إلى القاهرة علم السادات أن ناصر تلقى معلومات خاطئة ، ولكنه زاد الطين بلة بالادعاء أن ليفى أشكول قد قرر أن القوات الإسرائيلية سوف تحتل دمشق إذا تطلب الأمر ذلك ... وأضاف السادات أن هذا يشير إلى وجود تهديد إسرائيلى مخطط .

غير أن مثل هذا التهديد لم يكن موجودا ، وأنه لم تكن هناك خطة لمهاجمة سوريا واحتلال دمشق .

ولا شك أن رئيس الأركان الإسرائيلى الفظ قد استخدم لغة غير موفقة فى تحذير سوريا كرد فعل على تشجيع الغارات الإرهابية داخل إسرائيل .

وهكذا أصبح الموقف فى توتر متزايد على الخطوط الأمامية .. وفى ٨ من أبريل ١٩٦٧ ، حدثت معركة جوية حادة دمرت خلالها ستة طائرات سورية من طراز (MIG) بواسطة الطائرات الإسرائيلية فرنسية الصنع (Mirag) دون خسائر إسرائيلية ... وقد أثار ذلك غضب الكرملين ، الذى أخبر السفير الإسرائيلى فى موسكو بأن إسرائيل قد أذنبت ببدئها العدوان ، وأنها سوف تدفع ثمن نجاحها غاليا .

وأثناء ما كانت تقارير رابين وأشكول تشير إلى عدم تحمل إسرائيل للغارات الإرهابية السورية إلى الأبد ،أعطى ذلك المجال لناصر للقول بأن سوريا تواجه مخاطر . . ولكن هذا لم يكن كافيا لكى يشن حربا وقائية ضد إسرائيل .

من الواضح إذن أن الاتحاد السوفيتى وآخرين قد أساءوا قراءة الموقف وسقطوا فى فخاخ صنيعهم ، تلك الفخاخ التى لم يستطيعوا الفكاك منها . . إن الروس

كانوا متلهفين لأن يحققوا مجدا فى دمشق ، واحتاروا فى فشل طائراتهم ، ومن المحتمل أنهم أرادوا ليس أكثر من إقناع ناصر بعمل مظاهرة عامة تأييدا لسوريا .

ولكن الذى حدث أن ناصر قام بتجميع جيش كبير ، وفى الحال تعالت الدعاية بأنه متوجه لسيناء لمواجهة إسرائيل ،وربما اعتقد ناصر –على الأقل فى البداية – أن الدعاية سوف تبقى على صورته كحامى وبطل الشعب العربى ، ومع ذلك كان ناصر مدركا أنه يلعب بالنار ، وليس أدل على ذلك من أنه حينما اقترح عامر إغلاق مضيق تيران أمام السفن الإسرائيلية حذره ناصر من أن مثل هذه الخطوة سوف تؤدى إلى نشوب حرب ، وأنه حينما أرسل جيشا كبيرا إلى سيناء كان يعتقد أن فرص نشوب حرب هى النصف .

المهم ، أن ناصر حينما سأل عامر فيما إذا كانت القوات المصرية جاهزة للقيام بحرب ، أجابه الأخير بتأكيد جازم بأن كل شئ على ما يرام .

حينذاك أبدت بعض النشرات العربية ، كتلك التى انبثقت من عمان ، شكوكها فى شجاعة ناصر ، وقدرته على الصدام مع إسرائيل ، وذلك لتحثه على تصرفاته غير المعقولة .

وعلى صعيد آخر كان الدبلوماسيون الغربيون مندهشين من موافقة السكرتير العام للأمم المتحدة (يوثانت) على طلب ناصر بسحب قوات الطوارئ الدولية من شرم الشيخ .

والسادات نفسه لم ينكر حقيقة أنه صوت لصالح إغلاق مضيق تيران ، وبالتالى الحرب ... وبرر ذلك لاحقا ، بأن الجيش المصرى كان يحوز أسلحة أفضل من تلك التى كان يحوزها فى حرب سنة ١٩٧٣ . . بينما جاءت المعارضة فقط من جانب صدقى سليمان رئيس الوزراء الذى طلب من ناصر الانتظار ، وأن يضع فى اعتباره الموقف الاقتصادى السيئ ، وكذا مشروعات التنمية الطموح التى تجمدت من جراء قطع المساعدات الأمريكية . .

ولكن ناصر لم يلق بالا لنداءات رئيس الوزراء ، طبقا للسادات . . لكى يحتفظ بهيبته فى العالم العربى . . حيث كتب السادات فى هذا الخصوص . . "ناصر ذهب

بعيدا ، بتهوره في إشعال دراماتيكية الموقف ، واستخدام وسائل الإعلام العالمية في زيادة التوتر " .

وفي ظل هذه الأجواء أصبح الكرملين يقظا ، محتجا على أن الأحداث تسير بسرعة أكثر من اللازم . . وأصبح مجهود القوى العظمى وحده هو الذى بإمكانه منع الحرب . . لكن لا بريطانيا ولا فرنسا ولا حيوية الولايات المتحدة كانت الممكن أن تمنع ناصر من الاندفاع للحرب . الأمر الذى كان واضحا بما فيه الكفاية من جهة السادات هو أن ناصر لم يفاجأ بالهجوم ، بل كان يعرف التوقيت ، ولكنه انزعج من تدمير قواته الجوية ، لأنه كان متأكدا من أن قواته الجوية واعية بالخطر ، وأنها على الأكثر سوف تفقد حوالى ١٠ ٪ من طائراتها .

لا يصطدم هذا السيناريو السابق ورؤية هيكل بأن ناصر كان محجما عن التورط فى حرب مع إسرائيل مع اعتقاده بإمكانية عزل إسرائيل ثم إبادتها بالتدريج أو طردها من الشرق الأوسط .

وعلى كل فليس هناك برهان على أن إسرائيل عمدت إلى الحرب مع ناصر في هذا الوقت أو إثارته إلى الحرب عن عمد بصورة واضحة ، بينما تصرف أنور السادات كحليف غير يقظ .

كذلك فإن رئيس الوزراء ليفى أشكول قد حاول جاهدا تجنب الحرب ، وحينما أصبح من المؤكد أن هذه الحرب لا يمكن تجنبها استدعى جنرالات الجيش على وجه السرعة ، لأن أى يوم يمر كان يحتمل معه إمكانية حدوث كارثة للإسرائيليين . . وفوق ذلك لم يكن هناك برهان - من وجهة النظر العسكرية الصرفة - على أن إسحاق رابين أو عيزرا وايزمان لديهما خطة طويلة المدى لجر ناصر إلى حرب مدمرة .

إن السادات لم يلم عامر على عدم إعداد القوات المصرية بصورة كاملة لتحدى الإسرائيليين فحسب ، وإنما أيضا اتهمه تحديدا بتصرفه الأحمق في جعل المجال الجوى المصرى خاليا أمام القوات الجوية الإسرائيلية المدربة تدريبا عاليا خلال

الساعات الأولى للحرب مما مكنهم من تدمير كل الطائرات الحربية المصرية تقريبا ، ومن ثم كسب المعركة .

إذ رغم تحذيرات عبد الناصر من أن الإسرائيليين سوف يهاجمون فى ٥ يونيه فإن عامر استقل طائرة ، مصطحبا معه قادة الجيش ، وقاموا بعمل جولة تفتيشية فى سيناء ، وهكذا أعطيت الأوامر لكل طائرات (SAM) والصواريخ المضادة للطائرات بإطلاق النيران بينما عامر ما زال فى الجو .. أثناء هذه الفترة هاجم الإسرائيليون كل القواعد الجوية المصرية ، الأمر الذى يمكن القول معه إن الحرب بدأت وانتهت عندما كان عامر فى الجو .

ومهما كان الأمر فإن خلاصة ما قرره السادات فى هذا الصدد يتمثل فى أن النصر الإسرائيلى كان يمكن منعه لو أن عامر ظل على الأرض ، وأن الصواريخ المضادة للطائرات التى سمح لها بالإطلاق لم تكن مقنعة .

إنه ليس من الصدق القول بأن لا صواريخ مصرية أطلقت ، كذلك فإن عددا من الطائرات الإسرائيلية تم ضربها ، وكادت الخسائر الإسرائيلية تكون أكثر ، لكن تم النصر ، ولم تكن الدفاعات الجوية المصرية لتقدر على الصمود أمام تكاثف الهجوم الإسرائيلى المباغت .

إن عامر كان على قناعة بأن الأمريكيين سوف ينضمون للإسرائيليين فى الغزو ، ورغم معارضة ناصر لهذه الفكرة ، إلا أنه ألقى باللوم فعليا فى إهانته الكبرى على يد الولايات المتحدة .

لقد كان لتدمير القوات المصرية على الأرض ، وما تلى ذلك من سرعة تدمير القوات الجوية ، أثر سيء على القادة المصريين .

ورغم أن السادات أصر على تقديم نفسه فى مواقف بطولية ، إلا إنه اعترف بأنه فى هذه الأيام كان مندهشا ، ويمشى كما لو كان يحلم . . كان شعوره بعدم

تصديق الحقيقة يتصاعد مع منظر الجماهير العريضة التى تملأ شارع الهرم الواسع تغنى وتصفق للنصر الذى أنجزته القوات ، والذى حدثتهم عنه وسائل إعلام الدولة ، وللمرة الأولى والوحيدة فى مذكراته يصف السادات نفسه بأنه (كان منكسر القلب) .

ولكن لماذا لم يطرد ناصر "عامر" فى الحال عندما سمع بالكارثة الجوية ؟ لماذا لم ينقذ الجيش المصرى من التدمير ؟ ، لماذا لم يقم خطوطا دفاعية فى ممرات سيناء ؟ زعم السادات أنه حاصر ناصر بهذه الأسئلة لكن ناصر كان يتملص ويعطى إجابات غير كافية . وعلى هذا الأساس ، ما كان من ناصر الجريح إلا أن ذهب إلى الراديو فى الحال ليعلن عن تنحيه ، وتسليم سلطة الرئاسة إلى زكريا محيى الدين الذى كان غير ذائع الصيت .

وخلال دقائق من حديث ناصر ملأت الجماهير العريضة شوارع القاهرة مطالبة ببقائه قائدا لهم .

عن هذا الموضوع استنتج السادات فى مذكراته أن شعور الجماهير لم يكن نابعا من معاناة قائدهم المحبوب مثلما كان نابعا من ارتباط الولايات المتحدة بعدوهم .

ورغم عودة ناصر إلى كرسى الرئاسة ، إلا أن السادات أصبح على قناعة بأن كارثة ٥ يونيو قد جعلت ناصر شبه ميت .. فوجهه كان عابسا ومتوترا ، وصوته كان أجوف .. وكتب السادات تعليقا على ذلك " بأن ناصر لم يمت فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ، ولكنه مات فى ٥ يونية ١٩٦٧ " .

ولا شك فى أن حكم السادات هذا يعتبر مبالغا فيه إلى حد ما بالنسبة لرجل ميت ، حيث أظهر ناصر طاقة غير عادية ، وكان شخصا بارزا فى قمة الخرطوم ذات قرارات اللاءات الثلاثة الشهيرة (لا سلام - لا مفاوضات - لا اعتراف بإسرائيل) .

كذلك كان ناصر قادرا على الحصول على مبالغ كبيرة من الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية ، وكذلك من الكويت وليبيا نظرا للخسارة التى أصابت عوائد قناة السويس .

وفيما يتعلق بوضع عامر ، فإن السادات ركز على أن "ناصر" لو احتاج للشجاعة لاتخاذ إجراء قوى ضد عامر لكان استمدها منه ، لكنه كان يتوقع احتمال تصرف ناصر بدون الالتجاء إليه ، لأنه اعتقد أن عامر أصبح يمثل تهديدا لأمنه الشخصى ، خاصة أن عامر قد قام بتكديس الأسلحة فى بيته ، وجمع العديد من صغار الضباط حوله ، والذين طالبوا ببقائه على رأس الجيش ... وهكذا أصبح الخوف على أمن ناصر الشخصى ، لا سيما حينما سمع أن هؤلاء الضباط ينوون السير إلى مقر الرئاسة .

ولذلك قام ناصر بطرد عامر وعين مكانه محمد فوزى لأنه كان محل ثقته ، كما أعطى أوامره بنزع سلاح رجال عامر ... وبعد مواجهة مع ناصر اعتقل عامر ثم قرر الانتحار .

وكان ناصر مندهشا من رد فعل السادات الغليظ تجاه موت صديقه السابق ، إذ حينما أبلغه ناصر الخبر رد عليه السادات قائلا " لو كان هذا قد حدث فعلا فإنه يعتبر أفضل قرار اتخذه عامر كقائد خسر المعركة .. ولو كنت مكانه لفعلتها فى الخامس من يونية " .

وحينما عارضه ناصر رد السادات قائلا : "حسنا .. طبقا للتقاليد العسكرية يفعل القائد المهزوم ذلك " .

ويبدو أن السادات فى كتابته لهذا المشهد لم يكن مدركا أن "ناصر" بدا أكثر إنسانية منه ، وكان عليه أن يتذكر فيما بعد أنه كانت توجد علاقة شخصية بين ناصر وعامر ... تلك العلاقة التى جعلت ناصر يتسامح مع عدم كفاءة عامر التى كلفت مصر غاليا .

لقد كانت هناك مسحة توراتية فى حسرة ناصر الواضحة على موت رجل كان صديقا له طوال حياته ... كان هناك رنين محبة فى بكاء ناصر الذى لم يستطع أن يحضر جنازة عامر .

ورغم أفعاله الخادعة شعر السادات بأن "ناصر" لا يمد شعب مصر بالسياسات التى يحتاجها ... كذلك رغم ظهوره متعاطفا مع مظاهرات الطلبة فى نهاية ١٩٦٨ حينما ترددت عبارات مهينة لقادة القوات الجوية ، إلا إنه - فى نفس الوقت - تحامل على نفسه لكى يتحدث إلى الطلبة ، ويدعوهم إلى أن يكفوا عن هذا التصرف .

أيضا ، استحسن السادات قرار ناصر بإعادة بناء القوات المسلحة .

وتلى ذلك قيام ناصر بشن حرب استنزاف ضد إسرائيل بمساندة روسية عبر قناة السويس ، تمثلت فى ضرب المواقع الإسرائيلية عبر قناة السويس ، وردت إسرائيل بغارات جوية فى عمق الأراضى المصرية .. هذه الحرب سببت انقساما فى الرأى داخل الحكومة الإسرائيلية ، إذ دافعت المجموعة القائدة عن الغارات داخل مصر ، بينما حذر الآخرون من أن هذه الغارات سوف تضطر ناصر للبحث عن أسلحة سوفيتية أكثر ، شاملة قواذف (SAM) .... وهذا ما حدث بالضبط ، فحينما ضربت إسرائيل مصنعا فى أبى زعبل على أطراف القاهرة فى يناير سنة ١٩٧٠ مسببة خسائر فادحة ، طار ناصر فى زيارة سريعة لموسكو وطلب من الكرملين إمداده بثلاث قواذف (SAM) لدرجة أنه وافق على أن تصطحب الطواقم السوفيتية تلك القواذف .

ولمعرفته أن السوفييت لا يوفون بوعودهم ، فقد تعاهد معهم على أنهم فى حالة التأخير وخلافه فإنهم سوف يقومون بإمداده بنظام دفاع جوى عن قناة السويس ، ذلك النظام الذى أثبت أنه معرقل جدا للطائرات الإسرائيلية فى حرب اكتوبر .

وفى يوم ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٦٩ حدث شئ لم يسر السادات ، كما كان له تأثيرات بعيدة المدى .

ففى لحظة تجلى ، كتب السادات بسخرية نفس غير مقصودة أن "ناصر" جاء إليه قائلا إنه سوف يغادر البلاد لحضور قمة عربية فى المغرب ، وأن مؤامرة قد دبرت له ، وأن المتآمرين سوف ينالون منه فى يوم من الأيام ، وإنه لا يريد أن يترك

البلاد فى حيرة من بعده ، ولا يريد أن يترك فراغا وراءه ، لذلك قرر تعيينه ـ أى السادات ـ نائبا للرئيس .

ويضيف السادات أنه أبدى فزعه وعدم سروره ، متمنيا أن يعرف إذا كان ذلك رأى ناصر ، وحينما أومأ ناصر بأنه كذلك ، لم يتردد السادات ووافق على أن يدلى بالقسم قبل مغادرة ناصر البلاد بيومين .

وفيما بعد ادعى السادات أنه سمع بنفسه عن هذه المؤامرة ، لكن الغريب أننا ذكر الروس .. وأن أحد الأطباء الروس –والذى زار القاهرة– اعترف بأن الأزمة القلبية التى يعانى منها ناصر خطيرة وأنه لن يعيش طويلا .

ومن المثير للفضول حقا أن يشعر السادات بالقوة بعد تقرير الطبيب المبين لمرض ناصر الواضح ، والذى سوف يزيد ألمه ومعاناته .

ورغم أن "ناصر" كان يصرخ من شدة الألم حينما يكون بمفرده فى مقر إقامته ، إلا أنه لم يغب عن اللقاءات الرسمية ، ولم يفش سر أنه يعانى ألما فعليا .

ومن ثم بدأت البثور تظهر فى جسمه ، كما كانت ساقاه تؤلمانه لدرجة أن الوقوف كان يمثل بالنسبة له محنة شديدة ، ومع ذلك كانت تبذل مجهودات ضخمة للحفاظ على سلامة عقله .

نقطة أخرى مهمة ساهمت فى تدهور حالة ناصر ، وهى أنه بعد قبوله خطة روجرز الأمريكية لتسوية النزاع الإسرائيلى ـ الفلسطينى ، أصبح ناصر موضوعا للهجوم العلنى من قبل الفلسطينيين .

وواقع الأمر ، فإن السادات كان على حق حينما أشار إلى أنه ليس هناك قائد عربى آخر فعل أكثر من ذلك للتمهيد للمسألة الفلسطينية ، كما حمل بقسوة على أى ملك عربى بارز بدا أنه ترك الشعب الفلسطينى ، كذلك فإنه أسس مبدأ الثقة بما يترتب عليه من وجوب أن تكون كل دولة عربية مستعدة لأن تبذل الممكن والمستحيل من التضحيات من أجل تخفيف المعاملة السيئة التى يتلقاها الفلسطينيون .

وهكذا كانت إهانة الفلسطينيين له وسخريتهم تجعله يتألم بعمق ، ويشعر بأنه يغرق فى الخيانة ونكران الجميل ، الأمر الذى عمق حالة الشك وعدم الأمان لديه ... وربما كان السادات على حق أيضا فى الادعاء بأن هذه الخصومة غير المتوقعة مع الفلسطينيين وهجومهم عليه من الأشياء التى عجلت بتدهور حالة ناصر الجسمانية وموته بالسكتة القلبية .

لقد كانت رغبة ناصر الحديدية فى أن ينقذ حياة الفلسطينيين هى التى قادت إلى قمة الضغط المرتفع بالقاهرة ، وهى التى أثقلت كاهله بعبء لا يطاق .

فعلى أثر المذبحة الأردنية للفلسطينيين ، والذين حاولوا الاستيلاء على السلطة فى عمان ، وخلع الملك حسين أو قتله ، قام ناصر على الفور بالدعوة إلى القمة المشار إليها .

وفى البداية لم يدع الملك حسين للقمة ، كما كانت هناك معارضة لحضوره ، لكن ناصر كان مصرا على أن وجود الملك بالمحادثات ، ومن ثم أرسلت إليه الدعوة فى حينه وقبلها .

كانت المحادثات متوترة ، والمشاكسات حامية ، وحينذاك قرر ناصر ضرورة وقف جرائم القتل التى انتشرت على نطاق واسع .. موضحا أن العديد من الفلسطينيين هربوا إلى إسرائيل تجنبا للغضب الأردنى ، كما دفع الفلسطينيون الثمن بأن نقلوا مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية إلى بيروت ، وانتقل معها آلاف الرجال ، الذين أشعلوا الحرب الأهلية وفتحوا المجال للغزو الإسرائيلى .

هذه المحادثات أثارت أعصاب ناصر ، الذى لاحظ السادات أنه فى حالة أقرب إلى الانهيار ، فتوسل إليه أن يذهب إلى بيته للراحة وتفويضه للقيام بالمهام الرسمية .

وفيما يتعلق بهذه المناسبة كتب السادات أنه عرض على ناصر رؤية أمير الكويت قبل أن يأخذ طريقه إلى المطار ، لكن "ناصر" أصر على توصيله للمطار ،

وبعدما أصبح أمير الكويت على متن الطائرة لوحظ أن ناصر لا يقوى على التحرك ، وطلب سيارته لتأخذه إلى بيته .. وودعه السادات على أساس أنهما سوف يغادران إلى الإسكندرية للراحة فى اليوم التالى .

وما إن رجع السادات إلى منزله حتى تلقى رسالة من سكرتير ناصر مفادها أن ثمة دعوة للعشاء مع ناصر .. استراح السادات ثم استيقظ فى غضون ساعات وطلب أن يغادر إلى مقر إقامة ناصر .. وساعة وصوله أخذ إلى حجرة النوم ، حيث شاهد ناصر راقدا ومحاطا بالأطباء ، الذين قالوا له إن "ناصر" مات منذ ساعة .

وحينما رفع السادات الغطاء ليرى وجه ناصر ، خيل إليه أنه حى وأنه يغط فى نوم عميق ... فلما وضع خده على ناصر لم يشعر بقشعريرة الموت ، فصرخ بصوت عاطفى مرتفع : لا ليس حقيقيا ... إن الذى تقولونه خطأ ... فرد عليه الأطباء بأنهم بذلوا كل ما بوسعهم لإنقاذ ناصر بعد أن حدثت له سكتة قلبية .

ظل السادات يصر على ذلك ، ثم قال : ولكن ينبغى أن تحاولوا ثانية .. وعند هذا الحد انفجر الأطباء بالدموع .

ولكونه نائب الرئيس ، قام السادات بعمل ترتيبات الجنازة ، التى كان لابد أن يحضرها العديد من الملوك والرؤساء ، لكنه هو نفسه لم ير الكثير منها حرقة وأسى .

ما كادت مراسم الجنازة تبدأ حتى بدأ السادات يشكو من التوتر العصبى والانهيار ، فتم نقله إلى مبنى مجلس قيادة الثورة .

ولأنه أعطى الكثير من الحقن فقد راح فى نوم عميق ، وحينما استيقظ بعد ساعات كان أول سؤال له غريبا ، إذ سأل : هل دفن ناصر ؟

وتبين فيما بعد أنه سأل هذا السؤال لأنه كان خائفا من أن تخطف الجماهير الغفيرة جثة رئيسهم المحبوب وأن تحملها معها بعيدا .

وتبدو رواية السادات هذه صحيحة عند قراءتها لأول وهلة ، ولكن خصومه لا يوافقون على روايته كلية ... حيث يرى محمد حسنين هيكل أن السادات كان من

أواخر من دعوا للفراش موت ناصر .. وتتلخص رواية هيكل فى أن درجة تحمل السادات لم تكن عالية ، وهى رواية غير مقنعة .

وفى ضوء ما سبق ، وفى ضوء أن السادات كان نائب الرئيس ، فإنه لا أحد سوف يستطيع الآن تأخير الإعلان عن الرجل المنوط بتولى المسئولية ، بداية بالمهام المؤقتة للرئيس .

وختاما ، فإن كل خصوم السادات يتفقون وتعليقه بأن موت ناصر مثل مأساة هزت كل أرجاء العالم العربى .

الفصل السابع

السادات .. الرئيس المفاجئ

كان أنور السادات مستاء للغاية من اختيـار نـاصر لـه كنـائب لـلرئيس لأسـباب خاطئة ، ذلك أن السادات كان مدركا أن اختياره نبع من كونه شخصا وديعا ، يجب ألا يخشى الرئيس المتعب عصبيا من تآمره ضده .

ويعتقد محمد حسنين هيكل ـ المشهور سواء بمصر أو فى الغرب ، والصحفى والمحرر بجريدة الأهرام القومية ذات التأثير الواسع ، والصديق الشخصى لعبد النـاصر ، وأحد وزراء المؤسسة الناصرية ـ يعتقد أنه لا شك فى أن السادات دمر الميراث النـاصرى كما قدم هيكل صورة غير مشوقة للسادات ..

كذلك جادل هيكل بأنها كانت فقط طبيعة ناصر فـى فـترات توتـره ، خاصـة بعد نكسة ١٩٦٧ هى التى أسقطته فى منزل السادات ، والذى كان قريبا منه ليتسامر مـع ما يمكن أن يطلق عليه أنه صديق ، ولكى يكون هناك بعيدا عن الناس .

ويجدر بالذكر أن الأزمة الأولى لقلب ناصر داهمته فى سنة ١٩٦٩ ، ولـم يكـن غريبا أو من قبيل المفاجاة أن يعين السادات على رأس لجنـة للعنايـة بشئون الدولـة أثناء فترة خضوع الرئيس للعلاج ، ولكن سرعان ما كان الرئيس قـادرا علـى العـودة إلى وظيفته .

ومع ذلك ، فإن قرار ناصر بتعيين السادات نائبا للرئيس مثـل مفاجـأة بالنسـبة لهيكل ، الذى حاول أن يعطى الانطباع بأن الأمر لم يكن حقيقيا .. وفى هذا الخصوص يروى أن نـاصر اصطحب هيكل فى رحلة جويـة إلـى القمـة العربيـة بالربـاط ، وحينمـا كانا يأخذان مجالسهما قال ناصر ضاحكا : "خذ بـالك مـن هـذه الكلمـات .. هـل تعـرف ماذا فعلت اليوم ؟ .. جاء السادات ليودعنى بالمطار ، لذلك أكدت عليه أن يحضر معه مصحفا ، واعتقدت أنه فهم التلميح ، وأقسمت له علـى المصحـف بأنـه سـيكون نائبـا للرئيس حينما أكون خارج مصر" .

فسأله هيكل مندهشا : لماذا فعلت ذلك ؟ .. لذلك قـال نـاصر : اقرأ هـذه .. ثـم أظهر مجموعة من البرقيات واردة من فريق أمنـى سـبقهم إلـى الربـاط للقيـام بعمليـة

الفحص الأمني هناك .. بالإضافة إلى تقرير عن أن وزير الداخلية المغربي اللواء محمد أوكفير كان مشاركا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية (C I A) في مؤامرة لاغتيال ناصر .

وعلق ناصر بأنه إذا حدث له شئ خلال هذه الفترة فإن السادات سوف يكون على قمة السلطة شكليا ، وأن الناس فى الاتحاد الاشتراكى والجيش سوف يعتنون بالعمل الفعلى ، أما وظيفة السادات فهى متعلقة بالرسميات فقط ، بالإضافة إلى أن الآخرين كلهم سوف يكونون نوابا للرئيس .. وأضاف ناصر : على كل حال فإن الأمر مجرد أسبوع حتى تنجلى أمور تقرير الاغتيال .

تتشابه هذه الرواية إلى حد كبير مع تلك الرواية التى ساقها السادات نفسه مع بعض الاختلافات اللافتة للنظر .

أما الرواية التى ساقها هيكل فهى مدمرة لصورة السادات ، ومع ذلك ، فإنه لو تمت قراءة هيكل بتمعن لاستبان عدم إمكانية قبولها على أنها كل الحقيقة .. حيث تعانى العديد من مواضع الخلل .

ورغم أن السادات لم يعط تفسيرا كاملا للذى حدث فى مقابلته مع ناصر ، فإن الدليل الذى عول عليه هيكل أنه كان من الطبيعى بالنسبة لناصر أن يعين السادات ، لأن صداقتهما المترهلة كان من الصعب أن تأخذ مأخذ الجد .

وواقع الأمر ، لو أن الصدفة كانت هى المعيار الوحيد للاختيار ، فإن ناصر كان لديه رجال أقرب ، كان بإمكانه اختيارهم للوظيفة .

لقد ذهب هيكل إلى أن ناصر كان لديه رأى بالنسبة لعدم مقدرة السادات وانعدام صفاته وقدراته القيادية .

وفى الحقيقة فإن الوظائف التى سمح ناصر للسادات بتوليها لم تمده بأى أسس للقوة ، فلا الجمعية الوطنية ولا المؤتمر الإسلامى ، ولا وظيفة التحرير بجريدة الجمهورية

كانت من الوظائف التى يمكن أن تدفع السادات إلى غمار الرئاسة ، ولكن الاستنتاج الذى يريد هيكل إيصاله إلى قرائه هو أن ناصر تجنب منح السادات وظائف تتطلب صناعة قرارات مؤثرة فى حياة الدولة لأنه شك فى قدرات السادات .

ومجمل الأمر ، أن السادات فى رأى هيكل قد جرد ميراث ناصر كلية واعتقل واضطهد أنصاره .

وبدون قبول كل العبارات الذاتية التى ساقها السادات ، فبالإمكان قبول ذلك السيناريو الذى قدمه عن ذلك هيكل .. إذ لا شك أن السادات ظل فترة طويلة مزيلا شخصيا لحساسية ناصر العالية .

أما ما ذكره هيكل من أن ناصر قد تحدث عن السادات كنائب للرئيس وأن أشخاصا ما فى الاتحاد الاشتراكى والجيش سوف يقومون بالعمل الحقيقى ، وأنه لم يحدد أية أسماء ، فإن ذلك يمثل دليلا على أن ناصر كان حذرا من تلك الشخصيات الجوعى التى حاولت إقناعه بأن مكانتها ينبغى أن تكون فى قمة القيادة ، تلك الشخصيات التى بنت تأييدا لها فى الدولة والقوات المسلحة والتى أصابته ومصر بالفشل .. إذ لم يثبت على صبرى أنه رئيس غير كفء للوزراء فحسب ، وإنما أظهر حماسه إزاء التوجه السوفيتى فى الوقت الذى أصبح فيه ناصر غير موهوم بخداع الكرملين له .. أما زكريا محيى الدين الذى حاول ناصر - دون نجاح - أن يترك له رئاسة الدولة بعد نكسة ١٩٦٧ أثبت فشله كقائد فى ظل ناصر .. وفيما يتعلق بعامر ، فقد انتحر بعد اتهامه بأنه أس النكسة ، وأن سبب فساده كان تسامح ناصر .

ويبقى السادات فقط هو الذى استطاع الإفلات من الفشل ، ولم يحرك الشك لدى ناصر ، لأنه لم يتمرس السلطة فعليا ، ولم يظهر تمنيه لاستغلالها .

– لقد كان هناك تحول غريب فى العلاقة بين ناصر والسادات ، حينما عاد الرئيس من زيارته غير الناجحة إلى موسكو ، حيث كان قد ذهب ليبحث عن الأسلحة بجنون حتى يمكنه التصدى للغارات الجوية الإسرائيلية ، بيد أن قواذف (M . G - 23) والتروس

الإلكترونية التى وعد بها لم تصل .. وكانت كل تفاصيل تلك الصفقة قد نوقشت مسبقا بواسطة كل من السادات وفينو جرادوف السفير السوفيتى بالقاهرة .

ولدى نزوله من الطائرة عائدا من موسكو أدهش ناصر السادات بتعليقه بأن السوفييت حالة ميئوس منها .. مضيفا أن كل الأمور التى ناقشتها أنت وفينوجرادوف لم تصل إليهم أو أنهم قصدوا تجاهلها .

كان السادات متأذيا من هذه التعليقات ، لكنه كان واعيا بأن ثمة سببا آخر كان وراء رحلة ناصر إلى موسكو ، يتمثل فى العلاج من البول السكرى .. ولذا قال له : "والله إنك تبدو شابا فى سن العشرين .. ماذا فعلوا لك ؟ .."

فرد ناصر .. "إنهم وضعونى فى غرفة أكسجين ، ذلك المكان الذى يعالجون فيه كبار زوارهم .. لكنك ربما آملت ألا أعود حتى تبقى فى السلطة " ..

وهنا ضحك الرجلان من القلب .. ولا شك أن الرجلين كانا فى مزاح مازح ولكن تعليق ناصر برغبة السادات بالبقاء فى السلطة كان غريبا .. ورغم أن ناصر كان دوما قلقا من تعرضه للمؤمرات ، إلا أن هذه هى المرة الأولى التى ينوه فيها ناصر عن نوايا السادات .

إن ناصر قرر بوضوح ألا شئ يخيفه من السادات ، ولكن كان لزاما عليه أن يعرف أولا أنه شخص بعيد عن التعقيد ، وأنه أقدر من رفاقه على اكتساب ثقة الجمهور .

وهكذا ، حاول السادات أن يسارع بشفاء ناصر من نكسة سنة ١٩٦٧ .. إذ ، كما ذكر السادات ، لم يشف ناصر حقيقة من صدمة الهزيمة الكاملة .

استطاع السادات أن يتحدث إلى ناصر بالجدة وبالصورة المباشرة التى لم يقو الآخرون على التحدث معه بها ، ظهر ذلك جليا فى أنه حينما دخل حجرة ناصر ووجده يكتب خطاب الاستقالة استدار إليه قائلا : " لماذا أنت جالس هنا منشرحا

للغاية ؟ يجب أن تغادر إلى صعيد مصر لكى تكون رمزا للنهضة ، بينما نبقى نحن هنا لنحارب ، سوف نعد الناس للرفاهية فى الشرقية ومقاطعات السويس ، ونحارب إسرائيل وجها لوجه " .

فرد عليه ناصر : "ولماذا تريد أن تتصرف بهذا الأسلوب ؟ " فأجابه السادات : " ألم تسمع بإعلان القادة اليهود عن أنهم عبروا إلى الضفة الغربية للقناة ؟ " حينذاك أجاب ناصر بإسهاب شارحا الموقف الحقيقى ، ومتهما السادات بأنه سقط فى نفس المطب شأنه شأن أى فرد آخر ، ذلك أن ناصر قد فحص الموقف ، واكتشف أن القادة عديمى الأهمية أساءوا ما يحدث وأنهم أنجزوا أهدافهم باغتيال الرئيس جونسون ، وأن الإسرائيليين ليست لديهم نية باحتلال مناطق مصرية مأهولة بالسكان .

هذا الحوار كشف عن العديد من الأبعاد .. حيث أظهر السادات الغيور الحماسى ، تلك الصفات التى كانت يجب أن تقلق ناصر ، لكنها أيضا أبانت السادات فى إطار ميله للنضال أكثر من الرئيس المصدوم .. كذلك كشف عن عدم الاستعداد القتالى لدى رتب اللواءات .

أما بخصوص ما طرحه البروفيسور رفائيل إسرائيلى من أن ناصر أراد بتعيين السادات نائبا للرئيس أن يكافئه على قيادته الناجحة للوفد المصرى فى مؤتمر القمة الإسلامى بالرباط ، فإنه طرح ليس مقنعا ، حيث نهض المؤتمر بالأساس للتصدى للمحاولة التى قام بها الجنوبيون المجنونون لإحراق المسجد الأقصى بالقدس فى أغسطس سنة ١٩٦٩ ..

ورغم أن إسرائيل فسرت جريمة الحرق بأنها فعل جنونى غير مقبول بالعالم العربى ، الذى زعم أنه جريمة إسرائيلية متعمدة ضد الإسلام ، حتى بعدما ثبت بالدليل القاطع أنها فعلة مجانين ، فقد رفض الساسة العرب سحبهم للاتهام .

وقد قادت المملكة العربية السعودية ، والتى ترى نفسها وصية علـى المـزارات الإسـلامية المقدسة ، والتـى ترتفـع فيهـا مكانـة الأقصـى ، قـادت الحملـة للتحريـض ضد إسرائيل .

واستجابت مصر بسرعة للمبـادرة السـعودية ودعـت ٢٠ دولـة إسـلامية للقمـة فى الرباط .

وجدير بالإشـارة أن هـذا المؤتمـر كـان أول المؤتمـرات العديـدة التـى اعتـادت الشخصيات الإسلامية استخدامها لإثارة الكراهية ضد دولة اليهود فى إسرائيل .

وكان أنور السادات ، مـن خـلال خبرتـه كسكرتير للمؤتمـر الإسـلامى اختيـارا طبيعيا لقيادة الوفد المصرى فـى القمـة .. وفـى عيـون المصرييـن ـ كمـا فـى عيـون الإسرائيليين وأنجز السادات بصورة جيدة فى القمة الإسلامية حيث أكسبه حديثه إلـى أعضاء وفده ، والذى كان أشبه بالرعد ، احتفاء كبيرا .

إلا أن ذلك النجاح لا يمكن اعتباره كافيا لأن يقلده ناصر وظيفة نائب الرئيس .

سبب آخر طرحـه البروفيسـور رفـائيل إسـرائيلى ، ولكنـه هـو نفسـه دحضـه ، يتمثل فـى أن الجماعـات المعارضـة قد زعمـت أن نـاصر كـان قد وعـد عبد اللطيـف البغدادى بمنصب نائب الرئيس (والبغدادى هـو أحـد الضبـاط الأحـرار كبـار السـن ، عينه الرئيس مرة رئيسا للجمعية الوطنية بعد أن كان قد وعد بها السادات ، لأنـه رأى ـ حينذاك ـ أن البغدادى أكبر سنا) .

ومع ذلك ، وتحت أمل الضغـط علـى الكرملـين لإمـداد مصـر بـالقواذف وبعـض الأسلحة الأخرى هدد ناصر بالاستقالة إذا لم يتم ترك الوظيفة للسادات ، والذى يمكنـه التعامل مع الأمريكان .

وفى الحقيقة ، فإن ناصر لو كان ينوى تهديد الـروس بالكـارت الأمريكـى لكـان اختار زكريا محيى الدين المعروف بصورة أفضل لدى الأمريكان .

ورغم أنه من الصعب بالنسبة لخصوم السادات قبول أنه كـان الأنسب بالنسبة لناصر ، إلا أن هيكل صاغ عبارة لا يمكن أن يقبلها العقـل تتمثـل فـى أن السـادات لـم يكن لديه التعليم الكافى لفهم تعقيدات العالم العربى وتطلعاته .

فبالعكس ، رغم أن السادات لم يكن حاصلا على تعليم رسمى أكاديمى ، إلا أنـه كانت لديه معرفة واسعة بالحياة اليومية العربية أكـثر مـن أى مـن زملائـه بمـن فيهـم ناصر وصبرى ، حيث قـابل السـادات أعدادا ونوعيـات مختلفـة مـن البشـر .. منهـم الخاطئون ومنهم القديسون ، كما عـرف كيـف يتعـايش فـى البيئـة القاسـية مـن خـلال السجن .. وإذا كان هناك شـخص مناسـب مـن حيث الخـبرة ليحكـم دولـة مثـل مصـر بجماهيرهـا الغفـيرة الفقـيرة والأميـة والتـى دأبـت علـى العمـل الشـاق والمعانـاة ، والمستعدة لقبول المصاعب وذات الإيمان العميق بالله .. فإن هذا الشـخص هـو أنـور السادات ، الذى ولد لأبوين فقيرين فى قرية ميت أبو الكوم .

إن محمد حسنين هيكل استهزأ بالعديد مـن بيانـات أنـور السـادات عـن العقيـدة والممارسة لإيمانه الإسلامى .

ولا شك أن السادات كابد تغيرا عميقا فى شخصيته وفى توجهـه نحـو اللـه فـى السنوات العديدة التى قضاهـا فـى السـجن ، وكـانت مأسـاة حـرب يونيـه سـنة ١٩٦٧ أشد عتوا .

إذ بعد انهيار النكسة أقام السادات حله على ضرورة إعـادة الشـعور بـالاعتزاز لدى الشعب المصرى ليجعل من نفسه أداة للإنجاز ، وكذلك حثته النكسة علـى أن يرى الإسلام فى صـورة جديـد ، حيث اعتـاد الملايين مـن المصريين العـاديين (الفلاحين والعمال وسكان المدن) النظر إلى الإسلام على أنه الخضوع لمشيئة الله .

والآن ، ولأن دولته أصبحت ذليلة فقد بدا السادات يرى الإسـلام بصـورة أكـثر إيجابية .

ففى خطبه أعلن السادات قائلا : "إن الله أمرنا بـأن نؤمـن ، ونحـن جميعا فـى حاجة لأن نملأ قلوبنـا بالإيمـان ، بالإضافـة إلـى الأسـلحة التـى نحملهـا ، حتـى ندخـل المعركة مسلحين بالإيمان ، وحتى نكون علـى مسـتوى المسئولية فـى حمـل الرسـالة التى حملنا الله إياها فى المعركة .. فقد سلحنا النبى محمـد (صلـى اللـه عليـه وسلم) بكل سلاح إيمانى يستطيع أن يجعل يدنا هى العليا ، ويمثل الاتحـاد جـزءا مـن الحملـة التى ننشدها من أجل عزة وشرف العرب .. نحن مشـجعون بالإيمـان وبالرسـالة التـى جاء بها النبى (صلى الله عليه وسلم) لنا .

الفصل الثامن

السادات يبدأ ثورة جديدة

كان أول ما فعله السادات بعد توليه الرئاسة هو طرد وزير الداخلية شعراوى جمعة ، وتبع ذلك فى الحال استقالة أعضاء قياديين آخرين من مجموعة على صبرى، من بينهم مدير مكتب الرئيس ومدير المخابرات ووزير المعارف وآخرون .. إذ اعتقد هؤلاء أن غيابهم سوف يؤدى إلى توقف عجلة الحكومة ، وسوف يجبر الرئيس المعاقب على استرجاعهم بشروطهم .

كذلك فإن هناك تهديدا آخر كان منبعه اللواء محمود فوزى وزير الحربية ، والذى أعطى أمرا للواء محمد صدقى بأن يتخذ ترتيبات للسيطرة على القاهرة ، كما استدعى فوزى قادة الجيش وأخبرهم بأن السادات يبيع مصر للأمريكيين .

وكان وزير الدولة الأمريكى قد وصل القاهرة حيث قال للسادات ـ المذهول ـ إن الجيش المصرى ارتأى أن اقتراح روجرز واقتراحات الرئيس غير مقبولة .

والذى حدث أن اللواء فوزى حينما توجه للواء صدقى سائلا إياه على ملأ : هل أنت جاهز ؟ فهم ما يعنيه فوزى .. ولكن رد اللواء صدقى كان مفحما ، إذ اتهم فوزى بجر الجيش إلى السياسة وأصر على أن القوات المسلحة لن تتدخل فى السياسة ، فى الوقت الذى يتم فيه الإعداد للمعركة ضد إسرائيل .

وقد كوفئ اللواء صدقى بصورة سريعة على إخلاصه ، وتم تعيينه وزيرا للحربية بعد أن تم إنقاذ السادات بمزيج من الحظ ونظام الجيش تحت القيادة الشجاعة للواء صدقى .

وعلى كل حال ، فإن هذه هى رواية هيكل للأحداث ، والذى رأى أن السادات بدا فى صورة البطل المنتصر على عصابة المتآمرين المرعبة دون حاجة لأن يفعل شيئا .

إلا أن هذه الرواية التى صورت السادات فى صورة الرئيس الضعيف المرتبك ، لا يمكن الوثوق بها ، وسبب ذلك أنه لو كان السادات ضعيفا ـ كما صورته هذه الرواية ـ لكان قد أقلع عن الصراع ، ولكن الحقيقة أن السادات وقف حازما وأهان

المتآمرين إلى أن انتهى بهم الحال إلى المعتقل ، ليس هذا فحسب ، وإنما أيضا أذهل الأمريكيين بقدرته على البقاء .. إذ عندما جاء ريتشارد سون إيليون مندوبا عن الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون لحضور جنازة عبد الناصر ، رفع تقريرا للإدارة الأمريكية مفاده أن السادات لن يستطيع البقاء أكثر من أربعة أو ستة أسابيع .

أما فيما يتعلق برواية السادات للأحداث ، فقد ذكر فروقا جوهرية عن مجموعة صبرى ذات التوجه السوفيتى ، حيث رأى السادات أن هؤلاء ـ الخصوم ـ لم يكونوا ضد خطة روجرز فحسب ، وإنما أيضا لم يكونوا متحمسين لخوض المعركة ضد إسرائيل ، وبرر السادات ذلك بأن ٥٠٪ من الأراضى المصرية كانت مفتوحة أمام الغارات الجوية الاسرائيلية كما ثبت أثناء عامى ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ .

ورغم أن السادات تحدث عن الضعف المصرى فإنه كان واعيا بأن القوات المسلحة قد حققت تقدما ملحوظا نحو الشفاء من عار ١٩٦٧ ، حيث أظهرت حرب الاستنزاف أن القوات يمكنها التعامل مع المدفعية الثقيلة بفاعلية ، لدرجة أن القادة الاسرائيليين كانوا مهتمين بذلك سرا ، ولكن بصورة غير كافية كما أثبتت الأحداث اللاحقة .. كذلك كانت هناك صدمة للجمهور الإسرئيلى كان منبعها غرق غواصة إسرئيلية ، وساد الانطباع بأن البحرية المصرية لم تعد كما كانت من قبل .

ولذا قام هذا الجمهور بإضراب .. ورغم ذلك اغتر الإسرائيليون بالنصر المدمر لحرب الأيام الستة ، ولم يرسموا استنتاجات صحيحة ، وكان عليهم أن يدفعوا الثمن غاليا جدا فى حرب اكتوبر .

وبخصوص صدام السادات مع القادة السوفييت ، قرر السادات أنه حينما زارهم فى مارس ١٩٧١ كان يبحث تحديدا عن أسلحة ردع بطاريات (صواريخ) SAM وذخيرة يسد بها النقص الذى حدث من جراء حرب الاستنزاف .

بيد أن السادات ـ شأنه شأن ناصر ـ عانى الإحباط من جراء التأخر السوفيتى فى إمداده بالأسلحة التى كان يحتاجها ، بل إن بريجينيف وعد بإمداد مصر بالعديد

من الأسلحة غير تلك التى طلبها السادات ، ومع ذلك اضطر السادات للموافقة .. حيث عرض بريجينيف أن يرسل ٣٠ من أحدث القواذف المحاربة وأكثرها تميزا (MIQ-25) وحينما سمع السادات ذلك أوضح أن الطيارين ينبغى أن يتلقوا الأوامر منه مباشرة ، وأنه ليس فى حاجة لتكرار كلامه بشأن الاختلافات التى دارت بشأن الصفقة .

وطبقا لرواية السادات ، فلم يرسل بريجينيف مما وعد به سوى أربع قواذف (MIQ-25) ، تلك القوذاف التى اتهم السادات الاتحاد السوفيتى بأنه أرسلها لاستخدامها فى التجسس ضد الأسطول السادس الأمريكى ، وليس من أجل استخدامها فى المعركة ضد إسرائيل . وأنه أبدى استعداده لشرائها ولكن الكرملين رفض وسحبها .

وفى أبريل ١٩٧١ أرسل بريجينيف جزءا من بطاريات S A M والذخيرة التى وعد بها ، بينما لم يصل الباقى ..

وفى تعليقه على النهج السوفيتى قال السادات .." إن الكرملين أراد أن يرى أيدى المصريين مكبلة حتى لا يكونوا قادرين على اتخاذ قرار "

ويحتمل أن تكون هذه الفترة من الإحباط الشديد هى التى دفعت السادات لأن يصوغ السياسة التى أدت فيما بعد إلى رحلته إلى القدس (بعد حرب أكتوبر) ، إذ قبل التضحية بحياة الآلاف فى المعركة ، وتحديدا فى ٤ من فبراير ١٩٧١ أعلن السادات عن مبادرة للسلام تتلخص فى أنه لو قامت إسرائيل بسحب قواتها الموجودة فى سيناء من قناة السويس إلى الممرات ، فإنه سيفتح قناة السويس ويقيم علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة ويعقد اتفاقية سلام مع إسرائيل تحت رعاية الأمم المتحدة ، ويومذاك علق السادات " بأنها المرة الأولى منذ ٢٢ عاما التى يكون فيها لدى قائد عربى الشجاعة ليعلن عن ذلك " .

وواقع الحال ، فإن هذا العرض كان بمثابة خطاب موجه إلى الجمعية الوطنية والتى أعيد تسميتها لتصبح مجلس الشعب حينما كان الصراع مع مجموعة على صبرى على أشده ، ورغم أن هذا العرض لم يلق احتجاجا من قبل المعارضة ، بل

كان هناك ترحيب بالانفتاح على العالم الخارجى ، إلا أنه لم يكن له نفس رد الفعل، كما حدث بالنسبة لعرض الذهاب إلى القدس بعد ست سنوات .. كذلك فإن مثل هذه المبادرة لم تكن لتخرج إلى حيز النور ، حيث إن السادات لم يعهد للولايات المتحدة أو حتى لأى من وزرائه بالتحرك ، وأيضا لم تكن هناك أية اتصالات دبلوماسية خلف الستار بين حيادين والوزراء المصريين كما حدث أثناء حكم ناصر .

وعلى الصعيد الإسرائيلى اقترح موشى ديان ــ أحد القادة العسكريين والسياسيين الإسرائيليين ـ ساخرا على مجلس الوزراء ضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية من على ضفاف قناة السويس ، أما رئيسة الوزراء جولدا مائير ـ والتى لم توافق على اقتراحات ديان ـ فلم تتأثر بعروض السادات ، خاصة أن تلك العروض لم تكن تتضمن أية تنازلات أو تضحيات من قبل مصر .

إن هذه المسألة كان يمكن اعتبارها عملية مضاربة من قبل السادات لو أنه كان قد أعد لأى نوع من السلام مع اسرائيل ـ كما حدث فى كامب ديفيد ـ لكنه كان يريد التعتيم على الاسرائيليين الذين بدا الأمر واضحا لديهم بما فيه الكفاية ، إنه كان يستهزئ بهم بصورة ما ، عندما انتهت سنة ١٩٧١ (وهى سنة القرار الذى اتخذه بكسر حالة اللاسلم واللاحرب مع إسرائيل) ، لذا اتجه بعض الاسرائيليين إلى أن يعاملوه كمهرج سياسى .

لكن عندما يدرس المرء تصريحات السادات فى تلك الفترة سوف يكتشف أن النقطة التى كان يحاول أن يثيرها فيما يتعلق بذلك السلام كانت – شأنها شأن خيار الحرب – تتمثل فى عدم إعطاء وعد محدد ، والتعلل دائما ببعض الظروف التى خدعت المراقبين الأجانب .. والاستنتاج القوى الذى يمكن الخروج به من عباراته هو أن حالة اللا سلم واللا حرب لا يمكن أن تستمر .

ولم يكن بغريب حينذاك أن يتجه إلى نفس الشخص الذى اتجه إليه بعد خمس سنوات للمبادرة مع الإسرائيليين ، هذا الشخص غير المحبوب هو ديكتاتور رومانيا الشيوعية نيكولاس شاوشيسكو ، والذى رغم أنه كان منضما للواء حلف وارسو ، إلا

إنه أظهر استقلالا مدهشا فى سياسته الخارجية .. كذلك فرغم أنه كان أكثر لينينية فى برامج دولته الاجتماعية ، فإن دولته كانت الدولة الشيوعية الوحيدة التى أبقت على علاقات دبلوماسية مع إسرائيل بعد حرب الأيام الستة ، كما سمح شاوشيسكو باستمرار هجرة اليهود الرومان إلى إسرائيل ، وأقام علاقات عمل مع الثرى اليهودى المعروف موشيه روزين ، الذى ساعده فى كسب امتيازات تجارية مع الأمريكيين .

بالاضافة إلى ذلك سمح شاوشيسكو لليهود الرومان بممارسة شعائرهم الدينية والإبقاء على العديد من المدارس اليهودية ..

ونيكولاس شاوشيسكو لم يكن انتهازيا ، ولم يكن كما تم وصفه بالطاغية الفاسد ، وإنما كان الرجل الشجاع والقائد الوحيد فى أوروبا الشرقية الذى تصدى للكرملين ، كما أنه - دون شك - لعب دورا فى معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل .

لقد وصفته جولدا مائير فى مذكراتها بأنه كان رجلا جذابا وحيويا حينما قابلته فى سنة ١٩٧٠ ، وأبدت له إعجابها بأنه لم يذعن للضغط العربى ، وأنه صمم على الإبقاء على الروابط الدبلوماسية مع إسرائيل والدول العربية جنبا إلى جنب .

وكانت مائير قد زارت بوخارست سنة ١٩٧٢ بناء على دعوة وجهها لها شاوشيسكو ، وحينذاك أخبرها شاوشيسكو بأن السادات قد قال له إنه مستعد لمقابلة الإسرائيليين ، سواء كانت المقابلة مع جولدا مائير أو أى قائد إسرائيلى آخر ، المهم أن تتم المقابلة . . فردت عليه مائير بأنها أفضل أخبار سمعتها منذ عدة سنوات .

وهكذا كان القائدان (مائير وشاوشيسكو) مثارين ، ولم يكن ثمة شك فى ذهن شاوشيسكو ، الذى كتبت عنه مائير أنه كان يقدم رسالة حرة وتاريخية .

ويومذاك تحدث القائد الرومانى عن أن الطرفين لا ينبغى أن يعملا من خلال مكاتبهما الأجنبية ، وإنما سوف يتم الاتصال بها عبر مستشارها السياسى . وبعد سنوات عديدة ظهر أن الجليد - حينذاك - قد أوشك على الذوبان ، ولكن ذلك لم يحدث .

وعن السادات قالت جولدا مائير " إننا حينما عدنـا إلـى القدس انتظرنـا وانتظرنـا ولكن دون جدوى . . فلم يكـن هنـاك تقـدم علـى الإطـلاق ، وأن الـذى قالـه السـادات لشاوشيسكو – وهو بالتأكيد قال له شيئا – كان لا معنى له علـى الإطـلاق ، وشككت فـى أن السبب هو أننـى لـم أسمع مـن شاوشيسكو أى شئ أكثر ممـا قالـه عن المقابلـة مـع السادات ، إن شاوشيسكو لم يستطع أن يعترف لى بأن السادات خدعه " .

غير أنه بالنظر إلى مـا حدث بعد خمس سنوات ، يبدو أنـه مـن المحزن أن هجوم جولدا مائير ضد السادات كان ينقصه التبرير ، إذ أنها لم تذكر إنها قامت بـأى مجهود لتعرف لماذا لم يتصل بها شاوشيسكو بخصـوص عرض السـادات . لقـد كـان عليها أن تسأل نفسها : لماذا أراد السادات أن يخدع القائد الرومـانى ؟ إلا إننـا نعـود ثانية ونقول إنه إذا كان التقرب الاسرائيلى إلى شاوشيسكو كان مـن الممكـن أن يحـل اللغز، فإن جولدا مائير والقادة الاسرائيليين الآخرين كان لديهم من الأسباب والدوافـع مايجعلهم يشكون فى رغبة الرئيس المصرى فى مقابلتهم .

أبـرز هـذه الأسـباب والدوافـع أن ديفيـد بـن جوريـون – مؤسـس دولـة اليهـود ورئيس وزرائها أثناء حربى ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ – قـد عرض أكـثر مـن مـرة أن يقـابل القادة العرب من أجل محادثات السلام ، ولكن عرضه كان دائما يقابل بالرفض .

لكن هذا الطـرح أيضـا يشـكك فيـه المؤرخـون فـى إسـرائيل ، خاصـة مـن جيل الشباب ، إذ لم يكن هناك سبب يجعله يندفع الى مائدة التفاوض ليقدم تنازلات للعرب وهو فى موقف الأقوى لا الأضعف .

وتذكر جولدا مائير أنها وجهـت نـداء للقـادة العـرب للقائهـا عـام ١٩٦٩ قائلـة " نحن نعد لمناقشة السلام مع جيراننا فى أى يوم وبخصوص كل المشاكل " .

وأضافت أن " ناصر " رد عليها قائلا " لا صوت يعلو فوق صوت المعركة ، ولا دعوة أقدس من الدعوة للحرب " .

كذلك ذكرت مائير أنها تلقت نفس الرد من عمان ودمشق وبيروت ، وأن مقالة فى أحد الصحف الأردنية الرائدة فى يونيو ١٩٦٩ قد علقت على هذا الموضوع كالآتى " أعدت السيدة مائير للذهاب إلى القاهرة لإجراء مناقشات مع الرئيس ناصر لكن للأسف ، فهى لم تدع لذلك ، وهى تعتقد أنه سيكون يوما رائعا بالنسبة للعالم أن يظهر الشرق الأوسط بدون بنادق . . إن جولدا مائير تتصرف مثل الجدة التى تحكى لأحفادها حكايات قبل النوم " .

وعلى هذا الأساس ، لم يكن مستغربا أن تتصرف جولدا مائير بهذه الطريقة تجاه الصمت الحادث بعد رسالة شاوشيسكو ، ورغم ذلك يبقى المراقب يحس بمشاعر الندم على السلام الذى لم يتحقق فى هذه الفترة .

وربما أدرك السادات أنه يحتاج لمزيد من الوقت لتثبيت مكانته فى الدولة ، وربما أيضا أساء فهم جولدا مائير ، وربما ثالثا كان يخطط لخداع شاوشيسكو بإعلانه بأن سنة ١٩٧١ أو سنة ١٩٧٢ سوف تكون سنة الحرب أو السلام ، وهو على يقين بأنه لن يستطيع تحمل تكاليف الحرب .

والاحتمال الأكثر ترجيحا أن السادات قد أبدى استعداده لمبادرة سلام مع إسرائيل – مع علمه بأن التوقيت غير مناسب لذلك – لأسباب خاصة بكسب عامل الوقت ، ليبدأ التخطيط لحرب محدودة بنية مزدوجة ، من ناحية لرد شرف القوات المصرية ، ومن ناحية أخرى لإيقاظ القوى العظمى – وخاصة الولايات المتحدة – لكى تصبح طرفا قريبا فى عملية السلام ، وهو السيناريو الذى بدا مناسبا لشخصية السادات ورؤيته للمستقبل واحتياجات مصر العاجلة .

ولو تأملنا علاقات أنور السادات والاتحاد السوفيتى لوجدناها قد اتخذت ملامح عامة وملامح خاصة . . وفى خطبه كان السادات يمتدح القادة السوفييت بكثرة ، ومن أبرز الأمثلة الدالة على ذلك أنه فى خطاب شهير له فى ٢٣ من يوليو سنة ١٩٧١ قال للشعب المصرى : " لقد تم بناء أكثر من ١٢٠٠ مصنع ، إننى بكل احترام

يجب أن أوجه شكرى وامتنانى للاتحاد السوفيتى الذى ساندنا خلال محنتنا ، والذى ساعدنا فى التصنيع قبل وبعد العدوان وحتى اليوم . . إن الاتحاد السوفيتى ساعدنا فى بناء السد العالى ، وبما أثبت للولايات المتحدة أو أى شخص آخر أننا لسنا عاجزين . . . إنه من الصعب ايجاد كلمات تعبر عن الشكر للاتحاد السوفيتى ، لأننا فى كل وقت نقدم فيه على التنمية أو أى مجال آخر نجد الروس يقفون بجانبنا ، يساندوننا ، ويمنحوننا مساعدات غير تقليدية من صديق "

أما بخصوص حديث السادات عن الحرب والسلام ، فقد استخدام لغة معقدة أدت إلى إساءة الفهم ، كذلك تجدر الإشارة إلى أن خطابات السادات يصعب توصيفها بأنها لها نفس القيمة التى يتوقعها الناس من قادتهم فى الغرب ، حيث كانت ملتفة وغير سلسة ، ومن الممكن أن تستمر لأربعة ساعات ، وربما تحتوى بعض القصص والنوادر عن خبراته كضابط ، وعن صباه فى القرية التى أمدته بالغرام فى إلقاء الخطب .

ولأن الأحاديث الشفوية والخطب فى مصر – شأن كل الدول العربية – تلقى أهمية خاصة وتعد ضرورية للتعرف على حيثيات الأحداث الحقيقية ، فإن إسهابات السادات واستطراداته كانت تلقى استجابة من قبل الجماهير ، الذين اعتادوا أن يحتشدوا فى جموع صغيرة لمناقشة معنى عبارات معينة ، كما أن التعبيرات التى تتعلق بالأرض ، والتى تعلمها فى ميت أبو الكوم ، كانت ترفع الابتسامات ، وتسخن المناقشات . [مجمل القول أن خطابات السادات يصعب تقييمها ، لاسيما أنها كانت تحمل مشاعر متناقضة فى المناسبات المختلفة ، ومن أبرز الأمثلة وضوحا على ذلك أن السادات خطب ذات مرة قائلا : " حينما نأتى إلى قرار الحرب أو السلام يجب أن نتحلى بأكبر قدر من الحكمة والمسئولية . . إذ ليس هناك أسهل من القول بأننى سأتخذ القرار غدا ، وسندخل المعركة . . لا . . هناك شئ اسمه الرأى العالمى والقوى الأخرى وخلافه . . الروس ساعدونا وبصورة غير تقليدية ، أعطونا مساعدة بدونها لم نكن قادرين على الوقوف بسرعة خلال الأربع سنوات الماضية ، ونتحدث بصوت مرتفع اليوم . .

أنا أعلنت سابقا أن قواتنا المسلحة تتبع الخامس عشر من مايو ، وأنا أكرر الإعلان لكم ، ومن خلالكم إلى الناس ، والعالم كله ، لأصدقائنا وأعدائنا . . أنني لن أسمح بمرور عام ١٩٧١ بدون تقرير هذه المعركة . .

أنا قلت وأكرر أن سنة ١٩٧١ سوف تكون سنة خادعة ، ولو تطلبت المعركة أن نضحى بمليون ، فإننا مستعدون للتضحية بمليون . .

الاتحاد السوفيتى يساندنا سياسيا وعسكريا ، ودول عدم الانحياز مثل يوغسلافيا والهند تساندنا ، الدول الاسلامية وعلى رأسها باكستان تساندنا ، أوروبا الغربية وخاصة فرنسا ساندتنا ، وأنا من كل قلبى أوجه الشكر للرئيس الفرنسى والشعب الفرنسى والحكومة على موقف فرنسا كشعب عظيم ، ظلوا على تأييدهم لنا فى حقوقنا المشروعة . . واتجاه بريطانيا أيضا تحسن بلا شك .. حزب المحافظين أخذ موقفا شجاعا عن ذلك الذى اتخذه حزب العمل . . نحن نقبل حل الأمم المتحدة والانسحاب الكامل وغير المشروط . . نحن نؤيد بعثة جيرنج . .

إن المرء يجب أن يكون متعاطفا مع أى سفير بالقاهرة يحاول أن يحلل هذا الخطاب ، ويرصد نوايا السادات الحقيقية .. فلا السادات يبدو وكأنه يدعو للحرب ، وفى نفس الوقت يقبل البعثة التابعة للأمم المتحدة . .

والملاحظ أن السادات بدا مخلصا فى شكره للاتحاد السوفيتى ، ومع ذلك فإنه كان خائفا ومستنكرا تدخل السوفيت فى شئون مصر الداخلية . . كذلك شعر السادات بأن عملاءهم لايريدون فقط إزاحته عن السلطة ، ولكن أيضا اغتياله ، وقد زعم أنه اكتشف مؤامرة من هذا القبيل واستطاع أن ينجو منها .

والملاحظ أيضا أن السادات كان مسرورا بوصف صداماته مع القادة السوفتييت فى الكرملين ، لدرجة أنك حينما تقرأ وصفه لهذه الصدامات تستشعر أنها كتبت بعد سنوات عديدة لاحقة ، وأنه استفاد فيها من وحى الدراما المسرحية . .

ومع ذلك ، فإنك تستشعر فى إحدى هذه الكتابات بأنها تنطوى على قدر كبير من الحقيقة .

يذهب هذا الوصف إلى أن خروشوف قائد الدولة السوفيتية والحزب الشيوعى قد قال للسادات إن الظروف فى الاتحاد السوفيتى أفضل من الظروف فى مصر ، لأن الاتحاد السوفيتى جنى ثمار الشيوعية ، وكان رد السادات عليه غريبا حيث قال له : إذن لابد وأن تكون الرأسمالية أفضل من الشيوعية ، لأن الظروف فى الولايات المتحدة أفضل من الظروف فى الاتحاد السوفيتى .

وهكذا فإن الفتور العام الحادث بين أنور السادات والاتحاد السوفيتى كان لابد وأن يزيد بسبب سمات شخصيته ، وكرجل فخور كان السادات واعيا بالميراث الطويل لمصر ، وكان مستاء من محاولة الكرملين أن يستعبد الدولة المصرية ، بل شعر بصورة أساسية أن الاتحاد السوفيتى يريد أن يلعب نفس الدور الذى كانت تلعبه بريطانيا قبل إزاحتها من حكم مصر . . وذلك من خلال التأخير فى تسليم المعدات الحربية التى وعدوا بها ، وتغيير نوعية الأسلحة المطلوبة .

لقد شعر السادات بأن القادة السوفييت – وعن عمد – يحاولون انتزاع السلطة الحقيقية من الحكام المصريين ، ولكنه – أى السادات – كان دوما جاهزا لإمداد القادة السوفييت بالكلمات والمعاهدات التى تنغص روح بيروقراطيتهم .

وبعد إزاحة على صبرى ومجموعته ذات التوجه السوفيتى ، وصل بودجورنى إلى القاهرة يحمل مطلبا يتمثل فى ضرورة أن توقع الدولتان ميثاقا للصداقة . . وبخصوص ذلك يزعم هيكل أن السادات هو الذى اقترح مثل هذه المعاهدة ليطمئن الكرملين إلى إنه لن يتخلى عن روابطه معه ، لكن هذا الزعم غير مقنع ، إذ كان من الطبيعى أن يندفع بودجورنى إلى للقاهرة بغرض الحصول على تعهدات رسمية كنوع من الرد على السياسة الغربية .

وقد تحدث السادات عن صورة هزلية كبيرة نشرت فى الصحف الغربية لبودجورنى وهو يقابل عملاء موسكو فى مصر وهم يرتدون زى السجن .

كذلك تحدث السادات عن أن بودجورنى قد طلب توقيع معاهدة صداقة مصرية- سوفيتية فى الحال ، لكنه شرح له أنه ليس لديه اعتراض ولكن التوقيت ليس مناسبا ، حيث إن رجال موسكو قيد الاعتقال ، وإن حالتهم سوف تتأثر بتوقيع المعاهدة ، حيث ستلطخ سمعتهم حينما يتم الاستنتاج بأنهم بالفعل رجال موسكو . .

بيد أن بودجورنى أصر على أن تكون المعاهدة أساسية ، ورغم أن مصر لم تكن سعيدة بطريقة الاتحاد السوفيتى فى إبرام معاهدة معها ، إلا أنه - أى السادات - قال أنه جاهز للتوقيع ليظهر النوايا الطيبة لدولته مرددا " الرجاء الثقة بنا . . الثقة".

ولذا بدا بودجورنى راضيا ، وأثناء مغادرته وعد قائلا " أعطنى أربعة أيام ، وكل الأسلحة التى طلبتها سوف يتم شحنها إليك شاملة سلاح الانتقام " .

وانتظر السادات - الذى سمع هذا الكلام من قبل - أكثر بكثير من الأيام الأربعة ، حيث وصلت المدة إلى ثلاثة أشهر ولم تصل الأسلحة . .

وفى سبتمبر سنة ١٩٧١ ، وعلى إثر معارضة السادات للتغلغل الشيوعى فى السودان ، تلقى السادات رسالة من موسكو تضمنت دعوة له للمحادثات فى الشهر التالى ، فكظم السادات غيظه من القادة السوفييت وقبل الدعوة ، لكنه قال " لا أصدق أنكم جعلتمونى أخطو خطوة واحدة خلف إسرائيل ، لكننى وجدت من الشفقة والبؤس أن أعود ٢٠ خطوة للوراء " .

وقد كتب السادات أن القادة السوفييت أعطوه وعودا مرة أخرى بإرسال الأسلحة المطلوبة - رغم أن هذه الأسلحة لم تعد مستحسنة لدى موسكو لاستخدامها ضد إسرائيل - ولكن وحتى قرب نهاية السنة لم تصل هذه الأسلحة .

وعلى خلفية الاحتواء السوفيتى للحرب الهندية - الباكستانية ، أخبر السفير السوفيتى السادات بأن القادة السوفييت كانوا مشغولين للغاية وأنهم سوف يرونه فى فبراير التالى .

وعلى الصعيد الإسرائيلي والأمريكي كانت هناك سخرية واسعة من دعاوى السادات غير التامة ، وأن ما أطلق عليه سنه القرار قد مرت دون أى حدث ذى دلالة ، وقد كان السادات متأذيا من التعليق المهين لويليام روجرز بأن عام ١٩٧١ جاء وولى ولم يقع أى حادث خادع من قبل الرئيس المصرى . .

إلا أن السادات عزا هذه الإهانة من جانب روجرز إلى رغبة الأخير فى استعادة مكانته لدى المجتمع اليهودى الأمريكى بعد عودته المبكرة من مصر .

وفوق ذلك ، أعلن روجرز أن الإمدادات العسكرية إلى إسرائيل سوف تزداد ، وأن الولايات المتحدة سوف تقوم بتصنيع الأسلحة فى إسرائيل ، وسوف تضمن الولايات المتحدة لإسرائيل التميز والتفوق ليس على مصر وحدها ، وإنما على كل الدول العربية .

وهذا - طبقا لرؤية السادات - كان بمثابة غارة نفسية كاسرة ضده ، كما كان غيظ الشعب المصرى تجاه القاده السوفييت قد بلغ درجات أشد حدة ، رغم استمرار السادات فى مدحهم ، ورغم أن بعض الأسلحة السوفيتية كانت قد بدأت تصل بالفعل .

ولكن بلغ تأثر السادات غايته حينما تمت القمة الأولى بين الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون والسوفيتى بريجينيف فى موسكو عام ١٩٧٢ .

إذ طبقا لما قرره السادات . . فإنه فى زيارة أخرى إلى موسكو تمت الموافقة على إرسال تحليل له عن القمة السوفيتية - الأمريكية عبر الكرملين ، وحينما تعرف على مضامين هذه القمة قرر أنه بعد انتخاب الرئيس الأمريكى الجديد فى شهر نوفمبر من ذلك العام سوف يغلب خيار الذهاب للحرب مع إسرائيل لو سدت طرق السلام . . حيث ادعى السادات أنه عندما قرر بريجينيف ونيكسون الدعوة الى الاسترخاء العسكرى فى الشرق الأوسط ، فإن ذلك سبب له صدمة عنيفة لأن الاسترخاء العسكرى كان يعنى عدم إرسال أسلحة أكثر إلى المنطقة ، وأن تظل مصر عشرين خطوة وراء إسرائيل ، أو بمعنى آخر الاستسلام لإسرائيل .

الفصل التاسع

الحرب والخدعة الكبرى

عندما سمع السادات برد الفعل الأمريكى والإسرائيلى لطرده للسوفييت عرف أن خطته سارية المفعول . . وكان السادات قد أخبر السفير السوفيتى بالقاهرة بأنه استغنى عن ألف خبير سوفيتى فى مصر .

وهكذا خيل للخبراء الأمريكيين والإسرائيليين أنه لاينوى الاندفاع للحرب ، وهكذا أيضا فشل هؤلاء الخبراء الذين اعتمدوا بصورة أساسية فى دراستهم وفهمهم لشخصية السادات على خطاباته ، فشلوا فى فهم أن عمليات الطرد هذه كانت مزدوجة الغرض .. فالسادات بداية – كان حانقا من أن القادة السوفييت تركوه يسقط من خلال إظهاره كبهلوان على خشبة المسرح العالمى ، بقبول الدعوة الأمريكية للاسترخاء فى الشرق الأوسط .

وعلى حد تعبير هيكل ، رأى السادات نفسه أشبه بفرعون . . ورغم أن هذه مبالغة من قبل هيكل ، إلا أن السادات كان شديد الفخر بالتاريخ الطويل للشعب المصرى ، وحكامه القدماء الأقوياء ، كذلك نظر للقادة العرب بازدراء مشيرا إلى أنهم مدينون بمراكزهم لصدفة اكتشاف البترول ، ولولا ذلك لظلت بلادهم مجرد أشلاء تعيسة من الأميين تعيش على إحسانات الدول الغربية وتخضع لرغباتها .

إن السادات اعتبر سلوك القادة السوفييت مزيجا من الغطرسة والفضولية والكراهية الشديدة ، وأن شعوره الوطنى قد أهين بواسطة الأعذار العرجاء التى أعطت الانطباع بأن القادة السوفييت يظنون أن كذبهم سيظل مخفيا .

ويمكن القول بأمانة ، أنه لاشئ منح السادات الرضا أكثر من أنه كان قادرا على إخبار السفير السوفيتى بترحيل الخبراء السوفييت . . وفى هذا الصدد كتب السادات بلذة واضحة " إنهم لم يكونوا ليغادروا فحسب ، وإنما أيضا كان يلزم إهانة مقابل إهانة " .

لقد كان لدى السادات العقل التآمرى الذى سمح له بالاحتيال على أولئك المدعين الذين حاولوا أن يظفروا به ، كما كانت لديه القدرة على فهم قيمة الطرد فى خطته الخادعة .

وفى أحد أكثر المقطوعات تسلطا على مذكراته ، توقع السادات رد الفعل العالمى للطرد ، وقال أنه أراد أن يتخذ خيار الحرب أو السلام ، لكن القادة السوفييت لم يسمحوا له بالذهاب إلى الحرب . . وكان عليه أن يلقنهم درسا بطرد الخبراء ، وفى نفس الوقت يكتسب حرية التصرف . . ولذلك كان رد فعل الكرملين والأمريكيين والإسرائيليين متمثلا فى التفكير بأنه لن يحارب الآن .

بيد أن القادة السوفييت لم يكونوا مخدوعين تماما كما عرف ، وعندما سمعت جولدا مائير بأمر السادات أوحى لها حدسها إن التحرك يعنى الخطر وإن الحرب محتملة ، ولكنها خففت مخاوفها قائلة لنفسها : إن بعض هذه المخاوف والهواجس خاطئة ، كما قامت بتوبيخ كل الخبراء الكبار ، الذين حللوا التقارير السرية التى أرسلت بغزارة من قبل العملاء من الدرجة الأولى .

فالاتحاد السوفيتى كان عليه أن يبرهن على حدث أكثر فاعلية رغم سوء التقدير الذى أحاط بهدف السادات من طرد الخبراء السوفييت . . وقد وصف السادات كيف ذهب إلى الإسكندرية ، والتى لم يزرها منذ هزيمة سنة ١٩٦٧ ، وبدأ يعد للمعركة مع إسرائيل أو لمحادثات سلام معها ، وأنه استدعى حافظ اسماعيل مستشار الأمن القومى وأخبره بأن هناك تحبيذا للتقرب من الولايات المتحدة ، وأنه يجب أن يكون جاهزا بالبدائل الضرورية للمحادثات ، والتى يمكن إنهاؤها بنجاح .

كذلك استدعى وزير الحربية محمد صادق وأمره بحشد المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى اليوم التالى ، وبأن يخبره بأن السادات قرر أن القوات المسلحة يجب أن تكون جاهزة للاشتباك فى ١٥ من نوفمبر ١٩٧٢ ، وباكتشاف السادات أن وزير

الحربية محمد صادق أقل حماسا للاندفاع بالهجوم ، قام بتنحيته فى الحال وتعيين اللواء أحمد إسماعيل مكانه ، واتهم السادات " صادق " بأنه ليس من دعاة الهزيمة فحسب ، وإنما بالكذب عليه أيضا .

ومع ذلك كان لبقية اللواءات المصريين رؤى أقرب لرؤية صادق ، ومنهم اللواء عبد المنعم واصل الذى أعطى صورة سيئة للقوات المصرية مقارنة بالقوات الإسرائيلية ، وجادل واصل بأن المصريين مكشوفون تماما ، لدرجة أن أية حشود سوف تتم ملاحظتها بسرعة من قبل الإسرائيليين ، وسوف تتم مهاجمتها بصورة سريعة قبل تمكنها من عبور القناة .

وطبقا لما أعلنه " واصل " ، فقد بنى الإسرائيليون سلسلة ضخمة من التحصينات الترابية على ارتفاع ٤٧ قدما ، بينما مثيلتها المصرية على ارتفاع عشرة أقدام فقط . . وأشار واصل إلى خوف المصريين من أن الإسرئيليين بنوا شبكة هائلة من المعدات الإلكترونية خلف خطوطهم ، ويزداد الخوف لعدم إمكانية مراقبتها من قبل المصريين على الضفة الغربية للقناة .

كان هذا الأمر يقلق السادات ، الذى ادعى أن " ناصر " ترك له الخطة العسكرية ٢٠٠ ، وأنه إذا زاد الاسرائيليون ارتفاع حصونهم بمعدل ٣ أقدام فإن المصريين يجب أن يزيدوا ارتفاع حصونهم بمعدل ٥ أقدام .

وواقع الحال ، فإن ناصر رغم عباراته الطنانة لم يترك أية خطة هجومية ، وبغض النظر عن مصدر الخطة المذكورة فإنها كانت معقولة فى عين السادات . . إلا إنها تم العزوف عنها . .

وهكذا ظل السادات ليالى لا ينام مفزوعا من السؤال التالى : كيف تدافع مصر عن نفسها لو اندفعت إسرائيل بالهجوم ؟ . . إلا أنه كان يفضل عدم إظهار ذلك للمراقبين الأجانب .

ورغم خطورة الموقف الاقتصادى المصرى ارتفعت الحصون المصرية إلى ٥
قدما ، وأصبح الجنود المصريون يرون الدفاعات الإسرائيلية ، والتى كانت أقل فظاع
عما تم تصويره ، وكانت عبارة عن نظام يضم عددا من الحصون المحمية بواسط
عدد صغير من القوات ، كما أنها لم تكن مصممة للتصدى لهجوم مكثف .

لقد لازم الخوف السادات انطلاقا من أن القوات المصرية سوف تتعرض
للهزيمة المريرة التى تعرضت لها فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ . . وتأكد مو
أنه لن يقبل تكرار مثل هذه النكسة .. واعتقد أنه لو حدث ذلك فإن الاستقرار الداخلى
للدولة سوف يتم تدميره .

ورغم معرفة السادات الجيدة بأنه يعد لحرب محدودة ، ظلت مغامرته بمثاب
مقامرة ، ومع ذلك فلا أحد من الحكام المصريين أعد لمعركة بمثل هذه المهار
النفسية ، خادعا كل العقول اللامعة ، سواء فى إسرائيل أو فى الغرب .

وفى مذكرات السادات تجده قد وضع تفسيرات وشروحا غير مكتملة .. لفتر
الإعداد - قبل الحرب - للاقتحام عبر قناة السويس . . إلا أنه لاينكر أنه بعد زيار
لموسكو فى فبراير ١٩٧٣ ، وتحديدا بعد مضى قرابة ثمانية أشهر على طرد الخبراء
السوفييت ، لم يوافق القادة السوفييت على إمداد المصريين بكمية الأسلحة المتفق
عليها فحسب ، بل بأكثر منها .

غير أن السادات قرر أنهم توقفوا فى الحال ، وأنهم عاودوا فقط فى عام
١٩٧٥ ، ويذهب السادات إلى أن توقف السوفييت عن إمداد المصريين بالأسلحة لم
يكن لخوف الكرملين من خوض هجوم أكبر عما كان معتقدا ، بل بسبب الشكوك التى
ساورت عقول السوفييت فيما إذا كان المصريون قادرين على خوض حرب شاملة مع
إسرائيل .

وتجدر الإشارة إلى أن السوفييت فى محادثاتهم مع الأمريكيين لم يخفوا
احتقارهم للجنود المصريين .

وفيما يتعلق بالتخطيط للحرب ، تعتبر الخطة الأكثر فعالية هى التى تبناها السادات نفسه ، حيث استخدم الدعاية وحشد القوات بالقرب من قناة السويس فى مايو ١٩٧٣ لإعطاء الانطباع بأن الحرب وشيكة الوقوع .

ومع تسرع موشى ديان ، أعطت الحكومة الإسرائيلية الأمر بالتعبئة ، ومرت الأيام دون حدوث أى هجوم ، وفى شهر أغسطس من نفس العام لعب السادات نفس الخدعة ، وللمرة الثانية تمت التعبئة وحدثت نفس النتيجة .

ادعى السادات أنه بعد حرب اكتوبر سئل ديان : لماذا لم تعبئ قواتك فى الموعد المحدد ، فأجاب بأن السادات جعله يفعل ذلك مرتين مكلفا إياه عشرة ملايين دولار فى كل مرة ، لذلك لما كانت المرة الثالثة اعتقد أنه ليس جادا ، ولكن السادات خدعه .

إن السادات لعب على ما استقر لدى الاسرئيليين من أن قواته المسلحة لم تعد كافية بما فيه الكفاية ، وأنه ليس لديه فرصة لكسب المعركة ، وأنه لايستطيع بدء الحرب ، هذا المفهوم الذى ترسخ على أثر حرب ١٩٦٧ المدمرة .

الحدث الأكثر دلالة على أن إعداد المصريين والسوريين للحرب كان مجهولا ، تمثل فى أن موشى ديان قد حذر لواءاته فى مايو ١٩٧٣ بأن يتوقعوا الحرب فى أواخر الصيف .

لكن من الغريب أنهم لم يأخذوا هذه التحذيرات بالجدية المناسبة ، حتى عندما تحركت القوات المصرية والسورية وأخذت مواقع هجومية فسر اللواءات الإسرائيليون الأمر بأنه ليس إلا مجرد خدعة من الخدع السنوية ، فقط طلب اللواء هوفى القائم على مرتفعات الجولان دبابات إضافية بعد توجيه النداء لديان .

ياالهم من لواءات عميان ومتعجرفين ، بما فيهم أولئك المسئولون عن وكالات الاستخبارات ، حيث إن كل المعلومات المتسربة عن المصريين لم يتم تقييمها بصورة جيدة .. ليس أدل على ذلك من أن وكالة منانيوز الرسمية قد نشرت تقريرا مفاده أن

الفرقتين المصريتين اللتين اندفعتا للهجوم عبر قناه السويس كانتا بمثابة جرس إنذار كذلك شاهد العديد من الملحقين العسكريين الأجانب مواكب المعدات تتحرك بالقرب من مطار القاهرة فى طريقها إلى السويس ، كما تحركت صواريخ SAM أيضا تجاه القناة .

هذه الحقائق تم استقبالها بواسطة الاستخبارات الحربية فى إسرائيل ، لكنها لم تؤخذ باهتمام ، ولا عجب أن اللواءات المصريين كانوا مندهشين من حظهم ، إذ كان هناك تقدير بأن الاسرائيليين بنظام تجسسهم الكفء (كان من المعتقد أن لهم خلية تجسس فى مصر) ، ومصادر استطلاعهم الجوية سوف يرصدون الطائرات المصرية على الأقل قبل الهجوم بخمسة عشر يوما . .

ولكن ما أثار دهشة اللواءات المصريين هو أنهم لاحظوا أن القوات الإسرائيلية لا تقوم بأية استعدادات لمواجهة الهجوم المصرى عبر القناة . .

ورغم المجهودات الكبيرة للاحتفاظ بسرية الهجوم الذى أطلق عليه كوديا اسم "بدر " ، فقد حصلت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (C I A) على نسخة من الخطة ، لكنها اعتقدت أن السادات لاينوى أن يضعها موضع التنفيذ ، وبهذا التقدير كانت C I A متأثرة على الأقل جزئيا بالثقة الإسرائيلية بأن فرص السادات للاندفاع فى الحرب بعيدة جدا .

ويحتمل أن يكون السبب الرئيسى فى سريان مفعول الخطة جيدا هو أن كل الساسة – باستثناء الملك حسين – لم يكونوا يفهمون إلى ماذا يهدف السادات . . إذ عندما طرد السادات الخبراء العسكريين السوفييت رأى الأمريكيون والإسرائيليون أنه كان يعزل الخيار العسكرى ، بينما حذر الملك حسين الأمريكيين من أن السادات يمهد الأرضية للحرب ، على أساس اعتقاده بأن الخبراء السوفييت الخاضعين لأوامر للكريملين من الممكن أن يحاولوا اعتراضه . .

وحتى هنرى كيسنجر بكل دهائه لم يكن قادرا حتى اندلاع الحرب على أن يتوغل فى أعماق نوايا السادات .

وواقع الأمر ، فقد كانت هناك ضغوط على نيكسون وعلى رئيس الوزراء والوزراء الجدد بأن يحاولوا حل مشكلة الشرق الأوسط المعقدة ، وبينما غاص روجرز على عجل فى المستنقع مظهرا قسوته ورفض الاسرائيليين خطته ، كان كيسنجر أكثر حذرا .

ورغم عدم الميل والتمرس اليهودى لكيسنجر ، إلا إنه لم ينس موت ١٣ فردا من أسرته فى معسكرات النازية ، كما أنه لم يكن ليسمح بهولوكست (محرقة) أخرى تجبر إسرائيل على اتباع سياسات تفتك بأمنها .

ولكن بوصفه رجلا أحرز تفوقا كأستاذ فى جامعة هارفارد وكسياسى - بعد أن جاء صبيا لاجئا من ألمانيا عام ١٩٣٨ - كان عليه أن يظهر أولوية لكونه أمريكيا وليس يهوديا ، كذلك لوحظ من مذكراته أنه كانت لديه شكوك فى ديانته اليهودية وأنه كان يعمل كأمريكى فقط ، الأمر الذى سبب له بعض التجارب المؤلمة .

ومما يثير الغرابة أنه اتهم فى إسرائيل بأنه يتصرف بصورة غير عرقية ، وربما جاءت معظم الانتقادات من جانب أولئك الذين يخلطون الدين بالسياسة . . والذين نعتوه بأنه يتبع سياسات موجهة ضد إسرائيل ، كما أخذوا عليه تزوجه بامرأة غير يهودية .

وربما كان كيسنجر غير ذكى فى اتباعه تصرفات غير حكيمة ليبرهن على أنه ملتزم دون أى سبب يهودى .

ويشبه كيسنجر فى هذه المسألة هربرت صمويل ، الذى عين مندوبا ساميا فى فلسطين سنة ١٩٢٠ ، حيث بعد أن لعب هو نفسه دورا بارزا فى إعلان وعد بلفور

بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، بدت تصرفاته أقل فطنة ووجاهة ، ومنها على سبيل المثال تعيين الحاج أمين الحسينى كمفتى أكبر ، مما كان له أكبر الأثر فى الإثارة والشغب ضد البريطانيين أنفسهم .

ظهر كيسنجر باعتباره معرضا لمثل هذا الضعف ، ولكن العجيب أنه يعترف بأنه خدع - مثل أى من موظفيه الرسميين أو رفاقه - بنوايا السادات . . ورغم كل ذلك فإنه إذا تم قبول ما كتبه كيسنجر كاملا تجد أن روايته تمثل دراسة عميقة لأسباب فشل المحاولات المختلفة فى حل المشكلة العربية الإسرائيلية .

ومما يثير الدهشة أن كيسنجر توصل فى النهاية إلى أن كل مايحتاجه الشرق الأوسط ليس إلا محاولة جنونية لصنع سلام بين العرب وإسرائيل ، وإنما الابتذال والتفنن فى تطويل المدى ، والذى على أثره سوف يتحرك العرب صوب الاعتدال .

وبدأ نجم كيسنجر يصعد عندما خاف نيكسون من أن إدارة الدولة بمصاحبة روجرز يمكن أن تكسبه عداء أمريكيين عديدين ، خاصة مع دنو انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٧٢ ، فقام بنقل المسئولية إلى كيسنجر فى أواخر ١٩٧١ . . وهذا ما جعل وجهات نظر كيسنجر الخاصة تحظى بأهمية قصوى .

أما أولئك الذين يعتقدون أن جولدا مائير فقدت فرصة ذهبية برفض عرض السادات عام ١٩٧١ ، فقد اتضحت لهم الحقيقة بواسطة كيسنجر عندما أشار إلى أن السادات لم يكن على استعداد لعقد اتفاقية ثنائية مع إسرائيل ، حيث لا السوريون كانوا سيوافقون على عقد سلام مع الإسرائيليين ولم يوافق على ذلك ياسر عرفات .. كذلك رفض العراقيون التوقيع على وقف إطلاق النار بعد حرب ١٩٤٨ ، أما الملك حسين الذى تحدث إلى الاسرائيليين -سرا- مباشرة ، فقد كان غاضبا من أن أى تعامل مع الإسرائيليين سوف يوعز إلى الراديكاليين العرب بأنه يسير فى كنف اليهود .

وكما علق السادات لاحقا ، أنه كان مطلوبا هو كسر الحاجز النفسى بين العرب واليهود ، وأن المسألة كانت محتاجة لحرب وسنوات طوال من المساومة تحت إشراف كيسنجر لإنجاز ذلك .

نقطة أخرى غاية فى الأهمية ، تتمثل فى أن قرار الأمم المتحدة الشهير رقم ٢٤٢ والصادر فى ٢٢ من نوفمبر ١٩٦٧ ، والذى كان جورج براون وزير الخارجية البريطانى فخورا به ، برهن بصورة كبيرة على أنه معرقل للسلام وليس معينا عليه . .

حيث تحدث القرار عن السلام الدائم والشامل والأمن والحدود المعترف بها ، لكنه ترجم بصورة مختلفة من قبل العرب وإسرائيل ، إذا كان هناك فرق حيوى بين الترجمتين الإنجليزية والفرنسية .

ففى الرواية الانجليزية " إسرائيل مطالبة بالانسحاب من أراض محتلة " . . وليس من الأراضى . . وهو حذف متعمد بواسطة الأمريكيين حتى يوافق الإسرائيليون على القرار .

وربما كان كيسنجر يعرف أو لايعرف القول بأن العرب لايمكن أن يصنعوا سلاما بدون سوريا أو حربا بدون مصر . .

إن المصريين يشكلون الجزء الأكبر والمثقف من العرب ، وكانوا عاطفيا مدركين لماذا خاض الفلسطينيون الحرب وفقدوا آلاف الشباب . . ورغم أن " ناصر " يدين فى إنقاذه خلال حرب السويس ١٩٥٦ فإنه اتجه للتكيف مع السياسة السوفيتية المضادة للولايات المتحدة ، والتى جعلت سلام الشرق الأوسط محالا . .

وطبقا لرؤية زعيم القومية العربية فإن إسرائيل لا مكان لها على خارطة الشرق الأوسط ، وشأنه شأن معظم القوميين العرب رأى ناصر إسرائيل مثيرة لمشاعر الشعب العربى ، كما لم يعلن على الإطلاق عن الوقت الذى ستوقع فيه اتفاقية سلام شامل مع الدولة اليهودية ويستقبل سفير لإسرائيل فى القاهرة .

وبعد رحيل ناصر بعام ظل السادات يعيش فى عالم الرافضين ، لكنه بدأ يعطى إشارات كانت مفهومة جزئيا فى الغرب ، ومن حسن الحظ أن أحد أولئك الذين بدأوا يفهمون دور مصر الخاص هو دكتور كيسنجر .

إلا أن كيسنجر شعر أنه من غير المفيد للمصالح الأمريكية أن تتزعزع إسرائيل ، حيث كان ذلك سيعد انتصارا للاتحاد السوفيتى والراد يكاليين العرب ومن الغريب أن السادات لم يذكر شيئا عن تلك المفاوضات التى عقدها مع الحكومة الأمريكية ، حينما كان كيسنجر مستشارا للأمن القومى ووليم روجرز وزيرا للخارجية قابل مبعوث السادات الخاص – حافظ اسماعيل – وزير الخارجية الأمريكية ومستشاريه رسميا ، لكن لم يكن معروفا ما إذا كان حافظ إسماعيل قد قابل كيسنجر سرا أم لا .

واندفعت الإدارة الأمريكية بعقد اتفاقية تفاهم مع مصر كرهها نكيسون ، وعارضها السادات أيضا .

وعلى الصعيد الإسرائيلى كانت فكرة التنازل عن أى أراضى تؤلم جولدا مائير ، لأنها اعتقدت أن إسرائيل قوية للدرجة التى لاتجعلها فى حاجة لتقديم أى تنازل للعرب ، خاصة فيما يتعلق بالأرض ، كما كانت على استعداد لتوقيع معاهدة فض اشتباك مع مصر على طول قناة السويس ، لكنها لم تكن لتوافق على حدود نهائية قبل أن يبدأ التفاوض وهو الأمر الذى ترددت الحكومة الإسرائيلية بصدده .

وتدل الشواهد على أن المحادثات السرية بين كيسنجر وحافظ اسماعيل – حال حدوثها – قد آلت إلى الفشل ، لأن الولايات المتحدة لم تكن مهتمة ، ولا هى أبدت رغبة فى إمداد السادات بالتسوية المفهومة كتذكرة عبور لتسوية ذات معنى مع إسرائيل . .

وهى التسوية التى لو حدثت لكانت على الأقل ستلزم إسرائيل بالموافقة على ترك الأراضى التى حازتها فى حرب الأيام الستة ، بما فيها القدس الشرقية . .

وهى مسألة كانت مستحيلة فى الوقت الذى كانت تشعر فيه إسرائيل بالعظمة والازدراء لكل الدول العربية .

إن السادات - كما رآه كيسنجر - تورط فى المعضلة التى لم يكن قادرا على التخلص منها بالوسائل الدبلوماسية ، حيث رفض الإسرائيليون التفاوض معه بشروطه ، كما أنه لو وافق على منهج الخطوة خطوة فإنه كان سيفقد الدعم السوفيتى والمساندة السورية ، ولو إنه ذهب لعقد سلام منفصل مع إسرائيل فإنه كان سينتقد ويجتنب بواسطة العالم العربى ، كما كان سينبذ بواسطة شعبه المهان .

وقد شعر كيسنجر لاحقا أن السادات اختار حربا محدودة ليحصل على نهايات دبلوماسية . . وفى هذه النقطة جاء كيسنجر بتفسير قوى ومقنع مفاده أن الضابط الصغير الذى شعر بإهانة ١٩٦٧ وتحدث مع عبد الناصر عن حرب ضخمة مع الإسرائيليين كان يبحث عن فرصة للقوات المصرية لاستعادة شرفها فى معركة ، كان عليه أن يثبت للشعب المصرى إنه يتفاوض مع الإسرائيليين من منطلق القوة وليس من منطلق الضعف . .

ومع ذلك - وحتى منتصف ١٩٧٢ - كان السادات يأمل فى استعادة الأراضى العربية دون الاندفاع إلى الحرب ، فالسادات كان رجلا عاطفيا يهم بالدموع كلما تحدث عن عدالة القضية العربية ، وربما شجعته ثقته العميقة بالله بأن يأمل فى حدوث معجزة ، ولم يكن ليتأتى له ذلك إلا حينما أصبح مقتنعا تماما أن مصر سوف تقوم باسترداد الأراضى العربية عامة وسيناء خاصة . . حتى أعطى الأمر بالاندفاع إلى حرب اكتوبر .

الفصل العاشر

كيف ارتبط القادة السوفييت بخدعة السادات ؟

بعد حرب اكتوبر سخر القادة العرب من القول بوجود درجة من التواطؤ بين أنور السادات والقادة السوفييت . .

وفى مذكراته وصياغاته العامة أدان السادات الدور السوفيتى متهما الكرملين بالضغط عليه لوقف إطلاق النار منذ بداية الهجوم وتهديده بأنه لن يمده بالأسلحة التى وعده بها وباستثناء الدليل الذى ذاع بأن الكرملين كان يعرف بخطط السادات والأسد للحرب ، فقد كان هناك العديد من علامات الاستفهام حول الدور الذى لعبه الكرملين فى الظلام فى حرب كيبور أو كما يطلق عليها السادات حرب أكتوبر .

كانت هناك – على سبيل المثال – القصة الغريبة لاختطاف إرهابيين عرب فى سبتمبر ١٩٧٢ لمجموعة من المهاجرين السوفييت كانوا فى طريقهم لإسرائيل ، حيث قام الرجلان المسلحان باقتحام قطار وكان يقله هؤلاء المهاجرون ، حيث وجود معسكر انتقال فى سوخونو .

وقد هدد المسلحان الحكومة الاسترالية بأنها لو لم تتوقف عن مساعدة المهاجرين من الاتحاد السوفيتى وتغلق معسكر سوخونو فلن يتم قتل المختطفين فحسب ، وإنما أيضا ستكون هناك أعمال عنف ضد استراليا . .

ومما أدهش وأرعب الحكومة الإسرائيلية أن شانسيلور كريسكى استسلم لطلبات الإرهابيين بسرعة وأعلن عن غلقه لمعسكر سوخونو . . وقد بدا هذه القرار شائنا ومتوحشا ، لأن كريسكى نفسه كان من أولئك اليهود الذين عانوا أثناء فترة هتلر .

حينذاك رأت جولدا مائير أن كريسكى تصرف كعاصفة مضادة لهجرة اليهود من الاتحاد السوفيتى ، وقد أشعرها هذا النصر للإرهابيين العرب بأنها مجبرة على أن توجه نداء إلى كريسكى شخصيا ، غير أن الأخير ظل متصلبا ورفض أن يتنحى عن قرار غلق المعسكر ، وفى هذا الصدد ذكرت مائير أنها شعرت كما لو كان فمها ممتلئا بالتراب .

كان هذا فى الأسبوع السابق لاندلاع الحرب ، مما جعل أخبار الاختطاف والقرار الاسترالى تملأ الصحف الإسرائيلية باستثناء بعض التقارير عما يحدث فى مصر وسوريا .

وقد سأل المعلقون بعد ذلك فيما إذا كان هذا الحادث متعمدا بواسطة السادات والأسد لجذب انتباه إسرائيل بعيدا عن النقاط الحرجة أم لا ؟

والإجابة أن هذا الحادث بكل تأكيد كان مفيدا لهما .

ولكن السؤال الذى ثار بصورة أكبر فى هذا السياق هو : كيف استطاع الإرهابيون العرب دخول القطار أثناء مروره على تشيكوسلوفاكيا ، إذ ليس من المقنع أن السلطات الشيوعية لم تكن واعية بوجود مسلحين أجانب على متن قطار فى دولتهم ، وليس من المقنع أيضا أن ذلك لم يكن جزءا من خطة لحرب خادعة .

كذلك كان هناك التصرف الغريب للقيادة السوفيتية عندما كانت الحرب على وشك الوقوع . فالسادات والأسد اتفقا على أنهما سوف يخبران السفير السوفيتى بالقاهرة فى ٤ من أكتوبر بموعد الهجوم ، لكن فى هذا اليوم تحديدا أبلغ السادات أن السفير السوفيتى يريد رؤيته ، واعتقد السادات أن السفير السوفيتى سوف يعطيه ردا على طلبه أسلحة من الكرملين ، إلا أنه عرف من السفير السوفيتى أن القيادة السوفيتية قد خصصت أربع طائرات سوفيتية كبيرة لمصر لتأخذ المدنيين السوفييت وأسرهم من العاملين فى المصانع والمنشآت . .

ونظرا لخطة الخداع الغامضة لم يعارض السادات هذا المطلب ، والذى كان يعتبر عامل تخدير للأمريكيين والإسرائيليين بأن الهجوم وشيك الوقوع . .

وفى ذلك الحين شعر السادات بخيبة الأمل من أن السفير السوفيتى ليست لديه أخبار عن الأسلحة السوفيتية وهكذا اعتقد السادات أنه من الأفضل السماح للأسر بالمغادرة وعدم استبقائهم حتى اندلاع الحرب وأن معاداة الاتحاد السوفيتى فى هذه المرحلة سوف تسبب أضرارا . .

وفى نفس الوقت كان يشعر بالرضا حينما يستمع إلى مناقشات مجلس الوزراء الإسرائيلى . .

وفى مذكراتها لم تشر جولدا مائير إلى مغادرة الأسر السوفيتية لمصر ، ولكنها أشارت إلى مغادرة أسر المستشارين الروس لسوريا ، وكان ذلك كله بمثابة إشارة عالية تظهر قلة اهتمام القادة الإسرائيليين بخطورة الأمر .

وقد ادعت جولدا مائير أنها كانت قلقة من أحد التقارير التى وصلتها ، والذى ذكرها بما حدث قبل حرب الأيام الستة ، لكن لا أحد آخر أبدى قلقا ، وادعت كذلك أنها سألت موشى ديان - وزير الدفاع - واللواء اليعازر ، رئيس الأركان ، ورئيس جهاز المخابرات فيما إذا كانت المعلومات الواردة بالتقرير مهمة أم لا ، فأجابوها بالنفى ، وأضافوا أن التقرير لا يجعلهم يغيرون تقديرهم للموقف ، وأن التعزيزات الكافية قد أرسلت إلى الخطوط الأمامية .

هكذا قيل لرئيسة الوزراء ، ومع ذلك وبخت نفسها فى نهاية أيامها على عدم الاستجابة لوجدانها ، واعتمادها على نصح وزرائها وقادتها العسكريين .

إن الكثير من سلوك القادة السوفييت كان سيصبح منطقيا ، لو أنهم والسادات اتبعوا سياسة الخدعة المزدوجة ، ولكن السادات أثبت أنه أكثر أستاذية وشجاعة عن تلك الصورة التى ارتسمها له الكرملين .

وقد رفض ديفيد كيمحى - رئيس الموساد الإسرائيلى سابقا - فى كتابه الموسوم " الخيار الأخير " تصور المراقبين الغربيين بأن السادات هو الذى أصر على طرد الخبراء العسكريين السوفييت ، وجادل كيمحى بأنه كان قرارا استراتيجيا سوفيتيا اتخذ بواسطة بريجينيف ١٩٧٠ . .

ويذهب كيمحى إلى أنه رغم استعداد بريجينيف لإمداد مصر بالأسلحة فإنه على حذر من أن يندفع المصريون للحرب دون أن يكونوا مستعدين تماما ، ظهر هذا

واضحا أثناء المقابلات التى أجراها مع السادات فى موسكو فى فبراير وأبريل ١٩٧٢ فى الوقت الذى كان بريجينيف يعد فيه لقمة موسكو مع نيكسون وكيسنجر .

إلا أن السادات كان يضغط بصورة أكبر من أجل الحرب وتسريع وتيرة المواجهة الأمريكية - السوفيتية ، حتى يتسنى له تحرير الأراضى العربية التى احتلتها إسرائيل .

وعلى هذا الأساس يقرر كيمحى أن الاستعدادات المصرية - السوفيتية للحرب مع إسرائيل استمرت خلال عام ١٩٧١ ، ولكن بدون يقظة الأمريكيين ووعيهم بها .

ويضيف كيمحى أن بريجينيف وجريشكو اعتقدا أنهما استطاعا تنظيم وتأخير خطط الحرب المصرية بتنظيم تدفق الأسلحة إلى مصر ، ولكن حينما أدرك بريجينيف فى أبريل / مايو ١٩٧٢ أن السادات مستعد لكشف خطط السوفييت للاحتواء ، قرر أن يسحب المستشارين والخبراء السوفييت قبل أن يتم انغراسهم فى حرب السادات المخطط لها ضد إسرائيل .

وفوق ذلك يذهب كيمحى إلى أن تلك الحركة كانت مزدوجة الهدف ، فمن ناحية سيؤدى انسحاب الخبراء والمستشارين السوفييت إلى تأخير خطط السادات ، ومن ناحية أخرى إرسال المزيد من المساعدات العسكرية إليه لطمأنته وجعله ينتظر المزيد.

وهكذا فإن تأخير الفعل العسكرى للسادات كان مغزاه أن تكتمل كل الخطط للاندفاع بالهجوم عبر قناة السويس ، وهكذا أيضا أخذ قرار سحب المستشارين العسكريين السوفييت أثناء محادثات موسكو فى ٢٧ من أبريل إلى ١٠ من مايو .

ويرى كيمحى أن السادات أراد أن يوافق بريجينيف على إنقاذ الشراكة المصرية - السوفيتية بالإعلان عن الانسحاب السوفيتى والتعبير عن الامتنان للمساعدة السوفيتية .

ورغم أن بريجينيف كان لا يحب القول بأن رجاله قد طردوا بفعل السادات الشائن ، لكنها كانت الميزة التى يطمئن بها الأمريكيين .

وانعكاسا لرواية السادات عن طرد الخبراء السوفييت كتب محمود رياض : " إن الروس رحبوا بطردهم من مصر ، وهو ما بدا ماثلا بوضوح فى السرعة التى تمت بها العملية ، حيث كان الكرملين متشائما من بقاء الحضور العسكرى السوفيتى فى مصر حتى اندلاع الحرب " .

وفى الحقيقة أمد الاتحاد السوفيتى مصر بأسلحة أكثر من تلك التى أمدها بها سابقا واستمر فى ذلك حتى بدأت حرب أكتوبر .

وقد علق الفريق الشاذلى على أنه حينما بلغ بقرار السادات فى ٩ من يوليو ١٩٧٢ والخاص بطرد الخبراء الروس ، قد وجد نفسه يرتد سبع سنوات للوراء ويتساءل : لماذا الآن ؟ . . ورغم أن السادات ادعى فى مذكراته أنه اتخذ القرار كرد فعل لخيبة السوفييت ، إلا إننى متأكد فى ضوء ماحدث فى سنوات الوساطة أن القرار رتب بصورة مسبقة مع آخرين ظل السادات شغوفا بإخفاء دورهم .

ويذهب كيمحى إلى تأكيد رواية الشاذلى بأنه كان يوجد بمصر ٧٧٥٢ سوفيتيا وليس ١٥٠٠٠ أو ٢٠٠٠٠ كما تم تقديرهم بواسطة الأمريكيين ، رحل منهم ٢٥٩٠ فى نهاية يوليو ١٩٧٢ ورحل الباقون (٥١٦٢) فى نهاية أغسطس ، غير أنهم لم يعودوا إلى الاتحاد السوفيتى ، بل انتقلوا إلى سوريا للمساعدة فى الإعداد لحرب أكتوبر .

ويضيف كيمحى أنه بعد طرد الخبراء السوفييت باثنى عشر شهرا أخبر الجنرال ساما خودسكى - الممثل غير الشرعى للسوفييت فى مصر - الشاذلى بأن الجنرال سابكوف و٦٣ من المستشارين السوفييت الخصوصيين سوف يصلون خلال عشرة أيام لتدريب الأفراد المصريين .

وبعد شهر لوحظ أن البعثة العسكرية الروسية الجديدة بدأت تدريب الفرق المصرية ، بينما كانت المعدات السوفيتية تتدفق . وأشار كيمحى إلى أنه فى ديسمبر ١٩٧٢ جدد السادات الاتفاقية المصرية - السوفيتية ، معطيا السوفييت تسهيلات بحرية أخرى حتى ديسمبر ١٩٧٧ . وقد سمحت تلك التسهيلات باستخدام مواقع البحرية المصرية بالإسكندرية والسلوم وأماكن أخرى كإطار لمعاينة ومراقبة الأسطول الأمريكى فى البحر المتوسط . . وقد استمرت الأسلحة البحرية السوفيتية فى الوصول خلال صيف وخريف ١٩٧٣ ، مما دفع السادات إلى التعليق " يبدو الأمر كأن السوفييت يريدون أن يدفعوننى للحرب " .

ورأى كيمحى أن بريجينيف - وبصورة أكثر من ناصر والسادات وأسد سوريا - هو الذى قاد متعمدا أوركسترا حربى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، وفى هذا السياق كان كيمحى ضد التحليلات التى جاءت من إسرائيل ومن قادة الولايات المتحدة وكذلك من قبل المؤرخين الأكاديميين .

وادعى كيمحى أن بريجينيف صدم من جراء الهزيمة المصرية فى ١٩٦٧ وخطط لحرب انتقامية ضد إسرائيل التى أهانت السوفييت مثلما أهانت العرب .

وطبقا لرواية كيمحى اتبع بريجينيف سياسة مزدوجة جعلته يلعب دورا رياديا ، ليس بالنسة لمصر ، وإنما بالنسبة لسوريا ، خاصة إنه كان لديه اقتناع - بعد أن أجرى مناقشات مع السفير السوفيتى فى إسرائيل - بأن مصر ليست قادرة على القيام حتى بخدعة حربية ضد إسرائيل ، كما أن المصريين غير منظمين فى شبه جزيرة سيناء ، بينما سوريا يمكنها القيام بذلك متى توافرت ظروف معينة ، لذلك ارتأى ضرورة توفير هذه الظروف لسوريا .

ورغم معارضة المؤسسة العسكرية لهذه الفكرة ، نظرا لما رصد من كم كبير من الأسلحة لمصر فقد تصرف بريجينيف على هذا الأساس بادئا بالإمداد الحيوى بالمارشال جريشكو .

والمعروف أن القوات المسلحة السورية قد دمرت فى حرب الأيام الستة ١٩٦٧ ، وفى نهايتها لم يكن لدى سوريا سوى ٢٥ طائرة بالخدمة وأقل من ٢٠٠ طائرة متقادمة ، بينما فقدت معظم مدفعيتها .

وبعد مضى سنة صعبة كان لدى سوريا ١٥٠ طائرة و ٨٠٠ دبابة و ٧٠٠ مدفع أمدها بها بريجينيف ، الذى أرسل إليها أيضا الفنيين والمستشارين السوفييت ، وكان لكل ذلك أثر فعال على القوات السورية ، خاصة بعدما حاز الأسد السلطة فى سنة ١٩٧٠ . .

وبمساعدة هذه الأسلحة السوفيتية القوية استطاع الأسد تثبيت سلطته رغم كونه أحد أفراد الطائفة العلوية الأقل عددا ، ولم تأت نهاية عام ١٩٧١ ، إلا وكانت سوريا تمتلك ١٢٠٠ من الدبابات السوفيتية المتقدمة .

ولأن كلا من المصريين والسوريين والسوفييت بدأوا التخطيط معا للحرب القادمة ، والتى كانت فى مدخلاتها ومخرجاتها مختلفة للغاية عن حرب الأيام الستة ، فإن الاعتبار الأول أكده كميحى كان بقاء الأمريكيين والاسرائيليين على غير وعى بما يحدث . ولاشك أن هنرى كيسنجر كان مرعوبا لعلمه مؤخرا بارتباطه ولعبه دورا فى قافلة المعلومات المضللة .

ويرى كيمحى أن السادات يعتبر المصدر الرئيسى للتاريخ فى هذه الفترة ، وأنه كان يتصرف بناء على اقتراحات المستشارين السوفييت بالقاهرة ، والذين أوحوا إلى الممثل الأمريكى بالقاهرة – دون بيرجس – بضرورة أن يقيم قناة خاصة للاتصالات مع كيسنجر . وحينما تم قبول الأمريكيين ذلك قام السادات – مستفيدا من هواجس نيكسون حول إدارة الدولة ومعتمدا إلى حد كبير على كيسنجر – قام باعتماد حافظ إسماعيل الذى كان مقبولا لدى السادات وكيسنجر معا للذهاب إلى واشنطن .

وقبل الذهاب إلى واشنطن كان حافظ إسماعيل بموسكو وناقش سر إيفاده مع بريجينيف وكوسيجين وجريشكو ، وأبلغهم الرسالة التى حمله السادات إياها والأثر العميق لخيبة مصر من جراء السلوك السوفيتى وعدم السرور من القادة السوفييت .

وقد حبذ بريجينيف الفكرة التى وجدها مناسبة لتحييد كيسنجر الذى كان يعد خطرا على المصالح السوفيتية ، حيث بلغ كيسنجر برواية حافظ إسماعيل عن العلاقات السوفيتية - المصرية ، وكانت النتيجة ماتمناه السادات والكرملين متمثلة فى تحول انتباه الأمريكيين والإسرائيليين عن الإعدادات الفعلية للحرب .

ويضيف كيمحى ، أنه كانت هناك درجة من الحقيقة فى عدم الرضاء المصرى عن الروس ، الأمر الذى جعل التضليل المعلوماتى أكثر سهولة فى تمريره وتصديقه ، حيث علم السادات أن كميات كبيرة من الأسلحة السوفيتية قد أرسلت إلى سوريا ، لكنه ظل محتاجا للاتحاد السوفيتى من أجل خططه الخاصة ، ولذلك قبل بتردد خطة السوفييت للحرب .

ويذكر أنه عشية حرب يوم كيبور كان لدى إسرائيل ١٢٠٠٠ رجل ، و١٧٠ دبابة فى مواجهة ٦٠٠٠٠ من القوات السورية ، و١٣٠٠ دبابة ، و١٠٠٠ مدفع ، و٥٠٠ فرقاطة ، و٣٠٠ طائرة قتالية . . هذه القوة الكبيرة كانت منوطة بالضرب فى قلب الأراضى الإسرائيلية فى حادث أصبح على وشك النجاح .

وطبقا لكلام كيمحى كانت هناك مضامين أخرى على رأسها أن السادات قبل الهدف العسكرى المحدود لقواته ، لكنه كان معولا بصورة أكبر على المشروع الدبلوماسى . . فبالنسبة له كان استخدام الحرب يعتبر بمثابة أرضية للتمهيد للوسائل الدبلوماسية دون القول لبريجينيف ، أو ربما أراد السادات إحداث صدمة كبيرة للقوات الإسرائيلية وتكبيدها خسائر فادحة بعد عبور قناة السويس تستميل إسرائيل والقوى العظمى للتدخل لوقف إطلاق النار . . وهكذا يتم السماح له بالسيطرة على القناة بوصفها الجزء الأكثر أهمية فى سيناء ، أما إسرائيل التى ستغدو ضعيفة فسوف تجبر بالوسائل السياسية على ترك ماحققته فى حرب الأيام الستة ، متمثلا فى : باقى سيناء ، الضفة الغربية وغزة ، مرتفعات الجولان ، والقدس الشرقية .

وفى مجهوداته للتنسيق بين جيشين عربيين ذهب بريجينيف لمدى أعظم ، حيث كان يقظا من أن السادات يحاول خداعه بتكييف خطة تعتمد على أقل المطالب

العسكرية ، بدلا من الخطة التى كانت مقررة سلفا ، لكن القائد السوفيتى قبل التغيير ناشدا من إعطاء الأسبقية لسوريا وإعطاء مصر الدور الأقل أن تستخدم واجهة السويس كمصيدة ، أما الرئيس الأسد فقد أعطى جناحا فى الكرملين لدرجة أنه كان يقترب بسرعة من بريجينيف أثناء رحلاته إلى موسكو .

وفى ضوء ذلك ، أصبح تدريب الجيشين العربيين يحظى بوفرة فى الأسلحة الحديثة التى كانت تتدفق رأسا وبسرعة من الاتحاد السوفيتى ، وللتأكيد على أن عبور القناة سوف يتم كما هو مخطط له ضد العدو الضعيف والمفاجأ ، فقد تدربت القوات المصرية على عبور قناة مماثلة لها .

غير أنه كانت هناك لحظة أخيرة للجهود الدبلوماسية بواسطة كيسنجر ، تحديدا فى ربيع ١٩٧٣ وقبل اندلاع الحرب بستة أشهر تقريبا أخبر كيسنجر جولدا مائير بأنه تلقى رسائل من السادات من خلال قناة سرية خاصة تفيد بأن وجود مبادرة سلام إسرائيلية سوف يلقى اعتبارات جادة فى القاهرة .

وحينذاك أقنعت جولدا مائير مجلس وزرائها بالعرض الذى قدمته منذ عام لنيكسون وكيسنجر ، ومفاده أن على السادات التنازل عن كل شبه جزيرة سيناء كأساس للتسوية مع إسرائيل .

غير أن السادات رد على ذلك – وطبقا لرواية كيمحى – بأن على إسرائيل أن تتنازل عن كل الأراضى العربية التى احتلتها منذ سنة ١٩٦٧ ، وفى مقابل ذلك سوف تقلع مصر عن حالة الحرب مع إسرائيل ، ولكن ليس أكثر .

وبناء على ذلك لم يكن ثمة تفاوض ولا علاقات دبلوماسية ، بل إن كيسنجر زاد على ذلك بأن مصر حازت سلطة الرفض بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وأن الفلسطينيين لايريدون السلام .

ويصر كيمحى على أن السادات إلى هذا الحد عقد العزم على الحرب وليس السلام ، وأن كل التفاصيل تم حسابها بواسطة بريجينيف ، الذى اقترح أن الأسد

وليس السادات هو الذى سيطلب وقف إطلاق النار فى الحال بعد البداية السورية بالاقتحام ليقطع الهجوم الإسرائيلى المضاد المتوقع ، خاصة بواسطة القوات الجوية ، حيث توقع الكرملين أنه خلال أيام ستدخل القوات السورية المدرعة الجليل وسيبقيهم وقف إطلاق النار هناك .

مجمل القول إذن . . إن بريجينيف خطط ، ليس لمحو إهانته فى حرب الأيام الستة ، ولا لكسب معركة سريعة مع إسرائيل ، وإنما ليقتص تلك الجروح التى أصابت الاتحاد السوفيتى ، حتى لا تكون قادرة على إرباكه ثانية .

الفصل الحادى عشر

انفجار أكتوبر

لقد كانت أساليب أنور السادات مضللة ، سواء للغرب أو للعالم العربى ، فهاهو هنرى كيسنجر لم يقبل القول بأنه كان هناك تواطؤ تام ما بين السادات وبريجينيف ، بينما أنكر السادات نفسه وجود أى تواطؤ ، وركز على أنه خاض الحرب رغم عدم تشجيع السوفييت ، فى حين استعرض ديفيد كيمحى دلائل ارتضاها بأن حرب أكتوبر خطط لها ونفذت بواسطة بريجينيف ، ولكنه عول على جوانب خادعة من كل اتجاه ، كما أشاد بشجاعة الدولة اليهودية .

وفيما يتعلق بالأهداف السورية - السوفيتية الخفية ، استمر الخداع الذاتى للقصاص من الإسرائيليين تقريبا إلى تلك اللحظة التى بدأت تعبر فيها القوات المصرية قناة السويس وتتحرك الدبابات السورية فوق مرتفعات الجولان .

وأيا ما كان الأمر ، فإن الحكومة الإسرائيلية ورئيسة الوزراء ووزير الدفاع لم يتلقوا معلومات مقنعة بأن المصريين والسوريين ينوون الهجوم فى الساعات الأولى من يوم السادس من أكتوبر ، لكنهم أساءوا تقديرهم لساعة الهجوم ، الأمر الذى كلفهم الكثير من الأرواح ، لقد توقعوا الهجوم فى العتمة ، لكن السادات والأسد اختارا توقيتاً مختلفاً للاكتساح المنسق ، وهى الساعة الثانية ظهراً .

وقد اختار السادات يوم كيبور فى أكتوبر كأفضل توقيت للحرب ، لأن يوم كيبور يعد أقدس يوم فى التقويم اليهودى ، حتى إن اليهود غير المتدينين يحترمونه سهابة .. وتبدو مظاهر الاحتفال بهذ اليوم فى أن معظم اليهود يتواجدون بالمجمع اليهودى لمدة ٢٤ ساعة ، وتتعطل الدولة باستثناء بعض المصالح الأساسية ، كذلك تصعب الاتصالات ولكون معظم القوات فى الاحتياط فإن التعبئة تحتاج إلى ٤٨ ساعة ، ومن ثم كان يوم كيبور يعد أسوأ الأيام للاستدعاء .

واعتقد السادات أن إسرائيل سوف تعتمد على الحرب الخاطفة ، وهو اعتقاد حقيقى بما فيه الكفاية ، لأنها من الناحية العددية أقل بكثير من العرب الذين كان بإمكانهم التضحية بعدد كبير من الجنود ، وهو ما جعل السادات يتباهى بأنه على استعداد للتضحية بمليون جندى .

ولم تكن المفاجأة الهائلة فى الأيام الأولى للحرب هى العامل المروع الوحيد ، بل كان هناك أيضاً التغيير الإسرائيلى فى قادة الجيش والمخابرات ، حيث تم استبدال الجنرال الكيس القطن " أهرون ياريف " رئيس المخابرات الحربية بالجنرال " زى إيرا" الذى بدا أكثر تميزا ، لكنه لم تكن لديه ملكة المرونة العقلية مثل سابقه ، بل كان متصلب الرأى ، معولاً على أنه ليست هناك حرب وشيكة الوقوع ، متجاهلاً كل الدلائل ، وهو الأمر الذى أدى إلى طرده بعد المعركة .

حدث آخر كان غير متوقع بالنسبة للعرب تمثل فى تعيين الجنرال شمويل جونيين كقائد للخطوط الأمامية المواجهة لقناة السويس ، وقد كان جونيين محاربا عظيما ، وذا مواقف عديدة صلبة وشجاعة أكسبته احترام القوات ، لكنه لم يكن ليضارع أريل شارون ذا القدرة القتالية المقترنة بالحس الاستراتيجى ، وقد طرد جونيين من وظيفته أيضا .. وكان على شارون المندهش ، والذى عين بدلاً منه أن يبحث عن الثغرات الموجودة فى مواقع القوات والتى هاجم المصريون من خلالها ، كذلك اكتشف شارون أن التدمير المصرى لإسرائيل كان أحد مصادره أن جونيين لم يكمل خطة الانسحاب من على خط بارليف بمجرد أن هجم المصريون .

وعلى هذا الأساس لا يمكن رد النجاح المصرى للمفاجأة وحدها ، أو للتفوق العددى ، وإنما لابد من الأخذ بالحسبان التكتيكات السيئة التى اتبعتها إسرائيل فى الأيام الأولى للحرب .

وفى محاولته لاستعادة تراجيديا الموقف شكا شارون بشدة من أن الدبابات الإسرائيلية لم تستخدم كقوة لجبر المصريين على التراجع ، كما جادل شارون بأن الجنرال جونيين لم يكن يفهم الدور الذى كان على خط بارليف أن يلعبه فى أية مصادمات مع المصريين ، إذ طبقاً لرؤية شارون -الذى كان معارضاً لبناء الخط فى البداية- لم يكن هذا خطا دفاعياً على الإطلاق ، لكنه كان عبارة عن نظام استطلاعى لمراقبة المواقع على طول قناة السويس وأحد مصادر الحماية للجنود الإسرئيليين من المدفعية المصرية .

إن السادات كان متأكداً من أن كل العالم العربى سوف يتراجع عن تدبيره الخطير ، حيث سافر إلى عدة دول عربية معربا لهم عن نواياه لخوض حرب ضد إسرائيل ، لكن دون إعطاء أى تاريخ محدد .. وإن كان قد أعطى تلميحات بأن الحرب قريبة ، كما اقترح أن يصل المتطوعون الفلسطينيون إلى القاهرة فى أوائل أكتوبر .

غير أن هذه الزيارات والتلميحات لم يكن لها تأثير بالنسبة لوكالات المخابرات الغربية .. ومن سخرية القول .. أن رؤساء المخابرات الغربية كانوا على حق لأن يثقوا بالموساد ، لكنهم كانوا على خطأ فى اعتقادهم بأن العسكريين ورجال السياسة الذين قاموا بتقييم المعلومات الواردة من العملاء لم يكونوا عمياناً ، فالموساد كانت لديه مجموعة تجسس نشطة فى مصر ، كانت تبعث تقارير منتظمة عن تجمع القوات المصرية بمنطقة القناة ، كذلك كانت هناك علامات أخرى عديدة واضحة عن الاستعدادات السريعة للحرب ، لكن -وكما لم يهتم ستالين بالتحذيرات العديدة التى تلقاها عن هجوم النازى فى ١٩٤١ - رفضت جولدا مائير الدلالات التى وردت إليها بخصوص حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وهكذا فإنه فى الساعة الثانية ظهر بالضبط ، يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ طارت ٢٤٠ طائرة مصرية فوق سيناء وأخذت تقتل القوات الإسرائيلية المسترخية ، أما القوات المصرية -التى كانت فى شهر رمضان- فكانت تحفزها اقتباسات من القرآن لإخراج اليهود ، وتشجعها سخونة المشهد من حولها ، فتدافعت موجة وراء موجة لعبور الممر المائى ، وكان الجنود مندهشين من قلة المعارضة التى واجهوها ، وفى الحال كان العلم المصرى يرفرف على قمة واحدة من النقاط القوية وحوله الجنود مبتهجين مرددين (الله أكبر) .

أما الضربة الجوية الأولى فقد تبعتها أخرى بنجاح ..وأثناء ذلك فقدت بعض الطائرات المصرية ، والتى كان يقود أحداها عاطف السادات شقيق الرئيس ، لكن لم يخبر فى الحال بذلك .

لقد حارب المصريون جيداً أفضل مما توقع الإسرائيليون ، كما كانت هناك ملامح للاستعدادات المصرية المتينة؟ أيضا كانت لدى السادات أحكام مسبقة ضد اليهود .. ظهر هذا جلياً فى تفاخره بمعرفة أن الإسرائيليين ضعاف أمام إنفاق المال واللعب وأنهم لا يحبون العديد من الاستدعاءات .. أما القوات المصرية - سواء فى ظل ناصر أو السادات - فقد لُقنت أن الإسرائيليين أعداء يجب تحطيمهم كما حطم النبى (محمد) أسلافهم - .

وفوق ذلك - رأى السادات - وناصر من قبله - ضرورة التدريب الجيد للرجال والضباط المصريين ، كما كان التركيز على العناصر المتعلمة ، حيث التحق خريجو الجامعات بالجيش .. ويثبت ذلك أن المصريين تعلموا دروساً عديدة من حرب الأيام الستة ، تلك الحرب التى كان الجنود الإسرائيليون فيها أكثر تعلماً ودافعية .

وعند بداية عبور القوات المصرية كان الإسرائيليون مندهشين من كم الأسلحة التى كان يمتلكها هؤلاء المهاجمون على خلاف ما ادعاه اللواءات المصريون من جنود المشاة المصريين بأنهم لن يستطيعوا الصمود أمام المدرعات الإسرائيلية ، حيث كانت هناك زيادة فى الأسلحة المضادة للدبابات مثل R P G وخلافه حتى إن عدداً كبيراً من الدبابات الإسرائيلية قد أصيب بواسطة هذه الأسلحة .

أيضاً كان المهندسون المصريون قادرين على هدم الحواجز الرملية التى أقامها الإسرائيليون على الضفة الشرقية للقناة ، والتى كانت هناك استحالة فى هدمها اسطة أى آلة مدرعة ، حيث اكتشف هؤلاء المهندسون أن تدفق الضغط العالى من مياه هو الحل الذى يمكن من خلاله هدم هذه الحواجز الرملية .

إن القوات المصرية تدربت جيداً ودرست مشكلة عبور القناة جيداً واستطاعت التغلب على المفاجأة بأنها ستخوض حرباً فعلية وليست مناورات فقط ، حيث أجريت إحصائية بين ٨٠٠٠ أسير مصرى اكتشف من خلالها أن واحدا فقط هو الذى كان

يعرف أن ٣ من أكتوبر هو ميعاد الحرب ، بينما ٩٥٪ منهم عرفوا الحقيقة فقط يوم ٦ من أكتوبر ، أى يوم الحرب .

كذلك فإن القوات المصرية تحركت كما تدربت بالضبط ، وهجمت عبر قناة السويس ووجدت مقاومة عنيفة فى بعض المواقع ، ومقاومة قليلة فى مواقع أخرى ، وكان اللواءات المصريون قد قرروا أن العبور سوف يكلفهم ما بين ٢٥ و ٣٠ ألف جريح وقتيل ، ولكن الرقم الفعلى كان أبعد من ذلك بكثير ، حيث لم يقتل سوى ٢-٨ فقط .. وبناء على ذلك فإن الهجوم المصرى الأولى أنجز أكثر مما توقعه اللواءات المصريون ، وتوقعه وزير الدفاع الإسرائيلى نفسه ، كما أثبتت القوات المصرية نفسها جيداً على الضفة الشرقية للقناة ، بينما حطمت مئات الدبابات الإسرائيلية وأسقط العديد من الطائرات ، وبدا الموقف معتماً بالنسبة لديان ، الذى اقترح فى اليوم الثانى للمعركة أن ينسحب الجيش إلى خطوط أكثر دفاعية ، تحديداً إلى ممرات سيناء ، وكان ديان مقتنعاً بأن هذا الإجراء ضرورى للدفاع عن دولة إسرائيل ذاتها ، وحينما رفع الأمر إلى جولدا مائير واستدعى اليعازر للقاء كل من جولدا مائير وديان جادل اليعازر بقوة بأن الانسحاب إلى الممرات سوف يحمل القوات الإسرائيلية تكلفة عالية بإقلاعها عن معسكراتها ومراكزها ، كما اقترح التجمع على الخط التالى على الممرات ، حيث يندفع بهجوم مضاد فى اليوم التالى ، لكن هذا الهجوم أثبت فشله عند التنفيذ ودمرت فرقة إسرائيلية .

بعد هذه الردة تصدر عناوين الصحف الإسرائيلية قول ديان المكتئب " لا نستطيع أن نردهم الآن ونهزمهم ، والذى ينبغى أن نفعله هو أن ننتشر عبر الخطوط الجديدة فى هذا الجانب وفى الجزء الجنوبى من سيناء ، ولا أعتقد أن أى قرار لمجلس الأمن سوف يوقف العرب لو أنهم يعتقدون من وجهة النظر العسكرية والمادية أنهم قادرون على الاستمرار فى الحرب ، ثم إن هذا القرار لن يكون -من ناحية- لأن السوفييت والصينيين سوف يطلبون الفيتو ، ومن ناحية أخرى لأنه سوف

يتم تجاهل أى إثارة للتوقف ولا يستطيع المرء الاعتماد على ذلك .. إسرائيل يمكن أن تعتمد فقط على عنصرين : الخطوط التى تقيم بها وزيادة قوتها " .

وكان المحررون أكثر يقظة حينما وصفوا خسائر إسرائيل ، حيث دمرت مئات الدبابات وفقدت خمسين طائرة فى غضون ثلاثة أيام .

وقد أعلن ديان أنه ينوى الذهاب إلى التليفزيون ليقول الحقيقة للشعب الإسرائيلى ، ولكن أحد المحررين داهمه بالسؤال " إذا كنت ستقول ذلك للشعب الإسرائيلى اليوم ، فماذا ستقول لنا نحن ؟ إن ذلك سيكون زلزالاً فى عقل الأمة " .

وهكذا رسم ديان صورة كئيبة للغاية لدرجة دفعت أحد المحررين إلى الانفجار بالدموع حيث اعطاه الانطباع بأن إسرائيل على حافة الهزيمة وأنها تسير خارج دائرة التحكم ، وقد تنبهت جولدا مائير لذلك ومنعت ديان من الظهور بالتليفزيون .

المهم ، أنه بعد النجاح المبدئى الذى حققه السوريون فى مرتفعات الجولان اقترح ديان انسحابا واسعاً مشابهاً ، أما جولدا مائير التى كانت قد ارتاحت إلى تطمينات بارليف بأن الموقف أبعد ما يكون عن الضياع ، فقد لوحت بيدها قائلة : "موشى ديان العظيم .. يوم ما مثل هذا ... يوم ما مثل ذاك" .

وبالمقارنة واجه أنور السادات أزمته بسلوك أكثر عقلانية واحتفظ بعقله حينما فقد الآخرون عقولهم .

وفى دراسته البارزة عن المعركة والمسماة "حرب الغفران" أوضح شيم هيرزوج -أصبح رئيساً لإسرائيل فيما بعد- أن القرار الإسرائيلى بعبور قناة السويس من الشرق للغرب لم يكن ابتكاراً خالصاً بواسطة شارون ، وكان من الممكن اعتبار ذلك تكتيكاً حتى قبل أن تندلع الحرب .

وقد تدافعت الأحداث إلى ما عرف بمعركة الدبابة ، والتى شنها المصريون فى ىن أكتوبر ، واشترك فيها أكثر من ٢٠٠٠ دبابة ، وكان من نتائجها تدمير ٢٦٤ ىرة مصرية .

وعلى أثر ذلك أدرك اللواء سعد مأمون -الذى عانى من أزمة قلبية- أن الباب فتح للهزيمة ، بينما كان ذلك يوماً مصيرياً وعلامة مميزة على الشفاء التام للقوات الإسرائيلية ، كما كان التدمير العالى للمدرعات المصرية يعنى أن عبور القناة يمكن إنجازه وهو ما حدث فى اليوم التالى (١٥ من أكتوبر) حيث تم العبور من خلال نقطة استراتيجية تسمى الدفرسوار على أيدى جنود إسرائيلين بارزين مثل شارون ودانى مات ، حتى إن السادات نفسه قد أعطى شارون بعض الوقار ، صحيح أن سمعة شارون تلوثت من جراء دوره فى حرب لبنان ، لكن دوره الحيوى فى حرب يوم كيبور لا يدانيه شك .

ولم يأخذ السادات العبور الإسرائيلى مأخذ الجد ، أما المصريون فقد كان رد فعلهم عدم التصديق ، حيث اعتقدوا أن بعض الدبابات الإسرائيلية استطاعت العبور ، وأنها ستمحى حالاً .

كذلك خيل للسادات أن العبور مجرد عملية تليفزيونية لرفع معنويات الشعب الإسرائيلى ، ولم يقدر اللواءات المصريون قيمة الغرض الإسرائيلى من العبور الإسرائيلى متمثلاً فى محاصرة الجيش الثالث .. فقط حينما زار السادات الأفرع الرئيسية أدرك جسامة التهديد الذى يتعرض له الجيش ، وحينذاك تسلل الرعب إلى السلوك المصرى ، وفى هذا الخصوص يعترف هيكل بأن العبور كان له أثر معتبر فى الضغط على الأعصاب .

إن السادات حينما دعا إلى جلسة خاصة لمجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر كان ما زال غير واع بأن الإسرائيليين أصبحوا على الضفة الغربية للقناة منذ ساعات وأن دباباتهم تطوف حول البلد ، تدك الأرض والمواقع الجوية ، وتحطم الدبابات ، إذ طبقاً لما وصله من معلومات أعتقد السادات أن الأمر لا يعدو سوى أن يكون عبوراً محدوداً يمكن احتواؤه ، وقد ظهرت عدم معرفته حينما علق قائلاً .. " نحن جاهزون فى هذه الساعة .. نعم .. بل حتى فى هذه اللحظة ، لأن نبدأ تطهير قناة السويس ، ونفتحها للملاحة الدولية " .

وكان هذا الخطاب أعظم لحظة فى حياة السادات الرئاسية ، حيث ظهر مرتدياً زياً عظيماً ، واستقبل كبطل قومى محبوب ، إنه أعاد الشرف للشعب المصرى ، وأزال عار حرب الأيام الستة ، عيونه كانت تنطق بالفخر ، من يمكنه أن ينكر أنه يستحق التصفيق والمدح .

ولكن حادثاً ما قطع هذا كله حينما وصله أول التقارير عن التدفق الإسرائيلى ، حيث غادر مبنى البرلمان – وكان التصفيق ما زال يدوى فى أذنيه – فى الحال إلى غرفة العمليات بالقيادة العليا .. وكان السادات قد قيل له إن عدداً من الدبابات البرمائية الإسرائيلية قد نجحت فى عبور القناة من خلال ثغرة الدفرسوار إلى الضفة الغربية ، وإن تدمير هذه الدبابات وشيك الوقوع ، وقد تحركت بالفعل كتيبة كوماندوز لإنجاز هذا الهدف .. وحينذاك أشار السادات إلى اللواء الشاذلى بمحاصرة هذه القوة وبعد ثلاثة أيام استدعى السادات إلى غرفة العمليات ، وهناك وجد الشاذلى الذى أعلن شخصياً أن الإسرائيليين تمكنوا من عبور القناة صارخاً الحرب انتهت ، وقعت كارثة يجب أن ننسحب من سيناء .

وبناء على ذلك قرر السادات طرد الشاذلى وتعيين اللواء الجمسى مكانه ، لكن السادات احتفظ بالقرار لنفسه حتى لا يؤثر ذلك على معنويات الجيش لأن الشاذلى كان اسماً جيداً .

إن شعور السادات بالانكشاف كان له ما يبرره ، فالحرب بالنسبة للواءات الآخرين كانت مسألة معركة .. كسب أرض .. هجوم على العدو الغاشم ، أما بالنسبة للسادات فإنه كان يرى للحرب أهدافاً أخرى ، ففى اللحظة التى يأتى فيها إحراز النصر وعبور القناة لم يغب عن السادات حيازة المجد القومى وكسر العزلة الدبلوماسية .

وعلى صعيد الجبهة الداخلية شعر الناصريون المتحمسون أمثال هيكل بشدة أن القوات المصرية سوف تفقد نجاحاتها إذا اندفعت فى ممرات سيناء ، وأيد هذا الطرح

بواسطة الكثيرين فى العالم العربى ، كذلك ظهر نفس التعليق على صفحات جريدة النهار اللبنانية المحترمة ، والتى أنذرت بسوء عاقبة اندفاع القوات المصرية بعد عبور القناة للاستيلاء على ممرات متلا وبير جفجافا .

وهكذا لم تنته الحرب كما بدأت ، وعانى السادات هزيمة كبيرة يوم ١٤ من أكتوبر ، وقد شكا السادات مبرراً أن المعركة كانت أكبر نطاقاً وأكثر تبكيراً عما كان يتمنى بسبب الضغط السورى لإزاحة القوات والطائرات الإسرائيلية من الشمال السورى .

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا السياق هو : من الذى طلب وقف إطلاق النار ؟

إن السادات عندما كان يتقبل أخباراً طيبة من الجبهة أبلغ بأن السفير السوفيتى يرغب فى رؤيته على عجل ، وكان مع السفير السوفيتى رسالة من القيادة السوفيتية مفادها أن الرئيس السورى طلب وقف إطلاق النار فى الصباح التالى .

ورغم أن السوريين أنكروا الطلب بازدراء ، فإن رد الفعل العام هذا لا يعنى أن الأسد لم يتقدم بالطلب ., تدفعه فى ذلك حكمته السياسية ورغبته فى الإبقاء على المرتفعات التى هاجمها فى اليوم الأول من الحرب ، حيث فتحت قواته المدرعة الممتازة ثغرات فى الدفاعات الإسرائيلية ، كما كان قريبا جداً من اقتحام الجولان إلى الجليل ، ومن ثم فإن وقف إطلاق النار يعنى إمداده بنصر هائل .

واعتقد السادات أن الكرملين كان يبحث عن تجديد تحالفه مع الأسد موحياً إليه بأن وقف إطلاق النار ضيع السادات .. وعندما اتصل السفير السوفيتى فى اليوم التالى متظاهراً بأنه يحمل رسالة من الأسد أربكه السادات بالفعل ظاهراً له إجابة الرئيس السورى برفض وقف إطلاق النار .

وحينما أصر السفير السوفيتى على أن الكرملين يرفع رغبات حقيقية للأسد قرر السادات أن كلماته نهائية وحازمة .

وقد نبع شك السادات فى أن الكرملين وراء الضغط عليه للموافقة على وقف إطلاق النار من خلال حدث آخر ، حيث فى ١٣ من أكتوبر تلقى رسالة عاجلة من رئيس الوزراء البريطانى بواسطة السفير البريطانى مفادها أن هنرى كيسنجر (كان قد أصبح وزيراً للخارجية الأمريكية ولكن بدون وزارة) بالقاهرة وطلب منه -أى من وزير خارجية بريطانيا- مراجعة الدعوة التى تسلمها من البعثة السوفيتية ، والتى تطالب السادات بوقف إطلاق النار .

وأجاب السادات بأنه عقد العزم على استمرار المعركة ، حيث بالنسبة للسادات لم يكن الأمر ذا معنى بأن يتوقف عن المعركة عند هذا الحد ، خاصة أن مدرعاته ومشاته قد أنجزت أكثر مما توقع أى شخص خارج أو حتى داخل مصر .. كذلك كان فخوراً بما قدمته القوات الجوية المصرية تحت قيادة مبارك (الرئيس الحالى) وبما قاله له مبارك من أن القوات الجوية المصرية على استعداد لإنجاز ضربات هجومية أكثر مع الاحتفاظ بالعلاقة الطبيعية بين الجيش والقادة الجويين . وقد قيل لمبارك أن يذهب ليرى طياراً إسرائيلياً ضربت طائراته ، وعلق الطيار على المستويات الإسرائيلية قائلاً : يا سيدى إنها ليست المستويات الإسرائيلية المتدنية ، وإنما هى مستوياتكم العالية .

الفصل الثانى عشر

كيسنجر يدخل المشهد

لم يخف كيسنجر إعجابه بالسادات فى تلك اللحظة التى استسلم فيها القائد المصرى لليأس ، كما فعل عبد الناصر من قبل بعد حرب ١٩٦٧ .

وقد زعم السادات أن الفترة ما بين النجاح الإسرائيلى فى عبور القناة وتوقيعه على اتفاقية وقف إطلاق النار كانت أروع فترة ، ولكن ليست كل دعاوى السادات أو انتقاداته لها ما يبررها .

وإذا عاودنا الحديث عن ساحة المعركة يمكننا القول بأن الشاذلى شعر بالإنكسار ، وربما عبر عن حقيقة الموقف الاستراتيجى الذى سيعقب العبور الإسرائيلى بصورة بعيدة عن الخطأ . وإذا أخذنا رواية هيكل مأخذ التصديق ، ولم نضع بالحسبان أنها كتبت حينما كان هيكل لا يزال يحتفظ بعلاقات ودية مع السادات ، فإن توصيات الشاذلى لم تكن كلها معيبة أو دعوة للهزيمة ، إذ لاحظ أن القوات الإسرائيلية تحت قيادة جنرال بارع ، تحوم حول الدولة المصرية ، وتدمر مواقع الصواريخ ، وأصبح الطريق إلى القاهرة مفتوحاً .

وانطلاقاً من تقديره للموقف بصورة أفضل من المستشار الرئيسى للرئيس (اللواء إسماعيل) وجد الشاذلى أن بعض الإمدادات التى أرسلت إلى القناة ينبغى أن تعاد ، وخاصة فرقة المدرعات التى أرسلت لتلحق بالجيش الثالث ، كما دافع عن عودة بعض الدبابات والقواذف المضادة للدبابات . وأضاف أنه إذا لم تتخذ مثل هذه الإجراءات فإنه يخشى أن يتم حصار الجيش الثانى ، وتهديد الجيش الثالث ، ولن يكون هناك مفر من الضياع .

وطبقاً لوجهة النظر العسكرية الخالصة ، فقد كان الشاذلى على صواب بكل تأكيد ، كما كانت لمخاوفه ما يبررها ، حيث انعزلت الآلاف من القوات المصرية وأخذوا أسرى ، وإذا لم يتوسط كيسنجر لدى الإسرائيليين لكانت القوات المصرية ستترك دون ماء أو طعام ، وكذلك إذا تم حصار الجيش كان سيحدث إذلال وتأثيرات مدمرة على باقى القوات المسلحة ، مثلما حدث من جراء نكسة ١٩٦٧ .

أما عن شخصية الشاذلى ، فقد كان مقبولاً بوصفه لواء لامعاً فى الجيش المصرى ، ذا مظهر جيد ، شجاعاً ، وقد استطاع تحقيق الشهرة السياسية التى تمناها ، كما كان فتياً ومبدعاً ، ويتشابه فى مقدرته القتالية مع اللواءات الإسرائيليين من الدرجة الأولى .

بيد أن الخطأ الذى قاد إلى طرده المشين (حيث تلقى رسالة بأن الرئيس قد قبل استقالته) كان عدم فهمه أن الرئيس ليس هو القائد الأعلى للقوات المسلحة فحسب ، وإنما القائد السياسى للدولة والمقامر العظيم ، والذى ذهب للحرب لأنه أراد سلاماً مشرفاً.

لقد خشى السادات من أن أى انسحاب من الضفة الشرقية سوف يؤدى إلى تلك النتائج المروعة التى تنبأ بها الشاذلى ، مستحضراً فى ذاكرته تلك الكارثة التى حدثت للجيش المصرى ، حينما أمر عامر بالانسحاب فى حرب الأيام الستة ، وهكذا ترسخ لدى السادات واللواء إسماعيل أن الجيش المصرى لن يتغلب على كل الصدمات إلا إذا انقلب الموقف ، وشعر الإسرائيليون بالحاجة إلى عودة فرقهم المدرعة إلى الضفة الغربية .

لم تكن هناك معارضة سياسية لعملية فصل القوات ، ولم يكن مقتنعاً أن أى وزير أو لواء سوف يعارض فى ذلك .. وبالنسبة للسادات كانت هناك حجة حيوية تتمثل فى وجود فرصة جيدة لأن يمنع الكرملين والأمريكيون الانهيار .. كما أعطته محادثاته السرية مع كيسنجر – عبر مستشاره الأمنى – الأمل بوجود الشخص المناسب الذى سوف يضغط فى النهاية على الإسرائيليين .

أما على الجبهة السورية فقد وصل الموقف إلى درجات خطيرة من الضياع ، حيث ارتد السوريون الذين كانوا مندفعين للهجوم فى قلب الأراضى الإسرائيلية بواسطة نخبة من أمهر وأشجع الجنود فى تاريخ الحروب .

وفى أيام قلائل استطاعت القوات الإسرائيلية تدمير ٦ دبابات سورية ، كما فتحت الطريق إلى دمشق .. ولم يكن الأسد يعرف بالتأكيد ما إذا كانت نوايا الإسرائيليين تتجه إلى دخول المدينة التى تعج بعدد سكانها الضخم .

فى هذا اليوم المصيرى حكم السادات زمام عقله وبعث برسالة إلى الأسد تقول:

" لقد حاربنا إسرائيل على مدى خمسة عشر يوماً .. فى الأيام الأربعة الأولى كانت إسرائيل بمفردها ، لذلك كنا قادرين على أن نكشف موقعها على كلتا الجبهتين ، وباعترافهم فقد العدو ثمانيمائة دبابة ، ومائتى طائرة ، لكن خلال الأيام العشرة الأخيرة كنت أحارب الولايات المتحدة على الجبهة المصرية من خلال الأسلحة التى أرسلتها . أنا لا أستطيع أن أحارب الولايات المتحدة ، ولا أن أتحمل مسئولية تدمير قواتنا المسلحة أمام التاريخ للمرة الثانية ، لذلك أخبرت الاتحاد السوفيتى بأننى على استعداد لقبول وقف إطلاق النار بناء على المعطيات التالية :

١- على الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ضمان الانسحاب الإسرائيلى كما تم الاقتراح بواسطة الاتحاد السوفيتى .

٢- الإعداد لمؤتمر للسلام تحت رعاية الأمم المتحدة لإنجاز التسوية كما تم الاقتراح بواسطة الاتحاد السوفيتى .

إن قلبى ينزف وأنا أخبرك بذلك ، لكننى أشعر بأننى مضطر لاتخاذ هذا القرار ، وإننى على استعداد لأن أواجه أمتنا فى اللحظة المناسبة ، كما أننى على استعداد لأن أتحمل ثمن هذا الفعل .

هناك أسباب عديدة للاعتقاد بأن الرئيس الأسد كان أقل أمانة مع السادات ، كما كان هناك أكثر من عنصر يمكن تضمينه فى الشقاق الذى رتب له الأسد ضد السادات .. إلا أنه ليس هناك سبب لتصديق أن الأسد لم يكن مستريحاً مثل السادات لتوقيع وقف إطلاق النار بمساعدة الكرملين والأمريكيين .. وقد تضمنت الطلقات الأولى فى رد الأسد التالى :

" تلقيت خطابك بالأمس بانفعال بالغ .. أخى أرجوك أن تعيد النظر مرة أخرى على الموقف العسكرى على الجبهة الشمالية وعلى جانبى القناة ، إننا لا نجد سبباً

للتشاؤم ، ويمكننا الاستمرار فى القتال مع قوات العدو إذا كانوا قد عبروا القناة أو مازالوا يقاتلون شرق القناة .. إننى مقتنع بأنه بالاستمرار وتشديد المعركة يمكن تدمير وحدات العدو التى عبرت القناة .

أخى السادات ، من أجل الروح المعنوية للقوات المحاربة من الضرورى التأكيد على أن تمكن العدو من كسر جبهتنا نتيجة لحادث ما لا يعنى أنه قادر على إنجاز النصر ، وقد نجح العدو فى اختراق جبهتنا الشمالية منذ عدة أيام ، لكننا صمدنا ، ومنحتنا المعركة الضخمة التالية أرضية للتفاؤل ، ومعظم النقاط التى تم اختراقها بواسطة العدو أغلقت ، وإننى على يقين بأننا سوف نكون قادرين على التعامل مع بقيتها خلال الأيام القليلة القادمة . إننى اعتبرت أنه من المحتم أن تحتفظ جيوشنا بروحها القتالية .

أخى الرئيس ، إننى متأكد من أنك ستقدر أننى وزنت كلماتى بعناية بالغة ، وبإدراك كامل بأننا نواجه الآن أصعب نقطة فى تاريخنا ، لقد شعرت بأنه من الثقيل علىّ أن أشرح لك ما أفكر فيه ، خاصة بالنسبة للجبهة الجنوبية .. والله معك " .

عندما حدث العبور الإسرائيلى مكث كوسيجين لمدة ثلاثة أيام بالقاهرة لإقناع السادات بالموافقة على وقف إطلاق النار ، إذ طبقاً للمعلومات التى حصل عليها القادة السوفييت عبر قمرهم الصناعى -الذى كان مرشداً للمصريين ومصدرا مهما وحيويا للمعلومات بالنسبة للكريملين منذ بداية الحرب- أصبح هؤلاء القادة خائفين من حدوث كارثة للمصريين ، خاصة بعدما شاهدوا معركة الدبابات فى ١٤ من أكتوبر ورغم اعتماد السادات على الأسلحة السوفيتية ، إلا أن تشككه الدائم فى نواياهم جعله يرفض اقتراحهم فى البداية ويصر على الاستمرار فى المعركة ، ولكن بعد دخول عنصر حيوى جديد -المساعدة الأمريكية لإسرائيل- غير السادات اتجاهه كلية .

وفى الحجج التى ساقها السادات لقبول وقف إطلاق النار ، ركز السادات على قوة الولايات المتحدة ، ووصل إلى مدى أبعد للتأكيد على هذا العامل ، كما ركز على

تميز الأسلحة الأمريكية بالمقارنة بمثيلتها السوفيتية .. ففى وصفه للتفوق الإسرائيلى الجوى بسبب امتلاك الفانتوم والميراج قال السادات :

"لم يملك الطيار شيئاً فى الميج -٢١ باستثناء البوصلة ، وليس لديه تسهيلات على الإطلاق ، أما بالنسبة للميراج والفانتوم فإن كل شىء يكون مبرمجا بالكمبيوتر للطيار ، لو دخل فى منطقة قواذف (دفاع جوى) سوف يظهر ضوء لتحذيره ، ولو حاول أى شخص أن يهاجمه من الخلف سوف يظهر ضوء آخر لإنذاره ، إنه يضع فقط كارتا بجهاز الكمبيوتر ، ويؤخذ فى الحال إلى المكان الذى يختاره ، إنها تخبره متى سيسقط المفرقعات ، ثم تعود به إلى القاعدة الجوية ، أما فى الميج ٢١ فإن كل هذه الأشياء تتم بواسطة الطيار ، فهى بدائية جداً ، وذلك هو الذى يمنح إسرائيل تفوقاً جوياً" .

ومع ذلك كان السادات يعرف تفوق القواذف السوفيتية التى مثلت حماية لقواته وأسقطت العديد من الفانتوم ، كذلك كان يعرف أن خسائر إسرائيل تعدت نطاق الأوامر المعطاة لتجنب القصف ..

وقد حاولت إسرائيل بصورة متكررة جر القوات المصرية خارج منطقة الدفاعات الجوية ، وحينما حدث ذلك فى معركة الدبابات فى ١٤من أكتوبر كانت إسرائيل قادرة على القصاص من الهزيمة الخادعة .

لماذا إذن لم يشرح السادات عدم فاعلية الأسلحة الأمريكية فى بدايات الحرب بينما يعول الآن على الأسلحة الجديدة التى نجحت فى ضرب وسائل الدفاع الجوى ، وهو الأمر الذى فشلت فيه إسرائيل من قبل .

وهكذا ، حينما شددت سوريا على شكواها من وقف إطلاق النار ، أجاب السادات بأنه على استعداد لمحاربة إسرائيل ، لكنه لا يقوى على محاربة قوة عظمى مثل الولايات المتحدة ، حيث تولدت لدى السادات قناعة بأن الولايات المتحدة هى التى تقود إسرائيل استراتيجيا ، وأنها هى التى شجعت على الهجوم المضاد لعبور

قناة السويس ، وأنها هى التى أمدت إسرائيل بنظـام للمراقبة لا يمكن التصدى لـه ، كذلك أرسلت الدبابات الأمريكية الجديدة مباشرة إلـى ميدان المعركـة .. ومثل هذه الدعاوى أعادت إلى الأذهان اتهامات ناصر بعد معركة ١٩٦٧ بأن الطائرات الأمريكية التحقت بالطائرات الإسرائيلية فى المعارك الجوية .

لقد كـان السادات يائساً حينما وصف الحرب بأنها كـانت على الأقل نصراً جزئياً ، كما كانت له مبرراته فى الزعم بوجود اختلافات كبيرة بين حرب يوم كيبور وحرب الأيام الستة ، مشيراً إلى أن قواتـه حاربت بشجاعة فائقة ، وأنهم أخذوا إسرائيل على غرة ، كما كبدوا إسرائيل خسائر أضخم بكثير من حرب الأيام الستة .

كذلك أظهر السادات أنه بطل قومى حقيقى عندما شجع جنوده على التصدى للقوات المتناثرة للجنرال شارون .

وحينما اقتربت القوات الإسرائيلية من مدينة السويس قام السادات بتشجيع المقاومة المسلحة ، التى ألحقت خسائر بالقوات الإسرائيلية كانت ذات دلالة بالنسبة للجنرالات الإسرائيليين الذين قرروا المرور على المدينة . وبالنسبة للسادات كانت معركة السويس تمثل ضوءاً عالياً فى الصراع ضد إسرائيل ، حيث كانت مقاومة بطولية أثبتت أن الشعب المصرى قادر على مقاومة حتى أقوى الأعداء ، وادعى السادات أن المعركة سوف تدون فى التاريخ على أنها واحدة من أشجع المعارك ، وبلغ الأمر ذروته حينما قرر اتخاذ يوم ٢٤ من أكتوبر عيداً قومياً للسويس .

غير أن ضواحى السويس لم تكن مقبرة للدبابات والجنود الإسرائيليين كما ادعى السادات ، وإنما كانت مقاومة حادة لعرقلة تقدم الإسرائيليين عندما أرادوا تطويق الجيش الثالث بالاستيلاء على السويس وقطع الرباط الأخير لهذا الجيش بقلب الأراضى المصرية ، ولكنهم حينما وجدوا صعوبة فى الاستيلاء على المدينة زحفوا وراءها لتكملة عملية التطويق .

وقد مثلت المصيدة التى نصبت للجيش إهانة عميقة للسادات ، لدرجة أنه لم يكن قادراً على مناقشتها علانية ، كما عالج هذه الهزيمة بأسلوب الفرقعة ، الذى كان يعرف جيداً أنه ليس مقنعاً .. وفى المستويات العليا من الجيش نوقش الأمر على أنه سمة هزلية لوقوع جيش كامل فى شرك قوة صغيرة .

إن السادات أبدى إعجابه الخاص بأريل شارون ، كما تمنى أن يكون لديه مثله ، وظهر ذلك بوضوح فى أن السادات حينما سافر إلى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ كان مشتاقا لرؤية شارون ، ولأن الرجلين كانا مرتبكين قال السادات للجنرال مازحاً أنا تقريباً نصبت لك فخاً فى الدفرسوار .. لقد كان يدلى بالاعتراف بفشله .

وواقع الحال ، فإنه لم يكن هناك شىء أشد قسوة وحدة على مسامع السادات من تلك النكات التى كان يطلقها المصريون العاديون -بروحهم المرحة- عن السلطة ، والتى بدأت تركز على الإهانة التى تعرض لها الجيش الثالث .

ورغم الرقابة على المطبوعات ، بدأت الشائعات التى لا مفر منها تملأ أرجاء القاهرة ، تلك الشائعات التى بالغت فى حجم هزيمة المصريين بالقول بأن عشرة آلاف من القوات المصرية استسلموا وأن الإسرائيليين اقتربوا من العاصمة . يالها من صورة مختلفة عن تلك الصورة التى سادت أيام النصر حينما عرضت الدبابات المستولى عليها فى شوارع القاهرة وتم استعراض الأسرى الإسرائيليين !!

وقد اصطبغت النكات بمرح المصريين ، وكانت إحدى هذه النكات تقول إن التطويق لم يعد جيباً فى الأراضى المصرية ، بل أصبح زوجاً من البناطيل ، وأخرى كانت تقول إن جولدا مائير قالت للسادات Bonjour (صباح الخير) فرد عليها Al-ubour (العبور) وأن السادات قال لها Bonsoir (مساء الخير) فردت عليه Deversoir (الدفرسوار) .

والآن .. أين كيسنجر من كل ذلك ؟

إن كيسنجر كان قد أوقظ على مهل ليتلقى أخباراً عن حرب يـوم كيبـور ، حيث كان نائماً بفندق (Waldorflowers) بنيويـورك حينمـا أيقظـه مساعد وزير الخارجية الحكيم جوى سيسكو مفحماً إياه بمعلومـات تقـول إن إسـرائيل ومصـر وسـوريا علـى وشك خوض حرب ، وأضاف سيسكو ل كيسنجر المحملق ، إن كل الخطأ يكمن فى أن كـلا الطرفين أساء قراءة نوايـا الطـرف الآخـر ، ولـو أن كيسـنجر أخـبرهم بحقيقـة الموقف لتم تجنب الأزمة .

وفـى الحقيقـة فقد كـان سيسكو متفـائلاً للغايـة ، فـلا كيسـنجر ولا غـيره كـانوا يستطيعون منع الهجوم المصرى السورى فى هذا اليوم ، وكانت جولدا مائير فـى الصبـاح الباكر لهذا اليوم قد قالت للسفير الأمريكى (نحن قلقون) فذكرهـا بمـا قالـه المسـئولون فـى وزارة الدفاع الإسرائيلية منذ ١٢ ساعة بأن احتمال الحرب بعيد .. وقد علقت جولدا مائير -التـى يبدو أنهـا ظلت لا تفهم نوايا العرب- بأنـه منذ أن أصبـح العرب متـأكدين مـن هزيمتهم ، اعتقدت أن الأزمة سوف تنبع من سوء فهمهم لأهداف إسرائيل ، وأنهـا طلبت من الولايات المتحدة إبلاغ الاتحاد السوفيتى والدول العربية بأن إسرائيل ليست لديهـا نيـة لمهاجمة مصر أو سوريا .. كذلك كـانت إسـرائيل تستدعى بعض قـوات الاحتيـاط ، لكنهـا كدليل على نواياها السلمية توقفت عن التعبئة العامة .

وعلى الرغم من أنه فوجىء بالحرب شـأن أى فـرد آخـر ، شـعر كيسـنجر بـأن الولايات المتحدة كانت فى موقف جيد يجعل بإمكانهـا السـيطرة علـى الأحـداث بمجـرد انـدلاع الحـرب ، كمـا شـعر كيسـنجر بـأن الأمريكيين كـان لديهـم عـدد مـن الأهـداف المتناقضة ، فهم كانوا يؤكدون على بقاء دولة إسرائيل ، كما أرادوا الاحتفاظ بعلاقـات جيدة مع بعض الدول العربيـة مثـل الأردن والمملكـة العربيـة السـعودية .. أمـا الـدول الأوروبية التى تتسم بالبرود تجاه إسرائيل فكـان مـن المتوقـع -كمـا حـدث فعليـاً- أن تتبـع مواقـف مختلفـة ، وفـوق ذلـك كـان هنـاك قلـق مـن أن يتبـع الاتحـاد السـوفيتى سياسات مؤذية إن لم تكن خطيرة لتحريك زبائنـه العـرب ، ولـم يكـن متوقعـاً أن يقـدم القادة السوفيت أية مساعدة حقيقية لإطفاء النيران ، وتحديداً فى البداية .

وقد تبارى كيسنجر مع السفير السوفيتى دوبر يانين الدبلوماسى المحنك ، ومن خلاله مع بريجنيف فى موسكو ، مكرساً السقوط المظلم فى ميادين القتال ، إلا أنه طوال الوقت كان واضعاً نصب عينيه عقلية ذلك الرجل غير العادى (يعنى أنور السادات) .

إن كيسنجر كان متفائلاً من أن الولايات المتحدة باستطاعتها السيطرة على الموقف ، لكنها كانت شاردة جداً .. بيد أنه لولا القوة العسكرية الضخمة التى كانت تمتلكها الولايات المتحدة لكان الاتحاد السوفيتى قد حاول التدخل مباشرة بإرسال العديد من الفرق الجوية للشرق الأوسط لتغيير دفة الحرب .. وربما لم يكن كيسنجر مدركاً فى البداية الآلام وعدم الرشاد الذى يكتنف الصراع العربى الإسرائيلى ، ولا درجة الإهانة التى تعرض لها الاتحاد السوفيتى بانتصار الإسرائيليين المسلحين أمريكيا على العرب المسلحين سوفيتياً .

وهكذا اتضح الموقف ل كيسنجر ، فالإسرائيليون كانوا فى طريقهم لكسب المعركة سريعاً ، لكنه لن يكون بالنصر الكاسح الذى حدث بعد حرب الأيام الستة ، وسوف يؤدى ذلك إلى عدم وجود قائد عربى قادر على صنع السلام ، وفى نفس الوقت كان من الضرورى أن يُمنع الاتحاد السوفيتى من أن يصبح منقذ العرب وعقد اتفاقية سلام تشتمل على تنازلات جسيمة .

وقد أصر كيسنجر -لأول وهلة- على أنه تعهد باستخدام الحرب كنقطة انطلاق إلى العملية السلمية ، والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا السياق هو : هل شجع كيسنجر السادات ليبدأ حرباً محدودة ؟

إن السادات نفسه لم تكن لديه شكوك فى هذا المضمار ، حيث كان قد قرأ تعليّقات المبعوثين الأمريكيين ، والتى أشارت إلى أن كيسنجر قد شعر بأنه إذا لم يكن هناك كسر للجمود الدبلوماسى بواسطة فعل عربى محدود ، فلن يكون بالإمكان عقد محادثات سلام ، وهو ما ظهر جلياً فيما بعد .

إن كيسنجر لم يكن يدعى أن الاتحاد السوفيتى توقف عن تشجيعه للحرب ، لكنه لم يبذل مجهوداً لإيقافه ، وليس ثمة شك فى أنه بدون الإمدادات الضخمة من الأسلحة السوفيتية ، لما كانت الحرب متصورة ، سواء على الجبهة السورية أو الجبهة الإسرائيلية . أيضاً ذهب كيسنجر إلى التعليق بأنه من المحتمل أن يكون الكرملين قد اعتقد أن مصالحه سوف تنتعش عندما يكون الأداء العربى جيداً ، حيث ستتوج الثقة الأسلحة والدعم السوفيتى ، أما إذا كان الأداء ضعيفاً فسوف تظهر موسكو قائداً للعالم العربى وسوف يقوى ذلك الراديكاليين العرب .. وحتى التخلص من أنور السادات المزعج ، ومع ذلك سقط هذا المفهوم على أرضية معرفتنا بلهفة بريجينيف الفعلية على تأكيد النصر العربى ، لا سيما السورى .

وفى الإعداد لرد الفعل الأمريكى إزاء الحرب ، كان على كيسنجر أن يضع بالحسبان أن رئيس الولايات المتحدة ريتشارد نيكسون شخصية مهزوزة ومعقدة ، كما كان متورطاً بصورة سيئة فى فضيحة ووترجيت ، التى كادت تخلعه من السلطة . ورغم أنه عين لاجئا يهوديا ألمانيا من ضحايا النازية كمستشار للأمن القومى ، ثم وزيراً للخارجية ، إلا أن سلوكه إزاء اليهود كان بعيداً عن الإطراء أو المجاملة ، لأنه كان لا يشعر بأنه مدين لهم بمساندته الانتخابية ، حيث صوت معظم اليهود الأمريكيين لصالح خصمه الديمقراطى .

كذلك اعتقد نيكسون أن الجالية اليهودية جماعة متماسكة قوية فى المجتمع الأمريكى ، وأنهم يضعون مصالح إسرائيل فوق كل شىء ، كما أن سيطرتهم على وسائل الإعلام تجعل منهم خصوماً خطيرين ، أيضا اعتقد نيكسون بضرورة إلزام إسرائيل التسوية السلمية ، وعدم السماح لها بتعكير صفو العلاقات الأمريكية العربية.

ومع ذلك اعترفت جولدا مائير بأن نيكسون وقف بثبات بجوار إسرائيل ، سواء ا يتعلق بإمدادها بالأسلحة أو فيما يتعلق بمساندتها أكثر من أى رئيس أمريكى ر بما فيهم هارى ترومان .. ولولا الجسر الجوى الأمريكى المدهش عندما يئس

موشى ديان من رد العدو العربى إلى الوراء لأضحى موقع اسرائيل الاستراتيجى كله فى خطر ، وكانت إسرائيل ستبقى كدولة لكن الدول العربية والفلسطينيين كانوا سيتلقون التشجيع فى ضوء نصرهم ، وتصبح عملية السلام التام مستحيلة .. أما إسرائيل الشريرة الضعيفة فكانت ستصبح فريسة لحروب لاحقة ، على أمل أن يقوم العرب بتشجيع سوفيتى بسحق عدوهم الصغير الكريه .

لقد كان من حسن حظ إسرائيل والعالم الحر أن ريتشارد نيكسون كان داخلاً فى مشاكل دولية جعلته يجبر الاتحاد السوفيتى على توخى الحكمة .. إذ أدرك نيكسون أن العرب كان عليهم إنجاز نصر كبير بمساعدة الاتحاد السوفيتى ضد النفوذ الأمريكى ، كما أن هيبة الكرملين ستبلغ درجات متعاظمة فى العالم العربى ، بينما هيبة الولايات المتحدة سوف تغوص إلى أعماق جديدة . أما الدول العربية المعتدلة كالمملكة العربية السعودية ودول الخليج البترولية الغنية الأخرى ، فسوف تواجه الراديكالية السوفيتية وسوف يصبح الاتحاد السوفيتى هو سيد الشرق الأوسط كله وموارده البترولية الأساسية ، وهو سيناريو لم يكن ليقبله نيكسون على الإطلاق .

وعلى هذا الأساس بدأ نيكسون وكيسنجر الافتراض بأن إسرائيل سوف تكسب نصراً سريعاً مدمراً يجعلها أقل رغبة فى تقديم تنازلات للعرب ، ثم كانت مفاجأة أن إسرائيل تحملت ضربات مؤلمة فى يوم مفتوح للحرب ، وفى اليوم التالى بدأ السادات يملى شروطاً غير مقبولة لإنهاء الحرب ، تمثلت فى الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى المحتلة .. لكن بالنسبة ل كيسنجر كانت هناك حقيقة جلية ، وهى أن السادات كان يدعو الولايات المتحدة – وللمرة الأولى – للمشاركة فى عملية السلام ، حيث كانت هذه هى خطوة السادات الأولى فى اللعبة الخطيرة والمعقدة ، والتى فهمها نيكسون لحسن الحظ .

ومن الغريب ، أن كيسنجر يعترف بأنه حتى هذه الرسالة لم يكن يعتقد أن السادات جاد ، حيث كانت تهديدات السادات العديدة بالذهاب للحرب غير مقترنة بأى

تنفيذ ، لذلك اعتقد أن السادات ممثل وليس سياسيا ، ومع ذلك كان ذهاب السادات للحرب - والذى خدع تقريبا كل شخص - سببا لأن يأخذ كيسنجر انطباعاً مغايراً عن شخصية السادات المعقدة .

بيد أن الاعتراف بالأهمية الحيوية للشرق الأوسط جاء متأخراً ، والآن فهم كيسنجر أن الإشارات المتحذلقة كانت جزءاً من استراتيجية واعية ، فقد كان كيسنجر مندهشاً من أن السادات لم يطلب مكافأة من الولايات المتحدة على طرده للخبراء السوفييت ، وظن كيسنجر أن هذه الحركة كانت لإزالة العرقلة السوفيتية للحرب والتوجه إزاء الولايات المتحدة ، وهكذا أصبح بإمكان السادات إقناع كيسنجر بأنه سياسى من الدرجة الأولى .

لقد كان هناك العديد من الطلاسم العديدة فى تحليل كيسنجر التاريخى ، فقد كان هناك عنصر الخوف من المقامرة فى سياسات السادات ، وكذلك كانت المسألة خطيرة وأقرب إلى الانقلاب .

وربما كان من قبيل العون أن السفير الإسرائيلى الجديد سيمخا دينيتز قد وصل إلى واشنطن ليشغل مكان إسحاق رابين ، حيث وجد كيسنجر بوضوح أن إسحاق رابين الكتوم -كما أطلق عليه- يعانى بعض التوترات ، بينما سيمخا دينيتز لديه حرارة وصفاء من خلال ما كان يرويه من قصص شيقة وميله للدعابة ، مما جعل ثنين - كيسنجر ودينيتز - يرتبطان بصداقة حميمة .

وعند الاندفاع لإمداد إسرائيل بالجسر الجوى حينما أدت دراماتيكية وفساد الموقف إلى طلب طائرات ودبابات وذخيرة على عجل ، كان كيسنجر يعطل دائماً بواسطة نيكسون والمعارضة التى كانت تبديها الإدارة ، حيث كان هناك أولئك الذين يدعون أن الأسلحة سوف تصل متأخرة للغاية ، ومن ثم فإن إسرائيل وحدها لم تكن قادرة على نقل كل الأسلحة الضرورية ، إلا إنه يمكن القول بوجه عام أن الولايات المتحدة بضماناتها تعويض كل خسائر إسرائيل قد منحت الأخيرة إمداداً ونجدة هائلة .

الفصل الثالث عشر

فرص وتحديات الوساطة

ثمة العديد من علامات الاستفهام تثار حول سلوكيات الكرملين ، وإذا كان السادات قد أعلن أن الكرملين يسعى لوقف إطلاق النار ، فلماذا بحث بريجينيف إذن عن احتواء الجزائر والأردن ، ولماذا أرسل هذه الإمدادات الضخمة إلى دمشق ثم إلى القاهرة ؟ لماذا تأخر فى مشاوراته مع الأمريكيين حينما اعتقد أن عملاءه سيفوزون؟ لماذا كان فقدان الأعصاب الذى جعله يهدد بالتدخل المباشر ، رغم علمه جيداً بأن ذلك سيؤدى إلى الصدام المباشر مع الولايات المتحدة ، وقد يؤدى إلى الحرب النووية التى كان لا يرغب فيها بالتأكيد ؟ .

والإجابة بالتأكيد هى أن بريجينيف لم يكن مسيطراً على الموقف ، وأنه لم يخبر جيداً بنوايا الإسرائيليين والأمريكيين ، ولم يكن متعمقاً فى خطط السادات المعقدة ، وفوق ذلك فقد كان يخشى نتيجة الحرب ، والتى كانت ستعرض مكانته على قمة الكرملين للاهتزاز .

وهكذا فإن الذل والإهانة عنصران لم يستطع قائد الكرملين التعامل معهما مثلما حدث لخورتشوف خلال أزمة الصواريخ الكوبية فى عهد الرئيس الأمريكى جون كيندى .

وقد لاحظ الكسندر جوليستين -أحد المسئولين السوفييت القائمين على العلاقات المصرية السوفيتية فى تلك الفترة ، والذى كان يتحدث اللغة العربية بطلاقة ، كما خدم فى العديد من الدول العربية - أن الحقيقة كانت مخالفة لروايات الأحداث كما أعلن عنها فى حينه ولاحقاً ، ولذا لم يكن مذعوراً مما أفشاه كيمحى فى هذا الخصوص .

وطبقاً لرواية جوليستين فإن قرابة ٧٠٪ من الخبراء السوفييت الذين طردهم السادات من مصر ظاهريا ظلوا باقين فى مصر ، بينما أفاد الطرد الجزئى فى الزيادة الكبيرة فى إمدادات مصر بالأسلحة السوفيتية .. والأهم من ذلك أن جوليستين أفشى حقيقة أن بداية تدريب القوات المصرية للمعارك مع إسرائيل كانت فى يوليو ١٩٧٢ تحت إشراف الجنرال أوكينوف ، الذى لم يرحل مع من رحل من الخبراء .

وأضاف جوليستين أن السادات لم يخطط على الإطلاق لحرب خارجية مع إسرائيل ، وإنما كان هدفه هو خلق الموقف الذى يؤدى إلى الحضور الأمريكى .. وقد اعتقد المسئولون السوفييت أن عبور المصريين لقناة السويس كان عملاً خالصاً مخططاً له ، لكن الحقيقة هى أنه لم يكن لدى المصريين استراتيجية لاستغلال نجاحهم ، هم فكروا فقط فيما يمكن أن تسببه الصدمة بالنسبة للإسرائيليين والأمريكيين ، ففى عقل السادات كان هناك تفكير فى السلام ، بينما كان الأسد هو الذى يفكر فى حرب جادة ، وهذا هو الفارق بين الرجلين ، والسبب الذى من أجله شعر الأسد بأنه خُدع .

وحتى على افتراض أن الكثير كان معروفاً للمسئولين السوفييت فإن سلوك بريجنيف بدا متقلباً ، حيث لم ينصت لما قاله له هؤلاء المسئولون ، وهو ما يبدو ماثلاً بوضوح فى أنه حينما تشكل الجسر الجوى الأمريكى بواسطة نيكسون وكيسنجر كان الكرملين ينذر بإرسال فرقه الجوية إلى الشرق الأوسط .

وفى نفس الوقت كانت الدول العربية الغنية بالبترول تهدد بمقاطعة بترولية ، وكان من حسن حظ إسرائيل أن الولايات المتحدة لم تكن معتمدة على البترول العربى بصورة أشبه بالاعتماد الأوروبى عليه .. إذ لو كان الأمر كذلك لترتب عليه إثارة القلاقل فى الإدارة الأمريكية والبيت الأبيض ، كما حدث فى حالة حكومة هيس البريطانية ، التى قامت بفرض حظر على توريد الأسلحة لكل من العرب وإسرائيل ، وهو سلوك قاس لا يمكن تبريره عملياً ولا خلقياً ، خاصة فيما يتعلق بالتوقف عن إرسال الذخيرة إلى إسرائيل وما آل إليه ذلك من نتائج سيئة .

وعلى كل حال ، فإن أقل ما يمكن أن توصف به السياسات البريطانية أثناء الحرب هو أنها لم تكن ذكية من الناحية الدبلوماسية . وقد تأكد ذلك فى رؤية لورد هوم وزير خارجية بريطانيا بأن وقف إطلاق النار يعتبر سراباً ، وأن السادات لم يكن يقبل بأقل من التزام إسرائيل بالعودة إلى حدود ما قبل حرب الخامس من يونية

سنة ١٩٦٧، ولم تكن اقتراحات الولايات المتحدة لوقف إطلاق النار لتقبل إذا لم يهدد الكرملين بوقف الإمدادات للسادات ، وبدلاً من ذلك اقترح لورد هوم مراقبة وقف إطلاق النار بواسطة قوة دولية ، على أن يلى ذلك عقد مؤتمر دولى .

وقد أظهر الاختبار السطحى لهذه الأفكار أنها لم تكن مقبولة بالمرة لدى إسرائيل ، بينما كانت تطبيقاتها ستتواءم والحل العربى للصراع ، وكما أدرك كيسنجر فإن هذه الأفكار كانت غير مناسبة لإسرائيل ، على عكس السادات .. حيث كان الرئيس المصرى يطالب فقط -من حيث المبدأ- بقبول الانسحاب من الأراضى المحتلة ، بينما كانت الفكرة البريطانية بوجود قوات دولية تعنى -من حيث الأثر- تخلى إسرائيل عن السيطرة على هذه المناطق فى الحال .. ورغم إعجاب كيسنجر الشديد بشخص لورد هوم فإنه لم يكن لديه أدنى شك فى معارضة هذه المقترحات .

والحادث أنه بعد هزيمة معركة الدبابات فى ١٤ من أكتوبر ، كان هناك اقتراح غير متوقع من قبل السادات ، إذ أرسل دعوة إلى كيسنجر عبر مستشار الأمن القومى لزيارة مصر ، ولم تكن الرسالة المرفقة مع مستشار الأمن القومى تتحدث عن الانسحاب الإسرائيلى الكامل ، بل أظهرت أن السادات يبحث عن مخرج سياسى للحل العسكرى ، وتمثل طلبه الوحيد فى ألا تقدم مصر أى تنازلات عن سيادتها وعن أراضيها .

ولا عجب أن كيسنجر رأى رسالة السادات تمثل تصرف رجل دولة ، مؤكداً تقديره الجديد للسادات ، ذلك أنه أدرك أنه لا شىء يمكن أن يصرف نظر السادات عن السلام الموضوعى الشريف ، كما أشار كيسنجر إلى أن السادات استطاع فى هذه اللحظة القاسية من الهزيمة على أرض المعركة أن ينهى الحشد العربى ضد الأمريكيين ، وفى نفس الوقت بدأ السادات فى التحول رسميا عن الاتحاد السوفيتى رغم بقائه يعتمد عليه بصورة كلية فى حصوله على الأسلحة .. ويحتمل أن يكون هذا طلاقاً للمواءمة ، لأن الاتحاد السوفيتى ربما أصبحت لديه شكوك فيما يتعلق باغتيال مصر تحت حكم السادات .

أما عن الشكوك التى انتابت الدول الأوروبية فقد تحولت إلى ذعر حقيقى ، لأن الأوروبيين أدركوا أنهم فى هذا الوقت لن يمكنهم تملك القدر الكافى من إمدادات البترول .. وقد قاد هذا الذعر إلى محاولة الساسة الأوروبيين استمالة القادة مع العرب المنتجين للبترول .

وعلى الفور ظهر أثر ذلك واضحاً ، إذ حينما كان الجسر الجوى الأمريكى إلى إسرائيل على وشك أن يبدأ لم تكن هناك أية دولة أوروبية واحدة على استعداد للسماح للطائرات الأمريكية بالتحليق فوق أجوائها فى طريقها للشرق الأوسط ، بينما أجبرت البرتغال على ذلك .

وبمجرد أن أدرك الكرملين امتداد الجسر الإسرائيلى عبر القناة على مسافة ٨ أميال من جهة الشمال و ٤ أميال من جهة الجنوب مع ما يزيد على ٣٠٠ دبابة قام بمجهودات عاجلة لإيقاف الحرب ، وكانت زيارة كيسنجر لموسكو جزءا من هذه المحاولة .. أما جولدا مائير التى كانت قد وافقت على وقف إطلاق النار منذ أسبوع فقد أصبحت الآن أكثر وعياً لأن الموقف العسكرى تغير كليةً ، كذلك لم تكن متحمسة لأخبار قبول كيسنجر دعوة الكرملين وهكذا .. قام كيسنجر بتأخير مغادرته إلى موسكو لمدة ٢٤ ساعة ، وهكذا أيضاً قوى موقف إسرائيل العسكرى بصورة أكبر ، وقد جادل كيسنجر بأنه شخصيا كان راضياً عن ذلك وبأن ما فعله هو الصحيح ، وبأن الكرملين يعرف سر تأخره .. وحينما التقى كيسنجر ببريجينيف أظهر الأخير لهفته ، سرعة وقف إطلاق النار ، ولم ير كيسنجر -الذى كان مخولا له كل السلطات من قبل الرئيس- أية مانع ، لا سيما أنه شعر بأن إسرائيل ليست فى حاجة إلى عدد أكثر من الأيام لإحكام خناقها على القوات المصرية ، كما أنها فى وضع تساومى أفضل .

ثم كان قبول كيسنجر لدعوة جولدا مائير بالسفر من موسكو لإسرائيل ، وهى الزيارة التى ركز الكثيرون على أنها أظهرت يهوديته . وفى مذكراته يشير كيسنجر بوجه خاص إلى عواطفه تجاه إسرائيل وخلفياته ، وإلى أنها احتلت مكانة رفيعة فى قائمة أولوياته أثناء خدمته الحكومية ، ومع ذلك لا يمكن قبول هذا الانطباع كلية .

ويرجع سر هذه الدعوة إلى القلق الذى انتاب كلا من جولدا مائير وموشى ديان ، والذى لم يكن منبعه عملية وقف إطلاق النار فى حد ذاتها ، وإنما كان ما تم تقريره فى موسكو ، وما إذا كان قد تضمن اتفاقاً سرياً للتراجع إلى حدود ١٩٦٧ ، وأيضاً إذا ما كانت هناك محاولة لفرض حدود جديدة على إسرائيل .. وقد أعطيت جولدا مائير وموشى ديان تطمينات حازمة بأنه لا شىء من هذا القبيل قد تم تقريره .

وكان بريجينيف قد بدأ يستخدم لهجة شديدة متهماً الإسرائيليين بالمكر والسلوك غير المقبول .. إذ اعتقد بوضوح أن الجيش الثالث قد تم حصاره تماماً ، وأنه كان على وشك الانسحاق بسبب نقص الماء والطعام وإمدادات الذخيرة ، وكانت هذه هى الأزمة بالنسبة له وللسادات .

ولأول مرة ناشد السادات كيسنجر مباشرة معطياً الاقتراح بأن الأمريكيين سوف يتدخلون بفاعلية ، حتى لو تطلب ذلك استخدام القوة ، لضمان الإعداد الكامل لوقف إطلاق النار . غيرأن فكرة استخدام الولايات المتحدة للقوة ضد حليفتها إسرائيل بدت غير معقولة ، لكن السادات كان يحاول -فوق ذلك- أن يحوز ثقة الولايات المتحدة .

وفى الحقيقة فإن الولايات المتحدة كانت لديها القوة الكافية لأن توقف الإسرائيليين ، وفى هذا السياق كان لاستبعاد الاتحاد السوفيتى دلالة عميقة .

إلا أن السادات -وبسبب ظروف محاصرة الجيش الثالث - اتجه إلى مجلس الأمن الدولى لطلب إرسال قوات أمريكية وسوفيتية إلى الشرق الأوسط ، حيث اعتقد السادات فى هذه اللحظة العصيبة أن القوات الأمريكية- السوفيتية المشتركة سوف تكون ميزة له ، وأنها ستفرض حلاً يكرهه الإسرائيليون ، كذلك فإن مثل هذا الاتجاه سوف يكون له تأثير يظهر فى صورة مبادرة دولية دبلوماسية .

ومع ذلك فإن ما أراده الكرملين كان مختلفاً ، حيث كان بريجينيف يبحث عن التفوق الجزئى الذى فقده فى العالم العربى ، وظهر هذا ماثلاً بوضوح فى إنذاره

الأخير لكيسنجر ونيكسون ، والذى يصعب فهمه حيث جاء به (اسمحوا بإرسال القوات ليس فقط لغرض وقف إطلاق النار ، وإنما التسوية بين العرب وإسرائيل ، أو أقطها بنفسى) .

وقد رأى كيسنجر أن ذلك يعتبر أخطر التحديات التى تواجه رئيس الولايات المتحدة من قبل القائد السوفيتى ، وأنه لم يكن تهديداً حكيما .. وطبقا لمعلومات CIA فقد كان واضحاً أن الاتحاد السوفيتى يعد بعض الطائرات لحمل فرقه الجوية إلى الشرق الأوسط ، كما وصل عدد السفن السوفيتية فى البحر المتوسط إلى ٨٥ سفينة ، والأكثر من ذلك أن أسطولا سوفيتيا قوامه ١٢ سفينة كان يرابط على رأس الإسكندرية ، كما كان السفير السوفيتى فى واشنطن قد تباهى فى فترة سابقة بأن الاتحاد السوفيتى لديه خطط لهزيمة إسرائيل فى يومين .

ولم تكن الولايات المتحدة لتسمح بالإنذار السوفيتى ، أو بمعنى آخر لم تكن لتسمح بوقوع كل ثروات الشرق الأوسط فى أيدى الكرملين ، كذلك لم تكن لتسمح بأن يرسل قواته إلى الشرق الأوسط ، ومن ثم يصبح القوة الغالبة هناك .

وللتأكيد على أن الولايات المتحدة قد أخذت التهديد السوفيتى باهتمام أنها وضعت القوات الأمريكية ظاهريا- بما فى ذلك الأسلحة النووية - على أهبة الاستعداد.

وفى نفس الوقت تم إرسال تحذير إلى السادات بأنه حال ظهور القوات السوفيتية على أرض مصر سوف يتم اعتراضها بواسطة القوات الأمريكية ، كما طلب منه أن يسحب دعوته للقوات السوفيتية ، وقد مثل ذلك أمام السادات سيناريو كابوس .. إذ أن قوتين نوويتين سوف تصطدمان ببعضهما فى القاهرة ، ومن ثم استجاب سريعاً لسحب الدعوة ، مما كان يعنى عملياً أنه لم يعد يبحث عن السوفييت ولا عن القوات الأمريكية .

ويمكن القول بكل تأكيد وحقيقة أن سلوك الأمريكيين الجسور منع وقوع كارثة عالمية فى الشرق الأوسط ، وما زال غير معروف حتى اليوم على من يقع اللوم فى

تلك الحرب التى كانت ستندلع بين القوى العظمى ؟ هناك من يلقون باللوم على بريجينيف بوصفه الذى شجع العرب على خوض الحرب ، ثم فشله فى السيطرة على الأحداث التالية .. كذلك لم يفلت كيسنجر من الانتقاد بأنه أوصى إلى السادات بتحريك الموقف لكسر الجمود الدبلوماسى ، أما جولدا مائير فقد انتقدت من جراء تصلبها أمام عروض السادات ، فى حين اتهم السادات بإشعال فتيل الحريق .

ورغم كل ذلك استطاع كل من كيسنجر والسادات الادعاء بأن فهمهما المشترك كان عاملاً مهماً فى حل الأزمة العالمية .

وهكذا أثبت الرجل الذى أطلق عليه كيسنجر ذات مرة لقب مهرج أنه يستحق لقب سياسى من الدرجة الأولى ، فقد كان السادات هو أيضاً الذى تحرك وأزال العائق الأخير أمام وقف إطلاق النار .

ومما يذكر فى هذا الخصوص ويثير الدهشة ، أنه فى الوقت الذى كان كيسنجر يساوم فيه جولدا مائير –ويصف الإسرائيليين بأنهم أبطال مجانين– كانت مصر على استعداد لقبول محادثات مباشرة بين المصريين والإسرائيليين على المستوى الرسمى لمناقشة حلول مجلس الأمن بخصوص الحرب .

وعلى هذا الأساس كانت إسرائيل على وشك الدخول فى أول محادثات مباشرة مع ممثلى العرب منذ قيام الدولة اليهودية .

ويذكر كذلك أن السادات أعد لقيام كيسنجر بزيارة سريعة للقاهرة كان قد دعاه إليها مبكراً ، لكن كيسنجر شعر بإمكانية حدوث إثارة فى إسرائيل بمجيئه إلى القاهرة فى الحال بعد التقائه بجولدا مائير .

وبناء على ذلك اعتمدت كل استراتيجية السادات على التفاهم مع كيسنجر ، ذلك الرجل ذو العقلية المبدعة ، والتى كان السادات ذاته يحب أن يمتلكها ، علاوة على أنه ينتمى للقوة الأعظم فى العالم . وكان السادات قد أرسل إسماعيل فهمى إلى

الولايات المتحدة لإزالة التوتر في العلاقات المصرية -الأمريكية وأن يمد السادات بتقرير مفصل عن وزير الخارجية الأمريكي اليهودي .

المهم ، أنه قبل إنهاء رحلته إلى القاهرة ، كان على كيسنجر التعامل مع زيارة جولدا مائير المحيرة إلى واشنطن ، والتي كان غرضها الحصول على تطمينات بأن الولايات المتحدة لن تجبر إسرائيل علي قبول حلول تضر بأمنها . ورغم أن كيسنجر حاول جاهداً أن يمنح جولدا هذه التطمينات ، إلا إنه لم يستطع أن يزيل غضبها وغيظها العميق من أن الولايات المتحدة -القوة العظمى- انتزعت ثمار النصر على المصريين من فم إسرائيل الصغيرة من خلال وضعها نهاية غير معقولة ، تتمثل في قبول كل أطراف الصراع لاتفاقية سلام .

وطبقاً لرواية كيسنجر ، فإن جولدا التي رآها حينذاك كانت مختلفة تماماً عن جولدا الواثقة الراضية التي قالت لنيكسون منذ عدة شهور قبيل اندلاع الحرب (إننا نرى أن المسألة على غير ما يرام) فها هي تقف أمام كيسنجر متعجبة من الأيام الأولى لحرب يوم كيبور وموبخة نفسها على قبولها للتطمينات المجاملة من قبل خبرائها ، وشاعرة بأنها مسئولة عن موت العديد من الشباب والشابات الإسرائيليين.

وفي مثل هذا المزاج النفسي لم تستطع جولدا مائير قبول تطمينات وتبريرات كيسنجر ، وأرادت أن تتصرف الولايات المتحدة كحليف لإسرائيل ، ليس فقط فيما يتعلق بإمدادها بأسلحة تفوق تلك التي يحوزها العرب ، وإنما أيضاً بأن تنحاز لها في أية مفاوضات للسلام .. وفي نفس الوقت أرادت من كيسنجر أن يضغط على العرب للقبول بوجهة النظر الإسرائيلية كما أن حجته المضادة بأن الولايات المتحدة لا تستطيع القيام بالتأثير المطلوب على المعسكر العربي لو اتبعت كل السياسات التي تطرحها جولدا مائير ، لم تترك أي تأثير لدى هذه الأخيرة .

وتعتبر التغييرات الحادة التي جعلت جولدا مائير تتهم كيسنجر ونيكسون بإجبار إسرائيل على الرضوخ للتسلط الأمريكي رسالة واضحة على حجم إحباطها وغيظها ومخاوفها .

وبالنسبة لكيسنجر ، بدا الأمر كما لو أن القادة الإسرائيليين كانوا على أعتاب طريق الرعب .. ورغم قسوة جولدا مائير فإنها أدركت أن ما يطلبه الإسرائيليون من استبدال الأراضى المحتلة مع المصريين وانسحاب كلا الطرفين مسافة ١٠ كيلو مترات عن قناة السويس لا يمكن قبوله بواسطة السادات .

لقد كان كيسنجر غاضباً من تصرفات جولدا مائير ، ومن أولئك المسئولين الأمريكيين المتشككين فى الجسر الجوى الذى نصب للجيش الثالث .. بينما هدأت جولدا مائير متجنبة الصدام العام مع الولايات المتحدة وقررت انتظار نتيجة لقاء السادات مع كيسنجر .

كذلك أدرك كيسنجر أنه لا يجب أن يقول أو يفعل شيئاً يفتح جراح إسرائيل ثانية ، أو يهيج السادات ويدفعه لتغيير استراتيجيته .

غير أن الأمر لم يخل من تركيز منتقدى السادات على يهودية كيسنجر ، الذى تعهد بألا تخرج الزيارة -رغم عدم جهله بتلك العوامل الشخصية- عن كونها زيارة مهنية ، بوصفه وزيراً لخارجية الولايات المتحدة ، وأنه يبحث عن تفاهم مناسب لكل الأطراف الداخلة فى الصراع .

وطبقاً لرؤية محمد حسنين هيكل -الذى رأى الزيارة بوصفها بداية الخيانة للمصالح العربية- بدأ كيسنجر محادثاته بتهنئة السادات على نجاح القوات المسلحة المصرية ، وهو الأمر الذى كان من الطبيعى أن يسر له السادات ، ثم توجه إليه السادات سائلاً (لقد دعوتك منذ فترة طويلة للمجىء للقاهرة ، فأين كنت ..) وبدأ كيسنجر يفتح حافظة أوراقه ويخرج بعض الأوراق ، وحينذاك سأله السادات : ماذا تفعل ؟ هل تعتقد أننى سوف أتناقش بخصوص وقف إطلاق النار فى ٢٢ من أكتوبر أو عن الفصل ؟ فأجابه دكتور كيسنجر : لا أنت رجل استراتيجى ، وأنا رجل استراتيجى ، وأريد أن أتحدث معك على المستوى الاستراتيجى . ثم بدأ السادات يتحدث إلى كيسنجر عن الشئون التى يريد النهوض بها .

ورغم اعتراف هيكل بأن السادات لم يقل له محتوى وجوهر المحادثات ، فإنه أضاف أن السادات حينما سأل كيسنجر عما ناقشه مع جولدا مائير فى واشنطن قام كيسنجر بإخراج ورقة من حافظته تحتوى على ست نقاط -قالت جولدا مائير مسبقاً إن السادات لن يقبلها- وبعد أن حملق السادات فى الورقة أعلن : (وهو كذلك أنا موافق) .. وعندما التقى الصحفيين فيما بعد ادعى السادات أن هذه النقاط تابعة له هو .

لكن تفسير هيكل السابق ، والذى يجعل السادات ساذجاً إلى هذا الحد ، لا يمكن الاعتماد عليه .. أما تفسير كيسنجر - والذى يعتبر أكثر إقناعاً - فيذهب إلى أنه والسادات جوبها بموقف محاط بالأخطار .

ففى ضوء ما كان يعانيه نيكسون من فضيحة ووترجيت ، والتى كانت قد بلغت ذروتها ، قام بعقد اجتماع فى النهاية مع مجلس الوزراء ، ويومذاك ركز بعض الرجال المندهشين مثل الكسندر هيج وبرنت سكاوكروفت على ضرورة الضغط على إسرائيل لتلافى خطورة نقص البترول .. ومن ثم أدرك كيسنجر أنه إذا فشل فى بعثته إلى مصر فسوف يصر نيكسون على الضغط على إسرائيل لسحب قواتها من على الضفة الشرقية للقناة ، بما يؤدى إليه ذلك من نتائج كارثية على آمال السلام .

وبالنسبة للسادات فقد كان الحث الأوروبى على الانسحاب الإسرائيلى العاجل إلى خط ٢٢ من أكتوبر والموافقة الكاملة على الترجمة العربية لقرار مجلس الأمن الدولى الذى يطالب إسرائيل بالانسحاب من الأراضى العربية المحتلة ، عامل إرباك للسادات .. لأنه لم يكن ليطالب للعرب بأقل مما يطالب به الأوروبيون من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان مدركاً أن هذه المطالب غير عملية .

الفصل الرابع عشر

كسر الحاجز النفسى

فى بداية اجتماعهما قال السادات لكيسنجر : إن لدىّ خطة ، يمكن أن نطلق عليها خطة كيسنجر .. وتفاصيل ذلك أن السادات كان مدركاً تماماً أن هناك حاجزاً نفسياً بين الإسرائيليين والعرب يجب كسره قبل الشروع فى أية اتفاقية سلام ، وأن الحديث وجهاً لوجه مع الإسرائيليين يعتبر مغامرة مستحيلة ، حيث يشعر العرب بأن الإسرائيليين لم يحتلوا الأراضى العربية فحسب ، وإنما أيضاً طردوا مئات الألوف من الفلسطينيين من بيوتهم ، كما أذلوا كل الدول العربية بتكرار هزيمتهم مضيفين فى كل مرة ممتلكات عربية .. كذلك ترى الأغلبية الواسعة من العرب المسلمين أن ادعاء الإسرائيليين بالتفوق يمثل إهانة لدينهم ورجولتهم .

هذا الحاجز النفسى هو الذى منع أياً من القوميين العرب من الجلوس وجها لوجه مع الإسرائيليين ، وقد تعمق هذا الحاجز ، خاصة قبل حرب الأيام الستة ، تلك الحرب التى قادت إلى احتلال الإسرائيليين لمدينة القدس القديمة والضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان ، ومن ثم فإن أى قائد عربى سيحاول كسر هذا الحاجز سيقابل حتما بانفجار من قبل المعسكر العربى .

وعلى هذا الأساس كان السادات يحب أن يرى أنه يتفاوض مع الولايات المتحدة ، وليس مع الإسرائيليين .. ورغم ملامح الإجماع التى أظهرها مستشارو السادات ، شعر السادات بإمكانية منح الأمريكيين الثقة حتى يتم إيصال الإمدادات للجيش الثالث . لقد بدا للسادات أنه من غير المقنع أن يراهن الأمريكيون بسمعتهم فى وقف إطلاق نار مشرف خاصة مع عدم وجود فوائد واضحة بالنسبة لهم يمكن أن تدفعهم للخداع .. كذلك رأى السادات أن الإسرائيليين ليسوا مضطرين إلى سحق الجيش الثالث مغضبين بذلك الأمريكيين للدرجة التى يصبح معها تحالفهما فى خطر .

وكانت أحدى النقاط الست ، والمتمثلة فى استبدال نقاط المراقبة الإسرائيلية على طريق القاهرة - السويس بنقاط مراقبة تابعة للأمم المتحدة ، تشكل تطميناً إضافياً للسادات بأن الجيش الثالث فى مأمن رغم امتعاض الجانب الإسرائيلى منها .

وهكذا راهن السادات بكل حياته ليثبت أنه على حق ، وجادل بأن حالة الجيش الثالث ليست هى قلب الموضوع بين مصر والولايات المتحدة .. إنه أراد أن ينهى الميراث الناصرى ، ويعيد بناء علاقات مع الولايات المتحدة على وجه السرعة .

وقد رأى كيسنجر أن ذلك يمثل سلوكاً شجاعاً -رغم أن هذا القرار كان جزءاً من استراتيجية السادات المغطاة- وعولت الولايات المتحدة على أنه فى طريقه لحل المشكلة الكبيرة للحرب والسلام .

غير أن السادات اعتبر أنه من المبكر جداً أن يسحب سلاحه القوى الذى يتمثل فى حظر البترول ، حيث يتطلب الأمر نجاحاً محسوساً على المستوى العربى ، نظراً لأن السلاح البترولى كان فى أيدى الملوك العرب ، وليس فى يده شخصياً .. وهو أمر لم يكن سهلاً ميسوراً ، خاصة فى ضوء النقاط الست التى أظهرت أن هناك قائداً عربياً يعد للقيام بتقديم تنازلات للإسرائيليين ويحاول أن يفهم العقلية الإسرائيلية .

ففى كتابه المثير للجدل " خريف الغضب " ادعى محمد حسنين هيكل أن السادات قدم عدداً من التصريحات المروعة ، أحدها أن العدو الحقيقى هو الاتحاد السوفيتى ، وأن مصر حاربت آخر الحروب مع إسرائيل .

كذلك ذهب هيكل إلى أن السادات كانت لديه خطة عربية لكنه استبعدها بتقريره تنويع مصادر الأسلحة وقبوله للأسلحة الأمريكية ، مما كان يعنى فى أهم محدداته إزاحة الدور السوفيتى كمصدر إمداد رئيسى بالأسلحة لمصر من ناحية ، ومن ناحية أخرى كحام رئيسى لمصر .. وإنه بذلك دغدغ النظام العربى بتكبيل مصر بتحالف عسكرى جديد .

ويضيف هيكل أن دول المنطقة التى اتحدت للدفاع عن نفسها لم تكن مجبرة على الانضواء تحت لواء أى من القوى العظمى ، وأنه على مدى عشرين عاماً كان هناك طموح عربى رغم العراقيل ، ثم تأتى مصر -قائدة العالم العربى- الآن لتعزل هذا المفهوم .

وفى مناقشتنا لذلك نقرر أنه ربما لا شىء يظهر مدى الهوس النفسى الذى كان يشكو منه المتمسكون بأحلام ناصر أكثر من تركيزهم على أن هناك تجمعا عربيا قادرا على الصمود بجانب القوى العظمى .. كذلك لم تكن هناك أية قوة عظمى مهتمة بدرء هذا التجمع .

إنه لا يمكن بأى حال من الأحوال لوم السادات على شطر العالم العربى إلى العديد من الوحدات السياسية والجغرافية التى تصارع بعضها البعض .

وفى السياق ذاته ، ظهر نقص الحقيقة لدى منتقدى السادات فى موقفهم إزاء اتفاقية فصل القوات الأولى ، والتى وقعت بين مصر وإسرائيل بمساعدة كيسنجر .. إذ يذكر هيكل أن ثمة حادثا أفزعه أثناء مناقشات أسوان بخصوص الاتفاقية ، تمثل فى قبول مصر بألا تحتفظ بأكثر من ٣٠ دبابة فى سيناء ، ولكن السادات فى إشارة إلى الرغبة الطيبة قال إن هذه الـ٣٠ دبابة أيضا يمكن سحبها .. وأن اللواء الجمسى رئيس العمليات ، الذى تفاوض بخصوص الاتفاقية عند الكيلو ١٠١ مع الجنرال الإسرائيلى الماكر أهرون ياريف - كان مصعوقاً قائلاً فى نفسه : ياله من ثمن غال ندفعه لإدخال دباباتنا إلى سيناء .. إن ٣٠ دبابة عدد قليل جداً ، لكن أن تنخفض إلى لا شئ !! ثم ذهب إلى الشباك وأجهش بالبكاء -حسب رواية هيكل- وأن كيسنجر لاحظ عاطفة الجمسى وكان غاضباً جداً من جرائها ، وحينما توجه إليه سائلاً : هل هناك فى المسألة شىء ؟ رد عليه الجمسى : لا يا سيدى ولكن الأوامر هى الأوامر .

وأيما كان الأمر ، فإن هيكل ساق هذا المثال للدلالة على هجر السادات للمصالح المصرية الحقيقية ، لكن هذه القصة -وعلى عكس ما ذهب إليه هيكل- تعتبر دلالة على واقعية السادات ، إذ كيف يمكن لأى فرد أن يتصور أن ٣٠ دبابة يمكن أن توفر أى أمان لمصر ضد إسرائيل الأقوى تسليحاً .. أو بمعنى آخر فإن قلتها تعتبر طعماً أفضل للحصول على مزايا أكبر من إسرائيل وكيسنجر .

كذلك ياله من ظلم أن يتم اتهام السادات بقبوله لنقاط جولدا مائير الست ، ويمكن الاستدلال على ذلك برد الفعل الحادث عندما أرسل كيسنجر مبعوثين -جوسيسكو وهال ساندرز- إلى القدس لإخبار القادة الإسرائيليين بقرار السادات .. حيث صدمت جولدا مائير بقبول السادات لاقتراحاتها الخاصة ، ورأت أن الاتفاقية تعتبر إنجازاً خيالياً ، بينما كان مجلس وزرائها أقل تأكداً ، وأصر على موافقة الولايات المتحدة فى مذكرة تفاهم تحدد بالضبط كيفية التحضير للنقاط الست ، وكان من الصعب على كيسنجر أن يرجع إلى السادات ويطلب منه أن يقرر بأنه قبل أمنيات إسرائيل .

وهكذا كان من الممكن أن تتعرض الاتفاقية للتدمير ، لو لم يتم أخذ جولدا مائير بنصيحة كيسنجر بالاستمرار والإعلان عن التعامل مع المشاكل فيما بعد .

ويتضح من مذكرات كيسنجر أنه بدون إرادة أنور السادات لإزالة كل أنواع العوائق التى أقامها الآخرون على الجانبين الإسرائيلى والمصرى ، لما كانت هناك اتفاقية بالمرة ، ولما تأتى التمهيد لطريق السلام .

ورغم الشعور العام تمت الدعوة إلى مؤتمر جنيف بواسطة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وكانت النغمة السائدة -على خلاف وجهة نظر كيسنجر- هى التنبؤ بالفشل ، حيث استهل المؤتمر بأجندة مستحيلة لتسوية الصراع العربى - الإسرائيلى . كما رفض الرئيس السورى الأسد الحضور ، لكونه اعتبر أن التقرب من البعثة الإسرائيلية لا فائدة له ، كما قاد معسكر الكراهية ضد الإسرائيليين .. كذلك لم يلعب الاتحاد السوفيتى دوراً ذا مغزى ، فقط أدلى وزير الخارجية السوفيتية جروميكو بعبارات مقبولة عاطفياً للمتطرفين العرب ، كما وجهت إليه اتهامات بأنه أفسح المجال لمراودات كيسنجر .. وفوق ذلك فإن السوفييت ، الذين صنعوا سياسة معرقلة فى الشرق الأوسط وأحدثوا تغيرات دراماتيكية فيه ، لم تعد لديهم دولة يمثلونها .. أيضا كانت هناك مخاوف من آخر المتطرفين العرب زيد الرفاعى رئيس وزراء الأردن .

وأيما كان الأمر ، فإنه -ولأول مرة- ترسل دولتان عربيتان مبعوثين على مستوى عال إلى مؤتمر مع إسرائيل لتمهيد الطريق للرئيس السادات فى خطوته

الجسورة ، وقد أبان السادات ميله للكمال أثناء زيارة كيسنجر الثانية لمصر فى شهر يناير ، والتى تطورت إلى الدبلوماسية المكوكية .

وبالنسبة لكيسنجر ، فقد كانت خطة فصل القوات الثانية ، والتى تؤول بالأساس لموشيه ديان ، كافية ومحترمة لكى يكيفها مع خطته الخاصة ويقدمها للسادات .

غير أن سوء خلط واضح قاد الجنرال موردخاى جور - المندوب الإسرائيلى فى المجموعة العاملة فى جنيف - لأن يذيع مصدرها ، وكاد ذلك يدمر وفادة كيسنجر ، ولكن السادات تظاهر باقتناعه بالتبريرات والتفسيرات غير المقنعة أصلاً .

لقد كان هناك شك قليل فى أن اتفاقية فصل القوات الثانية كان مصدرها موشى ديان .. حتى إن كيسنجر كان يمزح بخصوص مصدرها حينما علق إيجئال آلون بأن إسرائيل قبلتها .

لكن هذا لا يعنى أن السادات خدع أو احتيل عليه ، إذ كان السادات واعياً بكل جزئية ، وعارض الكثير من المقترحات التى رآها ليست جوهرية للفصل ، وتلك التى ترتكز على هزيمته فى الجزء الثانى من الحرب .. وبدا الإسرائيليون أكثر حساسية ، خاصة حينما طلبوا وجوب أن يطرد السادات المتطوعين الأجانب .

إن كيسنجر ربما حاول - أكثر من أى سياسى آخر - أن يحلل شخصية السادات المعقدة الصبى القروى الفقير ، الثورى ، السجين ، الذى تحول إلى قائد قومى لدولة تقع تحت وطأة كارثة .. كانت تعلو وجهه ابتسامة حارة ، ولديه المقدرة المدهشة على الزهد ، والرغبة المتدافعة لدفع السعر بغية الحصول على الفوائد ، والمقدرة على التفكير لسنوات عديدة فيما يشغله .

والذى لم يظهر فى الصورة التى ارتسمها كيسنجر للسادات هو العذاب الذى أضناه قبل اتخاذ قراره الحيوى .. فالسادات كان يمكن أن يكون رجلاً ذا مزاج عال ، وكذلك كان عاطفيا ، يمكن أن يطفو غضبه فى صورة تأنيبه لنفسه أو لضيف أو لصديق .. أيضاً كانت عيونه مثل عيون ونستون تشرشل ، يمكن أن تفيض بالدموع فجأة .

وهكذا بعد أن غادر كيسنجر مصر بعد الزيارة الأولى فى ديسمبر ١٩٧٣ ، كان القائد -الفيلسوف الحكيم- بالفعل " فى عذاب " ، وقد كتب السادات بعد ذلك .. " شعورى بألم جسدى وذهنى كان فظيعا " .. إنه لم يكن يرى مخرجاً ، كل شىء يمضى خطأ وهو لا يستطيع تصحيحه ، وحينما رآه طبيبه أخبره بأن كل ذلك مصدره التوتر ، ولكن ليس هناك خطر حقيقى .

وفى خضم شعوره بالحزن والتوتر دعا إلى اجتماع لكل قادة القوات المسلحة ، ووافق على خطة لتصفية ثغرة الدفرسوار ، وتم تعيين القائد الذى سيقوم بالهجوم ، لكن الخطة لم يعلن عنها على المستوى الداخلى .. ولم يعط السادات تفسيراً لهذا النقص الإجرائى ، حتى عندما كان يتفاوض مع كيسنجر بأسوان بعد عيد ميلاده ، الذى كان يحتفل به دائماً فى قريته ميت أبو الكوم ، كان ما زال يعانى العذاب الذهنى .. والسبب الذى كان يقدمه هو أن كل القوى تريد أن تسلبه نصره ، والولايات المتحدة تريد أن تبخسه ، والاتحاد السوفيتى يريد أن يضع له وقفة لأن السوريين يشكون التراجع رغم وجود المستشارين السوفييت ، وبالطبع إسرائيل تريد أن تفسد نصره .

وواقع الحال ، أن هذه المحاولات فى حد ذاتها لم تكن معلقة ، كما كانت كلماته دعائية جداً أكثر من كونها مقنعة .. إنها كلمات تظهر رجلاً فخوراً جداً ، ولكنه فى الحقيقة محبطاً بشدة بسبب عدم مقدرة قواته المسلحة المحافظة على ما اكتسبته فى الجزء الأول من الحرب ، كما خطط هو لذلك . أيضاً يعترف ضمنياً بالفشل المروع الذى أصابه مؤخراً حينما استمرت المعركة ، ولم يعد هو مسيطراً تماماً ، وأن عظمته فى النهاية هى أن يحافظ على أهدافه رغم ارتفاع درجات عذابه .. لقد كان شأنه شأن الممثل الذى يظهر بوجه مبتسم وهو يعانى عذابات ذهنية .

إن السلام كان دوما هدف السادات ، لكنه كان يحب أن يتعامل معه من منطلق القوة .. وقد وصف كيسنجر السادات بلقب " أبو فصل القوات " ، رغم أن مصطلح

الفصل لم يكن يروق للسادات ، كما أن السادات كان يهدف إلى اتباع سياسة خارجية موضوعية .. إنه فهم بصورة تامة أنه قبل أن يتحاور العرب والإسرائيليون لابد أن تكون هناك فترة أمان .

وكانت مذكرات السادات مفتونة بهذه النقطة على وجه الخصوص لما يستشف فيها من قراسة عقليته .. أيضاً قام السادات بإطلاق كل أنواع التهديدات الرعدية لأنه أصيب بإحباط أكثر على خلفية المفاوضات الطويلة بين ياريف والجمسي ، حيث لا أحد منهما كان يعرف ما يدور بذهن قائده ، ومع ذلك يمكن النظر إلى هذه التهديدات على أنها رد فعل طبيعي لبطل قومي .

إلا أن السادات يربط قراءه بنوع من الحلم الذى قرر أن يحققه للمصريين ، وهو ما أخبر به كيسنجر ، فالسادات لم يحاول أن يخدع كيسنجر ، ولعل هذا هو السبب الذى من أجله وثق وزير الخارجية الأمريكى بالسادات بصورة تامة ، ومن أبرز الأمثلة ذات الدلالة فى هذا السياق كان موقفه تجاه الأسد .. إنه رآه قائد مضلل وجامد وغير موثوق به ، لكنه كان مدركاً أن الأسد بطل قومى سورى صرف حارب من أجل الحقوق العربية ، وأنه كان أحد الجنود المخلصين للقومية العربية .

لقد قيل لكيسنجر إن السادات أراد تسريع وتيرة تركه للمعسكر السوفيتى ، وكان السادات أمينا معه فى تقريره الوقوف بجانب سوريا مادام قد ارتأى العرب أنها محقة ، وكذلك فى تقريره أنه لو اندفع الإسرائيليون فى حرب ضد السوريين ، فإنه كان سيظل يقف بجوارهم حتى لو كان ذلك يعنى التدمير الكامل لسياسته .

إنه أيضا كانت لديه القدرة على فهم وجهات نظر الآخرين ، ويوجد نوع من الشك فى أنه كان معجباً بأشخاص أمثال جولدا مائير ، وأريل شارون وأخيراً مناحم بيجن ، ويرجع سر إعجابه بهم إلى قوة شخصياتهم النابعة من مساندتهم قراراتهم وعدم الاهتمام بمنتقديهم .

أما من بين القادة العرب فقد كان هناك شخص واحد تجب مصادقته هو الملك فيصل ، ملك المملكة العربية السعودية ، حيث كان لدى فيصل تصديق فطرى لأهداف السادات وأمانيه ، ومن ثم قدر السادات صداقته وانتهز كل فرصة لإظهارها .

وعلى العكس من ذلك اتخذ السادات موقفا من بقية القادة العرب ، فلم يكن يثق بالملك حسين ملك الأردن ، واعتقد أن الرئيس الليبى القذافى شاذ بصورة خطيرة ، إن لم يكن مجنوناً .. فالملك فيصل بالنسبة له لم يكن أميناً مخلصاً فحسب ، وإنما أيضاً كان عاقلاً حكيماً ، وأنه رجل يمكن الاعتماد عليه ، كما يؤول إليه الفضل فى استخدام سلاح البترول القوى أثناء حرب يوم كيبور ، ولذلك ارتطم السادات بعاصفة حادة حينما اغتيل فيصل .

وواقع الأمر ، أن رجلاً واحداً مثل السادات -لكونه ممثلاً بارعاً- كان بإمكانه أن يرتب بجدارة لزيارة الرئيس ريتشارد نيكسون إلى القاهرة ، فالأخير كان محاطاً بفضيحة ووترجيت من قبل الساسة والقضاة الأمريكيين لأسباب متنوعة معقدة .

والآن فى هذا الجو الذى يعيش فيه أيامه الأخيرة فى أقوى وظيفة بالعالم على رأس الولايات المتحدة فإن بمقدرته تدمير كل الجنس البشرى بحركة عصبية واحدة ، ولكن فى يونيه ١٩٧٤ كان فى العاصمة المصرية محاولاً أن ينسى عذابه ، بينما كان على مضيفيه أن يتصرفوا كما لو لم يسمعوا عن ووترجيت على الإطلاق .

وهنا فى القاهرة كان اجتماع الخديعة الأمريكية -العربية ، واصطف سبعة ملايين مصرى فى الشوارع لتحية الرئيس الأمريكى ، الذى كانت ابتسامته الخارجية لا تتضمن إيعازا بعذابات روحه .

وقد أكمل استمتاع نيكسون بالرحلة العشاء السخى بقصر القبة المزخرف ، والمديح الملتهب عن صلابته .

وكان السادات حريصاً على ألا يعطى انطباعاً بأنه يتعامل مع رئيس يفقد سلطته بانتقاء كلماته .. ولذا فقد تحدث كما لو كان يتفاوض بصورة جادة ، مصراً على أن المشكلة الفلسطينية ما زالت هى حجر العثرة أمام السلام مع إسرائيل .

وفى بحثه عما أطلق عليه اتفاقية فصل القوات مع إسرائيل ، كان السادات يأمل فى أن ينجز هدفين .. أولهما : استرداد معظم سيناء من الإسرائيليين ، وعلى وجه الخصوص كان يريد دفعهم إلى ما وراء ممرات سيناء الاستراتيجية ، وقد كانت هذه هى رغبته فى حرب يوم كيبور ، ولكنها فشلت .. وأيضاً كان يريد حقول بترول سيناء ، والتى كان يعتبرها حيوية جداً للاقتصاد المصرى وضرورية جداً لوجاهة مصر القومية .. أما ثانيهما – وهو الهدف المستتر الذى شك فيه الإسرائيليون – فيتمثل فى إحداث مشاكل بين الولايات المتحدة وإسرائيل ، فالسادات لعب بذكاء على الغضب الأمريكى من جراء عناد الإسرائيليين بعدم رغبتهم فى التخلى عن أى ميزة ، وخوفهم الدائم على أنفسهم حتى مع ظهورهم أكثر قوة من الدول العربية حولهم .. وقد ازدادت فرصة السادات فى خلق شقاق بين إسرائيل والولايات المتحدة حينما استقالت جولدا مائير وحل محلها رابين .

تشجع السادات أيضاً بوصول الرئيس فورد إلى البيت الأبيض بعد استقالة نيكسون ، وقد تم التعويل على أنه رجل صريح ومباشر ويفهم حالة مصر ، ولم يكن فورد من رعاة البقر مثل سابقه نيكسون ، وإنما جاء من بيئة أغلب سكانها فلاحون ، وفى وسط السكان الفلاحين تجد ثباتاً دائماً فى الشخصية واحتراماً للوعود ، وبساطة ، واستقامة ، وأمانة ..

كان هذا الانطباع الذى اتخذه السادات عن الرئيس الأمريكى الجديد ، والذى جعله يحاول أن ينفذ ما عقد العزم عليه من إحداث مشاكل بين الولايات المتحدة وإسرائيل .

وإذا عدنا إلى رحلات كيسنجر المكوكية .. فسنجد أن كيسنجر قضى ١٧ يوماً فى رحلات مكوكية بين القاهرة والقدس لينجز اتفاقية الفصل الثانية ، لكنه فشل ،

حيث إن الإسرائيليون كانوا على استعداد للتنحى عن الممرات وحقول البترول ، ولكنهم أصروا على التزام السادات بعدم الحرب ، ورفض السادات ذلك مجادلاً بأنه إذا فعل ذلك فإنه سيفقد حق المطالبة ببقية سيناء .

مشاكل أخرى ثارت بخصوص خط الانسحاب الإسرائيلى ، قادت السادات إلى اتهام الإسرائيليين بأنهم يرغبون فى الإمساك بالمواقع الحيوية (المفاتيح) ، ورغم المجهودات التى بذلها كيسنجر فقد فشلت الوفادة .

لقد كانت هناك مفارقات وتمييزات ظهرت فى التوبيخ (اللوم) الذى وجهه كيسنجر للإسرائيليين .. تأكد هذا بوضوح حينما أعلن الرئيس فورد عن تعديله لأولويات سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط والتى أنذرت الإسرائيليين وكأنها موجهة مباشرة ضدهم .

الفصل الخامس عشر

النظر إلى القدس

فى تخطيطه للطريق للقدس والكنيست ، حاول أنور السادات أن يكتسب شرعية فى المعسكر القومى العربى ، رغم عدم وجود أية إشارة إلى مبادرته الثورية .. وعندما كان السادات يبتعد عن الاتحاد السوفيتى اعتقد بوضوح أن أمله فى كسر أو إضعاف الروابط بين الولايات المتحدة وإسرائيل قد تلاشى عندما وقع ٧٦ سيناتورا أمريكيا على عريضة للرئيس الأمريكى ، يحثونه فيها على عدم اتخاذ خطوات لإضعاف إسرائيل ، وألا يوقف إمدادات الأسلحة إليها .

وقد انفجر السادات ضد إسرائيل لتسلطها على الكونجرس الأمريكى ليضغط على الرئاسة ، وتصاعد غضبه من قدرة الإسرائيليين الواضحة فى السيطرة على وسائل الإعلام الأمريكية ، رغم أن هذا لم يكن كل الحقيقة .. ومع ذلك فقد نجح السادات لبعض الوقت فى خلق شقاق خطير بين الولايات المتحدة والإسرائيليين .

وعلى الصعيد الإسرائيلى ، كان من قبيل المفاجأة أن يقلع إسحاق رابين عن ممرات سيناء الحيوية من الناحية الاستراتيجية دون الحصول على ثمن غال يرتكز على أمن إسرائيل .

أما السادات فقد رفض الموافقة على إنهاء حالة الحرب ، والتى كانت ستكسبه كل ما أراده فيما يتعلق بالممرات وحقل بترول أبو رديس ، متعللاً بأنه خشى أن يمانع العالم العربى مثل هذه الاتفاقية بوصفها اتفاقية سلام حقيقية .

وعندما استفسر رابين من كيسنجر إذا ما كان السادات مستعداً لقبول ميثاق سلام منفرد مع إسرائيل أم لا .. تلقى رفضا غير واضح .. وحتى عندما أسقطت إسرائيل مطلب إنهاء حالة الحرب ، ووافقت على مطلب أقل منه دلالة يتمثل فى تخفيض حجم القوات ، كانت هناك مشاكل يصعب تذليلها ، أبرزها أن رابين عارض الإصرار المصرى على أن تنقضى الاتفاقية بعد عامين .. كما أراد -رابين- الاحتفاظ بالجزء الشرقى من الممرات .

غير أنـه مـن الصعـب فهـم لمـاذا كـان الأمريكيـون غـاضبين مـن السـلوك الإسرائيلى ، خاصـة أن الإسـرائيليين كـانوا يعرضـون عـودة حقـول بـترول سـيناء ، وكذلك كـانوا يعرضـون التنحـى عـن منطقـة كبيرة مـن شـبه جزيـرة سـيناء . إن كـل التنـازلات قدمـت بواسـطة إسـرائيل ، ورويـداً رويـداً شـكلت حزمـة كـبيرة جذابـة مـن التنازلات دون معاهدة سلام ، وكانت هذه التنازلات معقولـة لأن يطـالب الإسـرائيليون بالاحتفاظ بنظام للإنذار المبكر ، وأن ينسحبوا فقط إلى الجزء الشرقى مـن الممـرات ، ولا يهم بعد ذلك أن تنقضى أى اتفاقية بعد عامين من عدمه .

وكان كيسنجر غاضباً مما رآه من عناد إسرائيلى ، بل واتهم رابين بتضليله .. وهكذا غادر كيسنجر إسرائيل بعد فشل البعثة وسط بكاء مودعيه ، لائماً إسرائيل على هذا الفشل .. وهكذا أيضاً لم يتم توقيع صفقـات أسـلحة أمريكيـة جديـدة مـع إسـرائيل رغم وفاء واشنطن بما تم الاتفاق عليه من صفقات قبل ذلك ، بينما شكا رابيـن بحـدة من أن الأمريكيين سوف يستخدمون تكتيكات غير عادية لإجبار إسرائيل على الموافقة على الرغبات الأمريكية .

وكان السادات قد واجه عـدداً كبـيرا مـن المشـاكل ، كـان فـى مقدمتهـا أن قمـة الرباط قد أعلنت الحل السورى بعدم عقد أية اتفاقية سلام منفردة مع إسرائيل .. كذلك كان السادات مدركاً أن الوقت ما زال غير مناسب لأية تلميحات متحذلقـة ، خاصـة أن علاقته المعقدة بالاتحاد السـوفيتى لـم تنتـه بعد ، وأنـه مـا زال يعتمـد علـى الأسـلحة السوفيتية ولا يمكنه الاستغناء عنها كليةً ، ولكن زيارات الوزراء المصريين لموسـكو لم تكن مثمرة ، وظل الأمل معقوداً على زيارة بريجينيف المؤجلة للقاهرة .

أيضاً كيف السادات سلوكاً أبويا للتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية وقائدهـا ياسر عرفات ، لكن العلاقة كانت دائماً مشابهة لعلاقة الأب المتسامح بالولد الشقى .

لقد قضى ناصر ساعاته الأخيرة محاولاً إصلاح مـا نجم عن المعركـة القاسـية بين منظمة التحرير الفلسطينية والملك حسين ، إلا أنه كان ثائراً حينمـا انقلبـت عليـه

منظمة التحرير الفلسطينية بعد قبول خطة روجرز . ويتشابه ما حدث للسادات من جراء علاقته بمنظمة التحرير الفلسطينية وقائدها مع ما حدث لناصر من قبل ، ففى وقت معين شعر السادات بالحاجة إلى تبنى قضية منظمة التحرير الفلسطينية ، واندفع صوب اقتراح أنها الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى .

وكان السادات قد التقى بالملك حسين بالقاهرة ، وتناقشا سويا معا فيما إذا كان لدى الملك حسين الحق فى التفاوض بشأن الضفة الغربية أم لا ، فى حين أيدت قمة الرباط أن تكون منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى ، ولا يجب أن تكون معزولة كلية ، وصوت حسين مع القرار .

لاحظ رابين أن السادات لم يعر انتباها بما تشاور فيه السادات مع ملك عربى مثله ، فكيف إذن يمكن الوثوق به فى عقد اتفاقية مع إسرائيل فى حالة تعرضه للضغط العربى ؟ . وقد رسخ هذا الأمر الاعتقاد لدى رابين بأن الجزء الأهم فى عقد اتفاقية مع مصر ليس الالتزام بما تحتويه ، بل الأجواء المحيطة بعقدها (بتأسيسها) .

ومن الواضح أن رابين رغم أنه كان شغوفاً بسماع توصيفات للقادة العرب من قبل كيسنجر ، إلا أنه ظل لا يفهم السادات ، وقد اعتمد رابين على نقطة من الذاكرة التاريخية ، وهى أن السادات يتشابه والنازى الألمانى فى أنه كان ضابطاً صغيراً فى الجيش المصرى ، وأن مجرى حياته ملىء بالتناقضات من الفشل إلى النجاح الحالى ومن الحيل المفاجئة إلى الصداقة الحادة ...وهكذا ، وكتب رابين يقول :

"فى عام ١٩٧١ وقع معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتى ، وبعد سنة طرد السوفييت وحول ولاءه صوب الأمريكيين .. فى عام ١٩٧٣ خاض الحرب بجوار أخيه الرئيس الأسد ثم شرع فى وقف إطلاق النار دون تنسيق مسبق مع سوريا .. سيرة السادات تؤكد انطباعى بإظهار أنه خان ناصر بصورة فاضحة ، فى البداية أمطره بالمديح بالكمال ، ثم مزق هذه الصورة بالقصص المرعبة " .

ولكن القراءة السطحية لهذا الحكم على أنور السادات سوف تظهر مدى ظلمه ، بل وحتى رابين الذى أظهر فيما بعد شجاعة سياسية تكمل ما لديه من شجاعة عسكرية كان كريماً للغاية حينما اعترف فيما بعد بأن حكمه السابق ، والذى بنى على قدر قليل من المعلومات كان خاطئاً ، وأن السادات يعتبر أبو عملية السلام فى الشرق الأوسط ، وأنه الرجل الذى وضع نهاية لسفك الدماء الذى دام بين العرب واليهود لمدة ١٠٠ عام . وبكل تأكيد كان السادات هو الذى أحيا محادثات الفصل بين العرب وإسرائيل حينما قال : إنه يتمنى أن تعود المحادثات من جديد .

ومع الأفكار الإسرائيلية الجديدة ، ومع إظهار المصريين قابليتهم كان على كيسنجر أن يضطلع بمهمة دبلوماسية مكوكية أخرى تحدوه آمال أفضل فى النجاح .

والفكرة الرئيسية المبتكرة هنا هى أن يقوم الأمريكيون بإقامة نظم الإنذار المبكر فى منطقة الممرات ، وأن تديرها الولايات المتحدة نيابة عن مصر وإسرائيل ، كما احتوت الاتفاقية المؤقتة -والتى تمت الموافقة عليها من قبل مصر وحازت موافقة مجلس الوزراء الإسرائيلى بعد يوم- احتوت على العديد من الملامح المهمة الخاصة بأمن إسرائيل ، كما أعدت مذكرة تفاهم مع الولايات المتحدة ربطت بين سياسات الدولتين بدرجة أعظم .

ولم تكن الولايات المتحدة لتضطلع بالتعامل أو التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ، أو حتى تقوم بأى مبادرة فى الشرق الأوسط دون استشارة إسرائيل أولاً.

أما بالنسبة للسادات فقد أتاحت الاتفاقية له إمكانية إعادة افتتاح قناة السويس وإزالة عار حرب الأيام الستة وما ترتب عليها من أنها أصبحت قناة مسدودة ميتة .. كذلك استرد السادات آبار البترول ، وتمكن من إعادة بناء المدن المدمرة حول السويس .. ولقد كان رابين على حق حينما قرر أن هذه اللحظة مثلت أسس زيارة أنور السادات التاريخية للقدس فى ٩ من نوفمبر ١٩٧٧ .

وقد كتب السادات يقول : " لم أسعد بشيء أكثر من أن أكون على ضفاف قناة السويس " حيث كان يجلس فى كابينة خشبية لعدة ساعات يراقب مجهودات إعادة البناء والتقدم فى المشروعات الجديدة .. ولم يكن أسعد فى حياة السادات من يوم ٥ يونية ١٩٧٥ حينما حلق بطائرة هليكوبتر حتى وصل إلى احتفال أقيم لإعلان إعادة فتح القناة للملاحة الدولية ، ويومذاك رأى السادات البهجة فى عيون الرجال والسيدات والأطفال الذين عادوا إلى المنطقة بعد سنوات عديدة .. وقد دفع الزهو العميق لدى السادات بأن يكتب عن هذه المناسبة مادحاً حضارة سبعة آلاف عام ، ومناديا بأن شعب القناة كان مختلفا عن المصريين الآخرين ، كذلك روى السادات كيف أن الرجال الكبار سناً وقفوا أمام سيارته وانحنوا بجواره شاكرين الله على ما تحقق على يديه .

وواقع الحال أن السادات كان يخوض مغامرة حقيقية ، إذ حينما فشلت محادثات الفصل وعاد كيسنجر إلى وطنه شعر الجميع بأن الإسرائيليين يمكن أن يقوموا بفتح النيران فى أى لحظة ، لكن السادات قرأ الموقف بصورة صحيحة ، ففى لقاء له مع الرئيس فورد تلقى السادات انطباعاً قوياً بأن الأمريكيين ينظرون بتفضيل إلى إعادة فتح القناة ، لا سيما بعد أن فتح المجال لتلقى المساعدة الأمريكية لتطهير القناة .

وكان التوقيع النهائى على الاتفاقية المصرية-الإسرائيلية قد جعل إعادة فتح القناة أكثر أمناً ، كما عجل بإعادة بناء مدن القناة .

وبدوره كان رابين واعياً بأن عودة حقول بترول سيناء ثانية ، وعودة مدن السويس للحياة سوف تتيح للسادات أسباباً قوية للمحافظة على السلام مع إسرائيل .

بينما جادل موشى ديان بأن الانسحاب من قناة السويس سوف يمنح المصريين سبل العيش فى أمان مع الإسرائيليين ، إلا أن ديان لم يلق التأييد الكافى من مجلس الوزراء ولا هو ثابر فى إصراره .

كانت هناك أيضاً أرباح اقتصادية انتبه إليها السادات ، لكنه بالغ فى تقدير مزايا إعادة افتتاح القناة حينما رأى أنها ستمثل دواءً لمعظم - إن لم يكن كل - أمراض الاقتصاد المصرى المزمنة .

وكان السادات مقتنعاً ومؤيداً للاقتصاديين المنصفين فى تصديه للانتقادات العمياء من قبل الساسة المتحاملين .. وقد عارض السادات الانتقاد القائل بأن فتح قناة السويس للملاحة وإعادة بناء مدن القناة كانا مقابلاً لقبوله المطالب الإسرائيلية بإنهاء حالة الحرب .

فى الماضى قال السادات لمنتقديه ، إن من مصلحة العرب البقاء على القناة مغلقة .. والآن ، وفى ضوء نصره العظيم ، تغير الموقف ، فالتبرير القائم هو أن العرب سيصبحون أغنى من جراء الأرباح التى يحصلون عليها من القناة المحررة .

وبخصوص الرهان بأنه سيسمح للسفن الإسرائيلية باستخدام القناة ، فإنه علق بأنه إذا قدم الإسرائيليون التنازلات الضرورية فى مؤتمر جنيف فإنه سوف يعتبر استخدام الإسرائيليين للقناة جزءاً من التسوية الدائمة .. إنه أعطى الانطباع بأنه يتحدث من منطلق القوة ، فإسرائيل -وليس مصر- هى التى ستتوسل فى المستقبل .

أما المنتقدون العرب الذين ادعو أنه بالسماح للأمريكيين بوضع نظم إنذار مبكر فى سيناء سوف يجعل لهم قواعد على أرض مصر ، فقد رد عليهم السادات متسائلاً .. لماذا لم يزعم هؤلاء أن الروس كانوا يحتلون الأراضى المصرية عندما أقاموا محطات للإنذار المبكر ، وهكذا فإن هذه المزاعم كانت بالنسبة للسادات ضارة وغير منطقية لأنه كان فخوراً باسترداد حقول البترول وممرات سيناء ، كما ركز على أن محطة الإنذار الأمريكية ستكون مصرية ، حيث دفع لها من ماله الخاص معلناً : "أنا حر فى إنفاق مالى الخاص كما أحب" .

وبالنسبة لإسرائيل فلم تكن هناك ميزة كبيرة من جراء إقلاعها عن الأراضى سوى اعتراف محدود ، وفى كل مرة تم التنازل عن جزء من الأراضى ، سواء فى سيناء أو على الجبهة السورية .. ولم يترك لديها ماتساوم به فى المستقبل سوى القليل .

وفى ضوء ما سبق أدرك السادات أن الوقت لم يعد مناسباً بعد لعقد معاهدة سلام شامل مع إسرائيل ، رغم أنه تحدث عن اتفاقية سلام ، مميزاً بشدة بين المفهومين ، حيث إن اتفاقية السلام لا تتضمن تبادل السفراء أو إقامة علاقات طبيعية ، كذلك طالب السادات بأن توافق إسرائيل على مخرجات قمة الرباط بإعادة كل الأراضى العربية المتنازع عليها ، وإعطاء الفلسطينيين حقوقهم .

إن السادات رأى نفسه أنه رجل سياسى ذو مكانة دولية ، زياراته إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا منحته رضاء كبيراً ، وسر على وجه الخصوص من حرارة استقباله فى فرنسا ، وأقام صداقة حميمة مع شانسيلو ركريسكى رغم كون الأخير اشتراكيا يهوديا ، مما سبب صدمة لجولدا مائير .

وحينما شعر السادات بأن فورد وكيسنجر سوف يعيدان الدعوة لانعقاد مؤتمر جنيف انطلاقاً من إمكانية إحراز تقدم فى حل الصراع العربى - الإسرائيلى ، استغرق الموضوع بعض الوقت ليدرك أن الأمريكيين غير عازمين على جنيف حتى لا يمنحوا الاتحاد السوفيتى دوراً .

وعلى أية حال أعلن السادات أن الجميع الآن يبحثون عن صداقة مصر ويودون الاستماع إليها .. وفى تقديره فإن مصر -التى كانت تعنيه- خففت من حدة الحرب الباردة بين القوتين العظميين وحفظت توازن القوى ، كما كانت السياسات المصرية هى السياسات التى سادت نهائياً وكانت بؤرة تركيز كل المبادرات العربية .

وبالرغم من أنه كان قادراً على الإدلاء بتصريحات ساخنة ، فقد أصبح أنور سادات جديداً ، منحه نصر أكتوبر المشرف ثقة جديدة ، كما استطاع أن يتحدث بسخرية عن العقول الضيقة لخصومه ، كذلك أصبح الأكثر قبولاً لدى الغرب ، كما ذاع صيته فى وسائل الإعلام الغربية ، استطاع أيضا أن يواجه خصومه من المأجورين ضد تحركاته السلمية فى سوريا وبين الفلسطينيين .

ولكونه شعر بأنه سياسى عالمى ، كان السادات أكثر عزماً على كسر الدب السوفيتى رغم أنه كان لا يزال يحتاج إلى الأسلحة السوفيتية ، كما كان قلقاً من الديون

الكبيرة التى رفض الكرملين إعادة التفاوض بشأنها بفاعلية .. ثم إنه كان لا يزال يتلقى وعوداً بقدوم أسلحة سوفيتية وتخلف ، لذا كان مضطراً إلى البحث عن البديل .

وقد اختار دولتين علاقاتهما متأزمة بالاتحاد السوفيتى هما : رومانيا التى كانت تحكم بواسطة نيكولاى شاوشيسكو - الديكتاتور المستقل الذى كان أكثر لينينية من بريجينيف ، والذى لعب دوراً بارزاً فى ذهابه للقدس .. أما الدولة الثانية فهى الصين التى أعطته قطع غيار للأسلحة السوفيتية ورفضت تقاضى ثمنها .

ولأن روابطه مع الولايات المتحدة قد ازدادت نمواً ، ولأنه لاحظ استحسانا لسياساته فى أوربا الغربية والصين فأضحت إمكانية فض صداقته مع الاتحاد السوفيتى حدثاً قريباً .. كما بالغ السادات فى علاقاته بفرنسا ، مدعيا أن معاهدة الصداقة معها أقيمت فقط حينما توافرت الرغبة الطيبة .

ورغم أن السادات انفجر ضد الكرملين من جراء مراوغاته وعدم مقدرته على حفظ وعوده ، فإنه لم يسأل نفسه فيما إذا كان الكرملين ما زال عازماً على إهدار مجهودات ومبالغ ضخمة فى علاقات لا تمنحه سوى مزايا محدودة والكثير من الصراع أم لا .

كانت هناك إثارة عظيمة فى موسكو للحفاظ على العلاقة ، ومن ثم أشار بريجينيف إلى أنه سوف يزور القاهرة ، وعاد السفراء المصريون من موسكو أقل إحباطاً .

غير أنه حينما أعلن السادات فى عام ١٩٧٦ عن إلغاء معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتى ، لم يكن هناك صراخ من العذاب من قبل موسكو ، كما لم تكن هناك محاولات يائسة للإبقاء عليها .

إنه ، منذ نهاية حرب أكتوبر تقريباً ، شعر السادات بأن ما فعله على صعيد الجبهة الداخلية أو على الصعيد العربى ليس كافياً للتواءم مع النصر العظيم الذى حققه .

ورغم الجدل الذى ثار بخصوص العبور الإسرائيلى للقناة عبر ثغرة الدفرسوار ، فإن عبوره للقناة فى بداية الحرب ، والاستيلاء على النقاط القوية على خط بارليف مثلا نصراً قيماً بالنسبة له بشهادة كيسنجر شخصياً ، وباعتراف الجنرالات والوزراء الإسرائيليين فإن عباءة عدم الهزيمة والقهر التى ارتدتها القوات الإسرائيلية مزقت ومع ذلك كان هناك رد فعل مغاير من قبل الناس الذين كانوا من المفترض أن يحتفلوا .. إن السادات دعا الممثل السينمائى المصرى المشهور عمر الشريف ليطرح عليه القيام بعمل فيلم ضخم لتجسيد النصر ، لكن لا شىء من هذا تم.

وفيما يتعلق بموقف السادات من منظمة التحرير الفلسطينية ، فإن الانطباع الذى ترسخ لدى إسحاق رابين هو أن السادات لم يتخل عن منظمة التحرير الفلسطينية . وأثناء لقائه بالملك حسين فى ١٩٧٤ بالإسكندرية أقنع الملك حسين بأنه ليس هناك خيار سوى أن يقبل بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطينى ، مستشهداً فى ذلك بمخرجات قمة الرباط .

وحينما التقى السادات بعرفات فى أكتوبر ١٩٧٤ طمأنه بالتأييد المصرى ، وأخبره بما تم بينه وبين الملك حسين ، ولكن عرفات انقلب عليه .. ففى أحد تصريحاته حاول عرفات أن يخلق مشكلة بين حكومة السادات والجيش المصرى ، حيث قال إن الجيش المصرى لن يقف ساكنا إذا رأى أن هناك ضرراً تتعرض له ثورة الفلسطينيين .

وهكذا أصبح السادات غاضباً من ياسر عرفات وكل قادة منظمة التحرير الفلسطينية ، إذ وجد من المحال فهم لماذا يهاجمه عرفات بهذه القسوة رغم أنه هو -أى السادات- استرد أراضى عربية متمثلة فى الممرات الإستراتيجية ، واسترد كذلك آبار البترول العربية ، وفوق ذلك أعاد فتح مصدر عظيم للعرب متمثلاً فى قناة السويس .

وقد أشار السادات إلى أنه على مدى ٥٠ عاماً لعن العرب الولايات المتحدة ولم يحصلوا على شىء أو يستردوا شيئاً .. بينما كان واضحاً بالنسبة له أن ٩٠٪ من كروت اللعبة فى أيدى الأمريكيين ، وأن العرب لن ينجزوا شيئاً بدون مساعدتهم .

وبناء على ذلك تحول غضب السادات من منظمة التحرير الفلسطينية إلى هياج خاصة بعد أن استمع إلى الافتراءات والشتائم الموجهة إليه من إذاعة منظمة التحرير بالقاهرة ، حيث اعتبر السادات أن ذلك إهانة مزدوجة ، فلا دولة -مثل مصر- قدمت مثل هذه التضحيات لمنظمة التحرير الفلسطينية ، أو كانت أكثر منها كرماً في استضافة زعمائها ، وأنه بدون الدعم المصرى لم يكن ليتأتى لها أن تكون جماعة مؤثرة ، وربما كانت قد وئدت فى مهدها .

ولذا أرسل السادات تحذيراً لعرفات بألا يسب الكرم المصرى ، وفشل .. فقام بإلغاء الجزء الذى كان يبث لهذه الإذاعة من القاهرة ، بينما لم يستطع أن يفعل شيئاً تجاه الجزء الذى كان يبث من بغداد ، مما ترتب عليه أن تصاعد القدح ضد السادات .. وسرعان ما تحولت الكلمات إلى أعمال إرهابية ، حيث قامت جماعة فتح بمهاجمة السفارة المصرية فى مدريد ، وأخذوا السفير واثنين من مساعديه رهائن وطالبوا باعتراف مصر بأن اتفاقية مصر الثانية لفصل القوات كانت خيانة للقضية العربية ، ولم يطلق سراح الرهائن إلا بعد أن وقعت بعض الحكومات العربية على إعلان ينتقدون فيه الاتفاقية .

إلا أن هذا الهجوم المادى والمعنوى بواسطة منظمة ياسر عرفات لم يدفع السادات إلى قطع علاقاته معها أو هجر القضية الفلسطينية ، كما عزا تطرف المنظمة إلى الإحباط الذى تعانيه ، ملقياً باللوم على إسرائيل وعدم مرونتها .

الفصل السادس عشر

مشاكل فى الداخل

إن ثمة معارك ساخنة دارت -وما زالت دائرة- حول ما إذا كان السادات قد نجح أم فشل فى سياساته السلمية ؟ ولم يدع حتى المقربون منه أن هذه السياسات قد ساهمت فى إتمام هدف تحويل الاقتصاد المصرى أو فى تحقيق حياة أفضل للملايين المتزايدة من شعبه .

ومع ذلك ، فإن فشل السادات بصورة تامة -كما ادعى منتقدوه- هو أمر مشكوك فيه ، لما ورثه من خسائر ناجمة عن سياسات ناصر الاشتراكية ، والتى تضمنت استبعاد معظم عناصر الدولة الإنتاجية .

ويذهب هيكل إلى أن سياسات السادات الاقتصادية لم تكن خاطئة فحسب ، وإنما أيضاً كانت دوماً سبباً فى الفساد . وقد عرض هيكل دعواه عرضاً جيداً ، مقيماً حجته على أن الفشل كان منبعه عدم التنظيم والسيطرة على دولارات البترول المتدفقة على مصر ، والسماح لأصحاب المشروعات عديمى الخلق بإساءة استخدام الحرية الممنوحة لهم فى ظل سياسة الانفتاح الاقتصادى ، وأن السادات دمر اقتصاد الدولة وساعد على انتشار المظاهرات فى الشوارع اتباع سياسات أجنبية . وأضاف هيكل أن نقود البترول العربى ذهبت للمحاسيب وإلى مشروعات معينة مثل إعادة بناء مدن القناة المدمرة ، وبدلاً من أن تكون الحياة التجارية والصناعية فى أيدى الدولة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ .. فإن القوة الآن آلت إلى مالكى العملات الأجنبية الذين أساءوا استخدامها ، وفوق ذلك فإن سياسة الانفتاح الجديدة قد فتحت الباب على مصراعيه للممولين ورجال الأعمال الأجانب للتغلغل فى الدولة ، كما كان فى عهد الخديوى إسماعيل ، الذى أفقر الدولة .

وطبقاً لرواية هيكل فإن مصر لم تتحول من الاقتصاد الموجه إلى اقتصاد السوق ، بل إلى اقتصاد السوبر ماركت .

ولا شك أن هيكل قد أثار نقطة حقيقية عندما أشار إلى أن نسبة لا تتعدى ٤٪ فقط من خريجى الجامعات هم الذين وجدوا فرصاً للعمل فى دولة وصفت - بواسطة

الاقتصادى والمالى الأمريكى ديفيد روكفلر - بأنها جاذبة لأموال العرب عبر ما هو متاح لها من قوة العمل المصرية والتكنولوجيا الأمريكية .

فالخريجون تحت حكم السادات عانوا بطالة مزمنة ، كما استفحلت أزمة السكن ، وازدادت معدلات الهجرة للخارج ، ومن ثم فإن مصر لم تفقد العديد من عمالها المهرة ومثقفيها فحسب ، بل وحتى فلاحيها ، حيث هاجر ما لا يقل عن مليون فلاح إلى العراق ، وحوالى ٢٥٠ ألفا إلى الأردن ، ومئات الآلاف إلى أجزاء أخرى من العالم العربى رغم ارتباطهم الوثيق بأراضيهم .

وهكذا انشطر المجتمع المصرى إلى القطط السمان والمتطفلين الذين يسيرون فى ركبهم من ناحية ، وبقية السكان من ناحية أخرى .

إلا أن الشىء الذى لم يذكره هيكل هو أن ما وعد به ناصر خريجى الجامعات كان لا يقبله عقل وغير واقعى ، ومن ثم كان لابد أن ينتهى فى عهد خليفته .

ورغم عبارات هيكل البراقة وانتقاداته الموضوعية لأجزاء من سياسة السادات فإنه -شأن الرافضين للرئيس- قدم تفسيراً جزئياً لهدف السادات وسياساته .

صحيح أن التفسير الكامل لا يبرىء السادات من الاتهام بأنه فشل فى تحويل اقتصاد الدولة بصورة كلية وترك أجزاء منها تضرب فى الفقر ، إلا أن الحقيقة التى لا يجانبها أدنى شك هى أن السادات حينما تولى القيادة كانت الحياة الاقتصادية مليئة على الأقل ببعض أسباب الفشل ، وليس من قبيل العدل أن نعزو الفشل كليةً إلى سياسة الانفتاح الاقتصادى .. كذلك ليس من قبيل العدل أن نستبعد عناصر أخرى أدت إلى إساءة تفسير المشكلة كالانفجار السكانى .. أيضاً حينما أصبح السادات رئيساً كان عليه أن يتعامل مع تركة محبطة ، فقد ترك له ناصر اقتصاداً مهموماً يعانى اتساع دائرة الفقر ، واستشراء الفساد البيروقراطى وتقادم وعدم كفاية الخدمات العامة ، والنقص فى الغذاء ، وفوق ذلك ، الزيادة الهائلة فى عدد السكان ، والتى بلغ معدلها مليون نسمة سنوياً .

وربما كانت فطرة المصريين الطيبة وسلبيتهم هما اللتين منعتا العنف الجماهيرى فى مناسبات عديدة ، فقط حينما خافت جماهير الأميين وأنصاف المتعلمين من أن معظم السلع الغذائية سوف تصبح غالية جداً بعد رفع الدعم ، تحرك العنف إلى شوارع القاهرة ، وعلى الفور تم تطويقه وأعيد الدعم ثانية .

الشىء الجدير بالملاحظة هو أن السادات لم تكن لديه دراية بالتخطيط الاقتصادى ، كما انتقد الاشتراكية والمعايير العشوائية ، وإن لم يكن قد حبذ الابتعاد كلية عما أرساه سلفه من سياسات .

ولقد كان واضحاً أن السادات يسعى إلى إحداث ثورة فى الحياة المصرية ، معولاً على إحداث تغييرات عميقة فى التكنولوجيا والاتصالات والقطاعات الأخرى .

وعلى خلاف ناصر ، لم يكن السادات منهمكاً فى الأيديولوجيا ، لكنه ارتأى هذه التغييرات جزءاً من استراتيجية حصيفة تحتاجها مصر على وجه السرعة .. وقد اقترح أفكاراً مختلفة عن تلك التى ركز عليها ناصر من حيث الثورة والاشتراكية ، كما رأى أن الضعف يكمن فيما يطلق عليه اشتراكية الدولة كما أظهرتها الممارسة السوفيتية والحالة الناصرية .. واعتقد السادات أنه بمنح القطاع الخاص دورا أكبر فى عجلة الاقتصاد ، فإن ذلك سيؤدى إلى إنقاذ الاقتصاد من مرضه ، ومن ثم يمنح التغييرات الثورية القوة الضرورية . وفى نفس الوقت ظل السادات يعتقد فى أن التخطيط من قبل الدولة يعد أداة قوية لاستمرار الثورة .. وفى هذا السياق أشار السادات إلى تجارب بعض الدول مثل أستراليا والسويد وبريطانيا .

وقد كان التحول الزراعى ذا مغزى خاص بالنسبة للسادات ، حيث حلم فى أن يرى أساليب الزراعة الحديثة تستخدم بصورة واسعة ، وقد ركز على مسقط رأسه قرية ميت أبو الكوم كأحدى القرى التى تستفيد من هذه التحولات ، لكنه لم يعش حتى يرى نتائج ذلك .

ونظراً لنقص خبرته الاقتصادية ، كان السادات دوماً يعتمد على خبرات مسئوليه ، ولكنه كان يبحث عن النماذج التى يجب على هؤلاء المسئولين اتباعها .

وبغض النظر عن النماذج الثلاثة المشار إليها سابقاً ، كان السادات معجباً بنموذج صديقه شاه إيران ، حيث رأى لديه ثروة كبيرة تم الحصول عليها من بيع البترول ، مما أدى إلى أن تصبح إيران قوة عسكرية ، وأن تحصل على تكنولوجيا حديثة بالتعاون مع الغرب ، ولا سيما الولايات المتحدة ، ورغم وعى السادات بأنه لا يمكنه امتلاك ما يشابه ثروة الشاه ، إلا أنه أمل فى أن مكانته كبطل عربى وكصديق للولايات المتحدة سوف تعينه على تدفق رءوس الأموال والتكنولوجيا ، الأمر الذى سوف يؤدى إلى إحداث التغييرات الثورية المنشودة .

وفى السياق ذاته ، كانت التكنولوجيا هى الأساس الذى يقطع دابر أمراض مصر ويدفعها إلى عصر جديد لدى السادات ، الذى وضع نصب عينيه الصين بعدد سكانها الضخم الذى يزداد بمعدل خيالى ، ومقدرتها على أن تصبح قوة عظمى منتجة للأسلحة النووية .

وفى تقدير السادات ، فإن الصين رغم كونها فقيرة إلا أنها ترسم الطريق لأى دولة ذات عدد سكان كبير لإطعام سكانها ، كما لم ترد تقارير عن أناس يموتون جوعاً فى الصين أو يعيشون فى ظروف طاحنة يمكن أن تؤدى إلى اندلاع ثورة .

وعلى خلاف القادة الصينيين فقد رأى السادات حاجة إلى منح شعبه قدراً أكبر من الحرية ، إذ شعر بعدم إمكانية بلوغ حرية اقتصادية أوسع دون منح الشعب قدراً من الديمقراطية ، لكن أفكار السادات عن الديمقراطية كانت فطرية أولية ، لكن ما كان يحتاجه الناس هو التأكيد على فرديتهم ، إن السادات كره رؤية الجماعات تتقابل وتطرح الحلول دون استشارته أولاً حتى ولو كانت مطالبهم تتماشى ورغباته .

وهكذا ثار السادات حينما وجه إليه عشر شخصيات من الاتحاد الاشتراكى العربى خطاباً يطالبونه فيه بالمزيد من الديمقراطية ، وكان أحد الموقعين على الخطاب دكتور مصطفى خليل الذى ولاه السادات رئاسة الوزراء فيما بعد ، فحينذاك قارن السادات هؤلاء العشرة بجماعة على صبرى الذين أزاحهم بفاعلية قبل سنة من

ذلك ، وتم استجواب الأعضاء العشرة والإصرار على أن شروحاتهم تخفى خططا مدمرة ، والعجيب أن السادات فى النهاية قبل بتوصياتهم المعتدلة .

وواقع الحال ، أن السادات أراد أن يرسى ممارسات اقتصادية غربية ، لكنه اعتقد بشدة أنه من الخطر بالنسبة لمصر أن تستفيد من النظام الديمقراطى الغربى .

ولكونه اكتسب شرعية بطولية ، كما اكتسب فخر واحترام الشعب المصرى ، فإنه اعتقد أن بإمكانه التصرف كأب يرى المعارضة ضرورية للنظام الديمقراطى ، لكن يجب أن تتم السيطرة عليها ، كما يجب أن يتم تقويض الانتقادات الموجهة للنظام .

وفوق ذلك فلأن السادات كان شخصاً طموحاً ، فإنه كان يعول على أن هدفه الأساسى هو إنقاذ شعبه وأن المنازعات السياسية يجب أن ينعكس تأثيرها فى المقام الأول لمصلحة الدولة .

وأشار السادات بازدراء إلى جماعات الضغط فى الدول الغربية ، لا سيما الموجودة بالولايات المتحدة ، حيث رأى السادات -فى الولايات المتحدة- الاستخدام الواسع لمبالغ مالية كبيرة لمصالح شخصية فى انتخابات الرئاسة ، كما اتهم اللوبى الصهيونى بالتأثير المرعب على النظام الأمريكى .

وهكذا رأى أنور السادات نفسه حاكماً حميداً أو ديكتاتوراً ، وقد لاحظ هنرى كيسنجر ذلك أثناء رحلاته المكوكية إلى الشرق الأوسط ، إذ وجد كيسنجر السادات يتصرف كما لو كانت لديه سلطات ديكتاتورية ، بينما وجد الرئيس السورى الأسد يراعى وجهات نظر رفاقه .. وكان هذا هو مناط البورتريه الذى ارتسمه هيكل للسادات ، والذى يقول السادات فيه " أنا وجمال آخر فراعنة مصر العظام " .

أيضاً قيل لجيمى كارتر إن السادات رأى أنه من الخطأ اعتباره خليفة لناصر حيث سلفه الحقيقى هو رمسيس الثانى ، كما كان يجب أن يصور من الجنب كرمسيس .

ولقد كانت لدى السادات نظرية شيقة عن الحرية -كما أشار إليها رفائيل إسرائيلى- مفادها أن كل جماعة لديها الحق فى التعبير عن نفسها ، ولكن هذا التعبير يجب أن يكون فى ظل الأطر التى ترتسمها الدولة ، وإلا فإن حرية التعبير سوف تؤدى إلى تحطيم سلطة الدولة والمعارضة غير القانونية للقيادة ، وليس أدل على ذلك من أنه حينما حدثت قلاقل الطلبة فى ١٩٧٢/١٩٧٣ هاجمهم السادات بمحاولة اغتصاب سلطة الدولة وزعزعة الوحدة الوطنية .. إنه اعتقد أنه بإعطائه حرية محدودة للتعبير وحصرها بعناية تجاه الأهداف القومية ، يمكن تلاشى التوترات الخطيرة .. لكنه وجد أن هناك قادة أوتوقراطيين فعلوها من قبله ، بيد أن أولئك الذين مُنِحوا هذه الحرية المحدودة لم يكونوا ممنونين ، وطالبوا بمزيد من الحرية ، وعندما لم يحصلوا على هذا المزيد أصبحوا معارضين وأكثر خطورة على النظام .

وفى ضوء ذلك كان السادات حساساً تجاه الانتقادات الغربية التى أشارت إلى عدم كفاية ديمقراطيته ، ولذا كان يرفضها ، زاعماً أن الحكم الديمقراطى الذى أسسه يعتبر شرعياً مثل أمثاله فى العالم ، كما أن جماعات الضغط التى تشوه الحياة الديمقراطية غير موجودة فى مصر .

وبتجريد الاتحاد الاشتراكى العربى من فاعليته شعر السادات بأنه أصبح يسيطر على معظم القوة السياسية فى الدولة ، كما اعتبر الشيوعيين آفة تهدد الاستقرار السياسى فى الدولة ، علاوة على أنهم عملاء للاتحاد السوفيتى .

ورغم أنه كان يسير فى الطريق الذى ارتسمه لإقامة حياة أفضل لشعبه ، إلا أنه لم يتمم السير فى هذا الطريق ، بل وصدم بمظاهرات عنف جماهيرية فى يناير ١٩٧٥ .. وقد بدا هذا التذمر أكثر التفافاً ، لأنه كان موجهاً ضد الرئيس نفسه أكثر من حكومته . لقد كان شعبه يهاجمه على نقص حاجياتهم من السلع الغذائية ، معبرين عن مخاوفهم من ارتفاع الأسعار .. وهكذا عُنِف السادات واستهزىء به من قبل المتظاهرين .. وكانت أكثر الأقوال ترديداً " يا بطل العبور .. أين إفطارنا ؟ ".

ولم يقبل السادات -المصدوم- بأنه : " هو أو حكومته يستحقون هذه التعزية ، إنه كان مقتنعاً بأن مثيرى الشغب -لا سيما من الشيوعيين- كانوا وراء هذه المظاهرات ، ولذا أمر وسائل الإعلام بأن تشن غارة ضدهم ، وقد أذعنت الصحف ، باستثناء واحدة أو اثنتين لذلك ، كما قام بتنحية رئيس الوزراء وتعيين ممدوح سالم ، وكان سالم رجل بوليس مشهورا بطرقه الغليظة فى فرض القانون . وأمل السادات أن يكون سالم قادراً على أن يكبح مجهودات مثيرى الشغب ... غير أن المشكلة أصبحت أكثر عمقاً ، حينما أضرب ٤٠ ألف عامل من عمال النسيج بالمحلة الكبرى ، وكانت هناك مصادمات مع البوليس ، كما هاجم العمال منازل رؤسائهم ونهبوا الكماليات الأجنبية المستوردة صارخين : " هذا هو ما يعيش فيه هؤلاء اللصوص ، بينما الشعب يتضور جوعاً " .

ورغم عدم اعتراف السادات بخلل السياسات ، فإنه شعر بضرورة محاولة الحصول على المزيد من رءوس الأموال لإعطاء الاقتصاد دفعة ، وهو الأمر الذى كان يؤجله يوماً بعد يوم .

وحينما مل تفاصيل التقدم الاقتصادى قرر فى ١٩٧٦ أن يتقرب من القوى الغنية -العربية والغربية- وحصل على برنامج مساعدة قوامه بليون دولار من الولايات المتحدة و بليونى دولار من دول الخليج ، (خصصت المساعدة الأمريكية فى سد نقص الغذاء لتهدئة الجماهير المصرية الجوعى ، بينما خصصت المنح الخليجية لإعادة بناء مدن السويس) .

ومن الغريب ، أن جماهير القاهرة الذين حاول السادات تهدئتهم كانوا غير راضين ، حيث منحهم السادات آمالا عريضة بطفرة اقتصادية عظيمة لم يروها من قبل ، بينما ظلت بطونهم تطالب بالمزيد من الطعام ، والذى لم يكونوا قادرين على شرائه كما لم يكونوا قادرين على فهم أن مصر تحتاج إلى سنوات عديدة ومجهودات غير منقطعة ومساعدات اقتصادية قبل أن يتم إرساء البنية الاقتصادية ، إنهم تمنوا

حلولاً وقتية ، مما جعل الحلول طويلة الأجل صعبة الإنجاز .. كما إنهم لم يكونوا مقتنعين بانتصارات السادات الخارجية ، ورحلاته إلى الولايات المتحدة وأوروبا ولا باتفاقية فصل القوات الثانية مع إسرائيل ولا باستعادة آبار البترول ، ولا باستعادة معظم رمال سيناء .. وهكذا لم يعد بطل العبور هو بطل شوارع القاهرة .

وخشية أن يتم توجيه الاتهام إلى السادات بأنه تابع للأمريكيين وأنه يبيع مصر لهم -كما اتهمه هيكل بذلك فعلاً- قرر السادات أن لديه فرصة نادرة لتقوية اقتصاد مصر ، رافضاً الرأى القائل بأنه يعتمد كلية على الأمريكيين ، ومؤكداً أن إخواته العرب هم الأكثر منحا .

لقد كانت لدى السادات أمنية أرادها لمصر ، تتمثل فى اقتصاد رائج وشعب يأكل جيداً ، ويلبس جيداً ، ومثقف جيداً .. كذلك تحدث السادات عن ضرورة تطوير طرق التعليم والثقافة على كل المستويات بداية بمحو الأمية ونهاية بتحقيق مستويات عالية من التعليم الأكاديمى والبحث العلمى والتكنولوجى .. وأعلن أن مصر يجب أن تحرر نفسها من ثوبها الضيق عبر وضع برنامج تعليمى لكل المراحل التعليمية المختلفة ليتواءم والأوضاع الدولية المحيطة بها .

أيضاً كان تحرير المرأة أحد الأهداف التى تمنى السادات إنجازها ، لكنه أدرك أن تحقيق هذا الهدف وغيره من الأهداف مثل تحقيق ظروف أفضل للشباب ، وبناء مساكن أفضل ، والقيام بعمل التسهيلات الصحية المناسبة .. كلها أهداف لا يمكن تحقيقها فى المدن ذات الكثافة السكانية العالية .

وعلى صعيد آخر ، تمنى السادات أن تبذل مجهودات عظيمة فى استصلاح الصحارى المصرية ، مؤكداً أنه لو عاش الـ٣٥ مليون مصرى -ارتفع الرقم حوالى ١٠ ملايين خلال عقد- على مساحة ٣٪ من الإقليم المصرى ، فلا يمكن أن يتوقعوا ظروفاً مرضية .

ولا شك أن الموقف كان محبطاً فى القاهرة ، حيث جاء الآلاف من الأقاليم بحثاً عن السكن والعمل ، وكلاهما لم يكن متاحاً كما ظهرت مدينة الأموات على ضواحى

القاهرة ، حيث يقطن عدد كبير من الناس القبور جنبا إلى جنب مع الأموات ، يستخدمون أحجار القبور كمناضد وأسرة .

وعلى صعيد ثالث ، رفض السادات بصورة مطلقة التصور القائل بأن الأجانب يستفيدون من سياسة الانفتاح الاقتصادى بصورة أكثر من المصريين ، معلنا أن كل ما يريده لسياسة الانفتاح الاقتصادى هو حراس أمن ، إذ يقول :

" أنا لن أصادر الاستثمارات الأجنبية ، والمستثمرون قادرون على أخذ أموالهم للخارج بعد أن استقبلنا نصفها ، لكن إذا أرادوا أن يأخذوا جزءاً من هذا النصف للخارج فهم أحرار فى القيام بذلك .. فى تقديرى فإن التعقيدات التى تنتمى للأجانب والاحتلال الأجنبى منذ ١٩٥٢ لم تعد صحيحة .. فالأجانب الآن يأتون للعمل من أجلى ومن أجل تكنولوجيتى . وماداموا يعملون بفاعلية فإن كل شىء سيكون على ما يرام ، وإلا فسوف أعطيهم أموالهم وأريهم الطريق للخارج . قبل الثورة كان البريطانيون هنا وتغلغل رأس المال فى كل شىء .. حكومتنا أطاعت الرأسمالية ، سواء تمثلت فى الملك أو فى البريطانيين .. والآن من يستطيع إعطائى الأوامر ، الله فقط .. لذلك سياسة الانفتاح سوف تسهل نقل دمائنا الجديدة ، التى سوف تساعدنا على ألا تنزلق أقدامنا " .

وفى هذه النقطة لم يسلم السادات من النقد ، إذ أعطى هيكل انطباعاً بأن السادات استسلم للفساد الذى نبع من سياسة الانفتاح الاقتصادى ، وأنه كان بعيداً عن محاربة هذا الفساد الداخلى ، على خلاف ما حدث فى الفترة الذهبية لناصر . وواقع الأمر إن السادات لم يكن رافضاً الحصول على مزايا شخصية من حكمه الأوتوقراطى ، ومع ذلك فهناك دليل على أن السادات كان متوجسياً من الفساد الذى أحاط به ، والذى لم ركن جديداً ، وإنما كان مستشرياً من جراء حرية تدفق رؤوس الأموال من الخارج ، ومع عدم الضبط كانت هناك عصابة أساءت استخدام الأرصدة ، كما أن المموليين الأجانب استخدموا مهاراتهم لتعطيل ما قصد به أن يكون قواعد محكمة .

وبمرور الوقت ، ورغم كل هذه المجهودات فلم تلحظ أية تحسينات على الاقتصاد المصرى ، وظلت حياة المصريين فى المدن والقرى قاسية ، ومن ثم بدأ السادات يتشكك ، كما اعترف بأن هناك أشياء خطأ وأنه لا يوجد إنسان معصوم من الخطأ ، وهو إنسان .

اعترف كذلك بأن العديد من سياساته الاقتصادية والاجتماعية كانت خاطئة وأنها لم تحقق النتائج المرجوة منها ، ولكنه رد ذلك إلى عبء الديون السوفيتية والتى عرقلت قراراته للإصلاح الاقتصادى .

اعترف السادات أيضا بأن مصر ليست فى حالة جيدة ، وأنه لا يستطيع أن يؤكد لشعبه أن هذه المسائل سيتم تصحيحها خلال عام .

وببعض من التبرير أدان السادات ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية فى الأسواق العالمية ، لكونها ساهمت فى زيادة قروض الدولة ، لعدم توافر أثمانها من العملات الصعبة محلياً .

ومن أبرز الأمثلة الدالة على سوء الإدراك والوعى ، أن السادات اعتقد أن العجز فى الميزانية يبلغ ٤ بلايين دولار ، وبالتالى يمكن تغطيته من خلال القروض الأجنبية والمنح .. غير أنه اكتشف أن العجز الحقيقى يبلغ ٤ بلايين جنيه استرلينى ، وهو ما لم تكن مصر قادرة على تغطيته . وقد علق السادات على ذلك قائلاً : " إن الاقتصاد المصرى يشبه ذلك الرجل الذى يبدو ذا صحة ، ولكن لا يوجد دم يجرى فى شرايينه ، ولذا فهو يحتاج إلى نقل دم يمنع موته " .

وكان النقص فى الثقة تجاه المسئولين الرسميين دافعاً لأن يتجه السادات إلى دعوة خبراء أجانب ، وفى نفس الوقت قام بعدة رحلات مهمة وشاقة إلى دول عربية وغربية لرفع الأرصدة .

إلا أن الشىء الجوهرى الذى نبه إليه السادات هو أن تحويل الدولة سوف يحتاج إلى عدد من السنوات ، وفى نفس الوقت يجب أن يكون هناك حزم ، معلناً إنه إذا لم تنمو الدولة بصورة لائقة فإن مصر وكل العرب سيعزلون وسيبقون متخلفين ،

وينتهى بهم الحـال كهنود أمريكا " سوف نفقد أراضينا ومنازلنا ، وسوف تعاملنا إسرائيل كما تعامل أمريكا هنودها " .

وفيما يتعلق بمدينة القاهرة ، فقد رأى السادات أنها مثال صارخ لسوء التخطيط ، وعدم التحكم فى الهجرة الداخلية ، بما يمكن أن يدمر دولة مصر .. مضيفاً أن المدينة بها منازل لحوالى مليونين فقط ، لكنها بها الآن -أثناء قول السادات هذا الكلام- حوالى عشرة ملايين يعيش معظمهم فى ظروف صعبة ، حيث يشحن النقل العام ما يزيد على طاقته ، والنظام التليفونى يعمل بصعوبة بالغة ، ونظام الصرف الصحى خطير وغير مناسب ، وكذا شبكات المياه ، لدرجة أنه كانت توجد فتحات بالطرق وسط القاهرة ، أيضاً إشارات المرور كانت عشوائية وخارجة عن دائرة التنظيم مع جهل السائقين بها .. لذلك حلم السادات فى أن يجعل القاهرة مدينة جميلة ، إلا إنه سرعان ما أدرك أنه حلم لن يتحقق سوى فى المستقبل البعيد جداً .

ومن الجدير بالذكر أن السادات - محتذياً بتجربة ألمانيا الغربية التى انطلقت من دمار الحرب العالمية الثانية لتصبح واحدة من أغنى الدول - وجه نداء إلى المصريين للقيام بمبادرات شخصية ، وألا يعتمدوا على الدولة دائماً ، مثيراً حفيظتهم بأن مصر كانت واحدة من أعظم الإمبراطوريات الزراعية فى العالم ، والتى لم تكن تنتج غذاء لشعبها فحسب ، وإنما لشعوب أخرى من العالم ، وها هى مضطرة إلى استيراد كميات كبيرة من الغذاء من الخارج وبالعملة الصعبة .. مشيراً إلى أن المصريين قادرون على زراعة الخضراوات وبعض الأطعمة الأساسية بسهولة مثلما هم قادرون على تربية الدواجن ، ومتجاهلاً بازدراء تصريحات الأجانب المثيرة ، تحديداً تصريحات القذافى الذى قال إن " مصر جائعة فى ظل السادات " .

وأخيراً فيما يتعلق بالاتهام الذى وجه إلى السادات بأن البنوك الأجنبية ستحصل على مزايا عديدة ، أشار السادات إلى أن البنوك تلعب دوراً محدوداً فى المعجزة الاقتصادية بألمانيا الغربية ، وأن مبادرة البنوك بإقراض مصر مبالغ كبيرة

لإعادة التعمير تعتبر أساسية ، وأنه سوف يتولى بنفسه توجيه الاقتصاد ، ووصل الأمر إلى أن يراقب السادات بنفسه (١٩٧٦) مشروعات خطته الخمسية بصورة غير منقطعة ، حيث كان يطير بهليكوبتر باستمرار إلى مواقع البناء ، ويتحدث إلى العمال والمديرين ويمنحهم النصيحة .. كذلك كان سعيداً بصداقته لكل من ديفيد ونيلسون روكفلر - الرجل رقم واحد فى بنك مانهاتن ، وديفيد مكمارا - رئيس البنك الدولى - مؤكداً أنه بدون هذه الصداقة فلن يكونوا متعاونين مع مصر بهذه الدرجة ، خاصة أن رؤيته للشفاء الاقتصادى لم تنهض من أجل المستقبل القريب ، وإنما إلى أبعد من ذلك ، حيث عام ١٩٨٠ .

الفصل السابع عشر

الخطوات الأولى للسلام

إن قرار أنور السادات بكسر الحاجز النفسى بين العرب وإسرائيل ، والسفر مباشرة إلى القدس ، والتحدث مباشرة إلى الشعب الإسرائيلى لم يأت فجأة ، ولم يكن وليداً لليأس ، ولم يكن كذلك وليد لحظة براقة من الطموح والتطلع .

ورغم أن هذا القرار قد يكون بدا بهذا الشكل ، سواء بالنسبة له أو للمعجبين به أو حتى للمقللين من شأنه ، فإن الحقيقة على خلاف هذا تماماً ، حيث يعتبر القرار نتاجاً لعناء سنوات عديدة من المداولات الخاصة واختبار عذاب النفس .. كما أن السلوك والطريقة اللذين اتبعهما فى مبادرته المدهشة هما أدق مثالين على شخصيته الدراماتيكية التى تتجسد فى الممثل الجسور ، الإنسان ، المبتكر ، البناء ، القائد ، موضع الثقة ، الشجاع المبدع لأفكار جديدة .

وقد كشف هذا القرار نفاد صبره وازدرائه للقادة العرب الذين رفضوا اتباع خطواته نتيجة لخوفهم وجهلهم وعدم تقديرهم لجسارته ، التى لولاها ما كان أنجز شيئاً .

على أن نقاده الرئيسيين من أمثال هيكل يرون أسبابا مختلفة لرحلته إلى القدس ، إذ يذهب هيكل إلى أن هذه الرحلة كان وراءها سببان .. أولهما : هو يأس السادات من المظاهرات العنيفة التى اندلعت ضده ، والذى دفعه لأن يحول انتباه شعبه عن الورطة الاقتصادية . وثانيهما : يتمثل فى رغبة السادات فى الارتباط بالمعسكر الغربى ، والاستمرار فى الطريق الذى بدأه مع صديقه الجديد هنرى كيسنجر ، إلا أن هذا ليس مقنعا .

والذى لا شك فيه أن العامل الاقتصادى كان فى تفكير السادات ، لا سيما وأنه كان على وعى دائم بإمكانية توجيه المبالغ الضخمة التى تستخدم فى شراء الأسلحة إلى تحسين الزراعة ودفع الثورة التكنولوجية بالدولة .

وقبل ذلك بعامين ، وتحديداً فى أغسطس ١٩٧٤ ، قام السادات بما يمكن اعتباره الرابط العام الأول بين تحسين الاقتصاد وإحراز السلام .. ورغم عدم معرفة

أعضاء الكونجرس الأمريكى الذين استمعوا إليه أى أنواع السلام يريد ، إلا إنه من خلال تصريحاته وتلميحاته بدا واضحاً أن الخط الخارجى لخطته الجريئة قد اكتمل بالفعل فى عقله .

إن السادات كان على وعى -شأنه شأن اقتصادى عالمى مثل ديفيد روكفلر- بأن مصر لا تزال رسمياً فى حالة حرب مع إسرائيل مع إمكانية اندلاع المعركة ، ليس كل شهر أو سنة فحسب ، وإنما كل دقيقة ، ومن ثم فإن الدولة تعتبر منطقة خطر وليست منطقة جذب لمعظم المستثمرين الأجانب ، وأنهم حال عودتهم سيسحبون ويطلبون مبالغ طائلة لا تقوى مصر على تحملها .. غير أن منتقدى السادات يتعللون بأنه أمد المستثمرين الأجانب بتسهيلات جاذبة للاستثمار بصورة أفضل من المتاح لشعبه وطبقاً لوزير المالية ، فقد عاد الاقتصاد المصرى إلى ما كان عليه قبل ثورة ١٩٥٢ ، أشبه بالبقرة التى ترعى الكلأ فى مصر ، بينما يذهب ضرعها للخارج .

وفى الواقع ليس هناك دليل بين يؤيد وجهة النظر هذه ، فالموقف -بوجه عام- وإن كان يشتمل على بعض الأمثلة من عدم العدل ، فإن السادات كانت تتنازعه عدة رغبات ، فقد تمنى بشدة أن يعيد بناء دولته ليرى المدن المحطمة حية مرة ثانية ، ويشاهد قناة السويس زاخرة بالسفن ، ويستثمر المبالغ الضخمة من الدولارات ، التى حصل عليها من العرب الأغنياء والأمريكيين فى التكنولوجيا الحديثة . وفى نفس الوقت كان السادات قلقاً من أن كل مجهودات إعادة البناء سوف تنتهى للاشىء لو اندلعت حرباً أخرى ، وأن السلام الدائم وحده وعدم التهديد المستمر بالحرب -مع دولة فتية تزخر بمصانعها وبيوتها وبنيتها الأساسية- هو المقياس الحقيقى للنصر . إن ماضى مصر المجيد وحضارتها التى تؤول إلى أكثر من ٧ آلاف سنة هى التى حفزت السادات ، وليس دوره المفترض كفرعون حديث .

وقد تحدث السادات باحتقار عن القادة العرب الجهلة المتعجرفين الذين كانت دولهم لا شىء سوى صحراء معزولة حتى اكتشفت الثروات البترولية مصادفة .

والحقيقة ، أنه لا العالم العربى ولا الاتحاد السوفيتى منحوه أى أمل بأنهم سوف يساعدونه على تحقيق حياة أفضل لشعبه ، حيث إن سوء تفاهمه مع القادة السوفييت والنظام السوفيتى قد بلغ مرحلة أضحى معها الرجوع إليهم يجعله يستشيط غضباً . وعلى الصعيد العربى كان السادات مرتاباً فى الرئيس السورى حافظ الأسد لمحاولته خداعه باستعادة مرتفعات الجولان عبر مساعدة الاتحاد السوفيتى ، بعد أن خاضت مصر معظم المعركة وجابهت معظم الكوارث . كذلك اتهم العقيد القذافى بخيانة مصر فى عدم وفائه بوعده بإرسال البترول وقطع الغيار للطائرات الحربية .. أما الملك حسين ، ملك الأردن ، فقد كانت لدى السادات مشاعر مختلفة تجاهه جعلت من المحال التعاون معه ، إذ اعتقد السادات أن الملك حسين لا يمكن الوثوق به لكونه ماكرا للغاية ، لدرجة أنه يمكن أن يغير رأيه عدة مرات ، وأخيرا لم يكن السادات يفهم لماذا لا تزال القوى الغربية ، لا سيما بريطانيا ، ترى الملك حسين كشخص شجاع ؟ ! بينما أبدى السادات نوعاً من الاحترام لصدق وشجاعة ياسر عرفات قائد منظمة التحرير الفلسطينية التى كان مقرها بالقاهرة ، والذى كان يلتقى به من وقت لآخر . وذكر السادات أنه خلال إحدى زيارات الأمير السعودى فهد -قبل أن يصبح ملكاً- إلى واشنطن أخبر الرئيس كارتر أن عرفات وافق على قبول قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، والذى يعترف بحق إسرائيل فى الوجود داخل حدود آمنة . وأضاف فهد : هذا هو توقيع عرفات على هذه الوثيقة المكتوبة للدلالة على ذلك . وفى اليوم التالى ، وقف ياسر عرفات معلناً أنه لم يقبل القرار ٢٤٢ ، وأنه لم يتحدث إلى الأمير فهد فى هذا الموضوع ، وكان الأمير فهد هائجاً جداً ، وحال عودته إلى المملكة العربية السعودية أدان بشدة منظمة التحرير الفلسطينية ، مشيراً إلى الوثيقة التى تم التوقيع عليها .

وفى تعليقه على هذا الحادث قرر السادات أن الأمير فهد أدرك من قبل كيف يتعامل مع عرفات ومؤيديه ، ويضيف (لسوء الحظ لم أتبع هذا الإجراء أبداً فى تعاملاتى مع عرفات .. فأعضاء المنظمة يجلسون معى ويطرحون شئونهم وحلولهم ، ولكن بمجرد أن أعلن عنها ينكرون متهربين أنهم فعلوا شيئاً من مثل هذا القبيل) .

وبخصوص الملك فيصل ، فإن اغتياله أفقد السادات الشخص العربي الوحيد ، الذى لم يكن السادات يحترمه فحسب ، وإنما كان يعد لأن يأخذ بمشورته قبل الرحلة إلى القدس ، بما يدل على أن السادات لم يعزل العملية السلمية برمتها ، بل أعد لها بعناية وأخذ بنصيحة مستشاريه المقربين على الأقل .

المهم ، أن السادات رد بداية مبادرة السلام إلى تلك الزيارة التى قام بها إلى الرئيس الأمريكى الجديد المنتخب جيمى كارتر .. ولا شك أنه كان هناك فهم متبادل بين ابن مزارع الفول السودانى ، المتأثر بالتوراة ، والمتدين بعمق ، والجاد .. وبين صبى القرية السابق خلال فترة زمنية وجيزة ، حتى أن كارتر اعتبر السادات صديقاً حميماً ، متجاهلاً انتقادات رجال الصحافة .. كما كان مفتوناً بما أبداه السادات من تنازلات فى سبيل تقدم أية مفاوضات ، مقارنة بالانطباع الذى أخذه كارتر عن عدم مرونة الإسرائيليين أمثال رابين وديان وبيجين ، ذلك الشعور الذى وجده السادات لديه بشجاعته وأمانته ، والغريب هنا أن كارتر اعتقد أن بيجين لديه نفس الرؤية من حيث عدم المرونة .

دعا كارتر السادات إلى واشنطن فى فبراير ١٩٧٧ ، وكان موضوع المحادثات ليس النزاع المصرى -الإسرائيلى فحسب وإنما الصراع العربى - الإسرائيلى ، وقبل ذلك كانت هناك ثلاثة نقاط - طبقاً لرواية السادات هى :

١- مشكلة الأراضى العربية المحتلة فى حرب ١٩٦٧ .

٢- العلاقات بين العرب والإسرائيليين .

٣- القضية الفلسطينية ، التى يعتبرها العرب أساس كل المشاكل الأخرى .

كذلك أضاف السادات بنفسه بنداً آخر إلى الأجندة يتمثل فى الموقف فى لبنان ، والحرب الأهلية التى اندلعت هناك ، مع العديد من الاستنتاجات .

وقد زعم السادات أنه وكارتر لم يختلفا على الأراضى المغتصبة بواسطة إسرائيل وإنما اختلفا حول قضية العلاقات بين العرب والإسرائيليين .. ، سأل السادات كارتر : كيف تطلب منا أن نقيم علاقات طبيعية مع الإسرائيليين فى الوقت الذى ما زالوا يحتلون فيه أراضينا ؟ وأضاف أن إسرائيل تريد تطبيع العلاقات قبل التوصل إلى اتفاقية انسحاب لتبرير الاحتلال واستمراره ، كما أنهم يتذرعون بحجة الأمن الإسرائيلى لاحتلال أراضى الآخرين ، وقد جاءت حرب أكتوبر لتكذيب نظرية الأمن الإسرائيلى ، ولهذا السبب جاء الإسرائيليون بعذر جديد يتمثل فى الدعوة إلى إقامة علاقات طبيعية مع العرب قبل أن يوافقوا على الانسحاب .. وأضاف : ليس من المقبول أن يطلب الإسرائيليون منا تطبيع العلاقات قبل إنهاء الاحتلال ووضع جدول زمنى محدد بمراحل إتمام الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى العربية .. فالحديث عن تطبيع العلاقات . بينما الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية مستمر هو أمر لا يقبله أى عاقل عربى ، واستغرقت مناقشة هذه النقطة فترة زمنية طويلة ولكنهما -أى كارتر والسادات- فشلا فى التوصل إلى اتفاق ، وقد قرر السادات أن كارتر فشل فى إقناعه بمصداقية وجهة نظره فى هذه النقطة ، ومع ذلك شعر السادات بأن هذه الزيارة إلى واشنطن كانت مهمة جداً ، حيث تعهد الرجلان بالعمل سويا لحل الصراع العربى- الإسرائيلى ، ويذكر السادات أن كارتر قال له (لن نفقد الأمل على الإطلاق ، وسوف نجد حلاً لكل مشكلة قابلناها .. المهم أن نكون على اتصال ليبلغ كلانا الآخر بما يستجد من وجهات نظر ، وبما يتخذ من خطوات) .

ومن ثم شعر السادات بأن كارتر كان ودوداً فى تعهده ، وأنه أراد أن يساهم بأمانة وإخلاص فى التوصل إلى حل عادل ومقبول لدى كل الأطراف . وأشار السادات إلى أن الرئيس كارتر كان أول رئيس أمريكى نادى بصورة غير منقطعة بحق الشعب الفلسطينى فى أن يكون له وطن قومى ، تلك الدعوة التى أشعلت غضب القادة الإسرائيليين .. واستمر السادات فى زعمه بأن كارتر تعرض لسخط وكراهية الصهيونية العالمية التى فعلت كل ما فى وسعها لتدميره .. وكان مفهوماً لدى كارتر

أنه يواجه بعداوة الصهاينة والإسرائيليين ، وقد علق السادات على ذلك بحدة قائلا : إن الشيء غير المفهوم هو معاداة العرب للرئيس الأمريكى الذى طالب بوطن قومى للشعب الفلسطينى .

وطبقاً لما قاله السادات فقد تلقى كارتر نفس المعاملة من السوريين ، الذين أتعبوه وضللوه ، ففى البداية اتفقوا معه على أن العرب سوف يحضرون مؤتمر جينف للسلام وسوف يتعاملون مع إسرائيل كوفد واحد وليس كمجموعات منفصلة كما طلبت إسرائيل ، وحينما سأل كارتر السادات عن رأيه رد عليه السادات -الوعى بالحيل التى أدمنها السوريون- بأنه يرفض الاقتراح ، لأن وفداً واحداً لن ينجز شيئاً ، وسيتحول المؤتمر إلى مزاد لا نهاية له ..

وقد حاول كارتر – مدفوعاً بالرغبة الطيبة وعدم فهمه للتعقيدات الدبلوماسية بالشرق الأوسط – أن يقنع السادات بوجهة النظر السورية ، وتعتبر ملاحظة كارتر فى جدول أعماله اليومى بأن الفكرة السورية بتمثيل التحالف العربى لمنظمة التحرير الفلسطينية هى خطوة لاحقة ، تعتبر أحد الأمثلة الدالة على أنه كان بعيداً عن فهم أهداف الأسد .

وقد علق كارتر بأنها ميزة للفلسطينيين إذا ذهب العرب للمؤتمر فى تحالف واحد ، حيث ستتاح للفلسطينيين فرصة المشاركة دون اعتراض إسرائيلى على حضور الممثلين الفلسطينيين ، لكنهم إذا ذهبوا منفردين فسوف يعترض الإسرائيليون على ذلك .

ورغم معرفته الجيدة والكاملة بأنها مناورة أخرى من المناورات السورية ، وافق السادات على طلب كارتر ، كما تمنى أن يساعده ، بينما كان السوريون الذين لم يتوقعوا على الإطلاق أن اقتراحهم سيتم قبوله مرتبكين ، وبحثوا عن ذرائع أخرى لرفض حضور المؤتمر .. ومرة أخرى كسر السوريون الصف العربى ، أما كارتر الذى تم تضليله فقد أظهر استياءه من أنه لم يقابل على الإطلاق دبلوماسيين أجانب

متقلبين وغير موثوق بهم مثل السوريين .. وقد علق السادات على ذلك بأن كارتر توقع أن يكون السوريون عند كلمتهم ، لكنه رجع عن ذلك حينما وجد أن للسوريين ألف كلمة ، وأن ما وافقوا عليه اليوم يرفضونه فى اليوم التالى ، ثم يعودون ويقبلونه ثانية .. وهكذا .

ولحيرته التامة ، أرسل كارتر رسالة شخصية إلى السادات كتبها بخط يده عبر وسيط خاص لم تعرف السفارة الأمريكية بالقاهرة ، ولا السفارة المصرية بواشنطن عنها شيئاً .

وفى هذه الرسالة الحزينة اعترف كارتر بحيرته أمام هذه الخدع السياسية التى لم يفهم الهدف منها ، وأنه كان يعمل باهتمام من أجل إيجاد حل للمشكلة ، وتخيل أن مجهوداته سوف تتيح له إمكانية إشراك كل الأطراف المعنية ، وأنه لذلك مندهش من الخداع ، وأن التعقيد تركه فى حيرة كاملة .

بيد أن السادات طمأنه بأنه ما زال عاقداً العزم على ما تعاهدا عليه أثناء زيارته للبيت الأبيض مؤكداً (سوف نجد الحل الذى لن يخرجنا من هذه الدائرة الفاسدة التى يحاولون تكتيفنا داخلها فحسب ، وإنما أيضا سوف نصل إلى حل للصراع العربى – الإسرائيلى) .

ويعترف السادات بأنه حينما كتب هذه الكلمات لم يكن فى ذهنه أى فكرة عن شكل هذا السلام ، وأن كل ما كان لديه نوايا طيبة مقترنة بما ينشده من حل حاسم .

وفى ظل هذا الجو من الحيرة الغربية والتشتت العربى بدأ أنور السادات يرسم استراتيجية الانطلاق إلى السلام مع إسرائيل .

أدرك السادات أنه مقدم على عمل معقد ، إذ كان لزاماً عليه أن يكسر الحواجز النفسية ، وربما يساء فهمه ويسب . كان متأكداً من ذلك ، لكنه علم أيضاً أنه لا

يمكنه الاعتماد على أى فرد آخر ، وأنه إذا أراد الإبقاء على عنصر المفاجأة والدراما فإن عليه أن يحتفظ بأفكاره لنفسه .

وهكذا كانت الفكرة الأولى لدى السادات أن يدعو إلى اجتماع للخمسة الكبار (الولايات المتحدة – الاتحاد السوفيتى – الصين – بريطانيا – فرنسا) بالقدس ، حيث إن هؤلاء الخمسة الكبار سوف يكفلون السلام والأمن للإسرائيليين والعرب ، ومع ذلك قرر السادات ألا يتبع هذه الخطة ، حيث أدرك أن بريجينيف سيكون بين الخمسة ، ورغم إمكانية اعتباره صديقاً ورجلاً معقولاً – على خلاف بعض القادة السوفييت الآخرين – إلا أنه فى نفس الوقت كان حليفاً للسوريين والفلسطينيين بنفس الدرجة من الصداقة ولن يكون قادراً على اتخاذ موقف إيجابى .. وعلاوة على ذلك كان السادات مرتاباً من أن بريجينيف لن يسامحه على تشويه صورة الاتحاد السوفيتى بطرده للخبراء السوفييت (رغم ما يكتنف موضوع الطرد من ملابسات) .

والاعتبار الثانى تمثل فى عدم التأكد من موقف الصين الشيوعية ، صحيح أن الصين ساندت بصورة كلية القضية العربية ، لكن سياساتها فى الأمم المتحدة لا يمكن التنبؤ بها دوماً ، وقد خاف السادات أن ترفض المشاركة فى قمة القدس ، كما ترفض حضور اجتماعات مجلس الأمن الدولى .

أما الاعتبار الثالث فى عدم التعويل على خطة القدس ، فقد تمثل فى أن رؤساء تلك الدول لن يكونوا قادرين على أن يقضوا شهوراً فى العمل على حل مشكلة الشرق الأوسط ، كما أوضح ذلك لاحقاً الرئيس الأمريكى جيمى كارتر .

وبإقلاعه عن هذه الخطة اتجه تفكير السادات إلى مناحم بيجن رئيس الوزراء الإسرائيلى وزعيم الجناح اليمينى لتجمع الليكود ، والذى فاز بانتخابات غاية فى الحساسية ، مزيحاً بذلك حزب العمل الذى كان ممسكاً بالسلطة منذ قيام الدولة عام ١٩٤٨ .

وكانت الحقيقة التى يعرفها السادات أن بيجن هو أحد المدافعين عن الإبقاء على الأراضى المتنازع عليها ، خاصة الضفة الغربية ، بوصفها جزءاً لا يمكن فصله عن دولة إسرائيل .

وحينما سئل السادات عن رأيه فى بيجن بعد صدمة الانتخابات ، أجاب بأنه لا يوجد فارق بين بيجن ورابين وجولدا مائير أو أى شخص آخر منتخب بواسطة الشعب الإسرائيلى .

ولدهشته من هذه الإجابة ، اقترح محمد إبراهيم كامل -السفير المصرى فى بون حينذاك- على السادات بألا يكون محدداً فى رده ، خاصة منذ أن نادى حزب بيجن فى برنامجه بإسرائيل الكبرى ، لابتلاع ما تبقى من فلسطين ، وظل كامل يذكر السادات بأن بيجن نفسه متطرف وإرهابى مسئول عن مذبحة دير ياسين ، ورد عليه السادات بأن كل الإسرائيليين متشابهون ، وهو التعميم الذى لم يقبله كامل .

وبالنسبة للسادات كانت هناك اعتبارات أخرى ، إذ كان ساخطاً وغاضباً من اتجاه اسحاق رابين أثناء اتفاقية فصل القوات الثانية ، وإلى حد ما ترسخ لدى السادات اعتقاد بأن رابين كان رجلاً ضعيفاً ، وكان غير قادر على اتخاذ قرار . وزاد هذا الاعتقاد لدى السادات حينما قدم رابين استقالته من رئاسة الوزراء .

لقد أساء السادات تقدير رابين كما أثبتت الأحداث ذلك لاحقاً ، حيث عاود رابين الظهور ليدافع عن خليفة بيجن - إسحاق شامير - من خلال التوقيع على اتفاقية تاريخية مع ياسر عرفات .

علم السادات أن بيجن كان يخطط لزيارة رومانيا لإجراء محادثات مع نيكولاى شاوشيسكو ، ولحسن الحظ فإن السادات كان يعتبر شاوشيسكو أحد أصدقائه المقربين ، كما أنه أيضا كان أحد أصدقاء ناصر ، الذى حثه على أن يأخذ دوراً فى الوساطة مع إسرائيل ، وكان إصراره محيراً لناصر الذى قال له : (فلتذهب أنت وتتحدث إلى الإسرائيليين بدلاً منى) .

وحينما خلف السادات " ناصر " كرر شاوشيسكو عرض الوساطة ، كما نصح السادات بأن يتفاوض مباشرة مع الإسرائيليين ، وفي كل مرة كان السادات يعتذر متعللاً بأن الوقت لا يزال غير مناسب لمثل هذه الخطوة .

وباسترجاعه اقتراحات الزعيم الروماني المتكررة ، خطرت فكرة حل الصراع العربي – الإسرائيلي للسادات ، إذ تذكر كيف أن بيجن تحدى العرب على الدوام بقوله : (أيها العرب إن لديكم مشكلة معنا .. أراضيكم في حيازتنا وأنتم لديكم حقوق تتحدثون دائماً عنها وتطالبون بها ، كيف يمكنكم إذن استعادتها بدون المجيء والجلوس معنا حول مائدة التفاوض) .

ووجد السادات كذلك أن هذا هو السؤال الذي وجهته جولدا مائير للعرب قبل بيجن ، والذي ذاع على مستوى العالم ، حيث قرر (أن صورتنا أصبحت وقحة أمام العالم) ، وأضاف : (نحن نطالب بأرضنا ونرفض أن نسأل أولئك المحتلين لها ، ونحن نطالب بحقوقنا ونرفض أن نجلس مع أولئك الذين جردونا منها) .. وعلق بازدراء (إن كل العرب يجلسون الآن في عواصمهم ويوجهون تحذيرات لإسرائيل وأصدقائها ، ويمكن أن يسمع المرء يومياً قائدا عربيا يهدد القادة الإسرائيليين مطالباً إياهم بعودة الأراضي العربية المحتلة ، أو يوجهون تحذيرات إلى الولايات المتحدة للضغط على إسرائيل ، وأن العالم سمع تلك التحذيرات والتهديدات وسخر باحتقار من العرب واستهزأ من الطرق الغريبة التي يتبعها العرب لاستعادة حقوقهم ، وتحرير أراضيهم المحتلة) .

وتحجج السادات بأن العرب بكسبهم حرب أكتوبر استعادوا شرفهم وأثبتوا وجودهم ، وأن لديهم الآن فرصة ذهبية لأن يحاولوا حل المشكلة بالطرق التي يمكن أن يقبلها ويفهمها العالم المتحضر ، ومن ثم مال لما دعاه إليه شاوشيسكو من حيث التفاوض مع الاسرائيليين ، لكنه لم يرد أن يكون الزعيم الروماني وسيطا يتفاوض باسم العرب ، ومن ثم تذكر كيف أن شاوشيسكو حثه على التفاوض مباشرة مع

الإسرائيليين لكى يحلوا مشاكلهم بأيديهم وليس بأيدى الآخرين ، ومن ثم حظى شاوشيسكو باحترامه .

وبعد فترة وجيزة سافر السادات إلى السعودية ، حيث التقى بالملك خالد والأمير فهد وأمراء آخرين ، لكنه لم يخبرهم بالخطة التى تبلورت فى ذهنه لوضع نهاية لحالة العداوة مع إسرائيل ، موضحاً أنه لم يحدد الشكل النهائى لمبادرته ، ولو أن الملك فيصل كان حياً لكان السادات سيفتح الموضوع .

صحيح أن علاقة السادات بالعائلة السعودية المالكة كانت جيدة ، لكنها لم تكن دافئة ، وبينما كان لفيصل بعض التحفظات على أفكار السادات ، كان الملك خالد يرى أنها غير مفهومة كليةً .

ومن ثم استنتج السادات أنه لا ينبغى أن يتحدث عن مبادرته القادمة ، لأنه أراد أن يثبت للعالم كله أنه كان رجل سلام حقاً ، وأنه ليس مخادعاً سياسياً ، وهو ما كان مربكاً وغير مقنع .

وفى طريق عودته لمصر من العربية السعودية ، بدأت تتشكل المبادرة وطبيعتها بالضبط .

وقد قال السادات إن أفكاره ارتكزت ببساطة فى : لماذا ينبغى أن يدور فى حلقة ليصل إلى هدفه ؟ وأن هدفه الواضح والوحيد هو السلام ، وأن السلام يمكن انجازه من خلال الاجتماعات المباشرة بين أطراف الصراع . وكان هذا هو التصور الذى عبر عنه بصورة متكررة من قبل الزعماء الإسرائيليون من بن جوريون إلى بيجن .. يقول السادات : (كنت أفكر فى الخطوات التالية : لماذا لا أذهب إلى إسرائيل مباشرة ؟ لماذا لا أقف أمام الكنيست وأخاطب الإسرائيليين أنفسهم – مثلهم مثل بقية العالم – واضعاً أمامهم القضية العربية ومحدداً أبعادها كما فكرت فيها .. لقد عزمت أن أرى رد فعل هذه الخطوة التى لم يكن يتوقعها أحد .. سيقال إنها كانت مغامرة غير محسوبة .. كيف لك أن تغامر بالذهاب إلى أعدائك ؟ .. ما الذى يضمن لك ؟ هل

أنت متأكد من أنهم لن يغتالوك فى شوارع القدس ، كما فعلوا من قبل مع الكونت برنادوت ، مبعوث الأمم المتحدة لفلسطين ؟

إجابتى كانت جاهزة ، إنه قدرى ، ولا أحد يستطيع أن يهرب من قدره ، وأن موتى بيد الله ، سوف يحدث سواء فى القدس أو فى القاهرة أو فوق كوبرى أو تحت كوبرى ، الساعة آتية لا ريب فيها ، وكيف يمكن أن ننسى كلام الله القدير ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾ .

حينما تسببت إحباطات الفترة الأخيرة من حرب أكتوبر فى إصابة السادات بمرض جسدى غامض - نظراً لصدمته بالحقيقة الهائلة - شعر فى البداية بصداع ، ثم غمرته السعادة التى شعر بها حينما علم أن قواته نجحت فى عبور قناة السويس ، مطيحة بالنقاط المنيعة فى خط بارليف (هذه السعادة كانت تتضمن عنصرى البهجة والفخر ، البهجة من أن التخطيط الطويل والاستعدادات لم تفشل ، والفخر من أداء الجنود المصريين) .. أما السعادة الحالية فقد كانت تتميز بالنقاء الخاص والشفافية .

وهكذا لم يتردد السادات وهو بصدد اتخاذ القرار معربا عن أن مصر عانت عبر التاريخ من الرعب والشهداء والدمار والتأخر فى التنمية ، وأنها أصبحت دولة متخلفة بسبب إعلاء صوت الحرب .

وهكذا أيضاً اعتقد السادات أنه بدون السلام سوف ترتد مصر إلى التوجهات القديمة ، ولذا أراد أن يخلق الجو المناسب لدفع عجلة التنمية حتى تستطيع مصر البقاء ، وحتى تدخل القرن الحادى والعشرين قبل أن تتأخر للغاية ، أو بمعنى آخر اعتقد أن باستطاعته إنجاز الكثير من خلال السلام .

لقد حسب كم كلفت الحرب مصر والعالم العربى منذ ١٩٤٨ منذ قيام دولة إسرائيل وحتى حرب أكتوبر ، ٩٠٪ من العبء الاقتصادى تحملته مصر .. حتى بعد حرب أكتوبر ، وفى الوقت الذى كان فيه العرب يجنون الأموال من ثمن البترول - والذى كان فى زيادة دائمة - ويزيدون ثرواتهم ، استنزفت مصادر مصر ، لذلك

حينما خلق الإسرائيليون مشاكل أثناء مفاوضات السلام ، قال السادات إن أفكاره ارتدت الأعباء التى تحملتها مصر ، وأنه لن يرجع عن السلام .

وقد ظهر هذا جلياً فيما أعلنه من تصريحات وتعليقات مدهشة بعد حرب أكتوبر ، حيث قرر السادات : (أنا أيضاً فكرت فى النتائج المباشرة لحرب أكتوبر .. ماذا أنجزت الحرب لنا ؛ لقد استعدنا جزءاً صغيراً جداً من سيناء ، وقررنا أن نعيد افتتاح القناة .. وفى مقابل ذلك تكبدت مصر ١٤ بليون جنيه ، بالإضافة إلى الخسائر فى الرجال والمعدات .. نحن نعلم أن إسرائيل أخذت على غرة فى حرب أكتوبر ، لكننا أيضاً تعلمنا أننا سنكسب أقل فى الحرب عما لو خضنا مبادرة سلام) .

وعلاوة على ذلك ، تحجج السادات بأن الولايات المتحدة وقفت عسكرياً بجانب إسرائيل فى حرب أكتوبر ، وقد عرف المصريون أنهم ليس باستطاعتهم محاربة الأمريكيين .. وعرفوا أيضا أن الاتحاد السوفيتى لم يقف بجوار أى من الدول العربية بالصورة التى وقفت بها الولايات المتحدة بجوار إسرائيل . وفى تقديره فإن الحرب أرجعت مصر للوراء أكثر من قرن . وكحاكم شعر السادات بأن لديه مسئولية أمام الله وأمام شعبه رغم إمكانية تصرفه كأى زعيم عربى آخر يقود شعبه إلى الهلاك .

الفصل الثامن عشر

مواريث مختلطة

من المثير للاستغراب أن اثنين من الثلاثة الرئيسيين فى سلام كامب ديفيد البطولى تجنبوا - عن عمد - الإغراق فى التمهيدات الخيالية للمغامرة التى أدهشت العالم ، لقد ظل أنور السادات صامتاً حينما سئل عن هذه التمهيدات بواسطة وزير خارجيته الجديد محمد إبراهيم كامل ، والقصة التى أراد السادات أن تعرف كانت بسيطة وقصيرة .. فبعد أن أكد الزعيم الرومانى " نيكولاى شاوشيسكو " أن بيجن رجل قوى ، قرر السادات أن يتحدى الإسرائيليين فى الكنيست .. ومع ذلك لم تكن الرحلة لتتم لو لم يعلن بعض الإسرائيليين مثل بيجن وديان بما لديهما من بصيرة وشجاعة عن إمكانية عقد ميثاق سلام مصرى- إسرائيلى .

إن شراكة بيجن - ديان كانت غير مألوفة بصورة كبيرة ، حيث ظهر بيجن- الخاسر الدائم فى الانتخابات الإسرائيلية ، والذى رآه بن جوريون متعصبا حقيقيا ، ظهر كزعيم إسرائيلى عاطفى جديد .

وقد نبعت قوة بيجن من كونه ديكتاتوراً لحزب حيروت آنذاك ، وخليفة لأستاذه زائيف جابوتنسكى-المعروف مؤسس الحركة التصحيحية الصهيونية .. كما أنه اعتقل بواسطة الروس ، ثم تولى قيادة حركة الأرجون السرية بعد وصوله إلى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية .. وهى الحركة -الأرجون- التى قامت بالعديد من الأفعال الملحوظة بقرية دير ياسين الفلسطينية ، وعلى أثر القيام بشنق اثنين من الجنود البريطانيين وهدم فندق الملك ديفيد بالقدس وصف بيجن عبر وسائل الإعلام العالمية بأنه إرهابى عنيف ، وكان عليه أن يدفع ثمناً غالياً على أيدى الجيش البريطانى ، لكنه استطاع أن يزوغ من القبض عليه بإخفاء نفسه كحاخام والعيش فى بيت سرى بتل أبيب ، بينما كانت زوجته المخلصة إلى الأبد تقوم على خدمته وإرشاده .

ولم ير بيجن نفسه كإرهابى على الإطلاق ، كما دحض الدعاوى القائلة بأن الأرجون ذبحت عن عمد مئات القرويين الفلسطينيين فى دير ياسين ، ولام

البريطانيين على معظم الكوارث التى حدثت بالنسبة لفندق الملك ديفيد ، لأنهم رفضوا الاكتراث بالتحذيرات القائلة بأن القنابل موجودة به .. ورأى بيجن نفسه كوطنى يهودى اضطر لمحاربة البريطانيين لأنهم لم يتعاملوا بفاعلية مع مسألة اليهود الذين قتلوا فى محرقة النازية .

وفى الوقت الذى فاز فيه بيجن بانتخابات ١٩٧٧ لم يعد ماضيه العنيف ذا مغزى فى الحياة السياسية الإسرائيلية ، مثلما لم يجد شخص أكثر منه تطرفاً – هو إسحاق شامير زعيم عصابة شتيرن – صعوبة فى دخول الحياة السياسية الإسرائيلية حتى أصبح المتحدث باسم الكنيست ، ثم وزيراً للخارجية ، ثم رئيسا للوزراء .. ففى عام ١٩٧٧ كان من غير الممكن وصم بيجن بأنه إرهابى ، حيث بدا مرتدياً زى الطهارة ذا تصرفات أشبه بالنبلاء ، كما ظهر فى صورة المحامى الأوروبى المحترم - كما كان بالفعل –أو بمعنى آخر كان يظهر فى صورة المحامى المتحذلق فى مدينة صغيرة ، تلك الصفة التى أغضبت ديان ، كذلك كان يتحدث بلغة وحماس الواعظ الدينى الأصولى الذى قتل معظم أفراد أسرته من جراء الجرائم النازية ، مظهراً إحساساً حقيقياً بالأخطار التى ما زالت تواجه الشعب اليهودى ، وإنه يرى فى كل لحظة ما جنته النازية ، لدرجة أن بعض منتقديه من حزب العمل اتهموه بالخسة واستخدام موضوع الهولوكست (المحرقة النازية) لأغراض سياسية ، خاصة أنه كان معارضاً لاتفاقية التعويضات التى وقعتها إسرائيل مع ألمانيا الغربية .

وسواء كان بيجن موقراً بين أنصاره أو مبغوضاً لدى خصومه ، فقد كان شخصية مروعة –كما أدرك شاوشيسكو– كما كانت لديه قناعة بأن كل جزء من إسرائيل القديمة يجب أن يبقى تحت سطوة إسرائيل الجديدة ، معولاً على أن الضفة الغربية –شأنها شأن القدس وحيفا– هى جزء من الدولة اليهودية :

ولم يكن فوز بيجن غير المتوقع –بعد سلسلة هزائمه غير المنقطعة منذ قيام الدولة– راجعاً فقط إلى أن خطابه السياسى كان موجها للأغلبية العظمى من الشعب

الإسرائيلى ، لا سيما السفارديم الذين كانوا يشعرون بالظلم مقارنة بالاشكيناز ، بل أيضاً كان فساد حزب العمل عنصراً حيوياً فى المجىء ببيجن إلى السلطة .

والشىء المثير للدهشة هو أن بيجن فجأة أعجب بديان ، ويقول البعض إن سر ذلك أنه كان محتاجاً لجنرال ، وأنه كان معجباً بصدامية ديان التى ظهرت فى حرب السويس ١٩٥٦ ، وحرب الأيام الستة ١٩٦٧ ، كما كان معجباً بشجاعته واستقلاليته ومقدرته على توظيف الأفكار الجديدة وإيجاد الحلول التى لا يضارعه فيها أحد . وكان بيجن مسروراً ومندهشاً فى نفس الوقت حينما قبل ديان عرضه بأن يصبح وزيراً لخارجيته .. أما بالنسبة لديان فقد كان من قبيل الصدمة لرفاقه أن يلتحق بحكومة بيجن ، خاصة أنه كان من أبرز الأشخاص فى الحركة العمالية . لكن ديان استطاع أن يتحمل هذا التحول العميق .. إنه اتهم بشدة بأنه الجانى الأساسى فى الكوارث المبكرة فى حرب يوم كيبور .

غير أن ديان هجر كل هذه الانتقادات بازدراء ، معولاً على أنه ليس من المعقول أن يتنحى عن إنقاذ دولته ، لأن رئيس الوزراء زعيما لحزب آخر غير الذى ينتمى إليه قائلاً بأن الدولة قبل الحزب ، مما دعا إلى أن يتهمه رفاقه السابقون بالاقلاع عن المبادىء من أجل المنصب .

ومع ذلك ، ورغم أنه فقد الكثير من كاريزميته وأسطورته ، إلا أنه ظل بمثابة أسد يخشى منه .. إنه كان موشى ديان ذا القدرة على أن يطعن عن الأهمية المشروطة لمبادرة السادات للسلام .. إنه كان رجل المزاج الشاكى دائماً من مرض إحدى عينيه ، والذى خسر الكثير بمحاربته فى صفوف البريطانيين ضد فرنسا فى ظل حكومة فيشى ، والذى كان يبدو كذلك عبوساً وعدائياً فى بعض الأحيان ، وفى أحيان أخرى يبدو ممتعاً وفاتنا بشهادة العديد من النساء . ورغم أنه كان يبدو لعموم الإسرائيليين قوياً وخادعاً ، إلا أنه كان يصاب أحياناً بحالة من التوجس والشك .

وخلال حرب يوم كيبور كان فى حالة ذهول وتشاؤم ، حتى لقد وصفه فنان الكرتون الإسرائيلى الشهير زئيف بأنه بمثابة هاملت الإسرائيلى إنه اقترح أفكارا

خالصة كان على رأسها الانسحاب الإسرائيلى لمسافة ١٠ أو حتى ٤٠ ميلاً عن قناة السويس ، لكنه حينما وجد معارضة قوية قبل الموقف بهدوء .

لقد توصل ديان إلى استنتاج مؤداه أنه إذا أراد أن يكون وزيراً فاعلاً للدفاع فإن عليه أن يلقى تأييد رئيسة الوزراء المروعة جولدا مائير ، والتى كانت تعتبر الشخصية الأقوى والأكثر عناداً فى مجلس الوزراء ، أو كما علق المعجبون بها "كانت الرجل الوحيد فى مجلس الوزراء" ، والشىء الذى كانت تحبه على وجه الخصوص هو أنه يبدو رائعاً فى أن تكون رجلاً .. ورغم عاطفيتها ورغبتها فى السلام وانهمار دموعها الدائم على موت الضحايا من الشباب خلال المعارك مع العرب ، فإنها كانت فى شك من مشاركة الزعماء العرب لها هذه الرغبات ، بمن فيهم السادات ، وكانت تشك كذلك فى أنهم قد يخادعون حتى تقتلع اسرائيل عن الأرض دونما إنجاز سلام حقيقى " ولعل هذا هو ما جعلها ترفض الانسحاب من على ضفاف قناة السويس من ناحية ، ومن ناحية أخرى ترفض مبادرة السادات للسلام عام ١٩٧١ .

إنها ستظل دوماً مسألة جدال فيما إذا كانت زيارة السادات للقدس ستتم لو كانت جولدا مائير ظلت رئيسة للوزراء ؟

اعتقد السادات أنه كان من الممكن أن يصنع سلاماً مع " المرأة العجوز " كما أطلق عليها ، إلا أن هذا الاعتقاد لا يمكن قبوله بصورة مطلقة ، والشىء المشكوك فيه حقيقة هو أن اتفاقية السلام المصرية - الإسرائيلية لم تكن لتتم لولا مشاركة موشى ديان ، وبصورة أقل مشاركة عيزرا وايزمان ابن أخ حاييم وايزمان العظيم ، وقائد القوات الجوية التى كبدت مصر خسائر مدمرة فى تباكير حرب الأيام الستة .

إن أنور السادات -وبعيداً عن مدى إثارة القرار بزيارة القدس -قد أعد الأرضية بعناية .. أو كما لاحظ هيكل ، كان السادات شغوفاً بالمسائل الصغيرة ، وليست الكبيرة ، كما بدا غريباً أن يسمح لوزير خارجيته إسماعيل فهمى أن يرفع وجهات نظره بخصوص السياسة تجاه إسرائيل والعلاقات مع الاتحاد السوفيتى تتنافى مع وجهات نظره الخاصة وتجعل السلام مع إسرائيل أمراً غير معقول ولا يمكن تصوره .

ففى مقابلة مع التليفزيون البريطانى أيد فهمى دعاوى منظمة التحرير الفلسطينية تجاه الأمم المتحدة ، بل وذهب فهمى أبعد من ذلك حينما طالب إسرائيل بالحدود المتفق عليها عام ١٩٤٧ ، كما اقترح فهمى أن إسرائيل يجب أن تختفى كدولة يهودية من خلال التحول إلى دولة فلسطينية ديمقراطية تضم المسلمين والمسيحيين واليهود .. ومع كون العرب يمثلون الأغلبية فإن على إسرائيل أولاً مراعاة ما عاناه الفلسطينيون لمدة ٢٦ سنة مضت ، وعليها ثانياً أن تعوض عن خسائرها التى تتعلق بإنتاج البترول والخسائر الأخرى الناجمة عن حرب ١٩٦٧ .. وفوق ذلك فإن على إسرائيل أن تجمد عدد سكانها عند الحد الذى وصل إليه سنة ١٩٧٤ ، وأن يوقف نزيف هجرة اليهود لمدة ٥٠ سنة .

وربما سمح السادات بهذه التصريحات وأخرى لسببين :

إنه أراد أن يظهر محارباً لمعارضة سياسته السلمية فى مصر . وأن يستخدم تصريحات فهمى المثيرة كستار لما أعد له ، كما أراد أن يكون الأمر مفاجأة بما يسبب له متعة كما اعتاد ذلك ، ومع ذلك فإن السادات -طبقا لهيكل- لم يفاجىء إسرائيل ، بل تواطأ معها ، بينما فاجأ الشعب المصرى والعالم العربى كله ، كما أدهش صديقه الجديد جيمى كارتر .

إن السادات - شأنه شأن كاتب الجريمة الماهر - وضع مفاتيحا لكل تفكيره من خلال أسلوبه ، فبعد أن زار فهمى موسكو ليجدد العلاقات القديمة مع الاتحاد السوفيتى شكلياً ، أشار السادات إلى أن الطريق الجديد يجب أن يتبع ، طريق الصداقة مع الولايات المتحدة ، وكان السادات قد أعلن عن الوضع الحقيقى للاقتصاد المصرى فى ١٩٧٣ قبل اندلاع حرب أكتوبر ، واعترف بأن الاقتصاد المصرى قد وصل إلى القاع ، لدرجة أنه قرر فى إحدى المناسبات استحالة توافر الخبز فى ١٩٧٤ .. كذلك أكد قائلاً : " بصدق وأمانة فإن الـ ٥٠٠ مليون دولار التى تلقيناها بصورة عاجلة من الولايات المتحدة بعد المعركة هى التى ساعدتنا أثناء الشدائد المؤلمة .. إن اقتصادنا استنزف تماماً خلال السنوات الست السابقة على المعركة " .

وهكذا استنتج السادات أن ما يناقشه العرب أثناء المؤتمرات ولقاءات القمة لن يساعد فى إطعام جماهير المصريين ، وأنــه ليست هنــاك مساعدة سترد مـن الاتحـاد السوفيتى .. ومن هنا كان لابد من كتابة سيناريو جديد للإخراج .

وعلـى الصعيد الإسرائيلى ، كـان الإسـرائيليون – لبعض الوقت – مرتبكيــن بسبب التصريحات المتضاربة من قبل مصر ، سواء الواردة من القاهرة أو من ممثلى مصر بواشنطن ، إذ أعلن فهمى أن مصر تطلب سرعة انعقاد مؤتمـر جنيـف للتوصـل إلـى سـلام شـامل فـى الشرق الأوسط ، وأن الحـرب مـع إسـرائيل لـن تنتهـى إلا بعد الانسحاب الإسـرائيلى مـن الأراضـى العربيـة ، لكـن السـادات بـالتدريج توصـل إلــى استنتاج مؤداه أن التوصل إلـى سـلام شـامل مـن خـلال مؤتمـر جنيـف مـع السـوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية المتنافسين ومع مصر يعتبر سراباً ، وخطـيرا فـى ضـوء ما سوف يعرض من مطالب متطرفة .

وأثناء المباحثات الضبابية ، بدأت مشاكل مصر تزداد حدة ، وبـدأت إسـرائيل تدرك أن السادات حصر الحل متمثلاً فى تحالف أمر واقـع (واقعـى – de facto) مـع الولايات المتحدة ، حيث لا أحد سواها كان مـن الممكـن أن يسـاعد مصـر فـى التغلـب على مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية .. كما أنه لا أحـد سـواها كـان بإمكانـه الضـغط على إسرائيل لقبول اتفاقية مع مصر ، لكن مـن ناحيـة أخـرى كـان علـى إسـرائيل أن تقوم هى بمساعدته على إقامة مثل هذا التحالف مع الولايات المتحدة .. كان هـذا هـو التناقض الفج الذى كان السادات ملزماً بإيجاد حل له .

كذلـك كـان هنـاك تنـاقض آخر يواجـه السـادات ، وهـو أن الولايـات المتحـدة كـانت تحجب التعرف على خططه بلا يقظة ، وكان عليه –آسفاً– أن يقبل مغادرة صديقـه هنرى عارفا بأن سياسة الخطوة –خطوة ، والدبلوماسية المكوكية قد مضت على أيـة حـال ، كمـا ارتأى إمكانية قيام علاقة مع الرئيس الأمين " جيرالد فورد " والآن حل محل فورد بواسطة الحماسى والمستشهد بالتوراة وبطل حقوق الإنسان جيمى كارتر بمرافقة مجموعـة جديـدة من المستشارين والرغبة فى اتخاذ بديل لكيسنجر اليهودى الألمانى الأصل .

وقد قرر كارتر -متعلماً من أخطاء كيسنجر ونجاحاته- بأن تعامله فيما يتعلق بالشرق الأوسط -هو الطريق الوحيد الواجب اتباعه " إلا أنه لم يتعلم الكثير من الأوروبيين الذين أصروا على الإدلاء بتصريحات ضمنية- وأحيانا صريحة- تلوم الإسرائيليين على عدم التوصل إلى حلول ، مطالبة إياهم بالانسحاب من الأراضى العربية ، وداعية إلى تسوية سلمية شاملة ترضى جميع الأطراف .

وفى بداية تلك السنوات كان السادات متفائلا يبحث عن مخرج على الدوام ، واضعاً نصب عينيه المزايا التى ستترتب على وصول كارتر ، كما تولدت لديه قناعة بأن سياسة كارتر الجديدة بإزاء الشرق الأوسط سوف تؤدى فى النهاية إلى فتح الأبواب لاتفاقية سلام حقيقية ذات مميزات للعرب بوجه عام ولمصر بوجه خاص .

ورغم أن السادات -فى مقابلته لكارتر فى أبريل ١٩٧٧- أحضر معه خطة عربية لتسوية الصراع العربى- الإسرائيلى تشتمل على إقامة دولة فلسطينية والانسحاب الكامل من الأراضى المحتلة كثمن لإنهاء الحرب مع إسرائيل وليس ميثاقاً للسلام ، إلا أن كارتر كان مسروراً بزائره ، حيث وجد أن سحر السادات لا يقاوم .

وبالمقارنة برابين كان السادات بمثابة الضوء الساطع الذى بزغ فى الشرق الأوسط .. بينما حين غادر رابين -رئيس الوزراء الإسرائيلى حينذاك- كان كارتر غاضبا ، واصفا إياه بالعناد وعدم الحلم وعدم الرغبة باتخاذ خطوات إيجابية من أجل السلام مع مصر .. وقد علق وليم كواندت أحد مستشارى كارتر بأن " السادات كان ممثلاً مكتملاً " .

غير أن هذا الشعور بالسعادة والإثارة الذى خلفه السادات بدأ يتلاشى لإدراك وزير الخارجية الأمريكى الجديد كيروس فينس أن خطة السادات ليس هناك مجال لنجاحها ، فى حين أكد سؤال كارتر -بنفاد صبر- عما إذا كانت إسرائيل على استعداد للانسحاب من الأراضى المتنازع عليها أم لا - جهله بالأبعاد العميقة للصراع العربى- الإسرائيلى .

ولم يكن السادات معتقداً بإمكانية أن تلقى مطالبه استجابة مناسبة ، حيث استبان له من خلال مفاوضاته الطويلة مع الإسرائيليين تحت إشراف كيسنجر ما الذى يمكن أن يتوقعه .. وعلى هذا الأساس أخبر كارتر بأنه لا يريد معاهدة سلام شكلية مع إسرائيل ، وبدلاً من ذلك فهو يبحث عن اتفاقية سلام يمكن على أثرها تطبيع العلاقات بصورة تدريجية مع إسرائيل ، بعد الانسحاب الكامل من الأراضى العربية ، وحتى لو تم الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى بما فيها القدس ، وإذا لم يكن هناك تطبيع سريع فى العلاقات ولا تبادل للسفراء ولا حدود مفتوحة – حيث التركيز على التطبيع التدريجى– فلماذا كان ينبغى أن تقبل إسرائيل مثل هذه الشروط ؟ لم يفسر السادات ذلك !! .

إن الذى فعله السادات هو اختبار المياه الأمريكية ، وإلى أى مدى استعد كارتر للذهاب ؟ وإلى أى مدى يمكنه التعهد بالتوصل إلى سلام فى الشرق الأوسط ؟ وما مدى قوته فى مقاومة الضغط اليهودى ، وما التنازلات التى يمكن أن ينتزعها من الإسرائيليين؟ وما المكاسب التى يمكن أن تجنيها مصر لإنقاذ الاقتصاد المصرى المعتل ؟

وطبقاً لوجهة النظر العربية الخالصة كان لديه حق فى إثارة مثل هذه الأسئلة ، بينما قفز كارتر فى البحر دون أن يتعلم العوم أولاً ، إنه طالب الإسرائيليين بعقد مفاوضات عاجلة مع العرب شاملة منظمة التحرير الفلسطينية ، على أن يكون معروفاً أنه سيتم التنازل عن الأراضى العربية المحتلة .. كما كان كارتر متأكداً من عدالة سلوكه بصورة مطلقة لدرجة أنه –وبدون استشارة إدارته– أعلن ضرورة أن يكون هناك وطن (Home land) للاجئين الفلسطينيين ، وحينما حاول كل من فينس – وزير الخارجية – وبرزيزينسكى (مستشار كارتر للأمن القومى) تليين هذه العبارة لطمأنة الإسرائيليين والإيعاز إليهم بأنها غير دقيقة وأنه ليس هناك تغيير أساسى فى السياسة الأمريكية ، تلقيا تعليمات صارمة من كارتر تشير إلى أنه ليس هناك تفصيل ولا توضيح بخصوص دقة معنى " وطن فلسطينى " يمكن إصداره ، وبينما كان كارتر يجد السادات لا يقاوم كان مستشاره للأمن القومى برزيزينسكى أقل تأثراً ، حيث وصف السادات بأنه رجل لا يميز بين الحقيقة والخيال .

لقد كان كل من فينس وبرزيزينسكى يفهمان حقيقة الصراع العربى – الإسرائيلى ولماذا يتسم أى حل له بالحساسية .

وحينما كان الأمريكيون يعتقدون بجدية الدور الذى سوف تلعبه منظمة التحرير الفلسطينية فى مؤتمر جينيف للسلام كانت المنظمة تجتمع بالقاهرة وتنادى بصورة واسعة بمحو دولة إسرائيل . وبلقائه الأمريكيين بعد عدة أيام لاحقا كان لابد أن يندهش السادات لاكتشافه أنهم يجهلون حلول منظمة التحرير الفلسطينية ويتحدثون عن اتفاقية سلام شاملة يشارك فيها الفلسطينيون .

وعندما عاد السادات للقاهرة كان عليه أن ينتظر عدة أسابيع ليعرف نتيجة الانتخابات الإسرائيلية العامة ، وهناك شك فيما إذا كان قد حزن على اختفاء رابين أم شعر بعدم راحة عند ظهور مناحم بيجن .

إنه شعر بقرابة (نسب) معينة تجاه بيجن ، والذى رغم أنه كان حديث عهد برئاسة الوزراء فى دولة ديمقراطية كان يجابه بقوى غير عادية ، وقد فهم السادات أين يقف بيجن ، وأنه لن يستطيع تذويب الجليد ، وذلك بالمقارنة برابين العقلانى ، السياسى – العسكرى ، المحلل .

وبالنسبة للأمريكيين فقد مثل انتخاب بيجن ذى الخط المتطرف لهم صدمة ، هذه الصدمة لم تمح كلية حينما زار بيجن واشنطن ، وفى حين رأى بيجن معادلة كارتر للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط كلها سلبية بما تنطوى عليه من الانسحاب من الأراضى المحتلة ، رأى موشى ديان -الذى كان حاضراً الجانب الإيجابى من حيث إن الأمريكيين لن يفرضوا التسوية ، وسيتم التفاوض بخصوص الحدود الإسرائيلية وترتيب مسائل الدفاع عنها بين الأطراف المعنية أنفسها ، وأن السلام سوف يشتمل على حدود مفتوحة ، واعتراف دبلوماسى وتطبيع كامل للعلاقات كما طلبت إسرائيل ، وستعارض الولايات المتحدة قيام دولة فلسطينية ، وستتحمس لفكرة ، وطن فلسطينى ، بما يعنى الارتباط بالأردن .

وقد أيقظ كارتر كلاً من بيجن والسادات بأنه إذا كانت التسوية السلمية الشاملة تبين بصورة منطقية وعظيمةً ما يوافق عليه كل العرب وما يريدونه وما سوف تقدمه إسرائيل من تنازلات ضرورية من أجل السلام .. فلماذا لا يتم الذهاب إلى جنيف وتسوية كل المشاكل بسلوك يتواءم مع أناس يخافون الله إلا أنه بدا أن كارتر لم يكن مدركاً -ولم يحاول أى من مستشاريه الطرق على الحقيقة- أن العرب لا يريدون ذات الشيء وأنهم لا يثقون ببعضهم البعض ، وأن الذى يقصدونه بالسلام يختلف كليةً عن الذى تقصده إسرائيل من هذا المصطلح ، وإن كان السادات قد أشار إلى أن المقصود بالسلام هو محو العداوات كما أن السلام الطبيعى سوف يدفع الأجيال للإنجاز ، وسوف يؤدى إلى كسر الحاجز النفسى .

وحينما ترسخت لدى ديان قناعة بأن الأمريكيين بتفكيرهم الساذج كانوا متناقضين ، لدرجة أنهم أصبحوا عائقاً كبيراً أمام اتفاقية سلام أكثر من السادات ، قام باقتراح فكرة ثورية لبيجن المضطرب ، مفادها لم لا يتم التقرب من السادات سراً بعيداً عن معرفة الأمريكيين ؟ وبعد تردد وافق بيجن ، خاصة وأن السادات كان يبحث عن وضع نهاية للإحباط ، ولأن منهج كارتر كان غير واقعى ، فقد بدأ السادات يميل إلى التفكير فى أن المحادثات المباشرة مع الإسرائيليين ، وبدون أن تضم كارتر ، يمكن أن تكسر صخرة الحمق .

ومن ناحيته أدرك ديان أن الوساطة المؤثرة يمكن إيجادها سريعاً ، وأن نيكولاى شاوشيسكو الرومانى يعد مناسباً ، ولكن الوجود المكثف لعملاء الـ K G B (المخابرات السوفيتية) لن يجعل السر يدوم طويلاً ، ومن ثم تحول عقل ديان إلى الملك الحسن ملك المغرب ، والذى لديه العديد من الأصدقاء فى المجتمع اليهودى ، وأنه يحتفظ بروابط مع اثنين من الذين استقروا فى إسرائيل .. كذلك فقد عرف باعتداله أثناء اشتعال الصراع العربى - الإسرائيلى ، أيضاً كان أحد الزعماء المسلمين القلائل الذين لم يدينوا السادات على اتفاقية الفصل الثانية مع إسرائيل . وصل ديان إلى مراكش واقترح على الملك أن يرتب لقاءً بينه وبين مندوب للسادات ، ووصل الاقتراح القاهرة وفى غضون سبعة أيام وصل الرد الإيجابى .

وفى السادس عشر من ديسمبر ١٩٧٧ التقى ديان بممثل السادات حسن التهامى (نائب رئيس الوزراء) مع الملك الحسن بوصفه المضيف .

وقد اختير التهامى -ذو اللحية والعيون الثاقبة- لسبب رئيسى واحد هو ولاؤه المطلق للسادات ، بينما لم يعرف وزير الخارجية شيئا عن اللقاء ، وقد سلمه ديان رسالة خاصة للسادات تتكون من ثلاثة أسطر ، وقد أفادت تلك الرسالة البسيطة والموجزة بأن إسرائيل على استعداد لإرجاع كل شبه جزيرة سيناء للسادات فى مقابل معاهدة سلام شاملة بين الدولتين ، وفتح الحدود وتطبيع العلاقات بينهما بوصفهما دولتين مستقلتين .

وبعد ذلك بفترة وجيزة زار ديان واشنطن ، وواجه انتقادا حادا من قبل كارتر ونائبه موندال وفينس الذى كان ما زال تواقاً لمؤتمر جنيف والتسوية الشاملة لكل المشاكل ، واعتقد ديان أنه من الحكمة أن يبلغ فينس بلقاء مراكش مع مبعوث السادات .

وفى القاهرة ، أبلغ السادات السفير الأمريكى باجتماع التهامى مع ديان ، وقد كتب السفير تقريره إلى واشنطن مرتأياً أنه لو كان السادات جاداً لما اختار رجلاً مثل التهامى .

ولدهشة ديان -وربما السادات- لم يكن هناك أى رد فعل أمريكى لمحادثات مراكش ، ولم يبن الأمريكيون ما إذا كانت هذه المحادثات سوف تساعد على تقدم أو حتى ضرر للسياسة الأمريكية أم لا .. كذلك كان الأمريكيون متضايقين إلى حد ما ، من أن إسرائيل قامت بصنع غارة مستقلة فى مجال الدبلوماسية السرية ، هذا الشعور كان لابد أن يشيد حينما أرسل السادات - بعد يومين من لقاء التهامى بديان -رسالة لكارتر يحثه فيها على القيام بعقد مؤتمر جنيف بأسلوب بعيد عن التمحك فيما يتعلق بالتفاصيل ، وقد اغتاظ الإسرائيليون عندما علموا بهذه الرسالة من ناحية ، ومن ناحية أخرى من اقتراح فهمى (وزير الخارجية) لكارتر بأن ينحى الضغط اليهودى

جانبا ويقابل ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ، كما أخبر فهمى كارتر بأن ياسر عرفات محق فى مخاوفه من قبول منظمة التحرير الفلسطينية تلك الفقرة -من قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢- والخاصة بالاعتراف بدولة إسرائيل وحقها فى العيش فى سلام . وتفسير ذلك أن توجه فهمى إزاء إسرائيل مثل توجه عرفات إزاءها.

إن اتجاه السادات الحقيقى بدا واضحاً ، حينما شعر كارتر -ببراءة مقصده وجهله- بأن يكون هناك بيان مشترك مع السوفييت بخصوص الشرق الأوسط ، ولو كان كيسنجر ما زال حوله لكان من غير المقتنع أن ترتكب مثل هذه الغلطة البشعة باستدعاء السوفييت فى هذه المرحلة ... ومن ثم كان ديان -الذى كان فى زيارة لواشنطن- هائجاً ، خاصة حينما حجب عنه الأمريكيون أجزاء حيوية من البيان ، ذلك البيان الذى لم يكن يشير إلى السلام كموضوع لمؤتمر جينيف ، وإنما بدلاً من ذلك كان يشير إلى مجرد تسوية لماراثون يستغرق سبع ساعات .

وبناء على ذلك قام ديان بتضييق الخناق على كارتر وفينس حتى حصل على ورقة عمل أمريكية - إسرائيلية غطت بصورة فعلية على البيان الأمريكى - السوفيتى.

أما بالنسبة للسادات ، فقد كان الإعلان الأمريكى - السوفيتى بمثابة البرهان الأخير على أن لا شىء يمكن توقعه من الأمريكيين فى هذه اللحظة ، ولابد أنهم تعلموا الدرس .

ولذا فقد أرسل خطاباً إلى كارتر ، يحثه فيه على أنه لا يوجد شىء يمنع المصريين والإسرائيليين من التفاوض مباشرة ، سواء قبل أو بعد مؤتمر جينيف ، ومع ذلك فلا شىء كان قادراً على إزالة الغمامات من على عيون كارتر ، الذى كتب للسادات سائلاً إياه أن يعيد إعلان مقترحاته ، بينما ظل السادات صامتاً .

خطاب آخر من كارتر أفاد بأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى سوف يتوليان الدعوة المشتركة لحشد مؤتمر جنيف تحت رعاية الأمم المتحدة ، مع التأكيد

على أنه شخصياً سوف يحث على تسوية القضية الفلسطينية والانسحاب الإسرائيلى من الأراضى المحتلة .

وهكذا بدا كارتر كأنه يحفر خندقاً للإسرائيليين بعودة تأييد السادات لخيار جنيف .

وقد كان هذا بالنسبة للسادات أقل الخطابات عوناً ، كما عرف أن كارتر أساء فهم الموقف تماماً ، وفوق ذلك أدرك السادات أن هذه السياسة لن تعيد إليه سيناء ، ولابد من إنتاج (فعل) شيء جديد أكثر راديكالية وحيوية .. ومعروف أن السادات كان مشهوراً بالارتجالية فى خطاباته ، وإن كان قد لجم هذا الاتجاه بعد حرب يوم كيبور إلى حد ما ، لكنه عاود أسلوبه القديم حينما خطب أمام مجلس الشعب فى ٩ من نوفمبر ١٩٧٧ ، وكان الحضور من ذوى المقام الرفيع من العرب وغيرهم قد اعتادوا على فقشاته الجانبية ، ودائماً كانوا يتمتعون بها ، لذلك لم يكن هناك رد فعل سريع ، وكذلك لم تكن هناك خطوات من قبل عرفات أو أى راديكالى آخر .

وعندما علق السادات - بعد سباب وشتم طويل ضد إسرائيل - بأنه من أجل السلام على استعداد لأن يذهب إلى نهاية الأرض أو حتى إلى الكنيست فى القدس ، حينذاك صفق الجمهور غير مدرك للقنبلة الموقوتة التى فجرها .

وانعكاساً لذلك اكتسب السادات شهرة ، فاز على أثرها بجائزة نوبل .. كما لم يصبح واحداً من أعظم الشخصيات التى تتمتع بالتقدير فى التاريخ الحديث فحسب ، وإنما أيضا فتح على نفسه باب الافتراءات والكراهية قبل أن تقبل رؤيته على أنها الطريق الوحيد للمستقبل .

الفصل التاسع عشر

بطل فى القدس ووغد فى دمشق

عندما عرض أنور السادات الذهاب إلى القدس علق بأن إسرائيل سوف تندهش لسماع كلماته .. و فى الحقيقة فإن هذه الدهشة قد اختلطت بالحيرة ، إذ كان الإسرائيليون لا يزالون لا يفهمون شخصيته المعقدة.. وعندما تسلم كل من أنور السادات وبيجن جائزة نوبل للسلام فيما بعد ، علقت جولدا مائير قائلة بأن كليهما لا يستحق جائزة نوبل ، بل يستحق جائزة أوسكار .. هذه الحيرة عبر عنها ايجئال آلون - وزير خارجية إسرائيل سابقا - متسائلا : ماذا حدث للسادات بين مايو ١٩٧٢ ونوفمبر ١٩٧٧ ، ففى مايو ١٩٧٢ قال السادات لجمهوره إنه سوف يحطم غطرسة الإسرائيليين التى لا تطاق ، وإنه على استعداد للتضحية بمليون جندى مصرى فى الحرب القادمة ، والآن فى نوفمبر ١٩٧٧ هو على استعداد للذهاب بها للقدس لكى يمنع -على حد تعبيره- أحد الجنود أو الضباط من أبنائه من أن يجرح لا أن يقتل !!

والاحتمال الأرجح أن موشى ديان كان أقل اندهاشا . أما العنصر المسرحى الذى تضمنه هذا العرض الدرامى والرحلة فقد ظهر فى الأحاديث التى دارت بين وولتر كرونكيت - المقدم المشهور لأخبار" CBS " مع كل من السادات وبيجن . . كما يلى

كرونكيت : متى ستذهب إلى القدس ؟

السادات : أنا فقط أنتظر دعوة مسبقة .

كرونكيت : يجب أن تحصل على شئ ما من خلال السيد بيجن وليس من خلال الصحافة .

السادات : تمام . . تمام

كرونكيت : كيف سيتم هذا التحول يا سيدى وأنت ليست لديك علاقات دبلوماسية مع إسرائيل .

السادات : لماذا لا يكون من خلال صديقنا المشترك . . الأمريكيين ؟

وقرر السادات أن ما يريده هو مناقشة الموقف كله مع أعضاء الكنيست المائة والعشرين ، وأن يضع صورة وتفاصيل الموقف من وجهات نظر الطرفين .

أما بيجن بدوره فقد أخبر كرونكيت بطلاقة : " خلال أسبوع سوف أسأل صديقى السفير الأمريكى فى إسرائيل أن يتكشف من خلال زميله السفير الأمريكى بالقاهرة ما إذا كان على استعداد لإعطائنا إفادات طيبة ، وأن ينقل منى رسالة إلى الرئيس السادات تدعوه رسميا ووديا للقدوم إلى القدس " .

وعندما سئل السادات عن معارضة الزعماء العرب لرحلته المقترحة علق قائلا : " إننى لم أقل لأى من رفاقى ، ولم أسألهم أن يوافقوا أو لا يوافقوا على ذلك ، إننى أشعر بأن مسئوليتى كرئيس لمصر تحتم على أن أحاول بكل السبل الوصول إلى السلام ، وقد اتخذت القرار ، ومن المؤكد سيكون هناك من هو ضده ، ولكن كما أننى مقتنع تماما بأن هذا هو الطريق الصحيح وشعبى من ورائى فسوف أكمل كل شئ . . نحن فى لحظة حرجة ، ولن يكون هناك وقت مناسب فى العالم العربى للتوصل إلى سلام حقيقى ، لكن هذا الوقت يوجد الآن ، لذلك أريد أن أضع الحقائق أمامهم ، وفى نفس الوقت نحن نريد أن نناقش ماذا سيكون البديل إذا لم نتوصل إلى السلام ، سيكون مروعا ، صدقنى سيكون مروعا "

ومع ذلك ، فإن سوء الفهم وحتى الشك أصاب بعضا من صورة الزيارة إلى القدس والتى هزت المشاعر وسلبت عقول الملايين من مشاهدى التليفزيون . . إلا أن موتاجور – رئيس الأركان الإسرائيلى – انزعج من أن تكون هذه خطة بارعة ابتدعها كتمهيد لذات السيناريو الذى اتبع فى ١٩٧٣ .. ففى مقابلة تليفزيونية أغضبت عيزراوايزمان قال جور : " نحن نعلم أن الجيش المصرى فى حالة متواضعة من الاستعدادات التى يمكن أن تؤهله لخوض حرب ضد إسرائيل فى غضون عام ١٩٧٨ ، بيد أن السادات أعلن عن رغبته للمجئ للقدس " . . وفى التو بعد ما خاض وايزمان مواجهة متوترة مع جور أصيب الأول (وايزمان) فى حادث سيارة لكنه

أصروا أن يأخذوه إلى الكنيست ليستمع إلى خطاب السادات .

وكان وايزمان قد أخذ فكرة مبدئية عن زيارة السادات للقدس كنوع من التخيل ، كما كان واضحا أنه اقتنع بحجج رئيس المخابرات موشى جازيت ، الذى قرر أن السادات بدا كقاهر الصعاب الذى اجتاز كل العقبات متجها رأسا إلى الخط النهائى .

أما الجمهور الاسرائيلى فقد كان مندهشا تنتابه الحيرة ويحدوه الأمل ، كما شاهدوا الرئيس المصرى يظهر على شاشات التليفزيون ، من طائرته فى مطار بن جوريون ، ويتلقى التحية من كبار الشخصيات الإسرائيلية من بينهم مناحم بيجن وجولدا مائير ، حتى لقد شعر العديد من الإسرائيليين ببداية عصر جديد ، كذلك كانت هناك تهاليل عبر الطريق الذى سار فيه موكب السادات للقدس ، تهاليل من ذلك الشعب الذى عانى منذ ٤ سنوات من الكوارث التى سببتها قوات هذا الرئيس ذاته ، ولا عجب أن الرئيس كان شاعرا بالارتباك إلى حد ما أثناء تحركه .

وفى القاهرة أيضا كانت هناك إثارة وذهول ، وكان المصريون الذين ازدحموا حول أجهزة التليفزيون فى البيوت والمقاهى مذهولين من شجاعة رئيسهم فى دخول مغارة عدوهم السابق ، كما لو كانوا يشاهدون ملحمة بطولية مقدسة يظهر فيها رئيسهم نجما رئيسيا .

ورغم أن السادات كان يقظا وغير هائم بالإسرائيليين ، فإن وايزمان شعر بأن منصة الكنيست ستشغل بواسطة شخصية غير عادية ، تمتلك شجاعة نادرة ، وأن شخصا مثل هذا فقط بإمكانه أن يغامر بقفز هذه الأبعاد الهائلة . . وأن السادات كان يخاطر بحياته .

ومع ذلك شعر وايزمان -مثل الكثيرين فى الكنسيت - بالخيبة ، وافتتح السادات خطابه بصوت جهورى بالعربية بالتصريح بأن كل شخص لقى حتفه فى الحرب هو نفس بشرية سواء كان يهوديا أو عربيا ولكن وايزمان لم يكن مرتاحا لكل التعليقات التالية والتى كانت تعتبر جافة وتهديدية ، كما اعتقد أن السادات يحاول

إيصال الموقف اللاستسلامى الذى اتبعته مصر منذ ١٩٦٧ وإتمامه بالانسحاب إلى الحدود القديمة والخطيرة دون منح إسرئيل السلام الكامل .

وقد أعلن السادات : " أنا لم آت إلى هنا لتوقيع سلام منفرد بين مصر وإسرائيل ، حيث اتفاقية سلام منفردة بين مصر وإسرائيل لا تضمن السلام التام ، وأبعد من ذلك . . حتى لو تم السلام بين إسرائيل وكل دول المواجهة دون التوصل إلى حل نهائى للمشكلة الفلسطينية فلن يكون هذا بمثابة السلام الدائم والمستقر الذى خبر به كل العالم . . . إننى لم آت إلى هنا لأملى عليكم مطلبا بإخلاء قواتكم من الأراضى المحتلة ، والانسحاب الكامل من كل الأراضى العربية المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ هو أمر بين واضح بذاته ، ونحن لن نؤيد أى حجج ، ولن نستعطف أحدا بشأنه " . وعندما سمع وايزمان هذه الكلمات أشار إلى بيجن بأنه " يجب أن نستعد للحرب وأومأ بيجن .

وربما كان ذلك سببا فى أن تكون استجابة بيجن لمبادرة السادات أقل واقعية ، كذلك هناك اتفاق عام بأن بيجن كان واعيا بأن النغمات الدراماتيكية الهادئة لاتتواءم وماتتميز به المناسبة من تفرد . إن بيجن – شأنه شأن وايزمان – لم يدرك فى هذه اللحظة أن السادات كان مقيدا ، وأنه كان تقريبا لا يتحدث إلى الإسرائيليين ، وإنما كان يتحدث إلى شعبه وإلى العالم العربى ، وأنه لم يكن ليستطيع – لأول وهلة – أن يعطى الانطباع بأنه خائن للقضية العربية ، كما كان عليه المناداة بأكبر قدر من المطالب الفلسطينية . ومن ثم فإن رد فعل بيجن المشروع إلى حد ما لم يكن ضارا جدا . كذلك كان على وايزمان أن يدرك أن انطباعهم الأول عن خطاب السادات كان خاطئا ، وأن ما جاء بالسادات إلى الكنيست لم تكن تمهيدات لحرب جديدة ، وفوق ذلك فإن وايزمان قرر فيما بعد أن ما فعله السادات فى خطابه أمام الكنيست كان فريدا فى ضوء التاريخ الطويل الملطخ بالدم بين العرب واليهود ، وأن ما كان يعرضه السادات هو السلام الكامل .. ليس عبر اتفاقية مؤقتة ، وإنما إقامة علاقات طبيعية

كاملة ، وأن ما كان ينشره كل زعيم إسرائيلى وينتظره دون جدوى يقدم الآن للشعب الإسرائيلى فى الكنيست دون غموض .

ولحسن الحظ ، فإن الخبراء الذين قاموا بتحليل خطاب السادات ، وحتى الوزراء ، انضموا إلى التهليل العام ، كما نسى عيزرا وايزمان مخاوفه لدرجة أنه سحب نفسه خارج الكرسى المحرك ولوح بعصاه كنوع من التحية العسكرية ، هذه الإشارة فاجأت السادات ، الذى بدأ يضحك ، كما كانت أيضا بداية صداقة ذات تأثير واضح خلال المفاوضات المتعرجة للوصول إلى ميثاق السلام . إلا أن هناك شكا فى أن تكون هذه الصداقة بالعمق الذى اعتقده وايزمان ، حيث لم يسمح السادات على الإطلاق لصداقاته الشخصية أن تؤثر على قضيته ، كما ظهر فى حالة كيسنجر .

وعلى كل حال ، فإن التهليل الذى ساد فى القدس ، والذعر الذى ساد فى دمشق لا يمكن تبريره كليا . . ولو تم تصديق المحللين فإن سوابق السادات ليست هى تلك التى يعول عليها الزعماء الإسرائيليون ، فأولا كان يجب عقد اتفاقية سلام تنهض على الانسحاب الإسرائيلى من كل الأراضى العربية المحتلة فى ١٩٦٧ ، وثانيا : تأتى التطلعات الفلسطينية شاملة إقامة الدولة ، وثالثا : يأتى حق كل دول المنطقة فى العيش فى سلام وعدم اللجوء إلى استخدام القوة ، وأخيرا : إنهاء حالة الحرب . ولم يذكر السادات مسألة الحدود المفتوحة ، ولا العلاقات الدبلوماسية ، ولا التطبيع الكامل للاتصالات اليومية بين إسرائيل وجيرانها ، لدرجة أن شك بعض الخبراء أن السبب الرئيسى فى زيارة السادات هو دفع الإسرائيليين إلى الركن ، لذلك استطاع أن يتحدث مباشرة إلى الأمريكيين وإلى العرب . . فبالنسبة للإسرائيليين كان هو رجل السلام ، وبالنسبة للعرب كان هو البطل الذى تحدى العدو فى برلمانه ، ومع ذلك فإن حكم الخبراء هذا ثبت خطؤه كلية .. وفوق ذلك ، هناك سبب مقتنع قدمه السادات نفسه يتمثل فى ضرورة كسر الحاجز النفسى الذى أوقف كل تحرك بإزاء السلام ، حيث يقول : " أقصد بالحاجز النفسى أن هناك حائطا ضخما من الشك ،

والخوف والكراهية ، وسوء الفهم دام فترة طويلـة بين إسرائيل والعرب ، وقد أدى إلى ألا يصدق كل طرف الطرف الآخر . . لقد اعتدنا أن نتعامل مع إسـرائيل ككيان لا يمكن الاقتراب منه ، لذلك قررت أن أى تغير ممكـن سوف يصب فـى الاتجاه ذاتـه ، ولو أردنا حقا أن نمسك بجوهر الشقاق وأصول المشكلة لكى نقيم سلاما شاملا فيجب أن نتبع منهجا جديدا يمكن من خلاله اجتياز كل الشكليات والفنيات الإجرائيـة بإسقاط هذا الحاجز من عدم الثقة . وهكذا بإمكاننا فقط كسر هـذه الدائـرة الفاسدة ، وتوقـى وعوزة الخلاف الذى ساد فى الماضى .

وقد كرر السادات موضوع الحـاجز النفسـى مـرات عديـدة ، معتقدا أنـه كسـره بزيارته إلى إسرائيل ، إنه فعل ذلك بكل المقاييس ، غير أنه لـم يكـن يفهـم احتياجـات إسرائيل ، فهم كانوا ممنونين لكسره التابو (الشئ الممنوع أوالمحرم) ، لكنهـم كـانوا يريدون الأكثر ، حيث لاحـظ فينـس - وزيـر الخارجيـة الأمريكـى والرجـل ذو النظـرة الثاقبة للنـاس - أن السادات اعتقد أنه منح إسرائيل مطلبها حينما قرر أن زعيم أكبر دولة عربية منح إسرائيل " شـرعية " ، لـم تكـن متاحـة لهـا مـن قبـل ، ومـن ثـم فـإن إسرائيل التى كانت طبقا للعرب كيانا غير شرعى فى الشرق الأ وسط تم قبولها الآن .

وهكذا شعر السادات بأنه قدم هبة عظيمة سوف تسعد كل إسرائيل ، بينمـا بـدا هو حزينا ومندهشا ، لأن بيجن والعديد من الإسرئيليين بـدوا يرفضـون تلـك الهبـة .. وكم كان بيجن غير ممنون لأن السادات رأى الموقف - طبقا للمستشـارين فـى وزارة الخارجية - بمثابة هبة ، وأنه اعتقد أن ذلك سيؤثر على بيجـن ليمنـح العرب كـل أو معظم طلباتهم . ومع كل تلك المثالب ، فإن هذه الزيـارة كـانت لحظـة تاريخيـة ، وبـلا شك كانت حجر الزاوية فى صنع السلام بين مصر وإسرائيل . ورغم سبه وشتمه فـي العواصم العربية على كسره للتابو الإسرائيلى ، فإن السادات اكتشف أن الحواجز التى تعوقه عن إنجاز أهدافه مازالت قائمة ، وكان على بيجن أيضا أن يصـارع إعـادة هـذا التفكير المؤلم .

الفصل العشرون

الطريق الصاروخى إلى كامب ديفيد

لقد كان من المدهش حقا أن يتم التوصل إلى اتفاقية والتوقيع عليها فى ظل ما ساد من تيارات صراعية ، وسوء فهم ، ومحاولات حفر ألغام لقاطرة السلام ، ومن المؤكد أنه بدون أنور السادات وعقليته المتفردة وعدم اكتراثه بالنصح الحاد الذى تلقاه من وزرائه ومسئوليه ما كان أى اتفاق ليتم .. وحتى الذين انتقدوه انطلاقا من عدم استحسان ماكانت تنشده إسرائيل وتتمناه ، كانوا معجبين من شجاعته فى أخذ مصر بعيدا عن الحرب إلى السلام ، حتى لو كان هذا السلام قد بقى باردا .

أما فيما يتعلق ببيجن وجيمى كارتر فقد أسئ تقدير دوريهما ، حيث كان على بيجن أن يصنع قرارات مؤلمة ، مغيرا بذلك المفاهيم التى كانت جزءا من أيديولوجيته ، وبناء على هذا التحول لدى بيجن كان من الضرورى أن تؤول الثقة إلى موشى ديان ، وبدرجة أقل إلى عيزرا وايزمان . . وكان على جيمى كارتر أيضا أن يغير استراتيجيته الكلية وأن يهجر العديد من المفاهيم وأن يعترف بجهله بالمسائل المعقدة التى تجعل السلام الشامل الذى ينضوى تحت لوائه كل العرب مستحيلا . . كما لم يكن من قبيل العدل ألا يحصل السادات وبيجن على جائزة نوبل للسلام .

لقد كانت هناك ملامح مؤلمة وهزلية نجمت عن زيارةالسادات للقدس .. وفى معظم أنحاء العالم العربى كانت هناك معارضة وذعر ، ولكن هذه المعارضة لم تتخذ أيا من وسائل الإجماع . فالأسرة الملكية السعودية نادت مرارا وتكرارا بالتسوية الشاملة التى تضم الفلسطينيين ، ومع ذلك كان هناك رد فعل قوى من قبل المملكة العربية السعودية ، كانت أهم مظاهره ما جاء على لسان الملك خالد بعد صلاة عيد الأضحى بالكعبة : " كنت دائما أذهب للكعبة لأدعو للبعض ، لا لأدعو على أحد ، لكن فى هذه المناسبة وجدت نفسى أقول : اللهم حطم الطائرة التى تقل السادات إلى القدس قبل أن تصل ، حتى لا تصبح فضيحة لنا جميعا ، وإننى كنت خجولا من أننى دعوت فى الكعبة على المسلمين " .

وأضاف الملك خالد - طبقا لما يرويه هيكل - أنه من المحال أن يضع يده فى يد السادات ، وإذا تطلبت الضرورة السياسية الاتصال فإنه سيخول مثل هذا الأمر إلى

أخيه الأمير فهد ، وعلى حد تعبيره : " لكن بالنسبة لى . . أبدا ، فقد سبب السادات فضيحة لكل العرب والمسلمين " . . ورغم ذلك فقد كان رد الفعل السعودى صامتا .. إذ ، طبقا لوزير الخارجية المصرى محمد إبراهيم كامل ، لم تقم السعودية – وعلى خلاف العديد من الدول العربية الأخرى – بقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر ، بل التحقت بالأردن ودول الخليج فى تكييف اتجاه معين قوامه انتظار ما ستسفر عنه الأحداث .

بينما مالت بعض الدول العربية الأخرى بحماس إلى السادات وزيارته الدراماتيكية ، وكان على رأسها الملك الحسن الثانى ملك المغرب ، والذى لم يكن دوره فى إقامة اتصالات بين بيجن والسادات مفاجأة ، والتحق السودان بالمغرب ، لاسيما أن زعيمه نميرى كان يرتبط بعلاقات صداقة حميمة مع السادات .. والتحق بهما كذلك السلطان قابوس ، سلطان عمان .

فى حين جاءت معارضة السادات من قبل الدول الراديكالية (سوريا ـ العراق ـ الجزائر ـ ليبيا ـ اليمن الشمالية) ، وقد شكلت هذه الدول مع منظمة التحرير الفلسطينية ما أطلق عليه جبهة الرفض ، والتى اتخذت موقفا عدائيا متطرفا من مبادرة السادات ، ونادت بأنها خيانة للقضية العربية ومؤامرة من قبل السادات لإقامة سلام منفرد مع إسرائيل ، وبدوره قام السادات المزدرى بقطع العلاقات الدبلوماسية معها .

وكان السادات قد قرر أن يحتفظ بخطته لزيارة القدس حتى عن زوجته جيهان ، والتى فوجئت بتصريحه للبرلمان ، وحينما عاتبته على كتمانه اعترف بأنه كان يفكر فى الأمر لمدة شهور ، وأنه توصل إلى استنتاج بأن هذا كان هو الطريق الوحيد لاستعادة سيناء ، وإزالة الحاجز النفسى الذى فصل بين اليهود والعرب . ويذكر أنها – أى جيهان – تلقت مكالمات تليفونية عديدة لإقناع السادات بأن يغير رأيه ، ولكن دون جدوى .

يذكر كذلك أنه كان من بين أقوى الخصوم وزير الخارجية إسماعيل فهمى – ونائبه محمد رياض ـ الذى استقال ، وتم تعيين محمد إبراهيم كامل خليفة له .

وقد ارتكب السادات خطأ بعدم مناقشته المسألة مع كامل ، ولكن على أية حال ، فإن السادات قد أعطى قليلا من الانتباه لوجهات نظر مسئولى وزارة

الخارجية ، كما علم بصورة سرية أن الرجل الذى شاركه السجن فى شبابهما المأساوى لم يكن الرجل الصلب ، والدبلوماسى المحنك كما تخيله ، وإنما كان عدم فهمه لأهداف السادات والحجج الإسرائيلية أمرا هزليا ، بل ومحزنا أيضا .

غير أن الجماهير المصرية كانت سعيدة بمبادرة زعيمها وشجاعته ، متناسية المظاهرات التى كانت تطالب بالمزيد من الغذاء الرخيص ، كما تمت تحيته على أنه بطل السلام . ومن جانبه اهتز السادات طربا من المديح الذى كان يتلقاه من شعبه بصورة أكثر مما توقع ، وأصبح الإسرائيليون الذين كانوا موضوعا للسباب ، يتم الترحيب بهم فى القاهرة ، كما بدأ المصريون يحلمون بحياة أفضل عبر الأموال الأمريكية ، واختلطت بأذهان المصريين العاديين صيحات : لا حرب ، لا أرامل ولا يتامى ، كما كانوا منسجمين أيضا مع كتابات المؤلفين المشهورين مثل نجيب محفوظ. كما تحمست كل الصحف المصرية لامتداح السادات وشجاعته ، فى حين عبرت البيروقراطية والجيش عن استحسانهما .. وقد وصفت مجلة أكتوبر الناطقة بلسان السادات الزعماء العرب الرافضين مثل القذافى وبومدين بأنهم فئران وقرود ، بل ووصفهم السادات نفسه بالأقزام . وحتى كامل الذى كان مذعورا حينما علم أن السادات سيخاطب الكنيست وجد أنه ليس هناك مبرر لأن يكيل القذافى الشتائم ، متسائلا : ماذا قال السادات فى القدس ؟ إنه بإقدام وشجاعة وأمانة ترجم مبادئ القانون الدولى وقرارات الأمم المتحدة فيما يتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى .

وطبقا لكامل ، فإن بيجن هو الذى حاول أن يخدع السادات ، وأن إسرائيل كان ينبغى عليها أن تقبل عرض السادات على وجه السرعة ، لذلك فإن مصر كان يجب ألا أن تقدم أى تنازلات أكثر ولا مناقشة سيادة الأرض العربية ، وما كان ينبغى مناقشته فقط هو مسائل الأمن والعلاقات السلمية . وبوضوح يبدو أن كامل لم يكن واضعا فى ذهنه اتفاقية سلام كامل أو تطبيع العلاقات بين الجيران ، ومن ثم فقد انزعج من أن السادات قد حوصر ، وأنه سيوقع سلاما منفردا مع إسرائيل .

وقد استراح كامل قليلا لتحليل الموقف القائل بأن : لا مبادرة السادات سوف تنجح فى التوصل إلى اتفاقية سلام شامل وحقيقى يسترد العرب بموجبها كل

أراضيهم، ولا إسرائيل سوف تظهر أمام العالم على أنها دولة ظالمة (مستبدة) ، والاستنتاج الواضح هو أن العالم سيجبر إسرائيل على الإقلاع عن احتلالها للأراضى، ومع ذلك قال كامل إنه رأى العامل الذى سوف يقوض مبادرة السادات ويؤدى إلى تدميرها ، وفى هذا الخصوص يقول كامل :

" هذا العامل غير المعروف ، آخر شئ كان من الممكن أن يخطر ببالى ، كان السادات نفسه : نوبات الغيرة التى كانت تنتابه ، تصرفه المتهور ومبالغته فى التركيز على النجاح .. كلها أشياء كانت تدفعه إلى الدفاع عن موضوعاته الخاصة ، إنه وقع ضحية للمنبهات التى تفشل القلة فى الرضوخ لها ، وكلها تتفرع عن مبادرته : الآمال بأن الملايين سوف ترتبط بالسلام ، الحرقة من هجوم إخوانه العرب ، عدم مرونة بيجن ونكثه العهود .. وأخيرا ، حقيقة كونه تعاطى منوما مغناطيسيا بواسطة السراب الأمريكى الخادع ، والذى كان يتبعه عبثا " .

هذا التصعيد أصبح أكثر ذيوعا فى ضوء محدودية عقل محمد إبراهيم كامل ورؤيته الضيقة بالمقارنة برؤية السادات ، ولكنه أدى إلى نوع من المعارضة ، تطلب من السادات أن يواجه حتى ما أطلق عليه الدول العربية المعتدلة ، وعلى المستوى الشخصى بدا السادات متمتعا بالقلق الذى كان يخلقه .

وقد بدأ الشعور بالسعادة يقل حينما دعا السادات إلى عقد مؤتمر للسلام بفندق مينا هاوس المقابل للأهرامات بعد شهرين من زيارته للقدس ، وكان من المقرر أن يحضر المؤتمر القوى العظمى وكل الدول الحدودية مع إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، ورغم رفرفة العديد من الأعلام العربية ، بما فيها علم منظمة التحرير الفلسطينية ، لم يحضر سوى الوفدين الإسرائيلى والمصرى ، وقدم كل منهما مواقفه التقليدية ، ولم يحدث أى تقدم .

وعندما زار عيزرا وايزمان السادات بعد ذلك بفترة قصيرة وجده متفائلا بخصوص التسوية ، لكن كانت هناك دلائل على نفاد صبر السادات من جراء الفشل فى التحرك إلى الأمام ، وأنه ما زال يهاجم من قبل أقزام جبهة الرفض ، كما كان السادات شغوفا بأن يبرهن على أن زيارته للقدس كانت شجاعة وكانت تصرف رجل دولة ، وحينذاك أخبر

وايزمان أنه على استعداد لقبول التطبيع الكامل فى العلاقات مع إسرائيل على أساس موافقة بيجن على إخلاء الأراضى العربية وإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية .

إن السادات كان مازال يعيش فى وهم أن بيجن يمكن أن يستجيب لمثل هذا السلوك المتفاهم . بينما وجد وايزمان – الذى كان يزور القاهرة كوزير للدفاع للتباحث مع اللواء الجمسى – القليل من التفاؤل والقليل من الترحيب من المؤسسة العسكرية .

فى حين أدت القمة التى عقدت بين السادات وبيجن إلى أن أصبحت الأمور أسوأ وليس أفضل ، ويذكر أن السادات اختار مدينة الإسماعيلية لأنه لم يكن متأكدا من نوعية الاستقبال الذى كان بيجن سيلقاه بالقاهرة من الشعب المصرى ، ولم تكن هناك أعلام إسرائيلية لتحية الزائر الإسرائيلى ، ولا ازدحام للتلويح والتهليل ، ومع ذلك افتعل السادات بعض الصبر لمحاولة التوصل إلى بعض الاتفاق الأساسى مع بيجن ..ورغم أن بيجن لم يسلم من بعض النقد من جراء دعوته السادات لزيارة القدس فإنه كان لابد أن يكيف اتجاه رد الخط الصعب حتى يتجنب إعطاء مؤيديه انطباعا بأنه أصبح لينا وأنه خضع لذكاء النجم المصرى .

إن بعض مشاعر التعاطف تثور لصالح السادات – لو أن حساب كامل صحيح– نظرا للطريقة التى خاطبه بها بيجن وفخ الأسئلة الذى نصبه له مثل : ألم تحشد القوات المسلحة المصرية فى سيناء فى عام ١٩٦٧ ؟ .. ألم تغلق مضيق تيران ؟.. ألم تكن هناك مظاهرات تنادى بإغراق إسرائيل فى البحر ؟ .. ألم تكن هناك ملصقات إعلانية فى القاهرة تدعو الجيش المصرى لدخول تل أبيب فى ٣ أيام ؟ .. ألم تطلب من قوات الطوارئ الدولية الانسحاب من سيناء ؟

وقد أجاب السادات بنعم على كل هذه الأسئلة ، وانتظر حتى انتهى بيجن من أسئلته ثم علق قائلا : " نحن نجلس حول مائدة التفاوض حتى ننسى الماضى ونقيم سلاما شاملا ونهائيا " . بينما أجاب بيجن – طبقا لكامل – قائلا : " إن حرب ١٩٦٧ كانت عدوانا من جانبكم ، وإسرائيل كانت فى حالة دفاع شرعى ، وبالتالى فهى محقة فى الاحتفاظ بالأراضى التى احتلتها أثناء الدفاع عن نفسها ضد العدوان ".

كذلك أعلن بيجن أنه أحضر معه مشروعين ، الأول : خاص بالانسحاب من سيناء ، والثانى : عبارة عن خطة للحكم الذاتى فى الضفة الغربية . وأضاف أنه حال توقيع اتفاقية سلام فإن الجيش المصرى يمكن أن يقيم على خط لا يصل إلى ما وراء ممرى متلا والجدى . بينما باقى سيناء سوف يكون خاليا من القوات ، ومن جانبها ستبقى إسرائيل على المطارات الحربية ومحطات الإنذار المبكر ، أما المنشآت الإسرائيلية ما بين رفح والعريش ، وإيلات وشرم الشيخ فسوف تتحول إلى منشآت مدنية تخضع لحماية القوات الإسرائيلية .

وقد زعم بيجن أن هذه الخطة قد حازت قبولا من الرئيس كارتر ومن وزير الخارجية البريطانى .

وهكذا تملك كامل الذى تم تنصيبه وزيرا للخارجية غضبه بصعوبة بالغة ، إذ لم تكن بداية موفقة للفترة القصيرة التى قضاها وزيرا للخارجية ، فى حين أكد السادات أن الكثير من المسائل قد أنجز خلال زيارته للقدس ، ولكن مازالت هناك اختلافات واضحة موجودة بين الطرفين ، فسيناء أرض مصرية وإنه لم يستطع قبول القوات الإسرائيلية هناك ، وإنه إذا قال لشعبه إن صديقه بيجن أراد الإبقاء على المنشآت الموجودة بسيناء فإنهم سوف يقذفونه بالحجارة . وعلى كل حال فإن اتفاقية السلام لم تكن ليتم التوصل إليها خلال لقاء واحد ، والمهم حقيقة هو الإقرار بأن المحادثات ينبغى أن تستمر . وفيما بعد أعلن عن الفشل التام للقاء الخاص خلال مؤتمر صحفى . إن السادات أذهل وزير خارجيته متقلب المزاج باستخدام الشرط الإسرائيلى بالضفة الغربية .. وفى الحقيقة فإن هذه لم تكن بداية سعيدة لكامل ، خاصة أن السادات – فى إشارة عشوائية قصد بها أن يظهر لضيوفه الإسرائيليين أن هناك عهدا جديدا من الصداقة – اقترح على كامل أن يكون أداء اليمين فى حضور الإسرائيليين ، أما كامل فقد أبدى عدم سروره .. ويزعم كامل أن البرتوكول تم فى جزء من الحجرة بعيدا عن الإسرائيليين .

بيد أن وايزمان لم يلاحظ مثل هذا التنازل ، وبكثير من الاحترام فإن حسابات كامل ووايزمان لم تختلف .. إذ كتب وايزمان عن نفاد الصبر الذى شعر به هو وديان من جراء

توصيف بيجن المطاط لخطط السلام والحكم الذاتى .. وكم كان الجو لا يطاق لدرجة أن السادات أمر الجرسون أن يفتح شباك الحجرة التى امتلأت بدخان السجائر ، وعندما تطلبت المناسبة استفاضة خيالية للمبادئ العظيمة أصر بيجن على التركيز على أصغر التفاصيل لخططه ، مستعرضا بإسهاب الآراء القانونية لفقهاء القانون الدولى .

وطبقا لعيزرا وايزمان فإن الرئيس المصرى قد علم بمضامين خطط السلام والحكم الذاتى من الأمريكيين ، ومع ذلك لم يقاطع السادات المسلك السيئ الذى ضايق الإسرائيليين أنفسهم . طبقا لوايزمان أيضا ، فعندما قال كارتر إن خطة الحكم الذاتى شيقة جدا قام مساعدوه بامتداحها ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنهم حينما فحصوها تولدت لديهم استنتاجات بأن إقامة الدولة الفلسطينية أمر لا مفر منه .. وأن بيجن سقط فى الفخ وعاد من الولايات المتحدة متباهيا بالنجاح الخالص ، إنه لم يفهم الاتجاه الحقيقى لكارتر ، لدرجة أنه علق " لم أقابل ذكيا مثل هذا منذ جابوتنسكى " .

لقد كانت هناك فرصة حقيقية للتقدم فى الإسماعيلية تم تفويتها ، حيث خرج السادات عن أسلوبه ليبدو لطيفا ، كما ذكر أن هذا هو عيد ميلاده التاسع والخمسون وأنه سعيد بتلقى التهنئة الرسمية من بيجن . ورغم تنصله من فكرة العيش ١٢٠ سنة – كما تقررها الأمنيات اليهودية الطيبة – فقد علق السادات : " هذه هى المرة الأولى التى نجلس فيها معا منذ أن عبر موسى البحر الأحمر ، حيث لم يكن بعيدا عن هنا .. نحن نجلس معا لكى نقيم السلام والحب ، ذلك الحب الذى سيظلل دوما بيننا ، بدلا من الحقد والكراهية التى سادت خلال السنوات الثلاثين الماضية " .

وربما للمرة الأولى خلال هذا اللقاء المجهض يجد بيجن الكلمات الصحيحة ، حيث قال : " عندما قادنا موسى إلى خارج مصر استغرق ٤٠ سنة لكى يعبر صحراء سيناء ، واليوم نفعلها نحن فى ٤٠ دقيقة ، نحن لن نقوم فقط بصنع السلام ، وإنما سنصبح أصدقاء " .

ومع ذلك انتهى اللقاء بصورة مبتذلة ، حتى اللجان السياسية والعسكرية التى كان السادات قد أعلن عنها قد أثبتت عدم جدواها ، ورغم أن وايزمان كان سعيدا لأن السادات وافق على أن تكون القدس مركز اللجنة السياسية ، فإن هذه الحقيقة قادت

إلى مواجهة خطيرة ، ولا عجب أن كان المفوضون الإسرائيليون مكتئبين ، لأنهم عادوا إلى إسرائيل ، بينما بيجن فقط هو الذى كانت حالته المعنوية مرتفعة .. ظهر ذلك جليا فى تنكيته مع الصحفيين الذين كانوا يغطون القمة ، ولكنه سرعان ما علم أن شعوره بالسعادة لم يكن فى محله .

ولاحظ وايزمان شعوريا ما أراده السادات من بيجن ، وأن ما رفض بيجن أن يمنحه إياه كان إشعارا بالموافقة يمكن أن يؤثر على مطارديه العرب ، حيث بدا السادات متضايقا من جراء نعته بأنه خائن للقضية العربية بعرضها للبيع للعدو الإسرائيلى المنبوذ .

ومع ذلك أثارته إسرائيل برفضها الارتباط معه بصداقة ، وتقديمها طلبات لم يكن ممكنا بالنسبة له قبولها .

ليس هناك أدنى شك فى أن كلا من السادات وبيجن كانا يريدان السلام لكن طرقهما وأهدافهما كانت مختلفة كلية .. فالسادات كان أشبه بالشاعر ، وبيجن كان أشبه بالمحامى ، السادات كانت عباراته ذات دلالة ، وبيجن كان يخوض فى التفاصيل المملة .. بالنسبة لبيجن كانت سيناء هى المكان الوحيد الذى يمكن أن ترد عليه تنازلات ، وأن أراضى الضفة الغربية لها من القداسة ما يدفع إلى عدم التفريط فيها وخلق حقائق جديدة ، أما بالنسبة للسادات فإن استعادة كل بوصة فى سيناء أرضه كانت لابد أن تكون بداية عملية الانسحاب من قبل إسرائيل .

ولم يكن السادات يصطدم ببيجن فقط ، وإنما أيضا كان يصغى لشكاوى وزير خارجيته الجديد " كامل " ومسئوليه . ناهيك عن أن أفكار كامل كانت مناقضة لأفكار السادات ، خاصة أن نظرة الأول الكلية كانت لا تختلف عن تلك النظرة التقليدية للساسة العرب من حيث كون إسرائيل وافدا شيطانيا وكيانا أقيم على الأراضى العربية ، كذلك أعطى كامل الانطباع بأنه وجد صعوبة حتى فى أن يتحدث إلى بيجن وديان بطريقة ودية .

وعندما سافر كامل إلى القدس ليبدأ عمل اللجنة السياسية أعد الإسرائيليون والمصريون مقترحات متناقضة كلية ، بينما أعد الأمريكيون أجندة محايدة .

يذكر أن السادات استدعى كامل لحضور اجتماع لمجلس الأمن الدولى ، ذلك الاجتماع الذى ساده صدام مفتوح أذهل الأعضاء ، ثم قيل لكامل أن يذهب إلى القدس بعد الظهر وأن يستخدم المقترحات الأمريكية التى لم يرها .

ولكن كامل الغضبان قال إنه يجب أن يدرس المسودة الأمريكية بصورة كافية أولا قبل أن يغادر القدس . فغضب السادات وصرخ " هل أنت خائف من الذهاب إلى القدس ؟ " فأنه أجاب بأنه لا يخشى شيئا ولا أحدا .

وفجأة جاءت مكالمة تليفونية للسادات ، الذى عاد مزهوا قائلا إنه كان يتحدث إلى الرئيس كارتر الذى أخبره بأن سيراس فينس سوف يرأس الوفد الأمريكى وأنه سوف يصل إلى القدس فى اليوم التالى ، كما أنه سوف يشارك فى محادثات اللجنة السياسية مع الإسرائيليين والمصريين .

وعلق كامل على ذلك بأن السادات بدا متوترا نتيجة عدم تأكده من مشاركة فينس فى اجتماع اللجنة السياسية ، لكن كامل تهيأ فى الحال للذهاب إلى القدس ، واضعا نصب عينيه أنه سيتعامل فقط مع نقطة مفتوحة بخصوص إعلان المبادئ ، وإذا لم يتم التوصل إلى إتفاق فإن ذلك لن يكون مبشرا بالنجاح . عائق آخر أكثر خطورة كان فى الطريق يتمثل فى أن المصريين تلقوا تقارير بناء منشآت فى سيناء ، ومع ذلك كان الموقف أكثر خطورة عما تخيل كامل .

وصف وايزمان الهلع المفاجئ الذى انتاب إسرائيل حينما بزغت حقيقة أن إسرائيل سوف تقلع عن شبه جزيرة سيناء ، مقررا أن كل شخص فى إسرائيل - مدنيا أو عسكريا - اعتاد أن تكون سيناء حماية ضد أى هجوم مصرى مفاجئ كما حدث عما قريب فى ١٩٦٧ ، وأن التخلى عنها سوف يكشف إسرائيل استراتيجيا .. وأن العديد من الزعماء الإسرائيليين لا يثقون بالمصريين ، لدرجة أن وايزمان نفسه أصبح موضوعا للنقد .. لماذا يبدو ودودا إزاء السادات والمصريين الآخرين ؟ .. ثم أين كانت العقول الإسرائيلية الذكية التى تعاملت مع خداع السادات ؟

بل إن وايزمان نفسه ، مع كل رغبته العاطفية تجاه السلام ومع كل فهمه العميق لأنور السادات ، تجاهل التعليق الشهير الذى ألقه ديان بأن " شرم الشيخ بدون سلام أفضل من سلام بدون شرم الشيخ " .

وقد كتب وايزمان : إن عقلية التآمر هذه هى التى جعلت كل فرد فى إسرائيل يبحث عن الطرق اللازمة للإمساك بسيناء قبل فوات الأوان ، وأن شارون -وزير الزراعة - قال إن شيئا ما يجب أن يبنى فى سيناء لخلق وقائع على الأراض وأيده فى ذلك موشى ديان ، ويعد هذا مناقضا للدور الذى قام به ديان فى قمة السادات - بيجن من خلال قوله للمصريين إن إسرائيل على استعداد للتخلى عن سيناء من أجل السلام ، لكن تفكير ديان كان دائما معقدا ، يصعب التنبؤ به .

وقد مثل هذا الاقتراح صدمة لوايزمان الذى اعتبره طعنة فى ظهر عملية السلام . صحيح أن وايزمان - مثله مثل الآخرين - كان ينظر إلى شارون على أنه استراتيجى عظيم وأنه أعظم قائد محارب فى ذلك الوقت ، ولكن رؤاه السياسية قد تقود إلى نتائج سيئة .

وكانت الخطة التى دعمها شارون بالخرائط وتم قبولها على وجه السرعة من قبل الأغلبية فى مجلس الوزراء تقضى بأنه لو رضخ المصريون " للاستعمار " الإسرائيلى ، فإن الخطة تكون قد تم إعمالها ، وإذا رفضوا فإن الإسرائيليين - حال إقلاعهم - سوف يشيرون إلى أن لديهم الحق فى الإبقاء على المنشآت الموجودة .

وكما كان متوقعا ، تصرف المصريون بحرقة ، حتى السادات الذى أظهر الكثير من الاحتمال إلى الآن عبر عن رفضه واستنكاره .

ففى مقابلة له مع مجلة أكتوبر قال السادات : يبدو أن إسرائيل فشلت أو رفضت أن تفهم أنه - فى زيارته للقدس - قدم أكثر مما كانت تحلم به : اعتراف وشرعية وجود وسلام معاصر مع جيرانها العرب ، وصرح السادات بأنه لن يسمح بتسوية منفردة مع إسرائيل تبقيها على التراب المصرى ، ولو أراد بيجن أن يحرق هذه المنشآت قبل الإخلاء فإنه حر فى أن يفعل ذلك .

ويزعم كامل أن بيجن استشاط غضبا وقال : نيرو فقط هو الذى حرق المدن ، وأجاب السادات قائلا : إنه لم يقل يحرق (burn) بل قال يحرث (Plough) ، وهما كلمتان يمكن أن يربكا بسهولة فى اللغة العربية .

وفى معرض تعليقه على هذا الاختلاف قرر كامل بأنه شئ غير مهم أى الكلمتين استخدمت ، ومع ذلك فإن الاستخدام الصحيح للكلمات يعتبر أمرا حيويا فى النزاع ، وأن الفشل فى ذلك قد يؤدى إلى مشاكل عديدة ، وأضاف كامل أن فكرة المنشآت الدمى (جمع دمية) تمثل إحياء للعصر الذى تم فيه اكتناز الأشياء الثمينة كالذهب والعاج والعقود الفريدة .... الخ ، وهذه إهانة ، ولا أرى أن شيلوك كان سيفعل أكثر مما فعله بيجن لو كان حيا فى عصرنا .

وعند وصوله إلى مطار بن جوريون استقبله ديان الذى دعاه إلى أن يقول بعض الكلمات ، وفى استعراضه خطابه المعد أظهر كامل سذاجة مفاجئة حينما قال : (ذكرت أن هناك حقائق أساسية يجب مواجهتها بشجاعة وتبصر ، هذه الحقائق هى أن السلام لا يمكن أن يقام والأراضى محتلة أو الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى بما فيها حق تقرير المصير منكرة) ، ولا يمكن أن يقام السلام النهائى إذا لم تجاهد شعوب المنطقة لخلق الظروف المؤدية إلى العيش معا فى سلام وأمان .

وكان كامل مندهشا من أن يتلقى رسالة من السادات ، . وقال كامل : " إنه اعتبر أن خطابى فى المطار كان عنيفا وطلب منى الآن أن أضبط نفسى وأن أبتعد عن الفرقعات وأن ألتزم الصبر فى المفاوضات " .

وكما كان متوقعا لم تكن الجلسة الافتتاحية مثمرة بالمرة ، إذ رأى كامل ديان كثعلب ماكر ، وتبادل الاثنان الشكوك .. ولأن السادات كان يتلقى تقارير خاصة عن عدم سعادة كامل ، فقد أرسل إليه رسالة يعرب فيها عن أمله فى أن يحتفظ بهدوئه ، وأن ينضبط فى خطابه .. كذلك كان كامل قد تلقى تعليمات بأن يستشير القاهرة كلما واجه صعوبة .. وقد علق كامل على ذلك قائلا : " لقد أدهشنى ذلك لأن هدوئى لم يفارقنى " .

وهكذا بدأ السادات يقلق من وزير خارجيته الجديد ، كما أنه أكثر من مرة أوقفه عن الرد بحدة على عبارات بيجن ، وهكذا أيضا امتلأ الهواء بسوء الفهم .

لقد اعتقد بيجن أن السادات كان على استعداد لسماع خطته الخاصة ببقاء المنشآت الإسرائيلية فى سيناء ، لكنه اندهش من رد فعل السادات القوى ، أما كامل فقد كان غاضبا لأنه يوم وصوله صرح راديو إسرائيل بأن بيجن قال إن السادات أخبره بأن زعماء منظمة التحرير الفلسطينية عملاء سوفييت ، فقام كامل بدوره بشد بيجن على ذلك مرتأيا القصة على أنها إهانة علنية لمصر ، ومدعيا - من خلال الخبرة التى اكتسبها من عمله فى الراديو المصرى - أن الراديو الإسرائيلى قد أمر بأن يذيع ذلك .. وبناء على ذلك أخبر بيجن المندهش كامل بأن هذه هى الكلمات التى قالها السادات بالضبط حينما كان يتحدث معه ، وأن القصة وصلت لمحطة الراديو بطريقة ملتوية . كان كامل مقتنعا بصعوبة بأن يدلى السادات بمثل هذا التصريح ومشيرا إلى أن راديو إسرائيل حر فى إذاعة ما شاء من أخبار .

وفى الحقيقة .. لا كامل ، ولا بيجن أظهر ثقة فى الآخر منذ الخلاف الذى حدث على المأدبة التى أعدتها الحكومة الإسرائيلية للوفد المصرى ، كما علق فينس على ذلك فيما بعد : " كان بيجن أقل حصافة ، لكن من المؤكد لو كان السادات حاضرا لما انتهت المناسبة بعدم الاتفاق " .

ففى خطاب طويل ، وبنفس أسلوبه من حيث الإشارة إلى بداية الأمة اليهودية وقتلها الهولوكست عبر بيجن فجأة عن أن كامل اقترح إعادة تقسيم القدس ، عاصمة إسرائيل ، كيف استطاع كامل أن يطالب إسرائيل بالانسحاب إلى حدود ما قبل ١٩٦٧ ؟ هل نسى أن الإسرائيليين كانوا يدافعون عن حياتهم ضد العدوان العربى ؟ ... ثم كيف يدافع عن إقامة دولة فلسطينية ؟ دولة إرهابية على حدود إسرائيل سوف تذبح النساء والأطفال .

وفى حيثيات رفضه لتقرير المصير الفلسطينى قال بيجن إن كامل كان شابا ولم يكن واعيا بأن هتلر استخدم تقرير المصير ليضم أجزاء تنتمى إلى تشيكوسلوفاكيا ودول أخرى إلى الأراضى الألمانية .

ولو كان كامل يعرف بيجن أفضل لكان قد فهم أن ذلك ليس خطابا عدائيا ، إن كان من ذلك النوع من الخطابات الذى كان بيجن يلقيه كل يوم ... إنه لم يقل شيئا لم

يتم التأكيد عليه فى الإسماعيلية أو ردا على خطاب السادات فى الكنيست . صحيح أن المناسبة كانت تتطلب نوعا مختلفا من الخطاب ، لكن بيجن لم يكن مؤهلا لأن يلقى خطابا طبيعيا يتسم بروح الفكاهة والمرح بعد العشاء .

ومع ذلك لم يكن كامل مؤهلا للتعامل مع مثل هذا الموقف بهدوء ودبلوماسية ، لدرجة أنه خرج عن شعوره ممزقا الخطاب الذى أعده ، معتبرا أن ذلك سيكون له تأثير فى زجر بيجن .

وفى اليوم التالى ذهب كامل المثار لينام بعد الظهر بعد المفاوضات مع سيراس فينس ، ولكنه أوقظ وتلقى رسالة عاجلة من السادات مفادها أن يعود كامل ووفده إلى القاهرة والسبب فى ذلك الاستدعاء - تلقى كامل تعليمات بأن يقول ذلك - كان سلوك الحكومة الإسرائيلية كما ظهر من خلال بيجن وديان ، بينما شعر كامل بأن الاستدعاء خطأ ، وسوف يترتب عليه قول الإسرائيليين بأن المصريين ليسوا جادين بخصوص السلام ، وعلى الفور اتصل بالقاهرة لكنه أخبر بأن القرار لا رجعة فيه .

وواقع الأمر أن كامل كان على حق حينما شعر بالحيرة ، حيث سبب الاستدعاء لم يكن مقنعا ، والاحتمال الراجح هو أن السادات لم يقل سبب الاستدعاء لأحد .. إنه لم يكن باستطاعته الاعتماد على وزير خارجيته الذى لم يكن ذواقا لسياساته السلمية لكى ينجزها بفاعلية ، وكان أيضا من قبيل الخطر - من وجهة نظر السادات - أن يتعامل وزير الخارجية منفردا مع بيجن وديان .. إنه كان الوقت الذى كان يجب على السادات فيه اعتلاء مركز خشبة المسرح ، وبالإمكان أن يتم هذا بواشنطن فقط ، إنه الطريق إلى السلام .. الذى بدا سهلا مثل الوقوف على منصة الكنيست ، والذى سيثبت الآن أنه ملئ بالصخور وفوهات البراكين .

الفصل الحادى والعشرون

المساومة من أجل السلام

الوهم والحقيقة

بالنظر إلى طبيعة الموقف بعد معركة " كامل " بالقدس وخطة إسرائيل لبناء منشآت هيكلية فى سيناء وإصرار الرئيس جيمى كارتر على طلبه فيما يتعلق بعدم إنجاز اتفاقية سلام شامل ، لم يكن من السهل على السادات من الناحية العاطفية أن يسامح فى أن زيارته الدراماتيكية للكنيست قد أصيبت بالفشل ، ولا أن يسامح نفسه على توقعاته غير الحقيقية .... وهناك شك - رغم إعطائه تطمينات أو انطباعات على خلاف ذلك - فى أن السادات كان مستعدا فى هذه اللحظة لتوقيع اتفاقية سلام شامل . تتضمن تبادل السفراء وإقامة علاقات ثقافية واقتصادية مع إسرائيل فى مقابل سيناء فقط .

ومع ذلك ، فإن كل سيناء لم تكن معروضة على السادات ، حيث أراد الإسرائيليون الإبقاء على المطارين والمنشآت ، وقد استخدم عيزرا وايزمان كل ثقله وصداقته لدى السادات لإقناعه أثناء لقائهما بأسوان بأنه ينبغى أن يقدم تنازلات ، وكم كان السادات سعيدا حينما سمع وايزمان يصف رحلته إلى القدس بأنها تعادل هبوط أول إنسان على سطح القمر ، ولكن وايزمان استمر فى القول بأن الإنسان الذى هبط على سطح القمر عاد أيضا إلى الأرض .

وكان من المعتقد أن تكون إجابة السادات قاطعة لكل الشكوك حيث أجاب : " أعرف شعبى وأؤمن بحبه للسلام ، ويجب عليكم أن تفهموا أننى أتحدث عن السلام الكامل والحقيقى من حيث تبادل السفراء والعلاقات التجارية وكل شئ ، إنكم سوف تنالون سلاما كاملا ، لكن أولا يجب أن استرد ذلك الجزء من الأرض الذى أخذتموه منا " .

ومع ذلك ، يذهب ديفيد كيمحى فى دعواه إلى أن هذه القاعدة الأساسية الأولى فى مطالب السادات لم تكن هناك إمكانية للسيطرة عليها فى هذا الوقت .

إن مشاعر السادات الحقيقية تم الإفصاح عنها حينما اشتعل غضبا من التغييرات التى أدخلها بيجن على خطة الحكم الذاتى بالضفة الغربية ... وطبقا لرواية وايزمان فقد تنبه بيجن لمخاطر خطته ، والتى كانت تتشابه مع زيارة السادات للقدس من حيث أن كلتيهما كانت مبادرة فردية ، وكانت الخطوات الأولى للملحق - الذى أضافه بيجن - تعنى وتمثل نذيرا بدايات الدولة الفلسطينية .

ونتيجة لذلك ، أدخل بيجن ١٥ تعديلا على خطته ، وكان السادات قد عرف خطة الحكم الذاتى من البيت الأبيض ، وبدت إسرائيل وكأنها تزيد من عدد العراقيل المانعة من التوصل إلى اتفاق .

لم يستطع السادات أن يظهر معزولا عن الفلسطينيين ، ولو فعل ذلك سوف يؤكد الاتهامات الموجهة إليه من قبل جبهة الصمود ، وسوف تبلغ الهجمات الموجهة ضده درجات أعلى .... وكان وايزمان قلقا من المهاترات المتبادلة ، كما أخذ بجدية ما تنشره صحف القاهرة ضد اليهود ، لدرجة أن وزير الدفاع استدعى أعضاء هيئة الأركان ونصحهم بالاستعداد للأسوأ . إنه شئ لا يصدق ، فقد أصبحت ممكنة الوقوع ثانية !!

وربما كان هذا رد فعل مبالغا فيه من قبل عيزرا وايزمان ، لأنه حتى وإن كان عقله قد تحول ثانية للحرب ، فإن السادات لم يكن يملك الوسائل لخوض الحرب ، إذ لم يكن لديه شركاء ، ولا أسلحة مناسبة ، كما لم يكن بإمكانه الاعتماد على عنصر المفاجأة . ولكن الحقيقة تقريبا هى أن نية وايزمان فى إمكانية الحرب كانت تأكيدا تراجيديا لامكانية فساد العلاقات بين الدولتين فجأة واستمرار هذا الفساد .

وفى ظل هذا الموقف المحبط ، وتحديدا فى فبراير ١٩٧٨ أضاف السادات أهمية مشروطة لزيارته للولايات المتحدة ، وفى طريقه لواشنطن مر السادات على المغرب ، وكانت هذه الرحلة حيوية بالنسبة للسادات من الناحية النفسية ، حيث كان الملك الحسن مؤيدا بحرارة لمبادرته للسلام ، وكان الشخص الوحيد الذى منح السادات التشجيع ، وفى الولايات المتحدة استقبل السادات أيضا- الذى كان يصطحب معه كامل - بحرارة من قبل الرئيس كارتر وسيراس فينس وبرزيزينسكى ، وربما كان الاستقبال حارا للغاية ، وأصبحت هناك قناعة لدى كارتر بأن بيجن العنيد ، المتحذلق فقط ، هو الذى يقف الآن بين السلام واستمرار عدم الاتفاق والذى يمكن أن يؤدى إلى صدام آخر .

إن بيجن كان لديه نقاده الشرعيين وعلى رأسهم ديان ووايزمان ، لكن الزعم الأمريكى بأنه شخص مكروه كان من الصعب أن يؤتى ثماره ، حيث مثل بيجن الكثير من مخاوف وآمال الإسرائيليين معا ، بيد أنه كان هناك خطر برزيزينسكى لإثارة الرأى

العام الأمريكى بما فيه المجتمع اليهودى هناك ضد بيجن ، وفى نفس الوقت التواطؤ مع مصر ضد الحكومة الإسرائيلية .

وفى الواقع لم تكن هذه الخطة لتنجح على الإطلاق ، وعلى خلاف ذلك كان الفشل الأمريكى أساسيا من أجل أهداف أوسع للسلام .

وقد أعطى " كامل " وزير الخارجية تفسيرا معلنا وموجها عن طرق السادات فى العمل ، كما أعدت وزارة الخارجية مذكرة قوية تتواءم ومحادثات السادات مع كارتر .... وكان جوهر المذكرة أن السادات مصر على ضرورة أن تباشر الولايات المتحدة ضغوطا على إسرائيل لكى تتخذ سلوكا أكثر إيجابية ، وإلا فإن السادات سوف ينهى اجتماعات اللجان السياسية والعسكرية ويعود الوضع إلى ما كان عليه قبل خطاب الكنيست .. المهم أن " كامل " سلم المذكرة للسادات الذى بدأ يقرأها بانتباه واستحسان ، ثم ردها إلى كامل ثانية ، بينما اقترح كامل فجأة على السادات أنه ينبغى أن يأخذها معه أثناء اجتماعه بكارتر ، وحينذاك – كما يقرر كامل – " نظر إلى فى دهشة قائلا إنه قرأها واستوعب محتوياتها " ، فأعطى السادات المذكرة لسكرتيره الخاص طالبا منه أن يسلمه إياها قبل مقابلة كارتر .

وعندما قابل السادات كارتر ، كان كامل سعيدا لأنه لاحظ بوضوح أن المذكرة كان لها تأثير كبير ، وأخبر كارتر المسئولين الأمريكيين والوفد المصرى المرافق بأن الرئيس السادات أكد له أن العرب – بمن فيهم السعودية والشعب المصرى وأصدقاء آخرون للولايات المتحدة – غاضبون من الولايات المتحدة ، وأنهم محبطون لأنهم يشعرون بأن اتجاه إسرائيل المتعنت لم يكن ممكنا دون المساعدة العسكرية والاقتصادية الأمريكية لإسرائيل ، وأن السادات أخبره بأنه لن يستطيع أن يواصل المحادثات مع إسرائيل على مستوى اللجان السياسية والعسكرية ، وأنه سوف يعلن عن ذلك فى نادى الصحافة الدولى الاثنين القادم .

هذا الإعلان الذى قام به كارتر سبب ذعرا بين مساعديه ، حيث ذهب فينس إلى أن مثل هذه الخطوة من جانب السادات ستمثل كارثة ، بينما كشف نائب الرئيس عن التفكير الأمريكى حينما علق قائلا : " من الأهمية القصوى أن يبقى السادات على صورة نبى السلام حتى لو استلزم ذلك أن تتغير السياسة الإسرائيلية ".

وفيما بعد تدخل كارتر ليدلى بتصريح مفزع بدون مصر وبدون تأييد شعبى " لا أستطيع أن أجبر إسرائيل على تغيير موقفها ، معكم سأكون قادرا إلى بذل ضغط عليهم لتعديل موقفهم ، وهناك شعور متنام لدى اليهود الأمريكيين بأن بيجن وحكومته يعرقلون عملية السلام بإصرارهم على المنشآت ، وإذا كان هناك بينى وبين بيجن صدام فإن اليهود الأمريكيين سوف يجدون صعوبة فى عدم الوقوف بجوار بيجن . إننى أحاول أن أكسب قادة الكونجرس وزعماء اليهود وأريد منهم أن يمارسوا ضغطا على بيجن لاثنائه عن خطة المنشآت والموافقة على ٥ سنوات كفترة انتقالية بالنسبة للضفة الغربية ، ولكن لو قرر السادات أن ينهى المفاوضات فإن بيجن سوف يقول : نحن لدينا الرغبة أما السادات فلا ، وحجة أنك تريد السلام بينما هم لا يريدون سوف تبدو جوفاء " .

وفى هذه التعليقات السابقة تم الإعلان عن الاستراتيجية الأمريكية بصورة كاملة ، ولكن لجعلها أكثر بساطة اقترح كارتر على السادات أن يعملا سويا لتقرير أفضل الوسائل لكسب التأييد العام ... " يجب أن نأخذ بالحسبان أن الشئ الذى يجب أن نفعله هو استمالة الإسرائيليين لكى يكونوا أكثر مرونة " .

وعند هذا الحد تدخل كامل - بشجاعة إلى حد ما - مقترحا تأجيل المفاوضات مع الإسرائيليين لإعطاء الأمريكيين فرصة لإقناعهم بضرورة أن يكونوا أكثر تعقلا .

وها هو السادات يلتقط المناخ العام للاجتماع مقررا أنه لا يريد أن يوقف المحادثات مع الإسرائيليين ولكنهم متصلبون ، وأنه من الضرورى بالنسبة للأمريكيين أن يحددوا الموقف بوضوح . وسرعان ما وافق كارتر على ذلك ولكنه أظهر أنه مهذب حينما أصر على ضرورة أن يلتقى بيجن أيضا ، وإلا فسيؤخذ الأمر على أنه اقتراح امريكى - مصرى ، ومن ثم يلقى الرفض .

ومع ذلك رسم الجانبان خطة منسقة من حيث التفاصيل ، حيث وصف كامل المناقشات دون أن يشير بوضوح إلى الخطة ، وهكذا استطاع السادات أن يكسب كارتر إلى حد بعيد ، بينما أنذر الإسرائيليين من التمادى فيما أعدوا له .

والحقيقة أن الأمريكيين قد طلب منهم إعداد مشروع أمريكى يواكب المشروع المصرى فى مواجهة المشروع الإسرائيلى . وقد طلب الجانب الأمريكى ضرورة أن

يشتمل المشروع المصرى على معظم المطالب العربية فيما يتعلق بالضفة الغربية وقطاع غزة ، حتى يمكن للأمريكيين التوصل إلى اتفاق أقرب إلى الصيغة المصرية عن الصيغة الإسرائيلية .

وفى النهاية علم الإسرائيليون بهذه الخطة لخداعهم بمساعدة السادات ، كما أكد على ذلك ديفيد كيمحي ، لكن القنبلة لم تنفجر كما كانوا ينوون . وقد حمل كامل كلا من السادات وكارتر هذا الفشل ، واشتكى بمرارة من أن قوتهم بدت أكبر من الحقيقية ، وأنهم تحدثوا عن المبادئ الشريفة ، لكنها لم تكن مترسخة بداخلهم .

إن كامل كان لديه عذر أقل من الأمريكيين للوقوع فى مؤامرة السادات ، ومن المؤكد الآن أن السادات لم يكن ينوى قطع المحادثات مع الإسرائيليين ، لكنه كان تقريبا يناور من خلال وزير خارجيته ، حيث رأى أنها فرصة للحصول على تأييد أكبر من الأمريكيين ، ولا شك أنه - كما يدعى كامل - شعر بالرضا من نتائج زيارته ، ولكن من خلال تجاربه التالية فى التفاوض مع الإسرائيليين لم يكن يعتقد أنهم سوف يسقطون فى خطته المتواطئة .

وكان لابد أن يتلون سلوك السادات تجاه الفلسطينيين على أثر حادث فظيع تم بعد مغادرته بفترة وجيزة وأثر فيه بعمق .. هذا الحادث هو مقتل صديقه يوسف السباعى على أيدى فلسطينيين فى قبرص ، مما دفع السادات المصدوم - والذى كان يغلى غضبا- إلى إرسال رجال كوماندوز مصريين إلى قبرص لمعاقبة القتلة أسوة بما فعله رجال الكوماندوز الإسرائيليين فى تخليص رهائن مطار عنتيبى ، ولكن نظرا لنقص تدريب رجال الكوماندوز المصريين من ناحية ، واعتبار القبارصة أن ذلك يمثل تحديا لسيادتهم من ناحية أخرى ، قام القبارصة بقتل العديد من رجال الكوماندوز المصريين .

وحينما علم السادات بذلك انفجر قائلا : " هل نسمح لهم بالاستمرار فى قتلنا ، بينما نقف نحن نتفرج ؟ " .. بينما طلب كامل - القيام بإجراء تحقيق لاكتشاف من المسئول عن العملية ، وأجاب السادات الهائج " أنا الذى أمرت " وهكذا قاد الإحساس بالإهانة القوية إلى شن غارة عنيفة ضد منظمة التحرير الفسطينية ، وكل الفلسطينيين الذين اتهموا بنكران الجميل .

ولأول وهلة كان كامل على حق فى خوفه من أن المأساة قد تؤثر على قوة ارتباط السادات بقضية منظمة التحرير الفلسطينية ، رغم أنه لم يكن ليتخلى عنها على الإطلاق .

وفى خطاب لبيجن قصد منه عودة المحادثات ، لام السادات الإسرائيليين بصورة معتدلة على اتجاهاتهم التى لا طائل من ورائها .. فقد قدر حاجة إسرائيل للأمن ، لكنه أكد أن ذلك الأمن لا ينبغى أن تكون تكلفته الأراضى والسيادة .. وللدلالة على ذلك ركز السادات على أن جبهة الصمود ومنظمة التحرير الفلسطينية يعارضون سياساته السلمية ، وأن الاتحاد السوفيتى يحاول بإصرار أن يجهض المبادرة ، ولكنه قادر إلى حد بعيد على مقاومة ذلك .. ومع ذلك فإن بيجن بسلوكه المرن أمد الرافضين بالذخيرة التى يواجهون بها المبادرة .

ومن هذا المنطلق قام بيجن – على أثر خطاب السادات – باقتراح إعادة تجديد المفاوضات .

وكم بدت صورة السادات ووزير خارجيته شاذة عندما شنت إسرائيل هجوما محدودا على لبنان فى مارس ١٩٧٨ .

وكانت جماعة فدائية فلسطينية قد هبطت على الساحل الإسرائيلى بالقرب من حيفا وفجرت أتوبيسا كان متوجها إلى تل أبيب ، وحينما تم إيقافهم بواسطة القوات الإسرائيلية لقى٣٥ شخصا إسرائيليا مصرعهم ، وكانت هناك ضجة قومية، ومن ثم كان الرد الإسرائيلى حتميا .. وفى الحقيقة فإن المصريين توقعوا ذلك لكن كامل ومسئولى وزارة الخارجية اعتبروا أن ذلك لايتناسب – مع حجم –الهجوم الفدائى .

وصباح الهجوم حاول كامل التحدث مع السادات ، ولكنه فشل ، وأخيرا ألقى بتصريح يدين فيه الهجوم الإسرائيلى . وفى الواحدة والنصف بعد الظهر إتصل السادات – الذى كان مازال نائما به وسأله لماذا اتصل به عدة مرات ، وأجابه كامل بأن المسألة مهمة .. وأن الإسرائيليين شنوا هجوما ضد لبنان ، واستفسر السادات ضاحكا : هل لقنوهم درسا ؟ لم يصدق كامل ما سمعه ، ولذلك سأله : ماذا تقول ؟.. فرد السادات قائلا : هل عاقبوهم بعد ؟..فأجاب كامل المحتار والمندهش : العكس

تماما .. إنهم الفلسطينيون الذين لقنوا الإسرائيليين درسا .. لم يجادل السادات لكنه اقتنع بزعم كامل بصعوبة .

وقد أرجع كامل رد فعل السادات إلى غضبه من منظمة التحرير الفلسطينية بسبب انضمامها لجبهة الرفض ، كما شعر السادات بأن هجوم الأتوبيس كان موجها إليه مثلما كان موجها إلى الإسرائيليين ، ومع ذلك كتب السادات إلى كارتر يطلب منه الانسحاب من لبنان ، حيث أدرك السادات أن استمرار احتلال لبنان سوف يؤثر بصورة سيئة على مبادرته السلمية .

كانت هناك فوارق أخرى واضحة جدا بين السادات وكامل : امتداد الصداقة بين السادات وعيزرا وايزمان فى مقابل الصورة المغلقة لوزير الخارجية وعدم فهم توجه السعودية أزاء المبادرة ..فقد كان كامل يعمل جاهدا على إقناع دول مجلس التعاون العربى التى اجتمعت فى القاهرة فى ٢٨ من مارس ١٩٧٨ - لاسيما وزير خارجية العربية السعودية سعود الفيصل - بأن مصر مازالت مخلصة للقضية العربية ، مما جعل السادات يبدى دهشته ، وكالمعتاد أخبر السادات كامل عبر التليفون أن عيزرا وايزمان أرسل إليه برقية يستفسر فيها عما إذا كان بإمكانه المجئ للقاهرة ، وأنه رد عليه بالإيجاب ..فانفلت كامل المصدوم والمندهش قائلا : كيف يمكن أن توافق ، بينما وزراء الخارجية العرب يجتمعون هنا ، والجيش الأسرائيلى ينشر الموت والدمار فى لبنان ؟ ! فأجاب السادات بأنه لابد أن يكون لدى وايزمان رسالة مهمة ، وانتهى الغضب المتبادل بقول السادات : أنت لا تفهم .. وايزمان صديقى .. ثم وضع سماعة التليفون .

ولاحقا فى نفس اليوم ، حينما التقى السادات بالأمير السعودى فى حضور كامل وأخبره بأنه سوف يستقبل وايزمان بالقاهرة ، حملق الأمير فى كامل مندهشا ، ولكنه لم يعلق ، بينما كان سليط اللسان حينما تحدث إلى كامل بعدها . وبينما زعم السادات أنه قال لوايزمان إنه لايسعى إلى اتفاقية سلام منفردة او جزئية مع إسرائيل ، ولكنه يبحث عن السلام الشامل ، كتب كامل أن تفسير وايزمان الخاص يقرر قصة مختلفة وفوق ذلك فإن وايزمان قال إنه دعى لزيارة القاهرة بواسطة السادات ، وأنه لم يدع

نفسه ... وتأتى دلالة دعوة السادات فى الوقت الذى كان يزور فيه وزراء الخارجية العرب القاهرة ، فى أنها تم استحسانها بواسطة بيجن ومجلس وزرائه .

ولقد كان كامل مصدوما حينما قرأ كتابات وايزمان فى "معركة من أجل السلام"، حيث ورد بها "ملخص محادثتى مع السادات جعل مزاجى أفضل ، فالرئيس المصرى – مثلنا – لم يكن مهتما بالدولة الفلسطينية ، بل كانت لديه رغبة فى أن يترك مستوطناتنا فى الضفة الغربية فى مكانها ، وسوف يستغنى عن الملك حسين إذا رفض الملك المشاركة فى المفاوضات .. وقد كنت ممنونا بسبب وجود أهارون باراك "المستشار القانونى لمجلس الوزراء" واستماعه الى محادثتنا .. حيث بدون شهادته ، لم يكن أحدا فى إسرائيل يصدقنى .

وفى الصباح التالى استدعى وايزمان على عجل لرؤية السادات ، ولاحظ وايزمان أن السادات كان متوترا للغاية كما قال له : " بعد لقاء كارتر مع بيجن ، سألنى كارتر إذا ما كنت أصر على الدولة الفلسطينية ، وقد فكرت فى الأمر كثيرا وقادنى تفكيرى إلى اقتراح وضعته أمامى بالأمس .. بعد لقائى بك ، قابلت مندوبين فلسطينيين من غزة ولم يوافقوا على أفكارى .. إنهم يريدون حق تقرير المصير .. وفى هذه المرحلة فإن التأييد الفلسطينى مهم بالنسبة لى .. ولا أستطيع القول بأن خطة الأمس التى رسمتها سارية المفعول .

نحن لدينا مشكلة .. أنا أعرف حدودى ولن أقترح أى شىء لست قادرا على تنفيذه ، ولكننى حينما أقدم عرضا فإننى أستند إليه .. والآن طبقا للمعارضة الفلسطينية ، لا أعرف ما إذا كنت قادرا على أن أستند إليه ، لذلك عدت الى الوضع الذى كان موجودا قبل أمس ، يجب أن يبدى بيجن مرونة ، أنا لم أطلب دولة فلسطينية وإنما فقط ارتباط بالأردن ، والارتباط بالأردن يؤدى إلى ألا تكون هناك دولة فلسطينية ، هذه هى وجهة نظرى قبل مبادرة السلام وهى وجهة نظرى الآن ، سوف تكون هناك همجية " .

ورد وايزمان بأن الهمجية لن تكون مقبولة بالنسبة لإسرائيل ، دعنا نعود إلى حديثنا بالأمس ، والاقتراح الذى توصلنا من خلاله إلى معاهدة سلام فى المرحلة

الأولى . أنت رجل شجاع ، طردت الروس ، وأقدمت على مبادرة سلام ، وينبغى أن تكون لديك الشجاعة للتوصل إلى نتيجة "

ولاشك أن وايزمان كان محبطا كما أشار كامل - لافتقاده للوسائل ، إذا فقد الثقة فى السادات .

إن تفسير كامل الضيق لكتاب وايزمان البارز والأمين يعطى انطباعا مضللا . وفى مجلس الوزراء الإسرائيلى حدثت انقسامات حادة حول نوايا السادات ، فقد اعتقد وايزمان أن السادات يطلب ورقة لتغطية نقص اهتمامه بالفلسطينيين ، وأنه سوف يكون راضيا بالإعلان الغامض للمبادئ الذى أسفرت عنه قمة الإسماعيلية فيما يتعلق بالضفة الغربية ، والذى لا يلزم أحدا . وعلى خلاف ذلك أصر موشى ديان على أن السادات يرغب فى شئ أكثر جدية ، ليس دولة فلسطينية ، وإنما وطن حقيقى للفلسطينيين ، الأمر الذى لم يكن بيجن على استعداد للتسليم به . وهكذا كان موشى ديان - فيما يتعلق بهذه النقطة - أكثر واقعية من وايزمان ، فالسادات حارب من أجل القضية الفلسطينية وليس لأنه شعر بالتزام تجاه منظمة التحريرالفلسطينية ، لاسيما وأنه كان يكره زعماءها ويصف إياهم بأنهم أبطال كباريه ، ولكن لكونه رئيس مصر فإنه لم يكن يستطيع أن يوقع سلاما دون أية إشارة إلى الشعب الفلسطينى ، وهذا المسلك - كما قال لوايزمان - سوف يضر بكل من إسرائيل ومصر . هذه هى مشاعر السادات الحقيقية ، أما ما يذهب إليه كامل من اتهامه للسادات بأنه كان يخطط منذ البداية لسلام منفرد ، تستفيد منه مصر فقط بصورة عاجلة ، فهو تغريض قاس وليس حقائق .

إن خطة السادات الأصلية كانت تنمو ببطء ، فهو سوف يسترد سيناء على أنه لا يسمح ببقاء أية منشآت يهودية هناك ، وأنه سوف يبذل قصارى جهده للحصول على وطن دائم للفلسطينيين ، والذين سوف يرتبطون بإخوانهم فى الأردن بممر ... وفى المقابل سوف يعرض على إسرائيل ميثاق سلام ، أما امتدادها الكامل فلم يكن واضحا بذهنه ، و أحيانا كان يتحدث عن تبادل السفراء والعلاقات الطبيعية بين الدول المتجاورة مثل السياحة والتجارة ، وأحيانا أخرى كان يقول إن مثل هذه العلاقات

يجب أن تنتظر الجيل القادم ، أما الاختبار الأعظم فسوف يأتى حاليا فى كامب ديفيد .
بعد لقاءاته مع كارتر أدرك السادات أن الرئيس الأمريكى بيده مفتاح حل المشكلة مع مصر .. وقد استطاع أن يبهر كارتر ببساطته وابتسامته وضحكه ، والرغبة الواضحة فى تقديم تنازلات عظيمة من أجل السلام ، وذلك على عكس بيجن العنيد . وكان كارتر فى هذا الوقت لايزال حديث العهد بالنسبة لتعقيدات الشرق الأوسط ، كما كان فريسة سهلة بالنسبة لمستشاريه الماكرين ، فى حين كان السادات شغوفا بأن تكون له الغلبة على بيجن فى قيادة الرأى العام الأمريكى .

وقد أوضح السادات ذلك لكامل الذى عارض قبول رئيسه - دون مناقشة سابقة - لاقتراح كارتر بعقد اجتماع ثلاثى يضم وزراء خارجية كل من الولايات المتحدة ، وإسرائيل ، ومصر .. لذا قال السادات " إنه تعلم ما مدى أهمية الدور الأمريكى ، ومدى لهفتى لأن تلعب الولايات المتحدة دور الشريك الكامل فى المفاوضات ، لذلك لا أريد أن أزعج الرئيس كارتر " .

وهناك دليل آخر على أن ذهن السادات كان يعمل بعيدا عن المعتقدات التقليدية لوزير خارجيته ، ظهر فى كلماته إلى كامل بعد لقائه مع وايزمان مرة أخرى ، حيث قال : " لقد أوضحت لوايزمان أن تصرفات بيجن سوف تؤدى إلى ضياع فرصة السلام لأن هذه التصرفات تظهر مدى جهله بالسياسة . إن بإمكانه - وللوهلة الأولى - أن يسحب قواته من سيناء إلى العريش ورأس محمد .

إن عناده أعماه .. لقد قلت لوايزمان إننى لا أستطيع أن التحق بمفاوضات لا طائل منها ، وأنه إذا لم تحدث تحولات جذرية تعود بإسرائيل إلى مواقعها قبل أكتوبر فإن الموقف سوف يصبح خطيرا جدا . وقد اقترحت على وايزمان أن يحاول إقناع بيجن بالحاجة إلى إنجاز بعض التقدم ، مثل إعادة مدينة العريش لمصر ورفع العلم المصرى عليها ، ومن ثم يمكن أن نتفاوض مع الإسرائيليين وأن نسمح للسوريين والأردنيين بالذهاب إلى هناك إذا قرروا الالتحاق بالمحادثات .

كما يمكن لبيجن أيضا أن يرد إلينا جبل سيناء ، حيث أنوى بناء مجمع دينى لليهود والمسلمين والمسيحيين ليكون رمزا على وحدة الأديان ، مثلما يكون رمزا للحب والسلام " .

وعلى أثر هذه الكلمات مشى كامل بعيدا فى غضب واشمئزاز سائلا نفسه .... كيف يدنى رئيس مصر نفسه إلى هذه الدرجة كى يستعطف بيجن لإرجاع مدينة العريش التى سوف تصبح جزيرة فى الأراضى المصرية التى استولت عليها إسرائيل ؟ هل كان السادات يخطط لبناء هرم لنفسه على قمة جبل سيناء ؟

إن كامل لم يكن أكثر وزراء الخارجية المصريين تميزا أو أكثرهم فضلا ، وقد أظهر السادات الكثير من الصبر مع وزير خارجيته الشاب الحاد المزاج ، ومع ذلك حينما أصر كامل على الاجتماع مع السادات قبل اجتماع وزراء الخارجية فى قصر ليدز بإنجلترا سأله السادات " لاحظت أن هناك تغيرا بالنسبة لك مؤخرا ، فهل ناقشت خططنا مع بعض الأفراد من المعارضة أو غيرهم وتأثرت بهم ؟ وبالطبع ، أنكر كامل هذا الاتهام ثم خرج عن حالته المزاجية قائلا إنه لم يرد أن يكون وزيرا للخارجية لكنه فعل ذلك للعشرة الطويلة بينهما وبسبب الواجب الوطنى وأنه مكلف بمعاونته فى صنع القرارات وإسداء النصيحة الخالصة له .

هذه الكلمات حركت السادات الذى أعلن أنه اختار كامل لنزاهته ، مضيفا "أنا لا أريد أيا من مساعدى أن يأخذ كلماتى كما هى دون مناقشة ، وليس هناك داع يجعلك تستشيط غضبا . إننى سألتك سؤالا بسيطا وقبلت إجابتك ، ومع ذلك لم تكن هناك وسائل لإنهاء هذه الاختلافات . ولا إمكانية لأن توجد هذه الوسائل بدون حضور السادات فإن مؤتمر قصر ليدز كان سيصاب بالفشل .. ومع ذلك لوحظ بزوغ نجم الدكتور أسامة الباز فى الفريق الدبلوماسى المصرى ، والذى تفوق على الإسرائيليين فى أى نقاش ، كما أبان بأستاذية كل الحقائق المراد تبيانها ، ومن ثم كان ذا فاعلية عالية فى المؤتمر ، لدرجة أن الإسرائيليين – ولا سيما موشى ديان نجمهم التفاوضى – كانوا غاضبين ومتأثرين .

وعلى أية حال فإن أحد الإجابات التى قدمها كامل عن سؤال وجهه موشى ديان حددت نتيجة المؤتمر ، هذا السؤال هو : هل الاقتراحات المصرية تعنى أن الفلسطينيين سوف يكون لديهم الحق فى إقامة دولة مستقلة ؟ ... وكانت إجابة كامل : بالطبع .

إن السادات كان قد سمع عن الانقسامات فى مجلس الوزراء الإسرائيلى ، ولكن ذيوع أن المصريين يتحدثون من خلال صوتين متناقضين كان لابد وأن يكون مقلقا لديان .

أما فيما يتعلق بحيرة كامل من سلوك السادات ، فقد كادت تبلغ الذروة .. كما كانت هناك فترة قصيرة حتى بدا هو والرئيس يأخذان نفس الخط ، لكن ذلك كان خدعة .. وترتب على إجهاض مؤتمر قصر ليدز أن أصبح كامل على قناعة بأن مواقف الإسرائيليين والمصريين لن تكون على وفاق . بينما ألقى بيجن بعض التصريحات التى أغضبت السادات ، إذ قال مخاطبا الكنيست .... " إن إسرائيل لن تتنحى عن حبة رمل كهدية ، لكنها على استعداد للتفاوض انطلاقا من مبدأ التنازلات المتبادلة " .

وطبقا لرؤية كامل ، فقد شعر السادات بأن مبادرته ذهبت سدى ، وكان رد الفعل الواضح أن السادات رفض اقتراح كارتر بعقد اجتماع آخر لوزراء خارجية الدول الثلاث (مصر – إسرائيل – الولايات المتحدة) ، وكان كامل مسرورا من ذلك الخط المتشدد الذى اتخذه السادات برفض عذر ألفريد أزيرتون على مثل هذا الاجتماع وفى هذا السياق قال السادات : " إننى أقرر آسفا اتجاهى فى الوقت الراهن إلى عدم عقد أية محادثات على أية مستوى إذا لم يعلن الإسرائيليون أن الأرض ليست جزءا من أى اتفاق ، وفى المقابل سوف نذهب إلى نهايات الكرة الأرضية لمنحهم الترتيبات الأمنية التى يحتاجونها .... يجب أن تبقى الأرض والسيادة خارج إطار المساومة .. نحن لسنا فى غابة حيث يغتصب شعب أرض شعب آخر . إنهم فى إسرائيل تحت قيادة بيجن يحاولون تحويل إسرائيل إلى قوة عظمى فى المنطقة على حساب أراضينا ، وفى ذات الوقت يحصلون على الأمن والسلام .

إننى لا أصر على أن يحدث الانسحاب قبل أن تبدأ المفاوضات ، بإمكانهم تحديد قبولهم للمبدأ بضمانة أمريكية ... إن هدف إسرائيل هو أن تبعد الولايات المتحدة عن مائدة التفاوض بطريقة أو بأخرى " .

وحينما تدخل كامل واقترح دعوة الأمريكيين للتفاوض ، كان واثقا من أنهم سوف يصرون على أن الاجتماع سوف يقوم على الإعداد للانسحاب طبقا لقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ .

لكـن السـادات أجـاب بحـدة : لا وأضـاف " لقـد وصلنـا الآن إلـى مرحلـة اللاعودة .. إما السلام أو اللا سلام " . وكان هذا أداء عظيما من السادات ، الذى ترك كلا من أزيررتون ومبعوث الأمم المتحدة فى حالة دفاع وتخبط .

وهكذا بدا السادات وكأنه يعود إلى مبادرته ، ولكنه استطاع أن يلقى بكل اللـوم على بيجن ، وبمجرد أن رحل الرجلان فى حالة حزن ، ذهب كامل إلى السـادات وقبل جبينه قائلا وهو يبتسم "برافو يا ريس" فأجابه السادات "ماذا كنت تتوقع يـا محمـد؟" . وفى حين ساءت العلاقات بين بيجـن والسـادات بصـورة مؤسـفة ، حيـث بنـاء علـى تعليمات السادات رفض كل من كامل واللواء الجمسى تلقى الرسائل التى كان يرسـلها بيجن إلى الرئيس ، أصبح الأمريكيون يخشون من أن يتأثر السادات بالسعوديين ، إذ كانوا قلقين من فقدان قائد معتدل مثله والعودة إلى التوجه العربى التقليدى .

ومع ذلك لم تدم سعادة كامل طويلا ، حيث لم يكن يفهم حقيقة الكلمات المشفرة التى كان يستخدمها السادات ، وقد استغرق الأمر بعض الوقت لكى يـدرك الأمريكيـون أن السادات يتمنى أن يصل بمبادرته للسلام إلى الذروة لا أن يتخلى عنـها .

إلا أن الاجتماعات على مسـتوى وزراء الخارجيـة كـانت تعد مضيعـة للوقـت . خاصة أن وزير خارجيته كان ينشد أهدافا مختلفة . وكان السادات قبل المؤتمر قد قال لعيزرا وايزمان إنه سيفشل .

وبناء على ذلك ، التقـط كـارتر الإشـارة وقـرر فـى أغسـطس ١٩٧٨ أن يدعـو السادات وبيجن إلى كامب ديفيد بالقرب من واشـنطن . وعلـى الفـور أرسـل سـيراس فينس إلى الشرق الأوسط لتقديم الدعوات ، وفى البداية ذهب لرؤية بيجن فى القـدس وقبل الاقتراح ، ثم ذهب إلى الإسكندرية ، ثم إلى الريست هاوس حيـث كـان السـادات ينتظره هناك ، وأثناء وصوله كان السادات يجلس بعيدا عن الحديقة ، وقضى معه مـا يزيد على ساعتين ، وكانت النتيجة أن وافق السادات على أن يلتقى بيجن وكارتر فـى كامب ديفيد .

ومن جانبه أخبر فينس كامل بأن مؤتمـر القمـة لابـد أن ينجـح ، وإلا فـإن ذلـك يعنـى نـهاية حياة كارتر السياسية ، وعلى هذا فقد عزم كارتر على أن يلقـى بكـل ثقلـه

لتحقيق السلام المنشود ، الذى ستضطلع فيه الولايات المتحدة بدور فعال وإيجابى خلال المحادثات .

وبعد سماعه هذه الأخبار المفزعة اندفع كامل راجعا إلى السادات بالريست هاوس رغم أن الساعة كانت الواحدة صباحا ، ووجد السادات يتناول وجبة السحور وحينما سأله كامل ماذا قال له فينس ؟ رد عليه : نعم .. نعم .. هذا الذى كنت أعمل من أجله منذ البداية ، فكرتى هى أن الأمريكيين ينبغى أن يتصرفوا كشريك كامل ، وقد أخبرنى فينس أن هذا هو ما ينوى كارتر فعله بالضبط ، تذكر أن كارتر قد وضع مستقبله السياسى على الخط ، وأنا أشعر بأننا من المؤكد سننجح ، وأن نجاح المؤتمر أو فشله يتوقف علينا ، وقد حان الوقت لأن تضغط الولايات المتحدة على إسرائيل وأن تحجم من قدر بيجن ، ألم أقل لك إن لدى تفاؤلا كاملا بأن مبادرتى لن تفشل . وبعد دقيقة من الصمت قال السادات لكامل : هل تتذكر حينما كنا فى السجن ؟ سوف يكون لك مكان معى فى التاريخ يا محمد " وكامل يهز رأسه فقط : إن شاء الله .

وقد كان كامل خائفا للغاية من غموض المشروع والعالم الغريب للقمة الثلاثية، لذلك طلب من السادات - المندهش - فترة قصيرة يخلو فيها إلى نفسه .

لكن السادات نفسه كان يعتقد داخليا أنه فى طريقه لإنجاز ما تمنى : سلام بشرف .

الفصل الثانى والعشرون

كامب ديفيد.. الغضب والدموع

كما رأينا ... كان سلوك أنور السادات قبل الذهاب إلى قمة كامب ديفيد مثيرا لحيرة وقلق كل من كارتر ورئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن ووزير خارجيته محمد إبراهيم كامل ، الذى كان مشغولا بصورة جنونية بالإعداد لتقديرات الموقف من أجل هذا المؤتمر العظيم ، كما جرت مناقشات بين كامل وفريق على مستوى رفيع من مسئولى الخارجية المصرية ، ذلك الفريق الذى كان بالطبع يتضمن أسامة الباز نجم مؤتمر قصر ليدز .

وبعد إجازة قصيرة كان مزاج كامل أكثر تفاؤلا ، كما لم يعد يخشى حدوث كارثة فى كامب ديفيد .. حيث كل المسئوليات المناط بها هو وفريقه أصبحت واضحة ، فإما أن ينجح الرئيس كارتر فى كسر العناد الإسرائيلى والتشبث الإسرائيلى بالأراضى العربية المحتلة ، وبما يفتح الباب للدول العربية الأخرى للالتحاق بالعملية السلمية فيما بعد وإنهاء العزلة المصرية ، أو أن يفشل المؤتمر فى تحقيق أى تقدم ، وفى هذه الحالة سوف لا تخسر مصر شيئا ، بينما تصبح خطايا إسرائيل أكثر وضوحا أمام العالم ، ويعد هذا فى حد ذاته مكسبا لمصر .

إن شيئا واحدا هو الذى كان يقلق كامل ، وهو أن بيجن قد أجرى مناقشات مطولة مع مستشاريه عن المؤتمر وأنه - أى بيجن - قد عزم على اتخاذ هذه القمة كوسيلة لتحقيق نجاحات أكثر لإسرائيل .. ولكن الحقيقة كانت مختلفة ، حيث كان بيجن ومعظم وزرائه قلقين من التنازلات التى سوف يبدونها .

والآن أصبح كامل أقل خشية ، لا سيما أنه لاحظ أن الرئيس كارتر كان يعد نفسه لمناقشات حادة .. ولكن ماذا كان أنور السادات يفعل ؟

إنه كان يسرع بالانتقال من بيت ضيافة إلى آخر : بالمعمورة ، الإسماعيلية ، السويس ، بورسعيد ... وحينما تحدث إليه كامل فى التليفون لم يبد السادات الكثير من الاهتمام بمناقشات وزير خارجيته .

شعر كامل بأن السادات كان يقضى نهار هذه الأيام كسلان ودون جدول حتى إفطار رمضان ، فى حين كان يقضى المساء فى تنظيم حزبه الجديد (الوطنى الديمقراطى) واستقبال أشخاص وطنيين مشهورين ووفود يرغبون فى الانضمام إلى

حزبه ، وكان يقوم بإلقاء أحاديث غير منقطعة عن صراع مصر من أجل الحرية ، ويتم التصفيق له بشدة .

وحينما بلغت تحضيرات كامل تلك المرحلة التى تطلبت فيها موافقة السادات ، طلب رؤية السادات ، ولكن السادات طلب تأجيل المقابلة لأنه كان صائما ، ولأن العمل أثناء رمضان يستثيره ... ثم طلب كامل مقابلته مرة ثانية ، لكنه تلقى نفس الرد .. وقد فاجأ ذلك كامل وأقلقه ، لذلك اتصل تليفونيا ليخبره بأنهما إذا لم يرتبا استراتيجية معروفة قبل المؤتمر فإنه – أى كامل – لن يذهب على الإطلاق .. فرد عليه السادات قائلا إنه سوف يقابل " كامل " قبل المؤتمر بأيام قليلة لأنه كان يدعو إلى اجتماع لمجلس الأمن القومى بالإسماعيلية .

ولم تكن هذه مناسبة سعيدة لكامل ، وكان متأثرا للغاية ، لأن سلوك رئيسه صدمه ، وكذلك ظهرت مخاوفه المكبوتة على السطح ... كما خيم عليه الصمت لأن السادات طلب من الجرسون أن يدخل السيدة همت مصطفى ، وسعد زغلول نصار وطلب منهما الجلوس بالقرب من مائدة الاجتماع .

ولأن مناقشات مجلس الأمن القومى كانت سرية ، ولا يتم خلالها القيام بتسجيلات، كان كامل مندهشا لملاحظة وجود هاتين الشخصيتين الإعلاميتين ، وكل منهما يمسك بورقة وقلم ، ومع ذلك دعى إلى الاجتماع لمناقشة الاقتراب المصرى من كامب ديفيد .

شعر كامل بالاستياء وازدادت حيرته حينما سمع السادات يأخذ المصريين إلى بعيد ففى كتابه " اتفاقات كامب ديفيد " ، يحذر كامل قراءه من أن يصدموا من تناقضات الرئيس: عباراته المتقطعة التى لا تنتهى ، وعادته المثيرة فى القفز من موضوع إلى موضوع ، ولكى أكون صريحا فإننى أسجل كلماته مع الشعور بالخجل والأسف .

وقد صدم كامل على وجه الخصوص من تصريح السادات بأن " حدود ١٩٦٧ تسيطر على التفكير الإسرائيلى ، واستعدادات بيجن لكامب ديفيد تقوم على التأكيد على أننى ينبغى أن أطلب إعلانا للمبادئ ، وأنه سوف يسعى إلى سلام منفرد أو حل جزئى مثل الانسحاب من سيناء إلى خط العريش ـ رأس محمد ، ومع ذلك ، لم أخض كل الصعاب بالاندفاع إلى مبادرتى لكى أخرج فقط بسلام منفرد أو حل جزئى .

وسوف ينبنى اتجاه بيجن على أن الرجوع إلى حدود ١٩٦٧ يشير إلى سيناء ومرتفعات الجولان ، ولكن ليس إلى الضفة الغربية وقطاع غزة ، لأن الحد الأخير يمثل تهديدا للأمن الإسرائيلى وهذا حقيقى ، لأن المراكز المدنية فى إسرائيل سوف تكون تحت طائلة نيران المدفعية التى يمكن أن تنطلق من الضفة الغربية وقطاع غزة.

ورؤيتنا الإستراتيجية تنهض على أن إعلان المبادئ ليس مشكلة لكى تناقش فى كامب ديفيد ، إن كامب ديفيد هى التطبيق العملى لمبادرتى السلمية ، ولن تكون هناك جدوى من مناقشة إعلان المبادئ فى اجتماع الزعماء الثلاثة .. ومن أجل القيام بذلك فإن بيجن سوف يكون حر التصرف ، وطبقا لذلك فقد قررت أن أناقش إطار عمل للسلام .. ومن خلال هذا الإطار سوف نعد للسلام لنقطع الطريق بذلك على مغامرات بيجن . وحيثيات القرار ٢٤٢ تشترط عدم التسليم باحتلال الأراضى ، حسنا ، يجب الإعداد لذلك ، ولذلك السبب فإننى أوافق على مناقشة المسائل الأمنية الخاصة بالضفة الغربية رغم أننى تلقيت اتصالين أحدهما من الملك حسين ، والآخر من الملك خالد ، وقلت لهما : لماذا تضيقون علينا ؟ " .

وفيما يتعلق بالدولة الفلسطينية قال السادات إن الموقف مازال يتمثل فى أن الفلسطينيين لديهم الحق فى تقرير المصير مع الارتباط بالأردن ... وأنه سوف يعترض على منظمة التحرير الفلسطينية حتى لو قبلها الإسرائيليون ، وإذا رفض حسين الانضمام إلى المفاوضات فإن مصر لديها الحق فى الحديث نيابة عن الفلسطينيين .

وحينما سأل السادات كامل إذا كان يريد الكلام ، رد عليه كامل وهو غاضب : نعم .. هناك بعض الأشياء التى أود أن أقولها .. ورغم أنه نصح من أحد مساعديه بأن يلتزم الهدوء ، فقد قال كامل : " إن مصر ليس لديها الحق فى أن تفرط فى الأراضى الفلسطينية من أجل أمن إسرائيل " . ولم يرد عليه السادات .

وبعد أن انفض الاجتماع أخبر السادات كامل بأن يعد نفسه للذهاب إلى كامب ديفيد فى غضون يومين ، فرد كامل بأنه لديه اقتراح ، وهو أنه ينبغى على السادات أن يأخذ موقفا متصلبا عن ذلك الموقف المعلن فى المشروع المصرى فى بداية الأسبوع الذى سيستغرقه المؤتمر ، فانفجر السادات ضاحكا متعجبا بسخرية عميقة :

هل تتخيل أنك ستكون دبلوماسيا يا سيد محمد ؟ والله يا محمد أنت لست بدبلوماسى، عن أى أسبوع تتحدث ؟ إننى أنوى بمجرد الوصول إلى هناك أن أطرح مشروعى لهم، وأدمر المؤتمر وأعود خلال ٤٨ ساعة .. فرد عليه كامل الذى استطاع بصعوبة أن يسايره الضحك : من الطبيعى أن تكون حرا فى أن تفعل ما تريده ، وعلى أيه حال انا لا أنشد أن أكون دبلوماسيا لامعا .

وعندما وصل السادات إلى كامب ديفيد كان من المتوقع بالنسبة له أن ينجز معظم – إن لم يكن كل – أهدافه ، إذ كانت لديه ثقة كبيرة فى مقدرة كارتر .

وعلى خلاف ذلك كان كل من بيجن وكارتر مضطربين ، حيث رأى كارتر الشرق الأوسط بمثابة مكان يمكن أن يمده بفرصة ذهبية لنصر عظيم ، وإحلال السلام حيثما توجد الحروب .

كذلك فإن الشرق الأوسط يعد منطقة ذات أهمية حيوية بالنسبة للولايات المتحدة . صحيح أن هناك علاقة وطيدة قد نشأت بينها وبين إسرائيل ، ويصعب كسرها بسهولة ، إلا أن البترول العربى أيضا له أهميته الحيوية وقد أظهر الحظر البترولى خلال حرب يوم كيبور مدى خطورة ما يمكن أن يترتب على الشقاق مع العالم العربى .

وفى السياق ذاته قبل كارتر طواعية التوصيات التى أعدت بواسطة خبراء الشرق الأوسط ، والذين ينتمى معظمهم للحزب الديمقراطى ، تلك التوصيات التى دعت إلى ضرورة بذل مجهودات عاجلة لإنجاز تسوية شاملة ، لكون التسوية المؤقتة لن تتيح القدرة على حل المشاكل المزمنة ، تلك المشاكل التى يتمثل أحد مفاتيح حلولها فى القضية الفلسطينية ، واعتقد المؤلفون أن حق تقرير المصير بالنسبة للفلسطينيين سوف ينتهى إما إلى دولة فلسطينية مستقلة أو إلى كيان فلسطينى مرتبط بإتحاد فيدرالى مع الأردن .

وفى مقابل اتفاقية سلام شامل تضمن العلاقات الدبلوماسية والتجارية وحرية السفر وإنهاء المقاطعة العربية ، فإن إسرائيل مطالبة بالانسحاب إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ مع بعض التغييرات البسيطة فقط .

ولحسن الحظ ، علم كارتر متألما أنه ينبغى أن يتجنب كل هذه التوصيات .

إن أى شخص كان يشاهد بيجن فى اجتماعات مجلس الوزراء كان لابد أن يقلق مما إذا كان فى ظروف تسمح له بتمثيل إسرائيل فى كامب ديفيد أم لا ، فقد كان يبدو فاقدا الاهتمام بما يقوله وزراؤه ، كما سمح لوزير ماليته باتباع سياسات مدمرة أدت إلى أحد أعلى معدلات التضخم فى العالم .

وكما لو كان خاضعا لعلاج خاطئ لحالة قلبه ، ساهم بيجن فى تشاؤم مجلس وزرائه ، ومع ذلك فإن تحولا ما حدث فى شخصية بيجن بمجرد وصوله إلى كامب ديفيد ، حيث أصبح يقظا ، كما أظهر الكثير من حرارته القديمة ، كما كان لابد أيضا أن يثبت أنه الخصم المخيف لأنور السادات ، وكانت المجادلات الكلامية والمستندية هى ما أفلح فيه بيجن المحامى السابق .

ولاحظ وايزمان أن المصريين والإسرائيليين لا يمكن أن يتصل كل منهما بالآخر بصورة مباشرة ، وإنما من خلال الوفد الأمريكى ، إذ رغم أن البعد الفاصل بين المصريين والإسرائيليين كان مائة ياردة فقط ، فإن الهوة بينهما كانت واسعة كما لو كانوا ما زالوا فى عواصمهم .

وفى الحقيقة فإن وايزمان ذكر مرارة ذلك ، مقررا أنه كان يستطيع أن يتصل مباشرة بوزير الحربية المصرى فى القاهرة من تل أبيب ، بينما لا يستطيع الاتصال بالشخص المقابل له فى كامب ديفيد .

وقد كان أكثر شئ إزعاجا هو الفصل الكامل تقريبا للاتصالات بين بيجن والسادات، حيث انسحب السادات إلى كابينته ولم يظهر وجهه ، بينما تقهقر بيجن منعزلا، ولذا فقد حاول مساعدو بيجن كسر هذا الحاجز مقترحين عليه أن يذهب للخارج ويقابل السادات ، الذى كان يرتدى زى تدريب أزرق ويذهب للنزهة للخارج ، وفجأة وافق بيجن وتقابل الرجلان فى أحد الممرات ، وكان هناك تبادل للتحيات المهذبة .

وكان بيجن قد أصبح موضوعا للهجوم الشخصى الشرس من قبل وسائل الإعلام المصرية ، بينما الهجوم على السادات من قبل الإسرائيليين كان فى صورة مستترة وينصب فى معظمه على النواحى السياسية . وهكذا فإن رغبة بيجن فى تحية

السادات كانت ذات دلالة ، وعلى خلاف السادات وجد بيجن صعوبة فى الاسترخاء ، ورغم حرارة الجو فقد أصر على أن يرتدى بدلة ورابطة عنق ، مدعيا لأنه لن يكون محترما بالنسبة للرئيس كارتر إذا لم يفعل ذلك .

وبينما ذهب وايزمان إلى كابينة بيجن ليكتشف ما أسفرت عنه المقابلة ، قابل السادات - الذى كان يسير مع كامل على مهل - وجها لوجه ، فقال له وايزمان : "إننى مسرور بلقائك " فرد عليه السادات الذى كان مرتبكا " وأنا أيضا " .

وإذا كان ذلك نابعا من مشاعر صادقة من قبل الرجلين فقد كانت هذه هى الفرصة ..

وقد علق وايزمان بأنه من الغريب أن يرى الرئيس المصرى يتصبب عرقا من المجهود العضلى ، خاصة أنه كان يراه تجسيدا للرجل الأنيق ، ذا الأسنان النظيفة والشعر الممشوط ، والذى يرتدى أزياء من أغلى الموضات ، ويفوح منه شذى لوسيون ما بعد الحلاقة . إن زى الرياضة الأنيق الذى كان يرتديه السادات غير نظرة وايزمان تجاهه ، حيث جعله أقل سحرا وأكثر إنسانية .

وفى حجرة العشاء فى المساء جلس كل من المصريين والإسرائيليين باردين منفصلين ، وحاول وايزمان أن يلطف الجو مذكرا بالأيام التى سبقت زيارة السادات للقدس ، ثم ذهب إلى مائدة المصريين محييا الوفد وجلس دقيقة أو دقيقتين ، ورغم أن هذا كان مجهودا شجاعا ، لكنه كان ذا قيمة محدودة فى الأجل القصير . وكان الرئيس كارتر وزوجته هما اللذان حاولا إذابة الجليد .. وعندما قابل بيجن كارتر قيل له أن السادات يريد أن تقبل إسرائيل بمبدأ عدم احتلال الأراضى بالقوة .

واعتقد وايزمان أن ذلك كان هو هدف السادات منذ البداية ، وأن تقبل إسرائيل سوف يؤدى بصورة تلقائية إلى الانسحاب من جميع الأراضى التى تم احتلالها فى حرب الأيام الستة .. ولو كان هذا هو انطباع السادات فإنه انطباع غير واقعى ، ومن المشكوك فيه أن السادات قد اعتقد بإمكانية أن يحصل على مثل هذا النصر السهل ، وعلى أية حال فإن بيجن كان هو آخر شخص يمكن أن يتنازل من خلال مثل هذا الإعلان ، خاصة أنه كان يركز على أن قبول مثل هذا المبدأ يتطلب أن تتغير الخريطة كلها .

وكان السادات قبل الاجتماع المصيرى مع كارتر وبيجن قد تناقش مع وايزمان، محذرا من أنه أن لم يتم تحقيق إنجاز فى كامب ديفيد فإن الموقف سوف يصبح خطيرا .

وقرر السادات أيضا : " سوف أبذل قصارى جهدى . إننى لا أعتقد أن كامب ديفيد سوف يتضمن إعلانا للمبادئ ، وبدلا من ذلك يجب أن نبحث عن إطار عمل للمناقشات المستقبلية . يجب أن نؤكد على أن العملية السلمية مستمرة ، ولن تتوقف أبدا ، ولا أحد سوف يلومنى لو حدث ذلك " .

غير أن نوايا السادات لم يكن معلنا عنها بوضوح ، ففى معرض إجابته على سؤال لوايزمان فيما إذا كان يريد اتفاقية تشتمل على سيناء والضفة الغربية وقطاع غزة كذلك قال : " لا تجبرنى على أن أنطوى تحت الأذرع السوفيتية ، إذا أصررت على سيناء فقط فسوف يستعيد السوفييت سيطرتهم على المنطقة . إننى أتطلع إلى سلام هنا فى كامب ديفيد ، ويجب أن نوقع ديباجة اتفاقية هنا ، وليست معاهدة سلام، والتى يمكن توقيعها فى وقت تال . إن لدى رغبة فى انضمام الملك حسين إلى المفاوضات، ولكننى سوف أستمر فى التفاوض حتى لو لم يفعل .. وسأكون صريحا معك .. إن لدى تفويضا كاملا بعقد اتفاقية سلام معكم ، خاصة بعد الهجوم الشرس على من قبل الزعماء العرب ، لكننا لدينا قول مأثور بأن الأب لا يمكن أن يهمل أيا من أطفاله ، إذا لم تأت الأردن إلى مائدة التفاوض ، وسوف أستمر فى المحادثات ، وأتحمل المسئولية".

وحينما قابل السادات بيجن وكارتر أصر على أنهما ينبغى أن يتحدثا عن جوهر اتفاقية سلام شاملة قائلا : " لا يجب أن نحول كامب ديفيد إلى حرب تليفزيونية مثل مؤتمر جنيف ، حيث كان كل شخص يتبارى كما لو كانوا مغنيين هواة يسعون إلى النجاح حتى يصبحوا محترفين .

ينبغى أن نعد ديباجة للاتفاقية ، وسوف يعالج مساعدونا التفاصيل فيما بعد ، وأعتقد أن ذلك سوف يحتاج إلى ثلاثة شهور " .

وللمرة الثانية قام السادات بفعل ما لم يكن متوقعا ، فقد فعل بالضبط ما قا[illegible] لكامل إنه لن يفعله ، موبخا إياه بأنه دبلوماسى حديث الخبرة ، إذ تبنى وجهة النظ[illegible] المصرية المتصلبة التى كان قد أعدها مسئولو وزارة خارجيته المخدوعين .

ومن المثير جدا للغرابة أن كامل لم يعلق على التغيير الذى حدث فى رأى السادات أو على حقيقة أن المؤتمر لم يبدد مخاوف الرئيس .

وليس هناك شك فى أن الإسرائيليين كانوا مصدومين ، إذ عرض كامل أحكامه المسبقة المتعمقة حينما أرجع رد الفعل الإسرائيلى إلى العقيدة المتصلبة غير الحقيقية بأنهم الشعب المختار ، وعلى سبيل المثال فإن وايزمان لم تكن لديه مشاعر التميز هذه على المصريين ، بل كان يائسا .

وكان من نتاج تغيير السادات لرأيه أن أصبح كارتر يائسا من أن ينجز اتفاقية لإنقاذ سمعته السياسية المبعثرة ... وعلى هذا الأساس كان من المفترض أن يكون كارتر جاهزا لأن يضغط على الإسرائيليين .

ولكن كارتر لم يعد ذلك السياسى الساذج مثلما كان فى أيامه الأولى ، حيث قال لبيجن " إن الوثيقة متطرفة .. ويبدو أنها صممت لغرس انطباع ما فى العالم العربى" ، لدرجة أن بيجن نفسه خاف من أن يكون السادات يحاول أن يستثير إسرائيل عن عمد لإفشال المؤتمر ولتتحمل هى الإدانة الدولية ، ولذلك أعلن " لن نلعب المباراة المصرية " .

إن أحد مطالب الخطة المصرية ، والذى أغضب الإسرائيليين على وجه الخصوص، تمثل فى طلب التعويض الكامل عما سببته القوات الإسرائيلية من خسائر وعن استغلال الموارد الطبيعية فى الأراضى المحتلة ، حيث دفع هذا المطلب بيجن لأن ينفخ بغيظ قائلا: " ما هذه الوقاحة .. هل هذه هى الطريقة التى تتم بها مخاطبة أمة كانت تدافع عن نفسها هل يطلب منها أن تدفع على ما تعرضت له من عدوان ؟"

وبالنسبة لوايزمان كانت الوثيقة المصرية مجنونة ومتقلبة .. وتساءل : لماذا جاء المصريون بمطلب لم يأتوا به من قبل ؟ ماذا سوف يحدث لو طالبت إسرائيل بتعويض عن ملكيات اليهود التى صادرها الحكام العرب .

لقد كان حقيقة موقفا محيرا ، ولكن وايزمان وبقية الوفد الإسرائيلى لم يكونوا يدركون أن الورقة المصرية المتطرفة لم يتم إعدادها تحت إشراف السادات ، بل بواسطة وزير خارجيته الذى كان يتعامل معه باستهزاء .

ورد الإسرائيليون بورقة مقابلة مؤسسة على الموقف الإسرائيلى وأضافوا أن المصريين يجب أن يتحملوا خسائر الحرب . وقد وجد وايزمان أن هذا المطلب هزلى وتعجب " لا يجب أن نقلدهم " .. لكن الغرض الوحيد من الوثيقة الإسرائيلية كان هزيمة المصريين فى معركة الرأى العام العالمى إذا فشل المؤتمر كما يبدو واضحا الآن .

ورغم أن الأمريكيين اعتبروا أن الورقة المصرية غير مقبولة ، إلا أنهم لم يتخذوا أى تصرف ، وقد حير ذلك الإسرائيليين ، ولكن الأمريكيين كانوا يعرفون الانقسامات الموجودة داخل المعسكر المصرى ، ومن ثم تجاهلوا الورقة واستمروا فى المناقشات ، بينما السادات – الذى كان واعيا بهذه الحركة – لم يعترض ، وأدرك أن مؤامرته قد فشلت .

وكان الاجتماع الثانى بين كارتر والسادات ملتهبا ، واعتقد بيجن أن السادات – بمباركة كارتر – سوف يطالب بدولة فلسطينية مرتبطة بالأردن ، وقد أدى سوء فهم الألفاظ إلى إثارة غضب السادات ، وشكا بيجن من المطلب المصرى بتحمل الخسائر وأنه لا يرد إلا من عدو مهزوم ، فرد السادات بغضب – معتقدا أن بيجن يشير بعبارة عدو مهزوم إلى مصر – قائلا " أمة مهزومة !! ... لقد كنا كذلك .. لكننا لم نعد مهزومين بعد حرب أكتوبر " ورغم أن كارتر تدخل وأوضح سوء الفهم ، فقد ظل السادات غاضبا ومغتاظا .

وأدى اجتماع آخر إلى صدامات أكثر ، واقترح كارتر أنه إذا كانت المنشآت الإسرائيلية برفح هى العقبة الوحيدة أمام السلام ، فإن طلب الإخلاء يجب أن يتم تقريره بواسطة الكنيست ، وعارض بيجن الفكرة قائلا إن هناك أغلبية فى الكنسيت ضدها .. لكن وايزمان لم يكن متأكدا جدا من ذلك ، وأراد أن يثبت أنه على حق فتوجه للسادات قائلا " نحن نعرض عليكم السلام وأنتم تريدون الأرض " فرد عليه السادات متعجبا " إذا لم تقبلوا التنحى عن المنشآت فلن يكون هناك سلام " فرد بيجن بانفعال : " لن نتنحى عنها " .

طلب السادات تجميد بناء المستوطنات ، وكان وايزمان على استعداد لقبول الفكرة ، لكن بيجن رد بحدة " وماذا سنقول لشبابنا ؟ إن ذلك سيكون جنونا ، خاصة

من قبل حكومة تدعى السيادة على كل أرض إسرائيل ، أى نوع من التجميد يمكن أن يفرض على أرض إسرائيل " .

وبعد أسبوع من المشاحنات ، خيم فيه اليأس على كامب ديفيد ، ذهب وايزمان لرؤية السادات ، واتفق الاثنان على ضرورة حدوث تقدم جوهرى ، وأن حوالى ٩٠ ٪ من المشاكل نفسية بالأساس .

والشئ الذى أبهج وايزمان هو أن السادات أعلن " لا أريد أن أعود للوراء ، من المستحيل أن أعود للوراء ، سوف أستمر فى مبادرتى " .. ولكن بعد الاستماع إلى حجة وايزمان عن المنشآت والمطارت الموجودة فى سيناء ، أشار السادات إلى عدم إمكانية بقاء علامة إسرائيلية فى سيناء ، متسائلا : بأى وجه يقابل القادة العرب لو وافق على أقل من ذلك ، وأن شعبه لن يسمح له بالتنازل عن بوصة واحدة من أرضه ، ونفس الأمر بالنسبة للضفة الغربية ، فإنها لا تنتمى لا إلى إسرائيل ولا إلى الأردن ، وإنما تنتمى لسكانها ، وعلى القوات الإسرائيلية أن ترحل عنها بعدما يقرر الفلسطينيون مستقبلهم .

ورغم كل هذه المطالب شعر وايزمان بأن الأمل ما زال قائما ، وأن موافقة السادات على مقابلة ديان – الذى كان يكرهه ويتجنبه – تعد علامة بارزة فى هذا الصدد .

وبعد رؤية السادات كان ديان مقتنعا بأن الأمريكيين لا يمارسون أى ضغط على المصريين لتغيير موقفهم ، وحينما حاول ديان التوصل إلى نقطة التقاء لم يستطع ، ومن ثم قرر : " إنها نهاية الطريق " لأنه كان يعرف عدم مرونة بيجن .

وحينما ذهب وايزمان إلى حجرة ديان وجده يعد حقيبته .. وكان كارتر قد طلب من ديان ألا يناقش نقاط الاختلاف مع السادات ، لكن الأخير هو الذى أصر على مناقشتها .

وبينما شكا ديان من تصلب موقف العرب تجاه إسرائيل قال : " قبالى جلس شخص غاضب ومضطرب ، هو وزير خارجيته محمد إبراهيم كامل ، الذى قال إنه شغوف باتباع نهج سلفه " فهمى " من حيث تقديم استقالته " .

وكان مستشاره دكتور الباز معارضا بشدة لمعاهدة سلام وعازما على العودة إلى مصر إذا لم يكن هناك تقدم فى المفاوضات .

إلا أن حسابات الباز والسادات لم تكن بالضرورة متناقضة كما اعتقد كامل .. ففى أحد النقاط قال السادات لديان : " هل تتخيل أنه من الممكن بالنسبة لى أن أعقد معكم معاهدة سلام لا تتضمن إزالة المنشآت والمطارات ؟ ! " ، فأجاب ديان : " فى هذه الحالة ، سوف نستمر فى احتلال سيناء وحقول البترول ، ومن ثم سأل السادات فى غضب : لماذا لم يقل ديان هذا منذ البداية مبكرا بدلا من أن يضيع وقت الآخرين ؟ فأجاب ديان بأن الإسرائيليين فعلوا ذلك ولكن العرب لم يريدوا الاستماع .

ولكن تطورا ما قد حدث نتيجة للاقتراح الخيالى الذى قدمه الجنرال أبراشاتامر، والذى كان مقربا من وايزمان ، حيث اقترح الاتصال بالجنرال شارون وإخباره بالأزمة بإيجاز ، وطلب – منه – أن يتصل ببيجن وحثه على إخلاء المنشآت ... ولما كان شارون هو الأب الروحى وراء بناء هذه المنشآت فإن هذه الحجة سوف تترك تأثيرا كبيرا على بيجن ، لقد كانت فكرة بعيدة وخادعة معا ، ولكنها نجحت ... إذ أخبر بيجن بعد مرور عدة ساعات الوفد بأن شارون اتصل به وأخبره بأنه يفضل إخلاء المنشآت ، إذا كانت هى العقبة الأخيرة أمام اتفاقية سلام .

ورغم أن بيجن بدا غير مقتنع فقد كان لتدخل شارون المفاجئ أثر واضح .

أيضا ، أصبح وايزمان مقتنعا بأن إسرائيل يجب ألا تتنازل فقط عن المنشآت إنما أيضا عن المطارات الحربية .

وأشار ديان إلى كارتر بأنه أيضا غير رأيه ، ولكنه قال له إن منشآت سيناء لا يمكن إخلاؤها دون موافقة مجلس الوزراء الإسرائيلى والكنيست . وهكذا فقد بيجن تأييد الأعضاء المتميزين فى وفده .

وفى المعسكر المصرى كان السادات أيضا يواجه أزمة ، إذ كان يواجه بقرار مؤلم بينما كان المؤتمر قد اقترب ولم يبق سوى يومين فقط ... وظهر التوتر بصورة مفزعة فى اجتماع له مع مساعديه ، وكان كامل بين أعضاء الوفد الذين جاءوا إلى كابينة السادات ، فجأة صرخ السادات بأعلى صوته : ماذا يمكن أن أفعل ؟ ... وزير خارجيتى يعتقد أننى أبله ، اخرجوا كلكم !!

وحينما احتج كامل بشدة ، قال له السادات : " ماذا بك يا محمد ؟ ألا تعرف ما أنا مقدم عليه .. إذا لم تكن أنت الذى تتحمل معى فمن إذن " ... لقد كانت صرخة من القلب .

وفى اليوم التالى سمع كامل أن السادات أمر وفده بالمغادرة ، وقد اتصل السادات بزوجته تليفونيا – والتى كانت فى باريس مع أطفالها – وأخبرها بالقرار ، فاستعطفته أن يصبر أكثر ، ولكنه أصر على أنه ليس لديه خيار سوى المغادرة .

وحينما ذهب كامل لرؤية السادات وجده فى حالة ثورة .. ثم طلب السادات ضرورة حضور فينس فى الحال ، وقال : " لقد قررت أن أنسحب من المؤتمر وأظهر فى التليفزيون لأشرح بالضبط ما حدث بعد عودتى للقاهرة " .

وعندما سئل عن سر حدوث هذه الخطوة الشديدة أجاب متعجبا " إنه من المستحيل تماما أن أصل إلى أى تفاهم مع بيجن ، إنه ببساطة يراوغ كارتر ، إنه يريدنا فقط أن نوقع على ما يريده هو ، وأن يترك كل شئ آخر فى الهواء " .

وعندما قال فينس للسادات إن رحيله سوف يخيب أمل الرئيس كارتر ويربكه ، وأن إسرائيل ستكون المستفيد الوحيد ، بدا السادات مضطربا ومترددا إلى حد ما طبقا لرواية كامل .. كان السادات يشرح سلوكه فإن عبارة واحدة على وجه الخصوص صدمت كامل ، مفادها أن السادات لن يوافق على أية تنازلات أيا كانت إلا من أجل الرغبة فى مساعدة كارتر .

وصل كارتر فأخذه السادات بالأحضان وقاده إلى حجرة أخرى ، وبعد مرور نصف ساعة أرسل السادات إلى الفريق المصرى ، وكان يبدو مسرورا ، وعبر عن ذلك قائلا " الرئيس كارتر رجل عظيم وذكى للغاية ، قام بحل المشكلة بالكثير من المرونة وأنا راض تماما ، إذ قال لى إننى بإمكانى عقد اتفاقية نوقعها بالاعتماد على موافقة المؤسسات الدستورية فى مصر وإسرائيل ، متمثلة فى البرلمان المصرى والكنيست الإسرائيلى ، وإذا رفض أى منهما أو كلاهما الاتفاقية فإن أى التزامات تقع على الطرفين سوف تلغى " .

والآن أصبح هناك صدام حتمى الحدوث بين السادات وكامل ، ولسوء الحظ فإن لدينا رواية كامل فقط ، وسوف تكون غريبة إذا لم يرد أن يظهر نفسه فى أفضل صورة بارزة .

وتذهب هذه الرواية إلى أنه – أى كامل – حينما أوضح أن ما يشغله حقيقة هو نوع الاتفاقية التى ستوقعها مصر ، أجاب السادات " سوف أوقع على أى شئ سوف يعده الرئيس كارتر دون قراءته " .. وللمرة الثانية يظهر كامل سذاجة حينما رد سائلا " لماذا ينبغى أن يوقع السادات على أى شئ دون قراءته " فكرر السادات : "نعم سوف أوقع دون قراءته ؟

إن السادات أظهر قدرا كبيرا من الصبر مع وزير خارجيته الشاب ، وبالنسبة لكامل فإن ما قاله السادات – رغم الاعتراض على العديد من النصوص التى قدمها كارتر – كان مفاجئا ... وحتى عندما كتب كامل مذكراته لم يدرك مدى السذاجة التى أظهرها عبر تغيره ، رغم أن أمانته وشجاعته لا يمكن إنكارهما .

وفى نفس اليوم ، دعا السادات إلى الاجتماع بكامل والباز فى مقر إقامته ، وعندما كان كامل ينتظر السادات ، كان الأخير يتحدث تليفونيا مع جيهان بباريس بصوت مرتفع وأخبرها بأن هناك إمكانية للتوصل إلى اتفاقية مشرفة فى غضون يوم أو يومين ، ثم طلب السادات من جيهان أن تحضر حفيده شريف إلى التليفون ، وسمع السادات مرات عديدة يقول " شريف .. انت ولد وحش " ثم يضحك بضجيج .

وقد أظهر السادات الوثيقة المعدة للتوقيع من قبل الزعماء الثلاثة ، تلك الوثيقة التى حددت أن كارتر ينوى أن يختتم المؤتمر يوم الأحد التالى ١٧ من سبتمبر. كان كارتر قد دعا الجانبين لاجتماع فى اليوم الثانى لإبداء تعليقاتهم النهائية على المشروع الأمريكى .. وأن الرئيس كارتر سوف يقوم بتقديم الديباجة للتوقيع عليها من قبل الرئيس السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن .

وقد توقع السادات بوضوح رد الفعل الحار الذى سوف يبديه كامل ، لكن الأخير لم يكن متجاوبا بل رأى أن الورقة تتعامل مع مسائل إجرائية وأنها لا قيمة لها فنزعها السادات من يد كامل قائلا " .. لا .. إنها مهمة جدا ، كما أنها مكتوبة بخط يد الرئيس كارتر " .

وفى اليوم التالى ذهب كامل ليرى السادات مبديا استعداده للاستقالة ، ومما يثير الدهشة أن كامل لم يذكر أن الاتفاق تضمن تخلى إسرائيل عن كل المنشآت والمطارات الحربية الموجودة بسيناء ، وانصب تركيز اهتمامه على أن إسرائيل سوف تبقى مسيطرة على الضفة الغربية وقطاع غزة وكذا مرتفاعات الجولان خلال فترة السنوات الخمس الانتقالية .. كما تحجج كامل بأن العالم العربى سوف يرى هذا التعامل بوصفه سلاما منفصلا بين مصر وإسرائيل .

وفى مناقشة ساخنة .. قال له السادات .. " أنت لاتعرف شيئا عن العرب ، أنا فقط الذى أعرفهم جيدا ، وإذا تركوا لأنفسهم فإنهم لن يحلوا المشاكل ، وسوف يدوم الاحتلال الاسرائيلى " .. وعندما قدم كامل استقالته قبلها السادات على الفور .

ولكن حدثا طارئا مضادا ظهر على السطح حينما ذهب السفير نبيل العربى مدير الشئون القانونية بوزارة الخارجية - ليرى السادات وقال له إن الخطابات المتبادلة بين الزعماء بخصوص القدس ليست لها قيمة سياسية أو قانونية ، وبعد أن شرح العربى اعتراضاته .. قال السادات له بهدوء : " لقد سمعتك دون مقاطعة ، لذلك لا أحد يستطيع أن يدعى ما يشاع عنى من أننى لا أسمع ولا أقرأ .. وأود أن تعرف أن ما كنت تقوله دخل من هذه الأذن وخرج من الأخرى ، إنك والناس فى وزارة الخارجية يقعون تحت تأثير أنكم تفهمون السياسة ، وفى الحقيقة أنتم لا تفهمون شيئا على الإطلاق ، ومن ثم فإننى لن ألقى أدنى اهتمام لكلماتك ومذكراتك ، فأنا رجل تصرفاته محكومة باستراتيجيات عليا لن تكون قادرا لا على إدراكها ولا على فهمها ، وأنا لا أريد تقاريرك المضللة وغير الواضحة ، والآن يهين وزيرك محمد كامل الرئيس كارتر فى حضورى .. ألا يدرك أن الرئيس كارتر هو كارتى الذى ألعب به فى إقامة سلام شامل ؟ " .

وبعد أن صمت لمدة دقيقة أضاف السادات (طبقا لكامل) : هل أنت واع بأن قريبك محمد حسنين هيكل يهاجمنى فى كل مكان ويتآمر على تغيير النظام وأننى لم أعط أية أهمية - ولو قليلة لأكاذيبه وسخافاته الممزوجة بالخبث والحقد الأسود "

ورغم أن بعض مخاوف كامل السيئة - من وجهة نظره المتطرفة - لم تكن كلها فى غير موضعها ، فإنه لم يكن مدركا الأحزان التى كان يشعر بها مناحم بيجن .

إن وايزمان شعر قبل المؤتمر بأن بيجن لا يرغب فى أى مناقشة مع السادات، لأنها سوف تقود حتميا إلى التنازلات ..

كذلك تمثل خطة الحكم الذاتى الخاصة بالضفة الغربية وقطاع غزة ـ والتى سخر منها كامل ـ علامة على تضحية بيجن ، وأنه سوف ينتقد بشدة من جانب القليلين أو الكثيرين من الأعضاء المستقلين فى حزب حيروت .

لقد كانت هناك دهشة من أن بيجن قبل الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى، إذ بالنسبة لزعيم حزب كان يرى أن الضفة الغربية هى مسألة وخيار إسرائيلى داخلى، تعتبر هذه التنازلات غير عادية .

وهكذا كان بيجن يواجه مشكلة ضخمة ، فهو إما أن يتنحى عن منشآت سيناء والمطارات الحربية ، والتى كان يصفها دوما بأنها حيوية لأمن إسرائيل ، وإما أن يفشل مؤتمر كامب ديفيد ويواجه غضب الولايات المتحدة الحاد .

ومما يثير الغرابة ، أن الخلاف بين بيجن والسادات كان حول عبارة عدم حيازة الأراضى بالقوة ، فأحدهما كان يريد استبعادها ، بينما الآخر كان يريد بقاءها فى حين ضغط كارتر على السادات بأن العاطفة التى تناديه سوف تجعله يجازف بمكانته السياسية ، ومن ثم فإن السادات ـ رغبة منه فى مساعدة صديقه ـ وافق أخيرا واكتفى بالإشارة إلى قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ .

وانطلاقا من تسلحه بهذا التنازل ، قابل كارتر بيجن فى محاولة أخيرة يائسة لكسر صخرة الموت ، مشيرا إلى هذا التنازل الذى كان يمنحه أهمية رمزية عظيمة رغم أنه لم تكن له قيمة من الناحية العملية .

وعلى هذا الأساس غير بيجن موقفه بتصريح دراماتيكى : " إذا كان انعقاد السلام متوقفا على منشآت سيناء ، فسوف أعرض الأمر على الكنيست ، وسوف آخذ بما يقرره الكنيست ، وسوف أوصى بأنه فى هذة المسألة المهمة والحساسة لا يمكن توجيه النظام الحزبى فيما يتعلق بالتصويت ، هذا هو كل ما يمكن أن أفعله ، ولاشئ أكثر من ذلك " .

ولأن حزب العمل المعارض كان سيصوت لصالح مثل هذه الاتفاقية ، ولأن حزب حيروت (حزب بيجن) سوف يسانده ، فإن النتيجة كانت مؤكدة .. ومع ذلك ظلت هناك صعوبة غير متوقعة برزت على السطح .. وقد ظهر أن كارتر وعد السادات بالإعلان عن القدس الشرقية باعتبارها أراضى محتلة شأن بقية الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ .

ولدى سماعه ذلك علق بيجن ببجاحة .. " لو كانت هذه هى الحال فإننا يمكن أن نحزم حقائبنا ونعود دون كلمة أخرى " .

وقد تم التغلب على هذه الأزمة فى خطاب حدد فيه الأمريكيون أن الموقف من القدس بقى كما حددته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى يونيه ١٩٦٧ ، حينما طالبت الولايات المتحدة بمراقبة دولية على الأماكن المقدسة ، ورفضت أن تعترف بضم إسرائيل للقدس الشرقية .

وواقع الحال ، فإن اتفاقات كامب ديفيد لم تسفر عن اتفاقية وإنما كانت هناك ـبياجتان ، إحداهما بين مصر وإسرائيل ، وهى التى اشتملت على الانسحاب الإسرائيلى من المنطقة ، والأخرى تتعلق بالضفة الغربية وغزة .

وقد وعدت الولايات المتحدة ببناء مطارين حربيين داخل إسرائيل بدلا من المطارين الموجودين بسيناء ، كذلك طالبت إسرائيل بنزع سلاح كل المنطقة لكنها فشلت ، وبدلا من ذلك تم الاتفاق على إنشاء منطقة فاصلة بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية .

أما الاتفاقية الثانية والخاصة بالضفة الغربية وغزة فقد اتفق أيضا على أن تكون إطارا لتسوية شرق أوسطية شاملة ، وكان هذا هو السبب الذى جعل السادات يوقع عليها ، حيث أدركت مصر حاجة إسرائيل للأمن من خلال الضفة الغربية وغزة، بينما تعهدت إسرائيل بمنح الحكم الذاتى الكامل للسكان .

وقد استطاع السادات أن يحقق عدة إنجازات حقيقية ، إذ لأول مرة تقبل إسرائيل أن يشارك ممثلون فلسطينيون من خارج المنطقة فى المفاوضات ، وحل القضية الفلسطينية بكل ملامحها ، أو بمعنى آخر اتفاقية تعترف بالحقوق المشروعة

للشعب الفلسطينى ومطالبه العادلة ، واتفق الطرفان على تطبيق الحكم الذاتى بعد فترة انتقالية لا تزيد على ٥ سنوات ، ومع ذلك فإن لإسرائيل الحق فى الاحتفاظ بالسيادة كاملة فى نهاية هذه الفترة .

وتحتم أن تترك بعض تفاصيل الاتفاقية الثانية مبهمة ، إلا أنه يجب إلقاء اللوم فى هذا السياق على منظمة التحرير تحت قيادة ياسر عرفات ، حيث رفضت المشاركة فى المحادثات ، وليس هذا فحسب ، وإنما أيضا طالبت بالكثير من التنازلات الواضحة ، إلا أن هؤلاء الفلسطينيين كانوا مستعدين لقبول ظروف أسوأ فى مدريد ١٩٩١ .

وتقريبا كانت هناك شكوك فى المعسكر المصرى ، كما كان بعض أعضاء الوفد الاسرائيلى قلقين .. وعلق وايزمان قائلا : " اتفاقية أشبه بعقد الزواج اليهودى ، لا تنظر إليها وتضعها بعيدا مقفولا عليها ، ولو لم يسر الزواج على مايرام فإنك تخرجها وتدرسها ، ولكن فى ذلك الحين سوف تكون متأخرا جدا ، وستساعدك السماء إذا احتجت إليها " .

واقترح وايزمان على بيجن أنهم يجب أن يقوموا بزيارة للسادات ، فاتصل به بيجن تليفونيا ، وبعد تهنئته على الاتفاق سأله إذا كان من يمكنه المجئ ورؤيته ، فرد السادات : " بكل سرور " .

وحينما دخل بيجن كابينة السادات سلم عليه بحرارة ، ولاحقا زار السادات كابينة بيجن ، وملأ وايزمان حينئذ أكواب النبيذ لكل الأفراد بما فيهم السادات ، ناسيا أن الرئيس مسلم تقى لا يشرب الكحول ، فاستثار السادات وايزمان بمداعبته بالقول " أنا لست وثنيا مثلك " ، وأمسك الجميع أكواب النبيذ وأمسك السادات عصير الفاكهة وشربوا نخب السلام .

وبعد ذلك طارت الوفود إلى البيت الأبيض بواشنطن من أجل التوقيع من خلال احتفال ، وحينذاك عبر السادات عن امتنانه وشكره للرئيس كارتر قائلا : " لقد تعهدت بأن تكون شريكا كاملا فى العملية السلمية ، وإننى سعيد للقول بأنك قد وفيت بوعدك"، ثم دعا كارتر لأن يستمر فى مجهوداته حتى تكتمل العملية السلمية ويزيد اعتقاد الشعب الفلسطينى بحقيقة السلام .

وبعد أن تحدث الزعماء الثلاثة أعلن كارتر : " لقد حان وقت توقيع الاتفاقيات".

ويمكن القول بوجه عام ، أن الوساطة الشخصية للرئيس جيمى كارتر هى التى أنقذت الموقف ، وأنه في واشنطن في السادس والعشرين من مارس ١٩٧٩ قام جيمى كارتر وأنور السادات ومناحم بيجن ليس فقط بتوقيع معاهدة سلام وإنما بإنهاء ٣٠ سنة من الحرب .

الفصل الثالث والعشرون

آمال غير مكتملة

الطريق إلى المأساة

عاد أنور السادات إلى القاهرة فخورا ، شاعرا بأنه كسر حدة الصراع مع إسرائيل ، وأنه جلب السلام لكل العالم العربى وأقام علاقات دافئة ، خاصة مع الرئيس جيمى كارتر ، ومن خلاله مع الشعب الأمريكى .

ورغم أنه قد بدا لبعض الوقت مستاء من عناد بيجن ، فإنه لم يكن يحمل تجاهه أى ضغينة ، بل ظل يرى بيجن رجلا قويا وأمينا ، لم ينصب اهتمامه على أمن دولته الصغيرة فحسب ، وإنما أبدى استعداده لصنع سلام مع أكبر دولة عربية .

وقد ساد الشعور بالسعادة والبهجة بين الناس العاديين فى القاهرة ، ذلك الشعور الذى انعكس على سلوكهم فى الحال بعد ذهاب السادات للقدس ، وكانت هناك تقارير حقيقية صادقة عن سائقى التاكسى المتحمسين الذين يقدمون توصيلات مجانية للزائرين الاسرائيليين فى إشارة إلى الصداقة الجديدة .

كذلك ، كان هناك حادث المعبد اليهودى الموجود بشارع عدلى باشا بالقاهرة حيث أقبل أعضاء الوفد الاسرائيلى بالمحادثات لأداء الصلاة بالمعبد ، واحتشد جمهور كبير خارج المعبد ، وقد أفزع ما أحدثوه من ضوضاء الموجودين بداخل المعبد ، وظنوا أن هذا التجمهر ذو طبيعة عدائية ، فخرجوا ليروا ماذا يحدث خارج المعبد بالضبط ، وقد أثار دهشتهم أنهم سمعوا ترديد كلمات " بيجن .. بيجن " والتى كان الجمهور يغنيها بسرور ، حيث اعتقد الجمهور أن رئيس الوزراء الاسرائيلى بيجن بداخل المعبد فجاءوا ليحيوه ، وقد اقترن ذلك الحماس بالتصفيق والضحك .. وأخيرا فرقهم البوليس دون استخدام أى عنف .

إن الرأى العام تأرجح بصورة كبيرة مع آمال السلام ، تلك الآمال التى زادت ثم انخفضت ثم زادت مرة أخرى .. والتى اتجهت إلى التغير الهائل المنتظر فى حياة المصريين العاديين نتيجة للسلام مع إسرائيل ، وكما اتجهت إلى المساعدة الأمريكية المتوقعة وتدفق المستثمرين ، و... و ... إلخ .

إن الشعب المصرى كان ينتظر الثروات أو على الأقل ظروفا اقتصادية أفضل تهبط عليهم .... ومن جانبه كان أنور السادات مسرورا لأنه أصبح " بطل السلام " والرجل المسئول عن إحداث هذا التحول الدراماتيكى ، بينما نسى الناس – وعلى نطاق واسع – تلك المشاعر القاسية التى أدت إلى إحداث شغب منذ سنتين .

ورغم أنه بدا واضحا أن التفاصيل الخاصة بالحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة كانت فى طريقها لمواجهة صعوبات ، فقد ظل السادات على هدوئه ، يتحدث عن آماله فى بناء شرق أوسط جديد يقوم على الفضيلة والتعاون بين اليهود والعرب ، مكررا إشارته إلى بناء مجمع دينى فى سيناء يتكون من مسجد وكنيسة ومعبد .. إذ رأى فى اعتقاده أن اجتماعات زعماء الديانات الثلاثة يمكن تعميقها على مستوى المسلمين والمسيحيين واليهود العاديين بتجميعهم هناك وقيامهم بمناقشات مثمرة ، ورغم أن هذه الفكرة بدت خيالية للمراقبين الأجانب ، فإن السادات كان يراها عملية وامتدادا طبيعيا للسلام مع إسرائيل .

ولم يفقد السادات الأمل فى الوصول إلى اتفاقية معقولة مع الإسرائيليين عن الضفة الغربية وغزة ، ومع أن الدلالات لم تكن كلها مناسبة إلا أن السادات ظل يتحدث عن آماله فى السلام ومثاليته ، أما الشكوك بخصوص اتفاقية الضفة الغربية فلم تكن عرضة للانتقاد فى مصر ، وفى إسرائيل أيضا بدأ موشى ديان وعيزرا وايزمان يركزان بصورة أكبر على نوايا بيجن الحقيقية وقد أدرك ديان أن بيجن يمرر إليه سياسة معينة عن قصد تجاه العرب ، وبدأ الوزراء يخبرون صحفهم المفضلة بأنهم - وبيجن بالتالى - غير سعداء من اجتماعات ديان مع قادة العرب الفلسطينيين ، مثل دكتور حيدر عبد الشافى الذى أصبح مؤخرا عضوا دائما فى المفاوضات مع حكومة حزب العمل .. والذى قرر أيضا أن ديان ليبرالى ، وأنه لديه رغبة فى إبداء تنازلات للعرب .

إذا كانت صحة ديان أفضل فإنه كان سيبقى بمجلس الوزراء ، كما فعل حينما كان موقفه أكثر صعوبة بعد حرب يوم كيبور ، ولكن السرطان ومخاوفه من أن يفقد الرؤية بإحدى عينيه أقنعته بأن وقت الاعتزال قد حان .. ومن ثم قام بتقديم استقالته.

أما وايزمان ، والذى استمر عدة شهور بعد استقالة ديان ، فقد اتسعت حدة الخلافات بينه وبين بيجن كما فى حالة ديان ، كما أضافت خطوة وايزمان فى إقامته اتصالات مع أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية بعدا جديدا فى التوتر بينه وبين ديان.

وفى مايو ١٩٨٠ ودع وايزمان مؤسسته الدفاعية ، وشأنه شأن ديان شعر وايزمان بالقلق على معاهدة السلام التى وقعوها مع السادات ، حيث قام بيجن ومؤيدوه ـ طبقا لوايزمان بهدم ما تم إنجازه ببرامج الاستيطان المثيرة ، والمصادرة غير الضرورية للأراضى والعبارات الرنانة التى تتحدى العالم ، وكأنهم يعودون إلى العيش فى عزلة عقلية .

ومن ناحيته رفض السادات لمدة شهور أن يتخلى عن الأمل فى إمكانية التوصل إلى اتفاقية ، ففى إشارة شخصية تظهره فى أفضل صورة ومشهد ، أبحر السادات برفقة جيهان إلى ميناء حيفا على ظهر يخت الملك فاروق ، ولمسوا عمق ترحيب الجمهور الإسرائيلى الذى وقف يصفق ويهلل لهم بحماس بالمقارنة بالعداء الشديد من قبل المعسكر العربى .

وقد أعلن السادات أنه سوف يبيع لإسرائيل سنويا ٢ مليون طن من بترول سيناء .. وفى إشارة أبعد ، أبدى السادات موافقته على الربط بين ميناءى حيفا والإسكندرية ، كما تحدث السادات عن تخيله أن تروى مياه النيل ، ليس الأماكن الصحراوية فى شبه جزيرة سيناء فقط ، وإنما أيضا صحراء النقب الإسرائيلية .

وفى منتصف ١٩٧٩ ، وتحديدا بعد مرور شهور قليلة على توقيع اتفاقات كامب ديفيد ، ظل السادات فى مزاج ودى على أساس أنه قدم عصر السلام ، ولإعطاء دفعة للمفاوضات مع الإسرائيليين بخصوص الحكم الذاتى للفلسطينيين عين الرئيس الدكتور مصطفى خليل ـ ذا التعليم الغربى والهادئ الحديث ـ على رأس الوفد المصرى. ورغم الاجتماعات التى تمت فى هذا السياق فلم تكن هناك دلالات للتقارب أو الفهم ، حيث بقيت الاختلافات قائمة ، فمن جانبه أصرت إسرائيل على أن تبقى القدس موحدة تحت سيطرتها ، وبدورها طالبت مصر بخصوصية الوضع الذى ينبغى أن تكون عليه القدس الشرقية ، كما أرادت إسرائيل مجلسا إداريا للضفة الغربية وغزة فى حين طالبت مصر بمجلس يمتلك كل السلطات التشريعية .. كذلك أصر بيجن على بناء مستوطنات جديدة وترميم وتجديد القائمة ، فى حين أعلن السادات أن ذلك يتعارض واتفاقات كامب ديفيد .

وتمنى السادات أن يعين الفلسطينيين على إرساء قواعد تشريعية وإدارية من خلال المساعدة الأمريكية ، حتى يمكنهم ممارسة السلطة بفعالية بعد أن تنتهى الفترة الانتقالية .

وفى ضوء ذلك كان بيجن قلقا من ممارسة الفلسطينيين لذلك خوفا من أن يؤدى ذلك إلى قيام الدولة الفلسطينية ، بما يؤدى إلى الإنذار بإنهاء السيادة الإسرائيلية على المنطقة وتدمير قناعاته الوطنية والأيديولوجية .

وبدأ السادات تدريجيا ييأس من الوصول إلى أية اتفاقية مع بيجن ، كما احتد رأيه بالنسبة لياسر عرفات – زعيم منظمة التحرير الفلسطينية – وتابعيه ، إذ طبقا لوجهة نظره فإنهم يساعدون بيجن برفض التعبير عن رغبتهم بالمشاركة فى المفاوضات ..

ودفاعا منه عن حق إسرائيل فى الوجود ونبذه للإرهاب ، حاول بيجن أن يقيم بديلا للقيادة الفلسطينية ، ليتحرر من تأثير منظمة التحرير الفلسطينية ، من خلال تشكيل تحالفات (اتحادات القرى) والتى تدار بواسطة رجال من القرى .. لكن تلك القيادات أثبتت عدم فعاليتها ، كما كانوا عرضة لخطر الاغتيال . وحتى استبدال الحكومة العسكرية فى إسرائيل بمؤسسة مدنية من نوع معين أظهرت نية إسرائيل فى الإبقاء على الأراضى . إن السادات ــ الغاضب والمغتاظ من الإسرائيليين ، والفلسطينيين الذين لم يبدوا أهمية لمجهوداته الشاقة نيابة عنهم ، و الملك حسين الذى لم يبد رغبة فى الالتحاق بالمحادثات ــ تحدث عن الأطراف المذكورة بقسوة لكونه شعر أنهم يعادون مبادرته السلمية .. وفى أغسطس عام ١٩٨٠ كتب السادات لبيجن عن أن الفشل فى إجراء خطة للتنسيق والتوفيق بين الإسرائيليين والفلسطينيين قد يؤدى إلى إعادة إشعال النيران ، سواء بالنسبة لإسرائيل أو بالنسبة لاتفاقات السلام .

وأكد السادات أنه كان يأمل فى أن تكتمل محادثات الحكم الذاتى بحلول ٢٦ من مايو ١٩٨٠ ، وبعد سنة بدأت ، ولكنه قوبل بعاصفة من الاستيطان الإسرائيلى ، وبالتصرفات الاسرائيلية العدائية ضد الفلسطينيين .

وقد اغتاظ السادات على وجه الخصوص من القرار الإسرائيلى بنقل بعض المكاتب الحكومية - ومنها مكتب رئيس الوزراء — للقدس ، إذ رأى السادات أن ذلك يمثل إهانة لـ ٨٠٠ مليون مسلم ، والذين لديهم الحق الأكبر فى القدس بالمقارنة بـ ١٨ مليون يهودى . كما رأى الرئيس أن هذا التحرك يعتبر نزعا للثقة التى أرساها بنفسه فى محادثاته مع بيجن بالاسكندرية وحيفا وأسوان .. كذلك تحدث الرئيس بصراحة - وأحيانا بعاطفية - إلى بيجن مؤكدا دلالة وأهمية القدس بالنسبة للعرب ، معتقدا أنه بدون تقسيم القدس يمكن إيجاد الطريق للسلام بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، من خلال استعادة الحقوق التاريخية والقانونية للعرب بالمدينة .

ورغم أن السادات قد فشل فى إقناع بيجن الذى تعلل بأن موقف إسرائيل يتطابق مع الاتفاقات ، فقد كتب إليه مرة ثانية بطريقة صوفية مؤثرة ، قائلا إن أفكاره خطرت له وهو يصلى ويقرأ القرآن المقدس على قمة جبل سيناء ، إذ أدرك أثناء وساطته أن مبادرته السلمية كانت رحلة مقدسة ووحيا إلهيا ، وأن المولى القدير سوف يتمم عجلة تاريخ الأحبار الذى بدأ على تراب مصر .

وفى نفس الوقت استعطف السادات بيجن لكى يدرك أنه إذا لم تحل مشكلة القدس بالطريقة التى تضع بالحسبان الملامح القومية لعرب فلسطين ، فإن فرصة عظيمة سوف تضيع سدى ، وراوغ بأنه إذ أخلى الفلسطينيون الضفة الغربية فإنه سيمد مياه النيل لمساعدتهم على التوطن فى صحراء النقب ، ولكن لعدم موافقة بيجن رأى السادات أنه لا فائدة من الاستمرار فى المفاوضات ، لأن الاستمرار فيها سيجعل الموقف أسوأ .

وقد اتضح الكثير من سخط السادات الزائد خلال مقابلة أجرتها معه صحيفة معاريف الاسرائيلية القومية فى ٢٢ من أغسطس ١٩٨٠ ، والتى دارت فى جوهرها حول أنه اعترف لأول مرة بأنه فى مايو ١٩٧١ ، وأثناء مبادرة روجرز كان على استعداد للتوقيع على وقف إطلاق النار بصورة أكبر من اتفاقية سلام .. ومع ذلك ، فإن كل الخطوات التى اتخذها لتدعيم السلام والتطبيع لم تقابل باستجابة حقيقية ، حتى دعوته للرئيس الإسرائيلى نافون لزيارة مصر ، كجزء من العملية التطبيعية اسئ فهمها على أنها محاولة لتقويض سلطة بيجن .

وادعى السادات أن مجهوداته لدفع عملية السلام بين مصر وإسرائيل ذهبت إلى أبعد من التزاماته باتفاقات كامب ديفيد ، وأنه اتخذ عشر خطوات للأمام فى مقابل كل خطوة اتخذها الإسرائيليون .

ورغم ذلك امتدح السادات القرار الإسرائيلى بإعطاء أولوية فى جدول الأعمال للانسحاب من أجزاء من سيناء ، وأكد أنه لا حروب أخرى ستعكر العلاقات بين مصر وإسرائيل وأن الاخلافات سوف يتم حلها عن طريق المفاوضات ، وكان الصوت منخفضا بالفعل حينما قيل : لن تكون هناك حرب ساخنة ، ولكن سيكون السلام باردا .

وبحاسته الفطرية شعر السادات بالإحباط المنتشر بين شعبه ، فلم تحقق لهم مبادرة السادات الرفاهية ، ولا هى انهت المشاكل ولا هى أوقفت النضال مع إسرائيل وفى ذات الوقت فإن الدول العربية كانت تشن غارة ضده واصفين إياه بأنه خائن للقضية العربية .

إن شعبه كانت لديه توقعات عالية ، وأثناء زيارته للعريش شاهد الأعلام التى ترفرف مبشرة بالسلام والرفاهية والرخاء ، فهل تبددت كل هذه الآمال وهذا الشعور بالسعادة .. إن مزاج السادات وسلوكه تغير ، حيث لاحظ أصدقاؤه أنه أصبح عصبيا ويتحدث بكلمات غير مألوفة ، كما بدأ يجد العزاء فى الانعكاسات الدينية .. وقد قال لجيهان عدة مرات إنه انجز السلام مع إسرائيل وإنه يبحث عن السلام مع نفسه ، واعتقدت جيهان أنه كان صادقا فى اعتزال الحياة العامة والرسمية مؤخرا فى عام ١٩٨٢ حينما تعود كل سيناء إلى مصر .

كذلك رأى السادات أن القادة العرب ضعاف لم ينضجوا بعد وذوو عقول ضيقة، يقودون شعوبا بسيطة تفتقر إلى نضج وتاريخ المصريين ، وأنهم مدينون برضائهم للاكتشاف المفاجئ للبترول فى أراضيهم ، وكان السادات غاضبا من همجيتهم ، كما كان ينظر باحتقار إلى أنصارهم فى مصر .

ومع ذلك فإن هؤلاء القادة العرب ظلوا القوة التى تثير العرب ضده ، على الأقل رسميا ، وأن هؤلاء الرجال بعقولهم الصغيرة منبع الطغيان والفساد ،

استطاعوا حشد مؤتمرات القمة لاتهام السادات ومحاولة عزل مصر ، التى تمثل نصف العالم العربى .

وفى قمة بغداد طردت مصر من الجامعة العربية ونقلت مكاتبها الفرعية من القاهرة إلى تونس ، كما أمرت كل الدول العربية بوقف المساعدات المادية إلى مصر وقطع العلاقات الدبلوماسية معها .. وفى إحدى الضربات الفاصلة وجدت مصر نفسها تتعرض للمقاطعة الاقتصادية والثقافية من بقية العالم العربى .

هذه الأبعاد كان لها تأثير مدمر على عدد كبير من المصريين ـ قدرتهم بعض الإحصائيات بما يزيد على ٢ مليون – الذين كانوا يعملون أطباء ومهندسين ومدرسين فى الدول العربية ، وكانت لهم أسر بمصر تعتمد على دخول ذويهم فى أقواتهم اليومية . وفى ظل غضبتهم من السادات طرد الزعماء العرب هؤلاء المصريين الذين لا حول لهم ، رغم أنهم كانوا يحتاجون لخدماتهم ، وكان هذا نوعا من الانتقام والتصرف البدائى الذى أغضب السادات ، وأكد على وجهة نظره بأنه يتعامل مع مبتذلين ولا كيان لهم .

وفى الداخل ـ أيضا ـ لاحظ السادات زيادة المعارضة المنظمة له ولسياساته ، وأن خصومه لم يكونوا من جماعة واحدة ، بل شملوا أولئك المعارضين لسياسة الانفتاح الاقتصادى ، والمهاجمين لسلامه مع إسرائيل .. أما التطور الخطير فهو انضمام الأصوليين الإسلاميين لمنتقديه .. والذين بدأ أكثرهم تعصبا فى التآمر على اغتياله .

بيد أن سلوك السادات تجاههم كان غامضا ، ولا أحد من حكومته كان يفهم مثله جماعة الإخوان المسلمين وتشعباتها المختلفة ، لا سيما أنه كان صديقا سابقا لمؤسس وزعيم الحركة ، وهناك دلالات تشير إلى أنه كان على وشك الانضمام إليها فى بدايات حياته ، وأن الذى حال دون ذلك هو بحثه عن تجارب جديدة ورفضه لأن يحصر نفسه فى أيديولوجية ضيقة ، كما كان مبهورا بالعلوم والتكنولوجيا الحديثة ، والتى ـ طبقا لرؤيته ـ تتضح فى أبرز صورها فى الولايات المتحدة القوية .

وفى الحقيقة فإن الدولة كانت تعانى تغيرا دراماتيكيا ، فخلال عقد تضاعف عدد سكان القاهرة من ٤ ملايين إلى ما يزيد على ٨ ملايين ، واستمرت الزيادة

بمعدلات مرعبة ، إذ تضاعفت فى العقد التالى من ٨ ملايين إلى ١٦ مليونا ، كما ارتفع عدد سكان الدولة من ٤٠ مليونا إلى ٦٠ مليونا ..

هذه الحشود الجماهيرية مثلت أرضية خصبة للتطرف ، واعتقد المتطرفون أن الإسلام هو وحده القادر على حل كل المشاكل الدينية والسياسية والاقتصادية ، لأنه منذ بداياته يمثل حركة دينية وسياسية ذات ملامح اجتماعية وثقافية .

وقد تأثر هؤلاء بكتب أبو الأعلى المودودى التى ترجمت إلى العربية فى الفترة من ١٩٥٠ - ١٩٦٠ ، والتى تبيح استخدام العنف فى مواجهة من أسماهم الأعداء الأقوياء ، وقد أعلن عن أفكاره هذه بواسطة سيد قطب أحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين ، والذى أصبح كتابه " فى ظلال القرآن " من أكثر الكتب مبيعا وعلى هذا الأساس يعتبر جناح من الإخوان المسلمين العنف جزءا مكملا لسياستهم ، وكانت رؤية العنف الإسلامية التى جاءت من باكستان والشرق الأقصى قد وجدت لها أنصارا فى بيروت وفى حوارى القاهرة الضيقة حيث المبانى العشوائية .. واشتعل هذا التعصب بسقوط شاه إيران .

ورغم التأييد الأمريكى وانتصار الخومينى ، فإن التخلى عن الشاه من قبل الغرب - ذلك السلوك الذى اشمأز منه السادات - قد زاد من شعور المتطرفين بالنصر و الاحتقار للقيم الغربية .. وفى مصر طالب تيار العنف الإسلامى بحياة السادات .

الفصل الرابع والعشرون

الموت فى عرض الاحتفال بالنصر

هدد السادات كثيرا قبل اتخاذ إجراء ضد الجماعات الإسلامية المتطرفة ، كما تألم – على خلاف ناصر – من جراء الإجراءات القوية التى يمكن اتخاذها ضد الإسلاميين المندفعين ، وإذا ما كان هناك مايبررها ، وفى بعض الأحيان شعر بما يدور داخل الإسلاميين المتعصبين وبعاطفتهم ، كما كان يصلى بخشوع والتزام بصورة تركت انطباعا حتى لدى الأصوليين .

وفى البداية كانوا محتارين بسبب الفصل بين تدينه ومعتقداته السياسية ، وكذلك بين صلواته اليومية المنتظمة التى تركت علامة دائمة على جبهته، وبين إصراره على صنع سلام مع إسرائيل الكافرة ، تلك الدولة اليهودية السارقة ، المدسوسة بواسطة الشيطان الأمريكى .

ومن المحتمل أن يكون تردد السادات كان منبعه مشاكله السياسية والاقتصادية المتزايدة ، والاعتقاد بأن إطلاق العنان لقوة الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية المنشقة عنها سوف يمثل قوة ضد خصومه العلمانيين .

ومع ذلك ، فإن ماأثار غضب السادات أن الأصوليين أنفسهم انضموا لناقديه ، وفوق ذلك اندلعت الصراعات المتزايدة بين الاسلاميين والأقباط المسيحيين ، بل وانتهت إلى صدامات دامية .

وعلى صعيد آخر أصبحت المشاكل الاقتصادية العميقة أكثر حدة ، الأمر الذى مكن خصوم السادات من أن يسخروا من دعواه بتقديم عهد الرخاء ، ليس هذا فحسب، ولكن أيضا تمكنت مجموعة الأحزاب المختلفة المعارضة لسياسات السادات الداخلية والخارجية من تنظيم نفسها فى جبهة معارضته ، مستغلين فى ذلك الحرية التى منحها لهم السادات نفسه فى ١٩٧٦ .

وإذا كان الجناح اليمينى الليبرالى قد اعتنق سياسة الانفتاح الاقتصادية والمشروع الحر ومن ثم لم يتحد الرئيس ، فإن اليساريين – سواء من الماركسيين أو من الجماعات الناصرية – كانوا بمثابة شوكة فى ظهر السادات رغم قلتهم فى البرلمان ، وكان السادات قد شجع على إقامة حزبه الوطنى الديمقراطى الذى أصبح بالضرورة الجزء الأكبر فى البرلمان ، كما عاود حزب الوفد القديم – الذى كان السادات يكرهه فى شبابه – الظهور تحت مسمى حزب الوفد الجديد .

بيد أن معظم الأحزاب شعرت بأن قوتها الحقيقية ليست ممثلة فى البرلمان وأنها مضطهدة بواسطة بوليس السادات ، بينما اعتقد الأخير أن الناصريين والماركسيين كانوا يتآمرون ضده وضد الدولة ، كما بدأ يفهم التهديد الذى يواجهه شخصيا من قبل الأصوليين الإسلاميين ، رغم أنه كان لايزال غير واع بانتشارهم الذى امتد إلى الجيش .

وقد تصرف السادات بصورة خادعة فى مايو ١٩٧٨ ، لكنه حرك دوافع العداوة لدى خصومه . . إلا أنه كان قادرا – بما يحوزه من شرعية كبيرة فى التصرف – على أن يزيح كل خصومه المعارضين من البرلمان . . وعلى أثر ذلك قام حزب الوفد – والذى كانت معارضته تنصب على أن ديمقراطية السادات المحدودة لم تعد تتحمل النقد أو المعارضة المستقلة – بحل نفسه .

ورغبة منه فى دفع حزبه الوطنى الديمقراطى الجديد ، حاول السادات أن يفعل المستحيل ، حيث دافع عن الدولة الحديثة القائمة على العلم والإيمان ، لكن بما يتماشى مع الشريعة .. لكن هذه الحركة لم تخدع الأصوليين . . ورغم أن حزبه فاز بأغلبية ساحقة فى الانتخابات العامة ، فقد كان السادات غير سعيد بالنهج التدميرى الذى تتبعه الجماعات الصغيرة فى البرلمان .

وفى مايو ١٩٨٠ رتب السادات مرجعية جديدة منحته سلطات استثنائية ، كما أدت إلى إحداث تغييرات دستورية .. وكان على السادات أن يسعى إلى إعادة الانتخاب لعدة مرات كما تمنى ، بينما هجر فكرة التقاعد ، الذى كان مقررا أن يقوم به عندما تنفذ إسرائيل الانسحاب الأخير من سيناء عام ١٩٨٢ . .

ولكونه رجلا ذا عزة ، فقد آثر ألا يغادر الحكم والدولة تغلى بالهياج والشغب وتتعالى أصوات خصومه ، وفوق ذلك فقد كان هو صاحب إنجاز مبادرة السلام ، والتى سيدركها العرب يوما ما ويصفقون له .

وفى سعيه لتحجيم النظام الديمقراطى فى مصر ، وإقامة نظام أكثر دقة وانتظاما وضع السادات نصب عينيه المثل السيئ لصديقه المحبوب شاه إيران الذى استجاب لما يسمى بالضغط الديمقراطى فوجد نفسه منفيا ومهانا ، وقرر السادات ألا

يستسلم لخصومه أو يعتمد على حكمهم ، وأن يحاربهم للنهاية وألا يترك الدولة فريسة لدسائسهم .

ونظرا لوعيه بانتقادات الأصوليين بأن إعمال الشريعة ليس كافيا ، اقترح السادات أن تصبح الشريعة هى المصدر الوحيد – وليس فقط المصدر الرئيسى –للتشريع ، وفى خطوة أبعد لإضعاف سلطات البرلمان اكتسب السادات الحق فى تشكيل مجلس تشريعى ، حيث لاتكون هناك معارضة له ، وبالإضافة إلى ذلك فإن السادات مرر قانون العيب لتعزيز القيم الروحية والخلقية ، تلك التى رسخها فى حزبه الوطنى الديمقراطى .

كل هذه الخطوات المعقدة ، والتى تبدو خادعة ، لم تخرس النقد ولم تقلل من عدد الخصوم ، بل على العكس أثارت ضجة جديدة ، كان أبرزها ماثار حول قانون العيب . وقد كان أسلوب حكمه الجديد من خلال إصدار القرارات إلى المعارضة، ورفع مذكرة وقع عليها عدد من البارزين .

غير أن السادات انتزع رئاسة الوزراء من مصطفى خليل ، متجاهلا كل هذا الهجوم، كما كان الحدث الأكثر فعالية هو حصول السادات على نسبة تأييد شعبى تبلغ ٩٠٪ ، فهذا الحدث وإن كان قد أراح السادات من القرارات التى منحته هذه الشعبية ، إلا أن خصومه ومنتقديه سخروا من هذه الأرقام زاعمين تزوير الحكومة لها ، كما ادعت صحف المعارضة أن أكثر الأحداث دلالة هو ماحدث بأسيوط فى صعيد مصر – مركز الأصوليين الإسلاميين – حيث واجه السكان المحليين المسلحين المسئولين الذين قدموا لجمع صناديق الاقتراع ، وطالبوا بأن يتم فتحها فى حضور شعب المدينة ، وقد وجد أن ممتاز نصار – البطل المعارض للحكومة – هو صاحب النصر الساحق .

كما أجمع المنتقدون أيضا على أن سياسة الانفتاح الاقتصادى قد أدت الى استشراء الفساد ، الذى بدت أهم مظاهره فى أن الأغنياء أصبحوا أكثر غنى ، بينما أصبح الفقراء أكثر عرضة للاستغلال ، وأن كم هائلا من السلع الاستهلاكية و الترفية تصب فى الدولة ولايستفيد منها – بيعا وشراء وأرباحا – سوى القليلين . .

وإذا كان السادات قد تمنى اتساع نطاق الاستثمارات الأجنبية ، فإن الأمريكيين والأوروبين كانوا على حذر من الاستثمار فى دولة تبدو غير مستقرة ، وينتشر فيها الفساد والسخط ونقص البنية الأساسية القوية اللازمة لخلق دولة صناعية حديثة .

وقد كان أنور السادات أيضا متألما من اقتراب الفساد من أسرته الخاصة ، حيث اتهم أخوه عصمت بعمل ثروة من خلال وسائل إجرامية أثناء رئاسته وبعد موت السادات حوكم عصمت وسجن .

وهكذا أصبحت موضة فى مصر أن ينسب كل الفساد لتراخى السادات وتساهله، رغم أنه شخصيا لم يتهم بإحدى جرائم الفساد ، ومع ذلك هناك قلة من المصريين رأت عدم عدالة هذه النظرة ، حيث كان السادات مذعورا من الفساد الذى حوله ، وقد أدى تساهله تجاه أخيه إلى اعتقاده الخاطئ جزئيا بأن أعداءه كانوا يستخدمون سلوك أخيه عن عمد للإيقاع به ورفض النظام .

نقطة أخرى غاية فى الحيوية ، وهى أن السادات كان ثائرا بسبب الانتقادات التى بدأت توجه له فى الصحف الغربية باعتبار أن التزامه بالديمقراطية أصبح مشكوكا فيه . فخلال مؤتمر صحفى دعا له المراسلين الأجانب فى ميت أبو الكوم كان السادات ثائرا وعدوانيا ، حيث نظر الى المراسلين الأجانب متعجبا ومتسائلا : " كيف تكتبون عنى هذه الأكاذيب ؟ " . . كذلك استشهد بمقطوعات من صحيفة التايم اللندنية وبعض الصحف الغربية الأخرى التى كانت تتساءل عن ملامح حكمه صارخا : " هذه أكاذيب فاسدة ، كيف تكتبون عنى هذه الأشياء " ، كما أشار إلى شريط كان فى يديه قائلا للمراسلين : " سوف أجعلكم تستمعون إلى هذا الشريط لتستمعوا إلى حقيقة هذه الأكاذيب الفاسدة التى ذاعت عنى وعن مصر " .

وكان هذا الشريط يحوى مقابلة أجراها مراسل بريطانى يدعى ديفيد هيرست قام السادات بطرده عام ١٩٧٧ . . وكانت النسخة الأصلية فيه قد احتجزت سرا بواسطة سلطات الأمن المصرية . . هذه الحقيقه صدمت المراسلين .

وفى رده الغاضب على سؤال وجهه إليه أحد المراسلين فيما إذا كان قد لاقى قبولا واضحا من قبل حكومة الولايات المتحدة أثناء زيارته لواشنطن منذ فترة وجيزة لحملة الاعتقالات واسعة النطاق للخصوم المصريين ، قال السادات : " لدى الحق فى أن أقتلك لسؤالك مثل هذا السؤال ولكنها الديمقراطية " .

وعند العودة إلى قريته المحبوبة ، لم يجد السادات الطمأنينة الداخلية ، فعندما زارته ابنته كامليا فى أغسطس ١٩٨١ قبل الذهاب إلى رحلة دراسية بالولايات

المتحدة كانت منزعجة من مظهره وسلوكه ، حيث بدا يائسا متوترا فاقدا الكثير من وزنه ، كما لم يستطع أن يرد على أسئلتها عن صحته ، بل علق بصوت خافت بأن هذا الوضع لن يستمر طويلا ، وأيضا حينما كان يودع ابنته وأخته الكبيرة إقبال علق بأنه لن يعيش حتى يراهما ثانية .

هذا ، وقد أعطت الاعتقالات الواسعة التى قام بها السادات ضد خصومه من كل القطاعات الانطباع بأنه كان يفقد سيطرته على الموقف بصورة أكبر من تشديد قبضته كما مثل قراره باعتقال البابا شنودة - بابا الأقباط - مفاجأة ، خاصة أن الأقباط كانوا غاضبين من امتناعه عن اتخاذ إجراء قوى ضد الأصوليين الإسلاميين الذين كانوا يهاجمونه ، وكان البابا شنودة قد اغتاظ من قرار السادات بأن تكون الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع فى مصر .

وبلغ الخلاف مرحلة الانفجار حينما نشر الأقباط إعلانات فى صحف أمريكا الشمالية ضد الأصولية الإسلامية ونظام السادات ، ووقعت صدامات دامية بين الأقباط والإسلاميين ، وتلى ذلك اتهامات واتهامات مضادة بين الأقباط والزعماء الأصوليين . وقد أضافت الهجمة التى شنتها الحكومة ضد الأقباط وقودا إلى الأزمة ، كما ازداد استياء الأقباط من السادات بسبب قراره بنفى شنودة إلى الصحراء الليبية .

لقد كان احتقار السادات لمعارضيه الداخليين والدائمين كبيرا ، خاصة فيما يتعلق بمعاهدة السلام مع إسرائيل ، كما بدا وكأنه يثير سخطهم .

ففى يوليو ١٩٨١ قبل ساخرا قانون الكنيست المسمى بـ " قانون القدس " ، والذى يشترط أن تكون القدس عاصمة أبدية لإسرائيل ، وأنها لايمكن أن تكون موضوعا للمساومة مع العرب .

كما كانت هناك ضجة فى العالم الإسلامى ، ولكن رد فعل السادات - بالمقارنة بذعر العديد من المصريين - كان هادئا ومحيرا ، خاصة أنه جاء من قبل شخص طالما تحدث عن حبه للإسلام .

كذلك أثار السادات قلقا داخل حزب العمل الإسرائيلى حينما وافق على أن يلتقى بمناحم بيجن فى شرم الشيخ . . إذ كان توقيت هذا اللقاء ذا دلالة ، حيث حدث اللقا قبل انتخابات يونيو العامة عام ١٩٨١ ، وليس مقتنعا أن بيجن السياسى الكا

والبرلمانى المحنك ، لم يكن مدركا الفائدة التى سيجنيها من الدعاية ، كما كان السادات أيضا يعرف أنه بذلك يساعد شريكه فى السلام ، بينما زعماء حزب العمل كانوا يتساءلون عن دوافع الرئيس المصرى بالضبط . .

وعلى صعيد آخر كان توقيت لقاء بيجن - السادات موضوعا مثيرا للنقاش والشك ، حينما قامت الطائرات الحربية الإسرائيلية بضرب المفاعل النووى العراقى الواقع بالقرب من بغداد بعد اللقاء المشار إليه بأيام قلائل ، حيث أجمع العديد من المصريين ومعظم العرب على أن بيجن أخبر السادات بقرب وقوع الهجوم وأنه لاقى قبوله ، أو أنه أعطى بيجن تطمينا بأن رد الفعل المصرى سيكون معتدلا ، وإلا كيف يجرؤ بيجن على أن يهاجم مفاعلا له أهميته وحيويته ، وبالقرب من قلب عاصمة عربية .

ورغم أن بعض الإسرائيليين تساءلوا عما إذا كان بيجن قد أخبر السادات أم لا ، فإن العديد من الاسرائيليين - بمن فيهم عدد من زعماء حزب العمل - اعتقدوا أن الهجوم الجسور والمدمر للمفاعل النووى العراقى كان العامل الأهم فى فوز بيجن الانتخابى .

أيضا رغم أن هذا الاحتمال هو الأقرب للحقيقة ، فإن إنكار السادات لمعرفته بأى شئ عن الهجوم لم يتم تصديقه بواسطة معارضيه .

وفى هذا السياق ، فإن عدم تحرك السادات عندما قامت إسرائيل بضرب المكاتب الفرعية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت ، وما تبع ذلك من تغييرات حادة فى شمال لبنان ، فسر بواسطة الأصوليين على أنه سلوك مثير للغضب ، وهى نفس رؤية منتقديه فيما يتعلق بمقابلته لبيجن بعد نصر الأخير الانتخابى واتخاذ قرار بتجديد مفاوضات الحكم الذاتى .

وقد رأى منتقدو السادات أن ذلك يؤكد أن السادات مذنب ، لكنه تجاهل هذا الاعتقاد بازدراء . وبدلا من ذلك انصب تركيزه على المسألة التى أثارت الأصوليين ، والتى تمثلت فى الدعاية الواسعة لخطته الخاصة بإقامة مجمع دينى فى سيناء يشتمل على مسجد ومعبد وكنيسة ، وكان السادات فى البداية قد ذكر المشروع فى مقابلة أجراها معه محرر أجنبى من صحيفة الأخبار اليهودية اللندنية ، كما علق أهمية كبيرة

على هذه الخطة التى رآها جماعا لكل مثالياته ، ولكن بالنسبة للأصوليين كانت الخطة تمثل دلالة على خيانة الرئيس وهجره للإسلام ، وهكذا أصبحت مؤامرة اغتيال الرئيس وحراسة الإسلام ضرورة ملحة فى عيونهم .

وقد جعلت الخطب الحماسية التى كان يلقيها الشيخ الضرير عمر عبد الرحمن - خريج جامعة الأزهر والمحاضر بجامعة أسيوط - جعلت منه المرشد الروحى للجماعة الإسلامية ، هى الجماعة الأكثر تسلحا فى كل الجماعات الأصولية المنشقة ، وقد أظهر عاطفته المتطرفة عام ١٩٧٠ حينما ناشد تابعيه عدم الصلاة على جنازة الرئيس ناصر .

وقد أدت خطبه إلى أن حكم عليه بثمانية شهور سجن ، وقد شجعه ذلك على أن يستمر فى الهجمة ليواجه من أسماهم أعداء الاسلام ويتغلب عليهم .

وقد رأى هذا الشيخ وتابعيه أن السادات شخص غير مقبول بصورة أكبر من ناصر ، فالرئيس الأخير لم يخفى سرا كراهيته للأصوليين وقمعهم ، وأنه حاول أن يخدعهم بالقبض عليهم ثم إطلاق سراحهم ، متظاهرا بتطبيق الشريعة الإسلامية ، لكن فعليا يسعى إلى طرحها . . وطوال الوقت يخطط مع عدو الإسلام الأعظم (إسرائيل) .

وقد رأى هؤلاء المتطرفون أيضا أن الاستبعاد السريع للرئيس السادات والإعلان عن أن مصر أصبحت دولة إسلامية حقيقية سوف يخرج الجماهير المصرية إلى الشوارع مبتهجين ومكرمين ، وأن شرور العالم الغربى سوف تمحى بالدم والتهليل .

وفى عيونهم ، فإن الرئيس السادات خلق الظروف المؤدية إلى سقوطه ، حيث قبض على ٣٠٠٠ طالب وزعماء سياسيين ، وصحفيين على مستوى بارز ، وزعماء دينيين ، شأنهم شأن الأصوليين .. كما اتهموه بأنه أراد تدمير كل معارضة لحكمه حتى يصبح طاغية جديد ، وأنه ليس لأحد من فضل سوى للقصص الأمريكية التى نشرت أن السادات أصبح ناسكا أو معتزلا ، وغير مستقر عقليا ، يصرخ ويهلل بنوع من الاثارة .

بيد أن السادات فى كتابه الأخير " وصيتى " أو " رغبتى الأخيرة " ، والذى نشر تخليدا لذكراه ، لم يعط الانطباع بأنه كان فى حرب مع نفسه أو أنه فقد كل أمل ، بل بالعكس كانت هناك رصانة فى رسالته التى تبين أنه شعر بإتمام رسالته للشعب المصرى ، وكانت زوجته - جيهان - مقتنعة بأنه كان صادقا فى رغبته فى التقاعد ، لكنه تراجع عن هذه الرغبة حتى يرى كل سيناء قد أعيدت فى عام ١٩٨٢ .

ويعتبر الدكتور محمد شعلان - الطبيب النفسى المشهور - أن السادات قد نال الشهادة لأنه كره تلك الشخصية الفظة التى كان قد تحول إليها ، وبغض النظر عن ذلك البعد الفكرى الأساسى الذى نماه وطوره فى السجن ، فإنه كان جاهلا بالأبعاد الأمنية ، رغم التحذيرات التى تلقاها عن المؤامرات من قبل الأصوليين الإسلاميين لاغتياله .

لقد رفض أن يرتدى الصديرى الواقى من الرصاص فى ٦ من أكتوبر ، وقام بإبعاد الحراس المحيطين به .. وكان السادات قبل ذلك قد تلقى تحذيرات عديدة من خطر ركوب سيارة مكشوفة أو الوقوف كاشفا نفسه ، لكنه رد بثبات " أنا لن أقوم بالسماح لهذه القلة المتطرفة بأن تمنع شعبى من رؤيتى " . .

إن السادات برفضه ارتداء الصديرى الواقى من الرصاص وإبعاد الحراس ما كان داخليا يتمنى أن يقتل ، لكنه كان يركز على أنه فى ذكرى الاحتفال السنوى بحرب أكتوبر ، تلك الحرب التى أعادت شرف الشعب والجيش المصرى ، فلاأحد يمكن أن يقدم على إيذاء بطل العبور ، الذى أحدث هذا التحول . وكتبت جيهان السادات فيما بعد أن السادس من أكتوبر عام ١٩٨١ كان يعد أحد الأيام القلائل ، التى لا تخاف فيها على حياة زوجها ، لما لهذا اليوم من دلالة لدى الشعب المصرى . ونظرا لتأكدها من أنه لايواجه خطرا فى ذلك اليوم ، فإنها فى الغالب لم تكن تحضر الاحتفال العسكرى بمدينة نصر على أطراف القاهرة .

وفى ذلك الصباح ، نظر أنور السادات فى عيونها ، وكان يبدو وسيما يرتدى زيا جديدا كان قد صمم خصيصا لهذه المناسبة .

وتحكى جيهان : فى السنوات السابقة كنت أغيظه أنا وبناتى على زهوه ، كما كنا نشد ونشد فى حذائه حتى يعبئ فيه طرفى البنطلون الطويلين . . وكنت أؤنبه : ألا ينبغى أن يكون الزى أوسع قليلا ، لكونه يرتديه بصعوبة . . وكان يرد متظاهرا بنفاد الصبر أوه ياجيهان .. لاتقولى ذلك ، أنت لاتعرفين شيئا عن العسكرية .

وفى ذلك اليوم ، بدا السادات معتنيا للغاية بمظهره ليتم فخره بكونه ضابطا مصريا ، وكان قد اعتاد أن يحمل عصا المارشالات تحت ذراعه ، الأمر الذى لم تكن جيهان تحبه ، وتقول له إن الناس ستعتقد أنك تتباهى ، وأنت لست كذلك ، فكان يرد عليها بأن العصا تمثل الأسلوب الحقيقى للحياة العسكرية . . إلا أنه ، ومما يثير

الغرابة ، فى ذلك اليوم لم يأخذ العصا ، فهل تركها ناسيا أم تركها عن عمد ليسعد جيهان ؟ . . لم تعرف جيهان . .

ومع ذلك لم ينس أن يقول لجيهان أن تحضر حفيده شريف ذا الأعوام الخمسة مرتديا زيه إلى العرض " إنه كبر الآن وأريد أن يشاهد العرض " . .

فأكدت جيهان أنها سوف تأخذه معها ، ولكن لأن الصبى الصغير كان يعانى الربو ، فقد قررت جيهان ألا تلبسه ذلك الزى الثقيل المشابه تماما للزى الذى يرتديه السادات ، وألبست الصبى بدلا من ذلك ملابس خفيفة تتناسب مع اليوم الدافئ .

وحينما دخل السادات منصة العرض ، رأته زوجته سعيدا جدا ، ولم يكن بالتأكيد ذلك الشخص الذى تلقى تحذيرا سابقا بموت وشيك : " لم أنس الابتسامة التى كانت تعلو وجهه حينما دخل منصة العرض وسط تصفيق حاد ، ونظر ليرى أحفاده الأربعة يجلسون معى هناك ، وجهه الهادئ والمعبر امتلأ فجأة بحرارة الشمس ، بينما هو يلوح لنا ، والآن دائما يدور بذهنى جمال تلك الابتسامة ، وأتذكر السعادة التى كانت تعتلى وجهه .

كان هناك بعض التأخير غير الواضح بالنسبة للعرض ، ثم ظهر تشكيل لطائرات القوات الجوية المصرية تمت تحيته وسط موجة من التصفيق ، ثم لاحظت جيهان بدهشة وتركيز عربة عسكرية تتجه خارج خط عربات المدفعية وتقف أمام المنصة .

ثم رأت رجال من الجيش بمدافع آلية يجرون فى اتجاه المنصة ، ثم صوت انفجار قنبلة يدوية غطى بواسطة زئير طائرة حربية كانت تحلق ، كما تهشم الزجاج الذى كانت جيهان وأحفادها يشاهدون العرض من خلاله بفعل الرصاص .

وبينما هى تنظر لأسفل رأت أنور السادات واقفا ويشير للحراس ، معطيا إياهم تعليمات بوقف هذا الانتهاك كانت هذه هى المرة الأخيرة التى رأت فيها زوجها حيا ، وبينما كان هو مذهولا ومرتبكا اتجه الرصاص إليه وسقط على الأرض .

وبعد ذلك ، حينما زارته فى المستشفى لم تلحظ أى تمزق فى جسمه باستثناء أماكن الرصاص . . بل على العكس " حينما رفعت الملاءة رأيت ثلاث فتحات صغيرة جدا إحداها فى ساقه والاثنين فى الصدر فوق القلب تماما .. كانت تشبه الكدمات البسيطة أكثر من كونها جروحا مميتة ، وعندما أردت أن ألمسه لأنه كان يبدو حيا ، وجدت جسده متجمدا ، فلم تكن هناك حياة " .

الخاتمة

الإهمال قتل زوجي . . عدم الاعتناء قتل زوجي . . كان هذا هو تعقيب جيهان على المأساة ، والتى أضافت أن تأثير السادات على قواته المسلحة واعتقاده بعدم إمكانية اختراقها بواسطة الإسلاميين المتعصبين ساعد على قتله .

إن حدة جيهان كانت مفهومة تماما وتعكس حبها العميق لأنور السادات ، كما أن معظم انتقاداتها لها مايبررها . والحقيقة - كما كتبت هى نفسها - أن السادات طلب من حراسه الشخصيين عدم الحيلولة بينه وبين القوات المسلحة ، معتقدا ليس فقط أنه لايحتاج إلى حماية من جيشه ، بل أيضا لأن هذا المظهر الأمنى يمثل إشارة إلى القابلية للفساد ، حتى قوات الأمن الخاصة بالرئيس وقفت بعيدا ، وقد فعلوا ذلك لأن الرئيس طلب ذلك .

ومع ذلك أشارت جيهان السادات إلى أنه كان هناك نوع من المرور الغامض ، وأنه فى مناسبات سابقة كانت فرق المطاردة تأخذ موقعا بين الرئيس وبقية القوات ، وفى هذه السنة لم يفعلوا ذلك . . سابقا كان هناك قناصة ممتازون يعتلون أسطح المبانى المحيطة لمراقبة الأعداء المحتملين ، لكنهم هذه المرة لم يكونوا موجودين . . كذلك فإن كل آلة حربية أو مدفع كان يتم اختباره عدة مرات للتأكد من خلوه من الذخيرة الحية قبل الوصول إلى المنصة ، ولكن كيف أفلت ضابط ورجلان من كل التفتيشات واستطاعوا الوصول بذخيرة حية أمام الرئيس ؟ !

سؤال آخر يجب أن يوجه لقادة الأمن . حتى لو كان الرئيس قد طلب استبعاد الحراسة ، فى إشارة شخصية خالصة ، ألم يكن ينبغى عليهم أخذ الاحتياطات السرية ؟

لقد أدلوا بمعلومات تفصيلية عن مؤامرات مختلفة لقتل الرئيس ، كما كان لديهم تسجيل يصف الكيفية التى تم بها التخطيط لموته ، ثم كيف استطاعوا أن يتركوا الرئيس تماما عرضة لنزوات أى مجنون أو للمخططات الإجرامية للقتلة المتعصبين ؟ لم تثبت أية إجابة مرضية .

والقول بأن أنور السادات نشد الشهادة عن عمد فى أكثر الأيام مجدا فى حياته كاعتراف بفشله كرئيس هو قول لايقبله عقل ، حيث إن أنور السادات لم ير نفسه أبدا رجلا فاشلا فقد مثالياته وتبدلت شخصيته . إنه أحيانا كان يتملكه شعور باليأس من عدم القدرة على توفير حياة أفضل للشعب المصرى ، وصعوبة التغلب على مشكلة عدم وجود بنية أساسية حديثة لاقتصاد الدولة ، وعدم إمكانية التوصل إلى اتفاق مع الإسرائيليين

بشأن الفلسطينيين . . ولكنه كان فخورا للغاية بإنجازاته ، حيث استعاد شرف الشعب والجيش المصرى من خلال حرب أكتوبر ، وفوق ذلك أنهى فترة الحرب مع إسرائيل فى كامب ديفيد مستعيدا بذلك الأراضى المصرية وممهدا لفتح قناة السويس .

بالإضافة إلى ذلك فإن السادات لم يكن يتمنى موته على أيدى المتعصبين الذين كان يحتقرهم أمام زوجته وأحفاده ، ومن ثم فإن هذا التصور لايمكن الدفاع عنه ... كما أنه تحدث إلى زوجته عن موته شاعرا بأنه أتم أشياء عظمية للشعب المصرى ، وأنه كان متعبا جدا نتيجة لمجهوداته الجبارة .

لقد أحب أنور السادات أن يصبغ حياته بالصبغة الدراماتيكية لكى يراها بألوان بطولاته حينما كان طفلا ، كما أن موته كان مسرحيا أكثر من كونه موتا حقيقيا ، ولأن جيهان كانت مدركة ذلك فإنها استطاعت تقبل موته ودفنه والابتسامة تعلو شفتيها واللمعان يطل من عينيها .

وهناك قول يؤيده البعض بأن هناك أيدى أجنبية متورطة فى الاغتيال ، وكان حتميا أن يذكر اسم الرئيس الليبى معمر القذافى ، حيث كان يكره السادات ، ويتمنى إزاحته عن السلطة ، ولكن أيما كان الأمر فليس هناك دليل يشير إلى تورط القذافى مباشرة فى عملية الاغتيال .

ولم يكن دفن أنور السادات فى قبر يشبه الهرم على أرض العرض - حيث قتل - هو قراره الخاص . . إذ طبقا لجيهان فإن السادات فى الشهور الأخيرة من حياته حينما شعر بدنو موته عبر عن رغبته فى أن يدفن بقرية ميت أبو الكوم بدلتا النيل ، وأنها حاولت أن تثنيه عن التحدث فى الموضوع مازحة : " أوه يا أنور إنك ستستغرق منى - والأطفال معى - ساعة ونصف لزيارتك " ، ومع ذلك لم يحل عن الموضوع قائلا : " إذا لم تكن ميت أبو الكوم فليكن على قمة جبل سيناء بالقرب من دير سانت كاترين حيث سنبنى مسجدا ومعبدا ، فلو دفنت هناك سيقول الناس إن كل الأديان واحدة ، وأن إلهنا جميعا واحد " .

وقد علقت جيهان بأن دفنه فى سيناء أيضا كان ذا أهمية رمزية ، لأنه يشير إلى استرداد الأرض التى أخذتها إسرائيل خلال الحقبة الناصرية .

وقد حاولت جيهان بغيظ أن تقنع زوجها بألا يختار قبره ، إذ لو لم تكن ميت أبو الكوم مناسبة من حيث الزيارة فإن جبل سيناء يصعب زيارته ، نظرا لأنه كان

يتطلب أن تأخذ طائرة ثم سيارة حتى تصل إلى هناك ، لذا قالت له : " لا . . من الأفضل أن أزورك مرة أو مرتين فى السنة بميت أبو الكوم " .

ومع ذلك حينما سألها الرئيس مبارك عن المكان الذى سيدفن فيه ، قررت جيهان – متجاهلة أمنيات السادات – : " إنه كان رجلا عظميا وليس رجلا عاديا . . لماذا ندفنه فى مكان يصعب على الناس زيارته ؟ لماذا لاندفنه فى المكان الذى مات فيه ؟ . . ذلك المكان العسكرى الذى كان يعتز به . .

إن السادات كان يستمتع سنويا فى السادس من أكتوبر بزيارته لقبر الجندى المجهول والاستماع الى الموسيقى وعرض قواته التى تخدم مصر بشجاعة ، وأن دفنه هناك سوف يذكر كل فرد بما فعله من أجل الدولة . . كل سنة فى عرض السادس من أكتوبر . . كل جندى وكل ضابط سوف يمر على قبره ويحييه " .. وطبقا للتقاليد المصرية كان الرجال فقط هم الذين يمشون فى الجنازة ، كما كان هناك قادة العديد من الدول : جيمى كارتر وريتشارد نيكسون وجيرالد فورد (رؤساء الولايات المتحدة) ، والأمير تشارلز (ولى العهد البريطانى) ، فرانسوا ميتران (الرئيس الفرنسى) ، زعماء من الاتحاد السوفيتى وأفريقيا . والأكثر دلالة كان وجود مناحم بيجن رئيس الوزراء الاسرائيلى . .

ولم يحضر الجنازة من الزعماء العرب سوى الرئيس السودانى جعفر نميرى ، والرئيس الصومالى سياد برى ، الأمر الذى أحزن جيهان السادات وصدمها .

ورغم أن السادات أدين بشدة سواء من قبل منتقديه الداخليين أومن قبل وسائل الإعلام الخارجية على الاعتقالات التى قام بها فى الشهور الأخيرة من حياته ، فقد أكدت جيهان أن هذه الاعتقالات أنقذت الدولة من إمكانية اعتلاء المتطرفين للسلطة بعد الاغتيال، وأضافت أن السادات أدرك نفاذ العديد من المتطرفين المثيرين للفتنة إلى قلب الحكومة ، وأنهم كانوا يشكلون تهديدا حتى خلال حياته ، وأنه خشى من أن سلوكهم قد يدفع الاسرائيليين إلى عدم إعادة الجزء الباقى من سيناء إلى مصر ، وهكذا يفقد انجازه الباهر ، كما رأى السادات أن المتطرفين قوة منافسة ويجب تحديهم وإنزال الهزيمة بهم .

إن جيهان السادات حينما حذرت السادات من بعض رجال المدفعية المعتوهين رد عليها قائلا : " أنا لن أقتل إلا بواسطة المتطرفين " . وحينما سألته قبل أيام من قتله لماذا يركب سيارة مكشوفة رد عليها " حينما يأتى –يعنى الموت – سوف يأتى ".

ومن جانبه كان السادات قلقا على جيهان لأنه سمع أن أحد الأصوليين بعد أن أطلق سراحه قال لجيهان أن تترك أنشطتها العامة .

لقد كان أنور السادات قلقا من انتشار الأفكار الاسلامية الوافدة من إيران ، ولم يكن يفهم كيف يتوافق العنف والدم مع الإسلام ، وكان لمخاوفه مايبررها ، حيث إن الأصولية الإسلامية تنتشر الآن فى ليبيا والسودان وإيران . هذه الرؤية التى تتسم بالعنف أفرخت حركات إرهابية مثل حزب الله فى لبنان وحماس فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، والخطر الأكبر الآن يتمثل فى أن يكتسب الأصوليون سلطة فى الشرق الأوسط ، الأمر الذى يؤدى إلى إفساد ما فعله أنور السادات وتعود الحروب الدموية بين العرب وإسرائيل ثانية .. ومع ذلك ، وبفضل ميراث السادات كان هناك أمل فى أن يظل حقن الدماء قائما بين العرب وإسرائيل .

إن أنور السادات لم يكن قديسا، وإنما كانت له أخطاؤه ، وفى سنواته المبكرة كان من الممكن أن يشطح بعيدا ، فقد كان معجبا بهتلر ، ليس لأن هتلر اضطهد اليهود ، ولكن لأنه حقق النجاح لألمانيا ، كذلك كان لديه استعداد لأن يعمل لصالح الألمان فى الحرب العالمية الثانية والترحيب بهم حال دخولهم القاهرة ، شأنه فى ذلك شأن الألوف ، إن لم يكن الملايين من مواطنيه ، كما استطاع استخدام لغة التعطش للدماء ضد الإسرائيليين لتهديدهم فى حروب ثانية ، كما تمكن جيشه من عبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف واستعادة شرف الجيش المصرى الذى فقد فى حرب الأيام الستة . وقد عايش أنور السادات تحولا شخصيا وسياسيا ونفسيا مدهشا ، إذ أصبح أسلوبه فى الخطابات الرسمية تدفقا وتعمقا فى إيمانه الاسلامى ، كما أصبحت أفكاره ممزوجة بمفاهيم دينية وإنسانية مثالية ، وعقد سلاما مع إسرائيل ضرورة ملحة هو مدين بها للشعب المصرى الذى يعانى . وكما صرحت جيهان قريبا فى لندن ، فإنه لا أحد فى العالم العربى الآن – باستثناء الأصوليين المتعصبين – يشكك فى أن السادات كان محقا للغاية فى تصوره بأن السلام هو الطريق الممكن والوحيد للحاضر والمستقبل . .

وإذا كانت جولدا مائير قد قررت أنها لاتعرف فيما إذا كان السادات وبيجن يستحقان جائزة نوبل ، وإنما يستحقان أوسكار ، فإن ذلك يمثل إعلانا عن خيبتها لأن بيجن المتطرف ، وليس هى ، هو الذى عقد سلاما طويل الأمد مع اكبر دولة عربية.

إن السادات تجرأ حينما ضعفت همم الآخرين ، تجرأ كى يحير كل مستشاريه وأصدقائه المقربين بالإنطلاق الى القدس . . وفى سنوات حياته المبكرة تجرأ ليقاوم السلطات ، تجرأ لكى يخدعهم فى سنوات سجنه الطويل ، تجرأ لكى يتحدى الاتحاد السوفيتى ، تجرأ لكى يخدع الاسرائيليين ويدفع بالهجوم لعبور قناة السويس . .

وفى الوقت الذى وقف فيه كل العالم العربى مذعورا ومتشككا ، تجرأ السادات لصنع سلام مع دولة إسرائيل اليهودية .. واليوم يعتبر أنور السادات بطلا فى العالم الغربى وبين المفكرين العرب وفى القدس ، وتزداد مكانته كل يوم عن سابقه . . وتقدم رسالته السلمية واتفاقه على أنها مناسبة وسد سدة . . ورغم العوائق والمآسى سوف يظل اسم السادات يذكر كرجل أسطورة . وفى أكتوبر ١٩٨١ لم يحاول الإرهابيون المتطرفون العرب أن يقتلوا السادات فقط ، بل حاولوا قتل أفكاره وماكان ينشده .

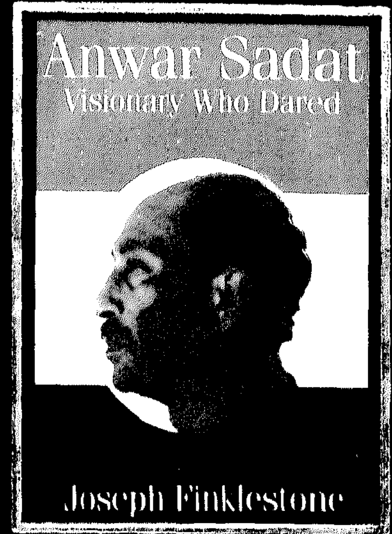
وحينما سقط إسحاق رابين - رئيس الوزراء الاسرائيلى الشجاع وذو النظرة الثاقبة - قتيلا فى نهاية احتفالية سلمية كبيرة فى تل أبيب فى ليلة ٤ من نوفمبر ١٩٩٥ ، لاحظ المراقبون فى الشرق الأوسط مدى التشابه بين هذا الموت المأساوى واغتيال الرئيس المصرى أنور السادات . . فكلاهما كان ضحية للمتعصبين الدينيين قساة القلوب ، الذين أرادوا أن يدمروا السلام بين العرب والإسرائيليين ، وأن كليهما توصل إلى قرار بعدما لاقى عناء التفكير المضنى بأن التنازلات يجب أن تتم من أجل السلام ، وأن كليهما سقط قتيلا فى تلك اللحظة التى بدأ يتذوق فيها ثمار مسعاه الصعب والمؤلم ، وأن كليهما تم تحذيره من أن هناك أشخاصا يحاولون قتله ، لكنهما لم يتخذا الاحتياطات المناسبة .

إن يهوديا قتل رئيس الوزراء اليهودى ، ومصريا قتل الرئيس المصرى ، لكن المغتالين كانا لديهم نفس النوع من الكراهية وحقد القلوب ، رغم أن أهدافهما - باستثناء رغبتهما فى قتل السلام - كانت مختلفة ، تلك الكراهية التى حارب كل من السادات ورابين لهزيمتها ، آملين فى أن يحل محلها عصر من التفاهم والإرادة الطيبة . وفى مرات عديدة، تحدث إسحاق رابين بإعجاب عن تصوره لشجاعة أنور السادات فى كسر التابو (الشىء الممنوع) والتمهيد لطريق السلام بين العرب واليهود ، ومن ثم كان أنور السادات بالنسبة لرابين البطل العظيم الذى فتح طرقاً جديدة للتفاهم .

وهكذا سيظل اسما السادات ورابين مرتبطين بمرحلة جديدة من الانفراج فى الشرق الأوسط وفى العلاقات الاسرائيلية - العربية ، ولن يتم السماح لحملة المدافع والقنابل - المدفوعين بالتعصب الدينى - بتدمير رسالتهم ، بل إن تهديدهم سوف يبقى محاطا بالحذر الدائم .

جوزيف فينكليستون

فهرس الموضوعات



المؤلف والكتاب

المؤلف : چوزيف فينكليستون

يهودى الديانة ، إسرائيلى الجنسية ، يعمل صحفى فى جريدتى الخبر ومعاريف اليهودية بلندن ، وخبير بمركز دراسات الشرق الأوسط التابع لجامعة أكسفورد البريطانية .

الكتاب

هو أول كتاب يكتبه يهودى عن رئيس جمهورية مصرى بحياد تام فى عرضة لنقاط القوة والضعف فى حياة السادات الشخصية والعسكرية والسياسية فيعرضها على النحو التالى :

القرية / علاقة السادات بالضباط الاحرار/ الخدعة مع خصومه/ علاقة السادات بعبد الناصر والإخوان المسلمين / سنوات فى السجن / مقابلتة مع جيهان / الصراع بين ناصر والسادات/ تأثير العلاقة الشخصية بين ناصر وعامر على السادات/ الطريق إلى النكسة / السادات الرئيس المفاجئ / السادات وثورة التصحيح / حرب أكتوبر الخدعة الكبرى / طرد السوفيت من مصر / انفجار أكتوبر / كيسنجر يدخل المشهد وكيـ ه السادات؟/ الطريق إلى القدس / الخطوات م / علاقة السادات بعرفات ومنظمة التحرير الفلسط ل فى القدس ووغد فى سوريا / المساومة من أجل ب ديفيد الغضب والدموع / الطريق إلى المأسا وم الاحتفال بالنصر.

